مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للّه رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، علَّم القرآن ، خلق الإنسان ، علّمه البيان. والصلاة والسلام على سيد الخلق ، وحبيب الحق ، سيد المربين ، وإمام المعلمين ،والمبعوث رحمةً للعالمين .

وبعد ... فلهذا الكتاب قصة ، بدأت حينما دُعيت لتولي الخطابة والتدريس في جامع جدّي العارف باللّه الشيخ عبد الغني النابلسي(١) ، قبل عشرين عاماً . وقد تهيّبت ــ في حينه ــ قبول هذا العمل الجليل ، لظني أني لا أملك كلَّ مؤهلاته ، ولكنّي ــ في الوقت نفسه ــ رأيت أن شرفاً عظيماً ، ومغنماً كبيراً ، ومطمحاً بعيداً يناله عبدٌ مفتقر ، لفضل اللّه حين يأذن اللّه له في الدعوة إليه ، ثم يوفقه فيها .

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾

(سورة فصلت) .

وكم كنت حريصاً حرصاً لا حدود له ، على أن أنزّه الدعوة عن كل مأخذ يجرحها أو يُسقطها ، فالذي يُدعى إلى اللّه بمضمون سطحي غير متماسك ، مفتقر إلى الدليل النقلي والعقلي ، والفطري ، والواقعي ، وبأسلوب غير علمي ، وغير تربوي ، أو يُدعى بمضمون عميق ثم لا يرى المدعو المصداقية في سلوك الداعي .

هذا المدعو بهذا المضمون ، وبتلك الطريقة ، وبهذه الازدواجية ، لا يُعدُّ مبلَّغاً عند اللّه ويقع إثمٌ تفلّته من منهج اللّه ، على من دعاه بهذا الهبوط ، لذلك يتحمل الدعاة إلى اللّه أعظم المسؤليات ، وأكبر التبعات .

يقول الإمام الغزالي ، رحمه اللّه : " **لأن يرتكب العوام الكبائر أهون من أن يقولوا على اللّه ما لا يعلمون** " .



ويقول الشافعي ، رحمه اللّه : " **لأن أرتزق بالرقص أهون من أن أرتزق بالدين** " .

وقد جعلت من القواعد المستنبطة من الكتاب والسنة ، منهجاً في الدعوة : التعريف بالآمر قبل الأمر ، والأصول قبل الفروع ، والقدوة قبل الدعوة ، والإحسان قبل البيان والترغيب قبل الترهيب ، والتيسير لا التعسير ، والتفهيم لا التلقين ، والتربية لا التَعرية والتدرج لا الطفرة ، والمتفق عليه لا المُختلف عليه ، ومخاطبة العقل والقلب معاً ، واعتماد الدليل والتعليل ، والتركيز على المبادئ لا على الأشخاص ، وعلى المَضامين لا العناوين .

وانطلاقاً من الحقيقة الثابتة وهي أن النبي صلى اللّه عليه وسلم معصومٌ بمفرده ، بينما أمته معصومةٌ بمجموعها ، كنت أتمنى على الدعاة ، أن يتّبعوا لا أن يبتدعوا ، وأن يتعاونوا لا أن يتنافسوا ، وأن يعترف كلّ لأخيه بالفضل ، لا أن يُنكر عليه ، فالدعاة إلى اللّه يكمّل بعضهم بعضاً ، ويغطي كلّ منهم شريحة من شرائح المجتمع ، ولا تثريب عليهم إذا اتفقوا في الأصول ، أن تتعدد وجهات نظرهم في الفروع والأساليب ، عليهم أن يتعاونوا فيما اتفقوا ويعذر بعضهم بعضاً فيما اختلفوا .

* * *

والدعوة إلى اللّه تأخذ عادة منحيين اثنين ؛ دعوة عن طريق تأليف القلوب ، وهذه أعمق أثراً. ودعوة عن طريق تأليف الكتب ، وهذه أطول أمداً ؛ دعوة بالمشافهة ، ودعوة بالمراسلة .

وبما أن النفس توّاقة إلى مزيد من فضل اللّه تعالى ، فقد رغبت أن أدلي بدلوٍ في المَنحى الثاني ، منحى التأليف ، ففي الحديث الصحيح : " **إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ؛ صدقةٌ جارية ، وعلم ينتفع بهِ ، وولدٌ صالحٌ يدعو له** " .

وسميت هذا المؤلف المتواضع " **نظرات في الإسلام** " ، لأني إن أصبت في النظر فمن فضل اللّه وتوفيقه ، وإن لم أصب فمن تقصيري ، فما الكتاب إلا نظرات ليس غير.

ومع أن الكمال لله وحده ، فقد حرصت على أن يَسْلَم الكتاب من الهنات والزلاّت ومع هذا لست راضياً عنه كلّ الرضى ، فالإنسان في تطوّر مستمر .

وأنا أدعو الإخوة القرّاء أن يقدموا لي أثمن هدية ، وهي الملاحظات القيمة ، والنقد الموضوعي البناء ، فقد قال سيدنا عمر ، رضي اللّه عنه : " **أحب ما أهدى إلي أصحابي عيوبي** " ، **علماً بأنه ما من أحد أصغر من أن ينقُد ، وما من أحدٍ أكبر من أن يُنقَد ، إلا صاحب القبّة الخضراء صلى اللّه عليه وسلم** " ، وليس الذي يقبل النصيحة المخلصة بأقل أجراً من الذي يُسديها تقرباً إلى اللّه . فالدين النصيحة .

ولا يسعني في نهاية المَطاف إلى أن أدعو وأقول :



جزى اللّه عنا سيدنا محمداً صلى اللّه عليه وسلم ، الذي أرسله اللّه رحمةً للعالمين بشيراً ونذيراً ، خيراً ما جزى نبياً عن أمته .

وجزى اللّه عنا صحابته الكرام ، وأهل بيته ، الطيبين الطاهرين، والهادين المهدين أمناء دعوته ، وقادة ألويته ، ما هم أهله .

وجزى اللّه والدينا ، ومشايخنا ، ومن علّمنا ، ومن له حقٌ علينا، خير الجزاء .

ولا يسعني أيضاً إلا أن أشكر كل الذين ساهموا في إخراج هذا الكتاب ، في كل مراحله ، فهم شركاء في الفضل والأجر .

دمشق 9 / 9 / 1994 م

محمد راتب النابلسي

أستاذ محاضر في كلية التربية جامعة دمشق

خطيب مسجد الشيخ عبد الغني النابلسي

مدرس ديني في مساجد دمشق

---

(1) الشيخ عبد الغني النابلسي ، علم من أعلام الأمة ، كان له تأثير كبير في عصره ، وفي العصور التالية ، فهو العالم الموسوعي ، المتعدد الجوانب ، الغزير المواهب ، بَرَعَ في علم الحقيقة ، والطريقة ، وفي معقول الشريعة ومنقولها ، وعلم الحديث ، روايةً ودرايةً ، وكان فقيهاً متبحِّراً ، غوّاصاً في المسائل ، خبيراً بطرائق الاستدلال درَّس التفسير وروى فيه الآثار ، وكان رحَّالاً ومؤرِّخاً ، وأديباً وشاعراً ، ومتقناً لبعض العلوم الكونية .

أوتي مقدرة عجيبة في التأليف ، من حيث التنّوع ، والنوعية ، والكثرة ، ترك مصنَّفات كثيرة ، ونافعة ومتداولة في العقائد ، وفي التصوّف ، وفي الحديث ، وفي الفقه ، وفي الرحلات ، وفي تفسير الأحلام ، وفي الشعر الوجداني ، تربو عن مئتين وثلاثين مؤلَّفاً ، في المكتبة الظاهرية منها مئة وثمانون .

ارتضاه العلماء في عصره ، وتتلمذوا على يديه ، واستفتوه في المعضلات ، فكان عندهم صادقاً مع الله قولاً وعملاً وحالاً .

كان يحب الصالحين ، وطلبة العلم ، ويكرمهم ، معرضاً عن الشهوات ، لا يسعده إلا نشر العلم وكتابته ، رَحْب الصدر ، كثير السَخاء ، أقبل الناس عليه وأحبّوه ، ورأى من العزّ ، والجاه ، ورفعة القَدر ، ما لا يوصف ، متَّعه الله بقوَّته ، وعقله ، وسمعه وبصره ، حتى نهاية عمره ، فكان يصلي التراويح بالناس إماماً ، ويقرأ الخط الدقيق ويلبس الملابس الحسنة ، وهو في التسعين من عمره ، وكان ورعاً ، شديد الصبر على من يؤذيه ، وكان مصون اللسان عن اللغو ، لا يخوض فيما لا يعنيه ، ولا يحقد على أحد ، قضى حياته كلّها إماماً ، متعبِّداً ، ومدرِّساً ومؤلّفاً ، لذلك يُعَدّ الرجل الأول في عصره ، وما زال تأثيره مستمراً حتى عصرنا الحاضر

من كتاب " التصوف الإسلامي في عصر النابلسي " تأليف عبد القادر أحمد عطا ، دار الجيل ، بيروت ط : 1987م ، ص : 77 وما بعدها .



الباب الأول: العقائد





01- الغلو في الدين

هذا الدرس من نوع جديد ، يتعلق بخطر شديد ، له تأثير سلبي في المؤمنين ، هذا الخطر الشديد هو الغلو في الدين ، ويُستقَى هذا الموضوع من قول الله عز وجل :

يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِى دِينِكُمۡ

نهي !

وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ

(سورة النساء)

وهذا الموضوع أيضاً مستقى من آية أخرى ، يقول الله عز وجل :

قُلۡ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِى دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٍ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾

(سورة المائدة)

آية أخرى تنهانا عن الغلو في الدين ، كما أن التفريط مهلك ، والإفراط مهلك ، والتسيب ، والتحلل ، والخروج من أوامر الشرع ، والتفلت من قيود هذا الدين العظيم مهلك ، والغلو في الدين أيضاً مهلك .

فالله عز وجل في آيات كثيرة جداً نهانا عن المعصية ، و عن التقصير ، والكسل وحب الدنيا ، لكن في آيات أخرى نهانا عن الغلو في الدين ، معنى ذلك كما يقولون : الإسلام وسطي – أي يبتعد عن التطرف ، لا إلى اليمين ، ولا إلى اليسار ، لا إلى جهة الإفراط ، ولا إلى جهة التفريط ، الإيمان وسطي ، يعتمد على التوازن بين جوانب الإنسان ، الإنسان له جانب جسمي ، فالعناية بالجسم ، والعناية بالصحة ، والانتباه لما يدخل في الفم هذا من الدين ، فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : **((يَا عَبْدَ اللَّهِ أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ النَّهَارَ ، وَتَقُومُ اللَّيْلَ ؟ قُلْتُ : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : فَلَا تَفْعَلْ ، صُمْ ، وَأَفْطِرْ ، وَقُمْ ، وَنَمْ ، فَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ...))** .

(صحيح البخاري)

لأن جسدك يحمل نفسك ، وهذا الجسد ، وهذه النفس تعيش في الدنيا لمهمة خطيرة ، فأساس الدين التوازن من الناحية الجسمية ، والعقلية ،والنفسية ، فكما أن العقل غذاؤه العلم ، فالقلب غذاؤه الحب ،



إنسان لا يشعر بحاجة إلى أن يكون محبوباً ! ولا يشعر بحاجة إلى أن يحب الله عز وجل ! فهو إنسان لا ينتمي إلى جنس البشرِ ، فلا بد من التوازن بين مطالب الجسم ، ومطالب الروح ، والعقل ، ولابد من التوازن بين كليات الدين ، الدين فيه كليات ، أبرزها الناحية العلمية ، لأنك إذا أردت الله عز وجل فيجب أن تتعلم ، لأنّ العلم طريق إلى الله عز وجل ، بل هو الطريق الوحيد إلى الله .

إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم ، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم ، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم ، بالعلم تعرف الله عز وجل ، وإذا عرفته طبقت أمره ، وإذا طبقت أمره سعدت في الدنيا والآخرة .

أحياناً أميل للكليات ، الدين كله معرفة ، وسلوك ، وسعادة ، جانب معرفي ، وجانب عقلاني ، وجانب عملي ، وجانب عاطفي ، فأنت بحاجة لأن تكون سعيداً ، لذلك تتمرن بالقلق ، والضياع ، والتشتت ،والشعور باليأس ، والسوداوية ، والخنوع ، والخمول ، هذه كلها مشاعر مَرَضية تأتي من الشرك ، والمعصية .

العوام أحياناً لهم كلمات لطيفة ، الإنسان يجب أن يكون حكيمَ نفسه ، القصد في الطعام والشراب ، هذه الأكلة لا تناسبك فدَعْهَا ، أما المعنى الأعمق عندما تستقيم ألاَ تشعر براحة نفسية ؟ عندما تمشي على المنهج الصحيح ألاَ تشعر بطمأنينة ؟ ألا تشعر بحب الله عز وجل ؟ هذا الشعور تضحي به بسهولة من أجل معصية ، ولذَّةٍ سريعةٍ ؟ .

ألا رب شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً ، ورب أكلة منعت أكلات ، ألا رب نفس طاعمة ناعمة في الدنيا ، جائعة عارية يوم القيامة .

فأنت يجب بعد فترة من الوقت تصبح حكيمَ نفسك ، تشعر متى تسعد ؟ تسعد إذا صليت الصلوات في أوقاتها ، وإذا أتقنت هذه الصلوات ، وإذا كان غض بصرك حازماً ، وإذا كان لسانك منضبطاً ، وإذا كان دخلك حلالاً ، وإذا كان الإنفاق حلالاً .

موضوع الجوارح ، واستقامة العين ، والأذن ، واللسان ، واليد ، واستقامته في مهنته ، ودخله ، وإنفاقه ، وزواجه ، وعلاقته ببناته ، وجيرانه ، وعمله .... فعندما تكون مستقيمًا ألاَ تجد الفرق واضحًا جداً ؟ الثمرة يانعة تقطفها ، وتسعد بها ، فَعَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : **((ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا))** .

(صحيح مسلم)

هل ذقت طعم الإيمان ؟ لا تظنوا أيها الإخوة أن الإيمان قناعات فقط .

حدثني رجل : طبيب ألقى محاضرة في مضار التدخين ، وأطلعهم على فيلم وثائقي لسرطان الرئة ، لدرجة أن الحاضرين كادوا يتمزقون خوفاً من أن يدخنوا ، وبعد أن انتهت المحاضرة أشعل سيجارة ، وقال : من له سؤال ! هذا الطبيب عنده قناعات عالية جداً ، لكنّ القناعات لا تكفي .



والنبي قال : **ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَان .**

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ

(سورة الفتح)

فالذي يثبتك في الدين هذا التجلي لله عز وجل ، لا يوجد أحد منكم قام للصلاة فبكي ، وقال : لا أنسى هذه الصلاة ، شعرت بسعادة لا توصف ، فالذي يثبت الإنسان فضلاً عن قناعاته ، وعن منطلقاته الفكرية الذي يثبته سعادته ، فأنت بحاجة لجسد قوي ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : **((الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ......))** .

(صحيح مسلم)

لا أكتمكم أبداً أن أثمن نعمة بعد الهدى هي الصحة ، من موضوع الصحة أضطر لأدخل في بموضوع دقيق يغيب عن معظم الناس .

ربنا عز وجل وضع لهذا الجسد قوانين وقواعد ، هل تدري أنه من طاعة الله تعالى أن تتأدب مع هذه القوانين ؟ إذا كنت معظِّماً لله فهذه قوانينه ، والمؤمن يحترم قوانين الله عز وجل ، فكل إنسان يهمل صحته يقول : أنا يحبني الله ، أنا متوكل على الله ، كل وسمِّ الله ، لا يضر مع اسمه شيء ، إذا كان علاقتك بجسدك علاقة ليست علمية ، بل علاقة جهل فعلى الإنسان أن يستعد لمتاعب لا حصر لها ، لذلك أنا أقول لكم ، وأعني ما أقول : العناية البالغة بالجسد جزء من الدين ، ومعنى العناية هذا الجسد آلة بالغة التعقيد ، صممته يا ربّ تصميمًا عاليًا جداً ، فالعناية بالجسد من حيث اتباعُ القوانين يعني أنك تطيع الله عز وجل ، فنحن لا نقول : إن العناية بالصحة تطيل العمر هذا كلام الغربيين .

أقول لكم : العمر عمر ، والأجل أجل ، لكن هذه السنوات القليلة التي سمح لك الله أن تعيشها ، فبين أن تعيشها مريضًا ، وبين أن تعيشها صحيحًا، إنسان ملازمٌ للفراش ثلاثين سنة ، مات بأجله ، لم ينقص من أجله ولا ساعة ، بل ولا ثانية ، لكن الفرقَ بيِّنٌ بَيْنَ إنسان متَّعه الله بالصحة والقوة ، فحركته نشيطة ، ورأس مالك صحتك ، وبيْن إنسانٍ ابتلاه الله طول حياته بمرض عضال .

فهذه النقطة دقيقة جداً ، دعوا في أذهانكم هذه الحقيقة : أُولى النعم التي تفضل الله بها عليك الهدى ، ثم الصحة ، ثم الكفاية ، فإذا عرفت الله عز وجل ، وكنت لا تشكو شيئاً ، وذا كفاية فقد حزت الدنيا بحذافيرها .



الإسلام وسطي ، فقد وازن بين مطالب الجسد ، وبين م طالب النفس ، وبين مطالب العقل ، فالعقل غذاؤه العلم ، والقلب والنفس غذاؤهما الحب والقيم ، والجسد غذاؤه الطعام والشراب ، فالدين كما قلت قبل قليل له كليات ، القسم العلمي المعرفي ، طلبُ العلم العقيدة الصحيحة أن تؤمن بالله خالقاً ، ومربياً ، ومسيراً ، وموجوداً ، وواحداً ، كاملاً ، وصفات قدرته وكماله لا حدَّ لها ، أن تؤمن بأنبيائه ، وبكتبه ، وباليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره من الله تعالى ، هذه كليات أن تتعرف إلى أحكام الفقه المتعلقة بحياتك ، فأنت كزوج ، أو كزوجة ، أو كتاجر ، أو كموظف ، أو كمحامٍ ، أو كمدرِّس يجب أن تعرف الأحكام الفقهية المتعلقة بحياتك الشخصية ، وبحياتك المهنية .

الكلية الثانية في الدين إضافة إلى هذه العقيدة الصحيحة ، وهذا الإيمان المبني على دليل ، وهذا البحث الدقيق ، إضافة إلى الناحية العلمية لابد من ناحية سلوكية ، لا تنسوا هذه المقولة : علم بلا عمل جنون ، وعمل بلا علم لا يكون .

عمل راقٍ من دون علم بالله مستحيل لا يكون ، وعلم بلا عمل جنون ، والله عز وجل في أكثر من مائتي آية في القرآن قَرَنَ الإيمان بالعمل الصالح .

فالكلية الأولى طابعها علمي ، الكلية الثانية عملية ، سلوك ضبط لسان ، والسلوك نوعان ؛ سلوك سلبي ، ضبطت لساني ، وجوارحي ، وعيني ، وأذني ، وقدماي تحركت إلى المساجد ، وإلى طاعة الله عز وجل ، والشيء الإيجابي البذل في العمل ، الاستقامة طابعها سلبي ، والعمل الصالح طابعه إيجابي ، الاستقامة تمهيد الطريق إلى الله عز وجل ، والعمل الصالح حركة على هذا الطريق ، هذه الناحية العملية ، الناحية الثالثة : الناحية الانفعالية ، أنت غير جسمك ، وغير عقلك ، لك قلب ، وهذا القلب تنتابه مشاعر ، أحياناً تجد نفسك مرتاحًا ، أو منزعجًا ، أو تجد قلبك مقبوضًا ، أو تشعر بضيق ، أو تشعر بملل ، هذه المشاعر يجب أن تنتبه إليها ، فالمشاعر لها أثر كبير في السلوك ، فإذا كانت هناك مشاعر مثبّطة ، فتجد نفسَك قد بَرَكَتْ ، وإذا كان ثمة مشاعر محركة تتحرك ، يمكن أن تكون المشاعر من نوع المحرك ، بعض الصوفيين يسمونه حالاً ، الله سماه السكينة ، الصحابي الجليل سيدنا حنظلة قال ماذا قال ، عَنْ حَنْظَلَةَ الْأُسَيِّدِيِّ قَالَ : لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ ، فَقَالَ : كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ ؟ قَالَ : قُلْتُ : نَافَقَ حَنْظَلَةُ ، قَالَ : سُبْحَانَ اللَّهِ ! مَا تَقُولُ ؟ قَالَ : قُلْتُ : نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ ، حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَافَسْنَا الْ أَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ : فَوَ اللَّهِ ، إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا ، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قُلْتُ : نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : وَمَا ذَاكَ ؟ قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ ، فَإِذَا



خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : **وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمْ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ ، وَفِي طُرُقِكُمْ ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ))** .

(رواه مسلم)

أليس لك مشاعر متألقة ؟ ألا تشعر بعد عمل صالح ، وبعد أداء الصلوات ، وبعد خدمة إنسان ، ومجلس علم ، ودعوة إلى الله ، ألا تشعر بسعادة ، وكأنك تملك الدنيا ؟ فأنت حكيم نفسك ، يجب أن ترعى الناحية العقلية ، وتعتني بإيمانك ، وبتصوراتك الصحيحة ، وبقناعاتك ، والناحية السلوكية ، والناحية الانفعالية .

أنا كنت أقول دائماً : الإيمان مرتبة علمية ، ما اتخذ الله ولياً جاهلاً ، ومرتبة سلوكية ، المؤمن أخلاقي ، ومنضبط ، وهناك منظومة قيم ، تضبط سلوكه ، وليس متروكًا على هواه ومزاجه ، أنا لا يحلو لي إلا أن أقول عن الإنسان الكافر الفاجر : دابة متفلّتة ، يرفس ، تحسن له فيسيء ، يأخذ ماله ، وما ليس له ، كالبهيمة ، أما المؤمن فتضبطه آلاف المشاعر ، والكلية الثالثة : الحال ، الآن عنوان الدرس الغلو في الدين ، فما الغلو في الدين ؟ أن تأخذ كلية من كليات الدين ، فتجعلها الدين كله ! أن تعتقد أن الدين فقط مطالعة ، وتأليف ، ومعلومات دقيقة ، وأفكار ، فتجده متفوقًا جداً في العلم ، لكن قلبه متصحر ، العقل من ذهب ، والقلب من حديد ، نريد العقل والقلب من ذهب ، فإذا كان العقل ذهبًا ، والقلب ذهبًا فلا بأس ، لكن بشرط أن يكون ذهبًا خالصًا ، ليس العقل ذهبًا ، والقلب حديدًا صدئًا .

وقد ورد في الأثر : **إن القلوب لتصدأ ، قيل : وما جلاؤها ؟ قال : ذكر الله .**

فذكر الله عز وجل يطمئن القلب ، قال الله عز وجل :

وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾

(سورة طه)

وآية ثانية قال :

أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ



(سورة الرعد)

فأنت إذا بحثت عن سعادتك النفسية وجدتَها في الصلاة ، وفي الذكر ، وفي تلاوة القرآن ، والتسبيح ، والحمد ، والاستغفار ، هذا جانب من جوانب الدين .



فأول جانب في الدين الجانب العلمي ، والجا نب الثاني هو الجانب الانفعالي الشعوري ، والثالث سلوكي ، الغلو : أنْ تأخذ أحد الجوانب فتجعله الدين كله .

بعضهم يرى أن صفاء القلب هو الدين كله ، لذلك معلوماته الفقهية ضعيفة جداً ، وفيها يرتكب أخطاء كبيرة ، وليس معه دليل ، لكن يشعر بالصفاء ، فهذا غلو في الدين ، والذي اعتنى بمعلوماته ، وبالأفكار ، والدراسات صار طليق اللسان ، لكن في قلبه صدأ ، وفي عمله كسل ، هذا غلو في الدين ، أن تحل كُلِّية من كليات الدين محل الدين كله ، فما قولكم بمن يأخذ فرعاً من فروع الدين ويجعله الدين كله ؟ هذا أشد أنواع الغلو ، أن تأخذ كلية من كليات الدين ، وتجعلها الدين كله ، هذا غلو لا شك فيه ، أما أن تأخذ فرعاً صغيراً من فروع الدين ، وتجعله الدين كله فهذا غلو ، وأيُّ غلو ، نحن مطلوب منا التوازن ، عندما ترجح جانبًا على جانب ، وتضخم جانبًا ، وتصغر جانبًا فقد وقعت في الغلو ، وأنت لا تدر ي ، لذلك أجمل كلمة قالها بعض العلماء السابقين : كان التصوف مسمى بلا اسم في عهد رسول الله ، التصوف يعني معرفة ، ومحبة ، وذكر لله ، ورياضة للنفس ، فالصحابة الكرام كانوا في أعلى درجات التصوف ، لكن لم يكن اسمهم صوفيين ، بل أصحاب رسول الله ، كانوا في القرآن مؤم نين ، ثم أصبح التصوف اسماً بلا مسمى ، وبلا مضمون ، نحن نريد المضمون .

الغلو معناه مجاوزة الحد ، ما هو الحد ؟ هو النص الشرعي ، لماذا ؟ لأنك عبد جاءك خطاب من الله عز وجل ، مِن خالق الكون ، والله عز وجل قال :

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ

(سورة الأحزاب)

إذا ملكتَ آلة غالية الثمن ، أو كان دخلها كبيرًا ، وهناك أجهزة تدرُّ أرباحًا طائلة ، إذا كان جهاز كومبيوتر لتحليل الدم ، كل كبسة زر بألف ليرة ، سبعة وعشرون تحليلاً تظهر على الشاشة ، وبزرٍّ آخر يطبعون على ورقة ، واللهِ أمرٌ سهلٌ ، يقف في عيادتك خمسين شخصًا ينتظرون ، وكل زبون أخذت له نقطة دم ، وحلَّلتها ، وبزرٍّ واحدٍ إذا ثمانية وعشرون تحليلاً يظهر ، فإذا كان الجهاز من هذا النوع غاليًا جداً ، ودخله كبير جداً ، ألست حريصًا على سلامته ، وصيانته ، وحريصًا على أن يعطيك أعلى مردود بأقلِّ جهد ؟ طبعاً ، لذلك إذا كان الجهاز غاليًا عليك ، ودخله كبير ، فأنت حريصٌ حرصًا بالغًا على سلامته ، فتجد كلما اشترى الإنسان شيئاً جديداً ، آلة حديثة ، فأوّلُ شيء يطلبه (الكتالوج) نشرة التصنيع ، أرجو أنْ تترجموه ، ترجموه ، يخاف أن يستعمله بالخطأ ، لماذا عندك حرص شديد ؟ لأن الآلة غالية



عليك ، وصعب أن تعوِّضها ، وإذا تَلِفَتْ صَعُبَ تصليحها ، لا أحد يفهم في إصلاحها ، سيخربونها ، لا يوجد مهندسون يفهمون ، والكل يجرِّب ، يقول : أريد تطبيق الوكالة ، سأعتني باستعمالها ، أنت أغلى من الآلة بمليون مرة ، فإذا شعرت بقيمتك قالوا : مَن عرف نفسه عرف ربه ، إذا كانت لك نفس يمكن أن تُسحق هذه النفس ، ويمكن أن تتعذب ، درسنا في الجامعة في الصحة النفسية مرضًا اسمه الهستريا ، كل الناس يقولون : فلان مهستر ، هذه لها استعمال عامي ، مجنون ، أو نصف مجنون ، الهيستريا ليس له علاقة بالجنون إطلاقاً ، شلل عضوي لأسباب نفسية .

نضرب بعض الأمثلة : إنسان اعتدى على فتاة في بيت أبيها ، كان مريضًا ، وهو يقدم خدمات لأبيها ، شعر بوخز الضمير ، أدى الأمر به إلى شلل في يده ، المرض دقيق ؛ تعريفه : شلل عضوي ، ليس له أسباب عضوية ، الأعصاب ممتازة ، والتروية جيدة ، كل ما يتعلق با لعضو مائة بالمائة ، لكن هناك شلل أسبابه الشعور بالذنب ، عقدة الذنب ، وخز الضمير ، هذه هي فطرة ، فأنت لما تسير على الصراط المستقيم تشعر براحة ، وهي ثمينة جداً ، وهذه الراحة في بعض البلاد مفقودة ، يقول : نسب الانتحار عالية جداً ، لماذا ؟ بسبب الشعور بالكآبة ، المرض الخطير في العالم مرضُ الكآبة ، وكل شيء عنده ، و مع ذلك تنتابه كآبة ، وفي بلدنا يوجد منه ، تجد المال متوافرًا ، ثلاث سيارات تقف على الباب ، للزوجة سيارة ، ولكل ابن سيارة ، وله سيارة ، وبيت في المصيف ، وعلى البحر بيت ، لماذا هو حزين إذاً ؟ انقباض نفسهِ تحاسبه ، لو لم تتلقَ علمًا ، لو لم تدرس ديناً ، لو لم تسمع خطبًا ففطرتك عالية ، عندما تخرج عن فطرتك تشعر بوخز الضمير ، تسميه شعور بالكآبة ، أحياناً إلى انفصام شخصية أسبابه الوخز ، واللوم الداخلي الشديد ، فيهمنا الصحة النفسية ، وسلامة النفس ، والجسد ، والعقل ، واسمع إلى ما قاله الله عز وجل :

فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾

(سورة طه)

لا يضل عقله ، ولا تشقى نفسه ، هدى الله عز وجل غذاء للعقول ، بالتعبيرات الدارجة المؤمن شيء كبير ، هل هو شخص عادي ؟ هو أمة ، وحقق الهدف من وجوده ، المؤمن إنسان عرف نفسه فعرف ربه ، عرف مهمته في الحياة ، يمشي على بصيرة .

قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ

(سورة يوسف)



يمشي على منهج ، على دستور .

فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴿١٢٣﴾

(سورة طه)

الآية الثانية :

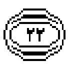
فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا

خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٨﴾

(سورة البقرة)

شعور الندم يفوق كل شعور ، وأصحاب الجنة الذي حدثنا الله عز وجل عنهم قال :

فَتَنَادَوۡاْ مُصۡبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰرِمِينَ



(سورة القلم)

وحدثنا الله عن هؤلاء كيف أرادوا أن يمنعوا حق الفقير .

فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾

فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾

(سورة القلم)

في اليوم الثاني انطلقوا إلى بساتينهم ليقطفوا ثمارها .

فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾

هذا ليس بستاننا ، البارحة تركنا بساتيننا مليئة بالخير ، فأين الأشجار ؟ لا شجر ، ولا ثمر ؟ ثم تأكدوا أن هذه بساتينهم ، قال تعالى :



بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾

قال تعالى :

كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ

شعور الندم شعور صعب جداً ، الإنسان أحياناً يخسر ، وصفقة الخسارة مؤلمة جداً ، يقول : سنتان تعبنا فيهما ، واستوردنا شحنا ، وبعنا ، واستقرضنا ، ثم لم نحصّل ثمن البضاعة ، خسرنا مليونين ، كثير من الناس ممّن اشترى مركبات ، ثم انخفض سعرها ، بعض المكاتب قال : خسرت في شهر أربعة ملايين ! الخسارة مؤلمة جداً ، لا يعرفها إلا مَن ذاقها ، إذا سألت تاجرًا على الخسارة تخرج منه شهقة من أعماق أعماق قلبه ، قد يخسر الإنسان مالاً ، لكنه يتعوض فيما بعد ، وكثير من التجار أعلنوا إفلاسهم مرتين ، وثلاثًا ، ثم عادوا ،اصبحوا مِن أصحاب الملايين ، أما الآخرة فالخسارة أبدية ، ولا يعقبها ربح ، إنها خسارة محققة .

قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴿١٠٤﴾

(سورة الكهف)

الغلو مجاوزة الحد ، والحد هو النص الشرعي ، كلام الله ، وما صح من كلام رسول الله ، هذا النص الشرعي ينبغي أن تفهمه لا على مزاجك ، ينبغي أن تفهمه وفق قواعد علم الأصول ، ووفق قواعد اللغة العربية ، فالنص الشرعي القطعي الثبوت ؛ سواء كان قرآناً ، أو حديثاً صحيحاً ، يجب أن تفهمه وفق قواعد علم الأصول وقواعد اللغة العربية ، وإنّ مجاوزة هذا النص هو الغلو في الدين .

لذلك أكثر الغلاة في الدين رأيهم هو الأصل ، فالنص الذي يغطي غلوهم يتمسكون به ، ويرددونه ، ويسلطون عليه الأضواء ، والنص الذي ينقض غلوهم يهملونه ، فإذا ذُكِّروا به صرفوه إلى غير المعنى الذي أراده الله عز وجل ، فأن تختار من النصوص ما يروق لك ، وأن تكثر من ذكره ، وتسلط عليه الأضواء ، وتهمل نصاً آخر فهذا أيضاً غلو في الدين ، أن تأخذ شيئاً بلا دليل ، لأنه راق لك فهذا غلو في الدين ، أن ترفض شيئاً معه أقوى دليل لأنه لم يَرُقْ لك فهذا غلو في الدين .



شيء آخر في الغلو – الغلو في الدين أيها الإخوة نوعان : نوع خطر جداً ، وهو النوع الاعتقادي . عقيدة تخالف ما جاء في القرآن الكريم هذا غلو ، أو انحراف ، أو خروج عن قواعد الدين ، فأخطر شيء في حياة الإنسان أن يسأل نفسه هذا السؤال : هل تصوراتي صحيحة ؟ هل نظرتي صائبة ؟ هل رؤيتي صحيحة ؟ هل اعتقادي صحيح ؟ هل إيماني صحيح ؟ أما إذا وجد في إيماني جانب غير صحيح ، أو تصورٌ موهوم ، وإذا ضخمت ، أو قلّلت ، أو أغفلت ، أو خرجت فهذا كله غلو في الدين ، ولا تنسوا قوله تعالى :

يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ

وفي حديث صحيح عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَدَاةَ الْعَقَبَةِ وَهُوَ عَلَى نَاقَتِهِ : **((الْقُطْ لِي حَصًى فَلَقَطْتُ لَهُ سَبْعَ حَصَيَاتٍ ، هُنَّ حَصَى الْخَذْفِ ، فَجَعَلَ يَنْفُضُهُنَّ فِي كَفِّهِ ، وَيَقُولُ أَ مْثَالَ هَؤُلَاءِ فَارْمُوا ، ثُمَّ قَالَ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ))**
.

(سنن ابن ماجة)

الغلو الاعتقادي خطير ! من أبرز تعاريفه أن تأخذ فرعاً من فروع الدين ، وتكبره ، وتضخمه حتى تجعل منه الدين كله ، الآن لو تتبعت الفرق الإسلامية والجماعات ، فكلٌّ فرقة أو جماعة أخذت جانبًا صغيرًا ، وضخمته ، وجعلته هو الدين ، هذا هو الغلو ، والصواب في هذا التوازن ، والوسطية ، والاعتدال ، والحق دائماً وسطٌ بين طرفين .

الغلو الاعتقادي أيها الإخوة خطير ، لماذا ؟ لأن المغالي على خطأ ، وهو يظن أنه على صواب ، المغالي لا يتوب من غلوه ، إذا كان الغلو اعتقاديا فهو كما وصفه الواصفون : لا يدري ، ولا يدري أنه لا يدري ، فمِنَ الناس مَن يدري ، ويدري أنه يدري ، فهذا عالم فاتبعوه ، ومنهم من يدري ، ولا يدري أنه يدري ، فهذا غافل فنبهوه ، منهم من لا يدري ، ويدري أنه لا يدري ، فهذا جاهل فعلموه ، ومنهم من يدري ، ولا يدري أنه يدري ، فهذا شيطان فاحذروه ، فالذي لا يدري ، ولا يدري أنه يدري فهذا مُغالٍ في الدين ، أما الغلو العملي فهو أقل خطرًا .

أحياناً وسوسة في الوضوء ، فيعيده مرتين أو ثلاثًا ، وسوسة في الطهارة ، وسوسة في بعض الأفعال ، هذا غلو ، لكنه عملي سهل ، أما أخطر غلو في الدين فهو الغلو الاعتقادي ، تأخذ فرعًا ، وتضخمه ، أو تغفل كلية من كليات الدين ، أو تغفل جانبًا من جوانب الدين .



لو سألنا هذا السؤال : ما هي أسباب الغلو ؟ مَن يقترح سبباً وجيهاً لأسباب الغلو ؟ أشد الأسباب براءة الجهل ، يفعل الجاهل بنفسه ما لا يستطيع أن يفعله به عدوه ، الجهل علاجه العلم ، فلا طريق إلى الله إلا بالعلم ، الجهل أحد أَوْجَه الأسباب البريئة في الغلو ، فالجاهل يجب أن يتعلم ، لكن المشكلة أحياناً أن الإنسان جاهل ، لكن يظن أنه عالم ، فهذا يرفض أن يتعلم ، لذلك قالوا : تعلّموا قبل أن ترأسوا ، ف إن ترأستم فلن تعلّموا ، الجهل علاجه العلم .

سيدنا عمر بن عبد العزيز ناظر ألفين من الخوارج ، وفي مجلس واحد رجعوا عن خروجهم ، وعادوا إلى الصراط المستقيم ، فالإنسان إذا اعتراه الجهل ، وقاده إلى الغلو ، وإذا لم يصغِ إلى النصيحة ، يبقى جاهلاً ، ويموت جاهلاً متلبساً بغلوه .

غلو آخر أسبابه غير الجهل ، هو الهوى ، الإنسان أحياناً تكون عنده رغبة في شيء دنيوي ، فيجرُّ النصوص لصالحه ، في الإنسان انحراف ، وفيه هوى معين ، ومطمح معين ، وله دنيا معينة ، فتجده يجرُّ النصوص كلها لمصلحته ، هذا أيضاً غلو في الدين .

قال :

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً فارغاً فتمكـــــــنا

الإنسان لما يفتح أذنه لكل النوافذ يتلقى هواء نقيًا ، فالغلو أساسه الجهل ، أو الهوى وهناك غلو أساسه غلو الطرف الآخر ، لكنه قليل .

نحن كمؤمنين يجب أن نعرف أن في الدين كليات ؛ الكلية الأولى الناحية العلمية ، والكلية الثانية الناحية السلوكية ، والكلية الثالثة الناحية الانفعالية ، تسميها سكينة فهو اسم صحيح ، أو حال صحيح ، والحال كما تعرفون ثمرة من ثمار طاعة الله عز وجل ، أنا ذكرتُ لكم قصة مرتين أو ثلاثًا : أخ كريم على مشارف الزواج والدخول ، وله أخ غير متزوج ، وهو في أمسِّ الحاجة إلى الزواج ، والبيت موجود ، والمرأة مناسبة لهذا الأخ ، لكن هذا الأخ ليس في يديه شيء ، فماذا فعل ؟ حضر درسًا من دروسنا ، وكان محور الدرس : أن أعظم عمل يفعله الإنسان أن يُدخِل على قلب أخيه المؤمن سرورًا ، فهذا الأخ الكريم باع غرفة النوم ، وعرسه بعد عشرة أيام ، واشترى غرفتان متواضعتان ، وقام بصيانتهما ، ورتب بعض الأمور ، وزوج أخاه ، ثم يذكر هذا الأخ أنه انغمس في سعادة ما بعدها سعادة.

نقطة دقيقة : فرق كبير بين أن تقول : ألف مليون ، وبين أن تملكها ، فالحديث عن الحال سهل ، أما أن تكون صاحب حال فالقضية غير سهلة ، لن تكون صاحب حال إلا إذا كان لك عمل كالجبال .

العمل العظيم : التضحية والمؤاثرة ......



كان أحد الإخوة راكبًا سيارته ، قادمًا إلى الشام ، فقال : وجدت شخصًا واقفًا بمدينة دُمَّر ، معه امرأته ، ويحملان طفلاً ، وكأنهم غرباء عن هذه البلدة ، فتوقف وسألهم : أين تريدون أن أوصلكم ؟ وهذا في أثناء أحداث لبنان ، الرجل والزوجة والطفل حرارتهم مرتفعة فـأخذهم إلى طبيب مناوب في المشفى من أجل الإبر ، ثم اشترى الدواء ، وبعد أن قضى الخدمات حتى الساعة الرابعة صباحاً أقسمَ بالله أنه بقي أسبوعين يشعر بسعادة لا توصف ، فالحال مقياسه شيء ثمين جداً ، فقد يكون دعوة ، وقد يكون حالاً حقيقيًا ، الدعوة أن تتحدث عن الحال ، أما الحال الحقيقي أن تكون مستقيماً استقامة تامة ، وتضحي بشيء ثمين في سبيل الله عز وجل ، فأول ثمن أنْ يعود الله عليك بالتجلي ، وهذا ما تسميه الثواب .

فما معنى الثواب ؟ من فعل ثاب أي رجع ، إذا قدمت لله شيئًا عظيمًا يرجع عليك حال طيب ، فهذا الحال هو جانب من الدين ، والسلوك جانب ، والإيمان الصحيح جانب ، فثمّة ثلاثة جوانب ، فإقامة هذه الجوانب إقامة متوازنة هو الوضع الصحيح ، أن تأخذ جانبًا ، وتحله محل كل الجوانب فهذا غلو ، وأن تأخذ فرعاً ، وتضخمه لتحله محل الأصل ، فهذا أيضاً غلو في الدين .

بقي موضوع آخر سوف نعالجه فيما تبقى من الوقت : نحن والفضل لله عز وجل في صلاة الفجر يقرأ أخونا الكريم الإمام – جزاه الله عنا كل خير – في صلاة الفجر القرآن الكريم كله في عام ، ويقرأ إن شاء الله تعالى القرآن كله في رمضان ، وقد ورد فضل صلاة الصبح في المسجد جماعةً فضلٌ كبير ، فعَنْ جُنْدَبِ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : **((مَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ....)).**

(صحيح مسلم)

فما معنى في ذمة الله ؟ أي في حفظ الله .

وفي الأثر : **((ابن آدم لا تعجز عن ركعتين قبل الشمس أكْفِك النهار كله))**

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : **((لَيْسَ صَلَاةٌ أَثْقَلَ عَلَى الْمُنَافِقِينَ مِنْ الْفَجْرِ وَالْعِشَاءِ وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ الْمُؤَذِّنَ فَيُقِيمَ ثُمَّ آمُرَ رَجُلًا يَؤُمُّ النَّاسَ ثُمَّ آخُذَ شُعَلًا مِنْ نَارٍ فَأُحَرِّقَ عَلَى مَنْ لَا يَخْرُجُ إِلَى الصَّلَاةِ بَعْدُ))** .

(متفق عليه)

إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾

(سورة المزمل)

سبب هذه الكلمة أننا إن شاء الله تعالى يوم الجمعة نختم القرآن الكريم في صلاة الفجر ، والمغرب ، والعشاء ، وثمة رغبة أن نقيم صباح الجمعة مولدًا بسيطًا ، حيث نختم القرآن الكريم ، وندعو الله عزوجل



، فلعل سبحانه يهدي إخواننا الكرام أن يتشجعوا لينضموا لصلاة الفجر ، فاليوم من فضل الله ضاق بنا المكان ، أربعة صفوف ، وازدحام شديد ، فإذا استمر هذا الإقبال سوف نضطر غير آسفين إلى أن ننتقل إلى الحرم الأساسي ، فأنتم مدعوُّون صباح الجمعة إلى احتفال بسيط ، بمناسبة ختم القرآن الكريم الذي قرِئ كله بفضل الله عز وجل في صلاة الفجر ، لكن هذا يقودنا إلى شيء : عندما تسير في طريق الإيمان فلك جلسة خاصة مع الله ، أساسها الصلاة ......

صلاة الفجر في المسجد لا تعدلها صلاة أخرى ، وذاقها من عرفها ، أو عرفها من ذاقها ، صلاة الفجر في المسجد : **((مَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ))** .

البيت له طبيعة خاصة ، السرير ، واللحاف ، والأولاد ، والزوجة ، وغرفة النوم ، وأشياء كثيرة جداً تصرفك عن الذكر وعن الصلاة ، فتصلي في البيت ، لكن الصلاة في المسجد لها طعم خاص ، والصلاة في البيت لها طعم آخر ، فالذي يريد أن يصلي صلاة يشعر فيها بقرب من الله عز وجل فليصلِّ الفجر في جماعة ، سِرْ نحو الله في الليل ، ولا تخشَ وحشته ، فالأنس في طيب ذكره سبحانه ، هؤلاء الذين يمشون إلى بيوت الله في الليل لهم عند الله أجر كبير ، إن بيوتي في الأرض المساجد ، وإن زوارها هم عمارها ، فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني ، وحق على المزُور أن يكرم الزائر .

مرة كنت سألتقي مع شخص فسألته متى تملك الوقت ؟ قال : باكراً ، قلت له : متى ؟ الساعة التاسعة ؟ قال : قال الساعة السادسة في المكتب ! هذا غير معقول ، هل هناك مكتب يفتح الساعة السادسة ؟ قال : كنت صغيرًا ، وكان والدي يوقظني قبل الفجر بساعة ، وأتوضأ ، وأصلي قيام الليل معه ، ثم أذهب إلى المسجد ، فهذه العادة بقيت فيّ حتى الآن ، فأنا أبدأ عمل الساعة الخامسة فجراً بالمكتب ، قلت له : شيء جميل رحم الله أبيك الذي غرز فيك هذه العادة الطيبة ، فإذا الإنسان صلى الفجر في جماعة ، وذاق طعم القرب في المسجد ، وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : **((يَتَنَزَّلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ يَقُولُ مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ))**.

(متفق عليه)

هذه لا تفهموها فهماً مادي ، فإنّ الله عز وجل لا يحدّه مكان ، ولا يسأل عنه أين هو ، فهو خالق المكان ، ولا متى كان ، فهو خالق الزمان ، لكن معنى النزول التفضل ، ومعنى المجيء ، قال :

وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾

(سورة الفجر)



يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ

(سورة الفتح)

إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ۝١

(سورة المجادلة)

له سمع ؟ سميع يعني عليم ، هذه الآيات وقف الناس منها مواقف أربعة : موقفان صحيحان ، وموقفان منحرفان ، أول موقفٍ موقفُ التفويض ، فالسلف فوضوا إلى الله تفسير هذه الآيات ، وموقف الخلف التأويل ، قال : مجيئه أيْ مجيء أمره ، ونزوله تفضله ، ويده قوته ، وسمعه وبصره علمه .....
وأما الذين جسدوا فهؤلاء ضلوا ، وأما الذين عطلوا فقد ضلوا أيضًا ، عندنا أربعة اتجاهات ، التأويل ، والتفويض ، والتعطيل ، والتجسيد ، التعطيل والتجسيد في آيات الذات انحراف خطر ، والتأويل والتفويض موقف سليم .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : **((يَتَنَزَّلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ يَقُولُ مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ)).**

(متفق عليه)

الذين ذاقوا طعم القرب إذا رجع العبد إلى الله نادى مناد في الأرض : أن هنئوا فلانًا فقد اصطلح مع الله ، هذا شيء لطيف جداً ، ذاق طعم الإيمان َمن اصطلح مع الله .

أتمنى على كل أخ كريم أن يصلي في مسجد قريب منه ، بإمكانه أن يلزم الجماعة في الفجر ، وغالباً الفجر فيه روحانية خاصة ، ولا تنسوا قوله تعالى :

إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ۝٦

ما ينشأ لنفسك من تجلِّيات في الليل لا يكون في النهار ، هناك قول يقول : إن لله عملاً في الليل لا يقبله في النهار ، وإن لله عملاً في النهار لا يقبله في الليل ، وسيدنا عمر بن الخطاب كان له عامل على أذربيجان ، هذا العامل أرسل رسولاً مع هدية ثمينة ، فوصل الرسول المدينة في منتصف الليل ، فكره أن يطرق باب أمير المؤمنين ، فتوجه إلى المسجد ، وفي المسجد سمع رجلاً يناجي ربه ويقول : هل قبلت



توبتي فأهنئ نفسي ، أم رددتها فأعزيها ، فقال : من أنت يرحمك الله ؟ قال : أنا عمر ، قال : يا سبحان الله ! ألا تنام الليل يا أمير المؤمنين ؟ أنا كرهت طرق بابك خشية أن أوقظك ، فقال : إن نمت ليلي كله أضعت نفسي أمام ربي ، وإن نمت نهاري أضعت رعيتي .

سيدنا داود رجّح الصلة بالله على العمل الصالح فعاتبه الله ، سيدنا سليمان رجح العمل الصالح على الصلة فعاتبه الله ، فلابد من التوازن بين العمل والصلة ، وبين الذكر والطاعة ، وإنّ التوازن مطلوب .

فإذا تمكن الإنسان أن يجعل لنفسه جلسة مع الله صباحاً تقرأ فيها بعض القرآن الكريم ؛ خمس صفحات ، أو عشر صفحات ، فإن في ذلك فضلاً كبيرا ، لقول الله عز وجل :

وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾

(سورة الإسراء)

يمكن أن تقرأه ، وتقول : لا أشعر بشيء ، وهذا ممكن ! هذا امتحان ، المؤمن إذا كان حريصًا أن يدخل البيت يطرق الباب ، في العيد معه بطاقات ، يريد وضع بطاقة ، فيضرب ضربة واحدة ، ويضع البطاقة ، ويذهب ، لا وقت له ليدور على كل البيوت ، إذا لم تكن حريصًا على دخولك إلى البيت ترنّ الجرس ضربة واحدة ، أما إذا كان هناك حرصٌ شديد تصير ملحاحًا .

أخلقْ بذي الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

أحياناً يمتحن الله صدقك فيسد عليك الأحوال ، تقرأ القرآن فلا شيء يغلقه ، ويقوم مِن الصفحة الأولى ، اقرأ خمس صفحات حتى لو لم تشعر بشيء ، في اليوم الثاني لعلك تشعر بشيء .

حدثني أخ ذهب إلى العمرة ، يظن نفسه أنه يجب أن تكون له أحوال ، فقال : وصلت المدينة ، فدخلنا المقام الشريف ، ولم أشعر بشيء ! أعوذ بالله ، وكأنني أدخل مسجدًا في الشام ، رسول الله أمامه ! قال : لم أبكِ ، ولم أتأثر ، فأصابه انكسار ، وعاد إلى الفندق مكسورًا كاليتيم ، أين أحواله ، وإقباله ، وطريقه ، وأذكاره ووِرده ؟ في اليوم الثاني تحسن الحال قليلاً ، في اليوم الثالث تفضل عليه الله .

لا يجب على الإنسان أن ينسحب من أول صدٍّ ، فإنّ الله عز وجل عزيز ، ولا يقبلك بسهولة ، أنت طالب ودِّ الله ، والمؤمن يخطب ودَّ الله عز وجل ، أحياناً إذا خطب الإنسان بنتًا ، وقيل له : ليس لك نصيب ، يوسّط لهم أقرباءهم ، أو يبعث جهة ثالثة ، ورابعة يرى من يمون عليهم ، يحسن الحسن ، من أجل فتاة يقوم بعشرات المحاولات ، أليس من الأكمل أن تكون قريباً من الله عز وجل ، وأن تبذل بعض المحاولات ؟ وقد ورد في الأثر : **((إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها))** .



علي أن أصلي الفجر في وقته ، وفي جماعة ، وأن أخشع في الصلاة ، فإذا تجلى الله على قلبي في حال ، معنى ذلك أن الله أكرمني اليوم ، فالأحوال نفحات ، فهيئ نفسك لها : ألا فتعرضوا لها .

لاحظ التاجر يهيئ البضاعة ، ويقول : عندنا موسم لا يعلم ما سيكون فيه ، لكن يهيئ نفسه ، لو طلب مني بضاعة جاهزة ، عندنا بضاعة ، وعندنا في المستودعات ، وأنا مهيئ نفسي من أجل البيع ، إنسان لم يهيئ نفسه لن يكون هناك بيع ، لا توجد بضاعة ، هذا كلام غير تجاري .

أرجو الله عز وجل أن نعتني جميعاً بمجلس صباحي ، والأولى أن يكون في المسجد ، هذا المجلس يتضمن صلاة الفجر ، وتلاوة القرآن ، وشيء من الذكر ، تحب ذكر اسم الله المفرد ، هناك آية تؤكد ذلك ، أن تقول : الله الله الله ، هل هناك آية هكذا ؟ قال تعالى :

وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ

(سورة الإنسان)

اسم الله الأعظم هو الله ، فإذا قلت : الله الله فهذا ذكر ، وهناك ذكر الحمد ، والاستغفار ، والتسبيح ، والتهليل ، والدعاء ذكر ، والثناء دعاء ، فهل عندكم دليل على أن الثناء دعاء ؟ سيدنا يونس قال :

فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ

أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾

(سورة الأنبياء)

أثنى على الله :

لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ

قال تعالى :

فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ

(سورة الأنبياء)

لم يسأل سؤالاً ، فالثناء دعاء ، والحمد ، والتسبيح ، والاستغفار ، والصلاة على النبي ذكر .



وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ

(سورة العنكبوت)

فشيء من الذكر ، وشيء من التلاوة والصلاة ، وإذا أضفت التفكر في الكون هذا طريق سريع لله عز وجل ، هذه الجلسة إن كانت في الفجر أطمح إذا حضر إخواننا إلى الفجر أنْ نقوم ببعض الذكر بعد الصلاة ، وشيء من التفكر والتلاوة ، حيث يشعر أنه قضى هذه الحصة في المسجد ، هذا شيء من طموحي إن شاء الله ، ووجدت إقبالاً شديدًا على صلاة الفجر ، في العادة أكثر المساجد سبعة أشخاص ، أو ثمانية ، ومن فضل الله عندنا أربعة صفوف وازدحام ، ويمكن أن ننتقل إلى الحرم بعد فترة ، على كلٍّ ذاق طعم القرب مَن صلى الفجر في جماعة ، وثمة أحاديث صح يحة تؤكد أن صلاة الجماعة تعدل صلاة المفرد بسبع وعشرين ضعفاً .

ملخص الدرس : التوازن يعني أن تعتني بعقلك ، وبقلبك ، وبجسدك ، وتتمتع بعقيدة صحيحة ، وسلوك مستقيم ، وحال طيب ، إذا ركّزت على الحال فقط وقعتَ في الغلو ، أو ركزت على الاستقامة ، أو على الفكر وقعت في الغلو ، تأخذ فرعًا تجعله هو الدين فهذا غلو ، تأخذ جزءًا فتجعله الكلَّ فهذا غلو ، هذا الذي أتمنى على الله عز وجل أن يكون في قناعاتكم جميعاً ، على كل نحن في رمضان بفضل الله ، وهذه السنة الخامسة نتلو في صلاة التراويح ، والفجر القرآن كله ، فالإنسان له منا سبة أن يستمع لتلاوة القرآن بصوت حسن ، مع أحكام تجويدية طيبة ، أن يستمع لها بشكل متسلسل ، في رمضان إن شاء الله عندنا درس بعد الفجر ، ودرس بعد التراويح ، وسيكون الدرس بطريقة فيها فاعلية .

في التربية والتعليم أسوأ طرق فيها هي الإلقاء ، أما السؤال ، والجواب ، والحوار ، وطرح الأسئلة يضفي فعالية لدى المستمعين ، ويرسخ المعلومات ، فأنت كمستمع يمكن أن تشرد ، أما كمسؤول فعليك أن تجيب ، فنحن في الشهرين السابقين كنا نقرأ جزءًا ، ونهيئ أسئلة نريد منه إجابة ، هذه الطريقة لاقت ارتياحًا شديدًا عند إخواننا الكرام ، فصار ا لأخ يصلي ، وكلُّه يقظة ، أنه سوف يُسأل ، فتابع القرآن ، والدليل :

لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ

(سورة النساء)



ماذا قال الإمام ؟ واللهِ لا أذكر ! الآن صليت العشاء ، ماذا قرأ مِن السور ؟ واللهِ لا أذكر ، هذه مشكلة كبيرة جداً ، يعني لم يعلم ما قاله الإمام ، والله عز وجل قال :

حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا

تَقُولُونَ

والنبي قال : ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها ، وإذا لم يعلم الإنسانُ ما يقول كان في حكم السكران .

لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا

تَقُولُونَ

إذا قرأ الإنسان الفاتحة بشكل صحيح قال :

إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ

﴿٥﴾ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿٦﴾

(سورة الفاتحة)

طلب :

وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُۚ

(سورة الإسراء)

سألته أن يبين لك الصراط المستقيم ، فجاءك الجواب في آيات الركعة الأولى ، ركعت خاضعاً ، وسجدت مستعيناً ، فوجدتَ التكامل ، قرأت الفاتحة ، أعلنت عن حمدك ، وخضوعك ، وإيمانك ، وسألت الله الصراط المستقيم ، فجاء الجواب في آيات الركعة الأولى ، فركعت خاضعاً ، وسجدت مستمداً العون من الله ، هذه ركعة أولى ، فإذا قرأت الفاتحة في التراويح كما أرادها الله عز وجل ، واستمعت إلى آيات الله تتلى عليك ، وبعدها ركعت خاضعاً ، وسجدت مستعيناً ، فقد اقتربت من الصلاة التي أرادها الله عز وجل .



بعض الإخوة صلوا في المدينة المنورة وراء إمام ، فحدثوني أنهم شعروا بسعادة لا توصف ! حتى إن أحدهم قال : هذه الصلاة هي التي أرادها الله عز وجل .

02 - العلم

العلم :

1 ـ للإنسان هدف في الدنيا ؟

لقد خلق الله الإنسان في أحسن تقويم .. وكرّمه الله أحسن تكريم ..سخر له الكون ، ووهبه نعمة العقل ، وأودع فيه الشهوات ، وأحلّ له الطيبات ، وحرم عليه الخبائث ، ومنحه حرية الإرادة ... كل ذلك ليعرف ربه فيعبده ، ويسعد بعبادته في الدنيا والآخرة

وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾

(سورة الذاريات)

لهذا لا يسلم الإنسان ، ولا يسعد ، وهما مطلبان ثابتان للإنسان في كل زمان ومكان ، لا يسلم الإنسان ولا يسعد إلا إذا تطابقت حركته اليومية في حياته الدنيا مع الهدف الحقيقي الذي خلق من أجله ...

إذاً : تعدّ معرفة هذا الهدف والتحرك نحوه شرطين أساسيين لبلوغ هذين المطلبين الثابتين .

فإن لم يبحث الإنسان عن الهدف الحقيقي الذي خُلق من أجله ، أو توهم هدفاً آخر لم يُخلق له ، أو لم تأت حركته اليومية مطابقة للهدف الصحيح ، كان القلق والاضطراب ، وكان الضلال والشقاء ، وتحققت خسارة كبيرة أبدية ، قال تعالى:



قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾

(سور الكهف)

الذي يحكم حركة الإنسان في الحياة تصورات للأهداف والوسائل هذه التصورات تُعد صحيحة إذا انطلقت من علاقة علمية .

2 ـ ما هو العلم ؟

والعلم في الحقيقة هو علاقة ثابتة بين شيئين مقطوع بصحتها مطابقة للواقع ، عليها دليل قطعي ، فإن لم يكن مقطوع بصحتها كان الظن والشك والوهم ، وإن لم تكن مطابقة للواقع كان الجهل ، وإن افتقرت إلى الدليل كان التقليد .. قال تعالى :

إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا

ولن يستطيع الإنسان توجيه حركته اليومية نحو الهدف الصحيح الذي خُلق من أجله ، إلا إذا انطلق من تصورات صحيحة ، أساسها العلم اليقيني ، وأسقط من تصوراته كل ما اعتراه الشك والظن والوهم والجهل والتقليد .

3 ـ العلم أساس الدنيا والآخرة :

وذلك أن العلاقة بين طاعة الله وبين ثمارها علاقة علمية ، أي علاقة سبب بنتيجة ، كذلك العلاقة بين معصية الله وتبعاتها علاقة علمية أيضاً ، لهذا يُعد العلم أساساً مكيناً لسلامة الإنسان وسعادته في الدنيا والآخرة ، فإذا أردت الدنيا فعليك بالعلم ، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم ، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم ، ومن هنا دعا الإسلام وهو دين الحق والفطرة ، إلى العلم في كل المجالات أشاد بأداته ، وهي العقل ، في كل المستويات ؛ لأن العلم في الإسلام



كالروح في الجسد ، وقوام الرجل عقله ، فمن لا عقل له لا دين له ، ومن لا دين له لا عقل له ، وإنما الدين هو العقل .

4 ـ القرآن بيَّن فضلَ العلمِ :

والآيات التي وردت في القرآن الكريم ، والتي تتناول العلم والعقل تقترب من ألف آية ، وحسبنا الدعاء القرآني :

وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾

وحسبنا أن الله يُفصِّل الآيات الكونية والقرآنية لقوم يعقلون حيث يقول :

كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾

(سورة الأعراف)

كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾

(سورة الروم)

بل إن العلماء وحدهم وليس أحد سواهم ، هم الذين يخشون الله ، قال تعالى :

إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ۗ

(فاطر : 28)

ولا يخفى أن (إنما) في الآية تفيد الحصر والقصر .

إن طلب العلم فريضة محكمة من فرائض الدين ، لا تقلّ أهمية عن فرائضه الأخرى ، بل هي أخطر فرائضه ، وفي الحديث الصحيح :



((**طلب العلم فريضة على كل مسلم**)) .

[الجامع الصغير ، وسنده صحيح عن أنس]

5 ـ العلمُ أفضل من نوافل العبادات :

حتى إن طلب العلم يفضُلُ في ثمراته نوافل العبادات .. ففيما روى ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

((**إن طلب العلم ساعة خير من قيام ليلة ، وطلب العلم يوماً خير من صيام ثلاثة أشهر** ...)) .

[الجامع الصغير ، وسنده غير صحيح]

6 ـ العلمُ أساسُ المفاضلة :

والإسلام من خلال القرآن والسنة يرفض أشد الرفض أن تكون القوة ، أو المال ، أو النسب ، أو المظهر أساساً للمفاضلة بين الناس ، لكنه اعتمد العلم قيمة وحيدة مرجِحة بين بني البشر .. قال تعالى :

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾

[الزمر : 9]

روى الديلمي وابن عبد البر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

((**تعلموا العلم ؛ فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة ، لأنه معالم الحلال والحرام ، ومنار سبيل الجنة ، والأنيس في الوحشة والصاحب في الوحدة ، والمحدِّث في الخلوة ، والدليل على السراء والضراء ، والسلاح عند الأعداء ، والزين عند الأخلاء والقرب عند الغرباء ، ويرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الجنة قادة** ...)) .

[رواه ابن عبد البر في العلم ، وقال محقق الجامع الصغير : موضوع]



العلمُ بالله :

والعلم كما يرى الإمام الغزالي ؛ علم بالله ، وعلم بأمره ، وعلم بخلقه ، أو علم بالحقيقة ، وعلم بالشريعة ، وعلم بالخليقة ، والعلم بالله أصل الدين ، والعلم بأمره أصل العبادة ، والعلم بخلقه أصل في صلاح الدنيا .

1 ــ العلمُ بالله طريقُه التفكر في مخلوقات الله :

لقد دعا الإسلام إلى العلم بالله ، من خلال التفكر في خلق السماوات والأرض ، حيث تتابع الأمر به في سور القرآن ، وعُدَّ الأساس الأول لبناء دعائم العقيدة والإيمان .. قال تعالى :

فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾

(سورة الطارق)

وقال تعالى :

فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾

(سور عبس)



وقال أيضاً :

أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾

(سورة الغاشية)

وقال تعالى :

قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾

(سورة يونس)

2 ـ التفكر في الكون من أرقى العبادات :

والتفكر في خلق السماوات والأرض نوع من العبادات بل هو من أرقى العبادات ، ففي صحيح ابن حبان عن عطاء أن عائشة رضي الله عنها قالت : ((**أتاني النبي صلى الله عليه وسلم في ليلتي وقال : ذريني أتعبد لربي عز وجل فقام إلى القُربة ، فتوضأ ، ثم قام يصلي، فبكى حتى بلَّ لحيته ، ثم سجد حتى بلَّ الأرض ، ثم اضطجع على جنبه ، حتى أتي بلالٌ يؤذنه بصلاة الصبح ، فقال يا رسول الله ما يبكيك ؟ وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فقال ويحك يا بلال ، وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل الله تعالى عليَّ في هذه الليلة : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ ، ثم قال عليه الصلاة والسلام : ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها**)) .

[ابن حبان في صحيحه ، وسنده صحيح]

وقال : ((**أمرت أن يكون صمتي فكراً ، ونطقي ذكراً ونظري عبرةً**)) .

[مشكاة المصابيح]

وقال الحسن البصري رحمه الله : " من لم يكن كلامه حكمةً فهو لغو ، ومن لم يكن سكوته تفكراً فهو سهو ، ومن لم يكن نظره عبرةً فهو لهو .. " .



انظر إلى الشمس ، وسل : من رفعها ناراً ؟

انظر إلى الشمس ، وسل من رفعها ناراً ، ومن نصبها مناراً ، ومن ضربها ديناراً ، ومن علقها في الجو ساعة ، يدب عقرباها إلى قيام الساعة ، ومن الذي آتاها معراجها ، وهداها أدراجها ، وأحلها أبراجها ، ونقَّل في سماء الدنيا سراجها ، الزمان هي سبب حصوله ، ومنشعب فروعه وأصوله ، وكتابها بأجزائه وفصوله ، لولاها ما اتسقت أيامه ، ولا انتظمت شهوره وأعوامه ، ولا اختلف نوره وظلامه ، ذهب الأصيل من مناجمها ، والشفق يسيل من محاجمها ، تحطمت القرون على قرنها ، ولم يمح التقادم لمحة حسنها .

وهي تكبر الأرض بمليون وثلاثمائة ألف مرة حجماً ، وتبعد عن الأرض مائة وستة وخمسين مليون كيلو متر ، وهناك نجوم يزيد حجمها على حجم الأرض والشمس مع المسافة بينهما ، وتصل الحرارة في مركزها إلى عشرين مليون درجة ، فلو ألقيت الأرض في جوف الشمس لتبخرت في زمن قصير ، ويزيد طول ألسنة اللهب المنطلقة من سطحها عن نصف مليون كيلو متر ، لقد صدق الله العظيم إذ يقول :

سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾

(سورة فصلت)

انظر إلى القلب في فعله وأثره :

وانظر إلى القلب في فعله وأثره ، وغرضه ووطره ، وقدْرِه وقَدَره ، وحيطانه وجدره ، ومنافذه وحُجره ، وأبوابه وستره ، وكهوفه وحفره ، وجداوله وغدره ، وصفائه وكدره ، ودأبه وسهره ، وصبره وحذره ، وعظيم خطره ، لا يغفل ولا يغفو ، ولا ينسى ولا يسهو ، ولا يعثر ولا يكبو ، ولا يخمد ولا يخبو ، ولا يمل ولا يشكو ، وهو دائب صبور



بأمر الذي أحسن خلقته ، وأعدَّ له عدته ، وأوقد فيه جذوته ، وقدّر له أجله ومدته ، يعمل من دون راحةٍ ولا مراجعةٍ ولا توجيه .

يضخ في اليوم الواحد ثمانية أمتار مكعبة من الدم ، تجري في مائة و خمسين كيلو متراً من الأوعية ، ويضخ في عمر متوسط ما يملأ حجماً يساوي واحدةً من أكبر ناطحات السحاب في العالم .. لقد صدق الله العظيم إذ يقول :

سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾

(سورة فصلت)

انظر إلى النملة في صغر جثتها ، ولطافة هيئتها :

وانظر يا أخي مع الإمام علي كرم الله وجهه : << انظر إلى النملة في صغر جثتها ، ولطافة هيئتها ، لا تكاد تنال بلحظ البصر ، ولا بمستدرك الفكر ، كيف دبت على أرضها ، وصُبَّت على رزقها ، تنقل الحبة إلى جحرها وتعدُّها في مستقرها ، تجمع في حرّها لبردها ، وفي وردها لصدرها ، مكفولة برزقها ، مرزوقةٌ بوفقها ، لا يغفلها المنَّان ، ولا يحرمها الدَّيَّان ، ولو في الصفا اليابس والحجر الجامس ، ولو فكرت في مجاري أكلها في علوها وسُفلها ، وما في الجوف من شراسيف بطنها ، وما في الرأس من عينها وأذنها ، لقضيت من خلقها عجباً ، ولقيت من وصفها تعباً ، فتعالى الذي أقامها على قوائمها ، وبناها على دعائمها، لم يشركه في فطرتها فاطر ، ولم يعنه على خلقها قادر " .

لقد صدق الله العظيم إذ يقول :

۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾

(سورة هود)



وانظر لتلك الشجـــــرة ذات الغصون النضرة
كيف نمت من حبـــــة وكيف صارت شجــرة
فابحث وقل من ذا الــذي يُخرج منهـــا الثمرة
وانظر إلى الشمس التــي جذوتهـــا مستعــرة
من ذا الذي أوجدهـــا في الجو مثل الشـــررة
وانظر إلى الليل فمـــن أوجد فيــه قمـــره
وزانه بأنجـــــــــم كالـــدرر المنتشــرة
وانظر إلى الغيم فمـــن أنــزل فيه مطـــره
فصـــير الأرض بـــه بعد اصفرار خضــره
ذاك هـــــــو الله الذي أنعمه منهمـــرة
ذو حكمة بالغــــــة وقـــــدرة مقتـــدرة

***

العلم بأمر الله :

هذا عن العلم بالله ، علم الحقيقة ، فماذا عن العلم بأمر الله علم الشريعة ؟

1 ـ العلم بأمر الله يأتي بعد العلم بالله :

إن الإنسان إذا تفكر في خلق السماوات والأرض ، فعرف الله خالقاً ومربياً ومسيراً ، وعرف طرفاً من أسمائه الحسنى ، وصفاته الفضلى ، يشعر بدافع قوي إلى التقرب إليه من خلال امتثال أمره ، واجتناب نهيه ، عندها يأتي علم الشريعة ليبيّن أمر الله ونهيه في العبادات والمعاملات والأخلاق .



والشريعة عدل كلها ، ورحمة كلها ، ومصالح كلها ، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها ، وعن المصلحة إلى المفسدة ، وعن الحكمة إلى العبث ، فليست من الشريعة وإن أدخلت عليها بألف تأويل وتأويل .

قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه الإمام البخاري في صحيحه :

((**مَنْ يُرِدِ الله بِهِ خَيْراً يُفَقِّهْهُ في الدِّينِ**)) .

((**وإنما العلم بالتعلم**)) .

[الجامع الصغير ، وسنده حسن]

وفي الحديث الشريف الصحيح :

((**قليل الفقه خير من كثير العمل**)) .

[الجامع الصغير عن ابن عمرو ، وسنده ضعيف]

2 ـ العلم بأمر الله من أفضل أنواع العبادات :

بل إن التفقه في أحكام الشريعة والعمل بها يُعدُّ أفضل أنواع العبادات قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه الدار قطني :

((**ما عُبِدَ الله بشيءٍ أفضل من فقه في دين ، ولفقيه واحد أشدُّ على الشيطان من ألف عابد ، ولكل شيءٍ عماد ، وعماد الدين الفقه**)) .

[الجامع الصغير عن أبي هريرة ، وسنده موضوع]

العلم بالخليقة :

1 ـ الإسلام يدعو إلى العلم بطبائع الأشياء وخصائصها :

بقي علم الخليقة ، لقد دعا الإسلام إلى العلم بطبائع الأشياء وخصائصها ، والقوانين التي تحكم العلاقة بينها ، كي نستفيد منها تحقيقاً لتسخير الله جلّ وعلا للأشياء .. قال تعالى :



أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً

(سورة لقمان : 20)

وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ

(سورة الحديد : 25)

2 ــ العلوم المادية طريق لعمارَة الأرض :

وتعلُّم العلوم المادية يحقق عمارَة الأرض عن طريق استخراج ثرواتها ، واستثمار طاقاتها ، وتذليل الصعوبات ، وتوفير الحاجات تحقيقاً لقوله تعالى :

هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا

(سورة هود)

3 ــ العلوم المادية طريق لمجابهة الأعداء :

وتعلم العلوم المادية ، والتفوق فيها قوة ، يجب أن تكون في أيدي المسلمين ، ليجابهوا أعداءهم ، أعداء الحق والخير والسلام ، تحقيقاً لقوله تعالى :

وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ

(سورة الأنفال : 60)



الانتفاع بالخيرات لابد له من جهدٍ كبير :

لأن القوة قوة هذا العصر في العلم ، بل إن الحرب الحديثة ليست حربا بين ساعدين ، بل هي حرب بين عقلين .

ولحكمة بالغة لم يشأ الله جل وعلا أن يكون الانتفاع بخيرات الأرض وثرواتها وطاقاتها انتفاعاً بشكل مباشر ، يلغي دور الإنسان ، وإنما جعل هذا الانتفاع متوقفاً على جهد بشري : علم وعمل ، فقد أودع الله في البذرة فيما يبدو قوة إنبات ، ولكن لابد للإنسان من أن يزرعها ويرعاها ، ولا بد للإنسان أن يحصدها ، ليجني ثمارها ، وأودع الله في الأرض خامات المعادن ، ولكن لابد للإنسان أن يبحث عنها ويكتشفها ، وأن يستخرجها ، كل هذا ترسيخاً لقيم العلم والعمل ، وابتلاءً لإنسانية الإنسان ، فهل يرفعه العلم والعمل إلى أعلى عليين ، أم يسقطانه إلى أسفل سافلين ؟

5 ــ النظرة العلمية والموضوعية طريق لإسقاط الدعاوى الباطلة :

وبالتحرر من الجهل والوهم ، واعتماد النظرة العلمية ، واتباع الطريقة الموضوعية ، نستطيع أن نسقط كل الدعاوى الباطلة المزيفة التي يطرحها أعداؤنا أعداء الدين للنيل من إمكاناتنا وطموحاتنا ، فباعتماد النظرة العلمية تصح رؤيتنا ، وبإيماننا بالله واستقامتنا على أمره نستمد قوتنا ، قال تعالى :

﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

(سورة آل عمران)



6 ـ التعلم والتعليم قوام هذا الدين :

إن التعلم والتعليم قوام هذا الدين ، ولا بقاء لجوهره ، ولا ازدهار لمستقبله إلا بهما ، والناس أحد رجلين : متعلم يطلب النجاة ، وعالم يطلب المزيد .. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

((**العالم والمتعلم شريكان في الخير ، ولا خير في سائر الناس**)) .

[الجامع الصغير عن أبي أمامة ، وسنده فيه ضعف]

وقد قيل : " تعلموا العلم ؛ فإن كنتم سادة فقتم ، وإن كنتم وسطاً سدتم ، وإن كنتم سوقةً عشتم " .

لكن العلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك ، فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً .

فلا بد أيها الأخ الكريم أن تكون عالماً ، أو متعلماً ، أو مستمعاً ، أو محباً ، ولا تكن الخامسة فتهلك .

على مثل هذه الصورة كن مع العلم :

وإن هذا العلم دين ، فانظر عمَّن تأخذ دينك .. خذه عن الذين استقاموا ، ولا تأخذه عن الذين مالوا .

العلم الذي نرتزق منه وكفى .. ليس إلا حرفة من الحرف .

والعلم الذي لا يصل تأثيره إلى نفوسنا ، ومن ثم إلى سلوكنا ، ما هو إلا حذلقة لا طائل منها .

العلم الذي يجعلنا نتيه به على غيرنا ، ما هو إلا نوع من الكبر .

العلم الذي يعطل فينا المحاكمة السليمة والتفكر السديد نوع من التقليد .

والعلم الذي يوهمنا أننا علماء كبار ، هو نوع من الغرور ..

والعلم الذي يسعى لتدمير الإنسان ، والفتك به ، ويسعى لصناعة المرض نوع من الجريمة ..

والعلم الذي نستخدمــه للإيقاع بين الناس ، والعدوان على أموالهم وأعراضهم ، نوع من الجنوح والانحراف .



والعلم الذي لا يتصل بما ينفعنا في ديننا ، ودنيانا ، نوع من الترف المذموم ..

وفي الدعاء النبوي الشريف : ((**اللهم إنا نعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن أذن لا تسمع ، ومن عين لا تدمع ، ومن نفس لا تشبع**)) .

[ورد في الأثر]

03 - القرآن

أيها الإخوة المؤمنون في دنيا العروبة والإسلام ، شهر رمضان شهر القرآن ، والنبي عليه الصلاة والسلام كان يُكثر في رمضان من تلاوة القرآن ، وكان يكثر في رمضان من تدبر القرآن ، والقرآن هدىً وبيان وموعظة وبرهان ، ونور وشفاء ، وذكر وبلاغ ووعد ووعيد ، وبشرى ونذير ، يهدي إلى الحق ، وإلى الرشد ، وإلى صراط مستقيم ، يُخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ، ويحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، فيه تبيان لكل شيء وهو شفاء لما في الصدور .

ومما قال فيه صلى الله عليه وسلم : " .. كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ؛ من ابتغى الهدى في غيره أضله الله فهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم، لا يشبع منه العلماء ، ولا يُخلق عن كثرة الردِّ ، ولا تنقضي عجائبه ، من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ومن عمل به أُجر ، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم " .

[رواه الترمذي .. أوله " ألا إنها ستكون فتنة .. الحديث " وقال محقق جامع الأصول : في سنده مجهول]

وهو مصدرٌ رئيسٌ لمعرفة الله عز وجل ، فالقرآن كلامه ، ومن خلاله نتعرف إلى الله عن طريق التدبُّر ؛ والسماوات والأرض خلقه ومن خلالهما نتعرف إلى الله عن طريق التفكر ، والحوادث أفعاله ، ومن خلالها نتعرف إلى الله عن طريق النظر والتأمل .

حينما يقتنـــي أحدنا آلة بالغة التعقيد ، غالية الثمن ، ذات نفع عظيم تراه حريصاً حرصاً لا حدود له على اقتناء الكُتيِّب الذي تصدره الجهة الصانعة ، والذي يتضمَّن طريقة الاستعمال ، وأسلوب الصيانة ، فهو حريص على اقتناء هذا الكتيب ، و على ترجمته وفهمه ، وتنفيذ تعليماته ، بدقة بالغة ، وهذا الحرص نابع من حرصه على سلامة هذه الآلة وعلى مستوى مردودها .



وهذا الإنسان بجسده الذي يُعدُّ أعقد آلة في الكون ، ففي خلاياه وأنسجته ، وفي أعضائه وأجهزته ، من الدقة والتعقيد والإتقان ، ما يعجز عن فهم بنيتها وطريقة عملها أعلم العلماء ، وفي هذا الإنسان نفسٌ تعتلج فيها المشاعر والعواطف ، وتصطرع فيها الشهوات والقيم والحاجات والمبادئ ، حيث يعجز عن تحليلها وتفسيرها أعلم علماء النفس ، وفيه عقل يحتوي من المبادئ والمسلمات والقوى الإدراكية والتحليلية والإبداعية ما أهَّله ليكون سيد المخلوقات .

والآن ألا يحتاج هذا المخلوق المكرَّم إلى كتاب من خالقه ومربيه ومدبره ومسيّره ، يبين له فيه الهدف من خلقه ، والوسائل الفعالة التي تحقق هذا الهدف ؟ ..

ألا يحتاج هذا المخلـــوق المكرم إلى كتاب فيه منهج يسير عليه ، ويضبط ، ويصحح حركاته ونشاطاته من الخلل والخطل والعبث ؟

ألا يحتاج هذا المخلوق البديع في خلقه إلى كتاب فيه مبادئ سلامته ؛ سلامة جسده من العطب، وسلامة نفسه من التردي ، وسلامة عقله من التعطيل والتزوير ؟

ألا يحتاج هذا المخلوق المكرم إلى كتاب فيه مبادئ سعادته فرداً ومجتمعاً في الدنيا والآخرة؟..

إنه القرآن الكريم الذي لا يقل في عظمة إرشاده وتشريعه عن عظمة إيجاد السماوات والأرض .. قال تعالى :

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ

[سورة الأنعام]



[سورة الكهف]

فكما أن الله يُحمد على نعمة إيجاد السماوات والأرض ، كذلك يُحمد بالقدر نفسه على نعمة الإرشاد ... إرشاد إنسان من خلال القرآن إلى طريق سلامته وسعادته الأبدية.

الله جل وعلا يشهد للإنسان أن هذا القرآن كلامه ، ومن خلال الأحداث التي يقدّرها الله له أو عليه ، وعندئذ يشهد القرآن للإنسان أن هذا الذي أُنزل عليه القرآن هو رسول الله ، قال تعال:



لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾

[سورة النساء166]

قال تعالى :

مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾

[سورة النحل 97]

فإذا آمن الإنسان كما ينبغي ، وعمل صالحاً في صدق وإخلاص أذاقه الله طعم الحياة الطيبة ، من طمأنينة ، واستقرار ، وتيسير وتوفيق وسعادة ، وحبور ، عندئذ يشعر من خلال الحياة الطيبة ، التي ذاقها مصداقا لوعد الله ، أن الله جل جلاله ، شهد له بأن هذا القرآن كلامه وأن هذه الحياة الطيبة من فعله ، قدّرها له تحقيقاً لوعده ، وحينما يتطابق فعل الله مع ما في القرآن، يقوم الدليل القطعي على أن القرآن كلام الله .

دليل مقابل : قال تعالى :

وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا

[سورة طه 124]

فمن أعرض عن ذكر الله ، والقرآن هو ذكر الله وهجره ، وجعله وراءه ظهرياً ، واستحل محارمه ، ولم يعبأ بأمره ونهيه ، ووعده ووعيده أذاقه الله طعم المعيشة الضنك ، من خوف وقلق ، وضيق ، وشدة ، وتعسير ، وإحباط ، وشقاء ، وضياع ، عندئذ يشعر من خلال هذه المعيشة الضنك التي ذاقها مصداقاً لوعيد الله ، أن الله شهد له بأن هذا القرآن كلامه ، وأن هذه المعيشة الضنك من فعل الله قدّرها عليه تحقيقاً لوعيده .

العين مهما دقت صنعتها ، ومهما أُحكمت أجزاؤها ، ومهما ارتقت وظائفها ، لا تستطيع أن تبصر الأشياء ، إلا بنور الشمس ، والعقل مهما كَبُرَ ورجح ، ومهما تعددت وظائفه ، ومهما



دقت محاكمته ، ومهما نما إبداعه ، لا يستطيع أن يدرك الحقائق إلا بنور الله .. والقرآن هو نور الله قال تعالى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا

[سورة النساء 174]

وحينما يستنير المؤمن بنور الله فلن يضل عقله ، ولن تشقى نفسه قال تعالى :

قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴿١٢٣﴾

[سورة طه 123]

وكيف يضل أمرؤ يقرأ القـــــرآن ، والقرآن يقدم له تفسيراً صحيحاً لحقيقة الكون و الحياة والإنسان ، من عند مكوّن الأكوان ، وواهب الحياة وخالق الإنسان ..

فالسماوات والأرض خُلقت بالحق ، وهو الثبات والسمو ، ولم تُخلق باطلاً ، ولا لعباً ؛ وهما الزوال والعبث .

والسماوات والأرض مسخرة للإنسان ، تسخير تعريف ، وتكريم من أجل أن يؤمن ويشكر .

والحياة الدنيا دار ابتلاء ، وانقطاع وعمل ، والآخرة دار جزاءٍ وخلود وتشريف .

والحياة الدنيا كما وصفها القرآن حياةٌ دنيا ، وليست عليا ، وهي لهو ولعب وزينة وتفاخر وتكاثر ، وجمع ، والآخرة خير وأبقى ، وهي دار القرار ، قال تعالى :

وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ﴿٦١﴾

[سورة القصص 60-61]

والإنسان لم يُخلق عبثاً ولن يُترك سُدىً ، وهو على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره .



وإنه المخلوق المكرم الذي خلقه الله في أحسن تقويم ، وكرّمه أعظم تكريم حمل الأمانة التي أشفقت من حملها السماوات والأرض ، وأن الإنسان خُلق ضعيفاً ، وخُلق عجولاً ، وخُلق هلوعاً ، إذا مسَّه الشرُّ جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً ، إلا المصلين ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يُرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى ، وهو يفلح ، ويفوز إذا أطاع الله ورسوله ، وتزكّى وذكر اسم ربه فصلى ، ولا ينفعه يوم القيامة مال ، ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، وإن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر .

وكيف يضلُّ امرؤ يقــرأ القرآن ، والقرآن يبين له أنه لا إله إلا الله وهو غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، وأنه في السماء إله وفي الأرض إله ، وأنه إليه يُرجع الأمر كله، وأنه على كل شيء وكيل ، وأنه يحكم لا معقب لحكمه ، وأنه لا يشرك في حكمه أحداً وأنه ما من دابة إلا هو آخذٌ بناصيتها ، وأنه ما يفتح الله للناس من رحمةٍ فلا ممسك لها ، وما يُمسك فلا مُرسل له من بعده ، وأنه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

ومن اهتدى بهدي القرآن لا يضل عقله ، ولا تشقى نفسه ، وكيف تشقى نفسه وتحزن ، وقد منحه الله نعمة هي أثمن ما في الحياة النفسية ، ألا وهي نعمة الأمن ، تلك النعمة التي عزّت على كثير من الناس ، فهو حينما آمن بالله وحده ابتعد عن الشرك ، الجلي والخفي ، وحينما ابتعد عن الشرك ابتعد عنه العذاب النفسي ، قال تعالى :

فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾

[سورة الشعراء 213]

وحينما آمن بالله وحده ، وأن الأمر كله راجع إليه ؛ حمله إيمانه هذا على طاعته ، وترك الإساءة إلى خلقه ، عندئذ استحق نعمة الأمن ، قال تعالى :

فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾

[سورة الأنعام]



وكيف تشقى نفس قارئ القرآن وتحزن ، وهي تتلو قوله تعالى :

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾

[سورة الجاثية 21]

وهل من طمأنينة تنعم بها النفس أعظم من أن يؤكد لك خالق الكون أنه لن يضيّع عليك إيمانك، ولا عملك الصالح ، وأنه لن تكون حياتك كحياة عامة الناس الذين أعرضوا عن ذكر ربهم ، فاجترحوا السيئات ، وتاهوا في الظلمات ؟

وكيف تشقى نفس قارئ القرآن وتحزن ، وهي تتلو قوله تعالى :

إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾

[سورة فصلت]

وهل من شعور ، أشد تدميراً للنفس من الخوف ؟ .. فأنت من خوف المرض في مرض ، وأنت من خوف الفقر في فقر ، وتوقع المصيبة مصيبة أكبر منها . وهل من شعور أشد رضاً للنفس من الندم والحزن على ما فات ؟ فحينما يُفاجأ الإنسان بدنو الأجل يُصعق ويقول : يا حسرتا على ما فرَّطت في جنب الله ، ويا ليتني قدمت لحياتي ، ويا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً ، و ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً .

لكن القرآن يُطمئن المؤمنين الذين آمنوا بالله ، واستقاموا على أمره بألاّ خوف عليهم في الدنيا، لأن الله هو وليهم وناصرهم ، ويدافع عنهم ويهديهم سواء السبيل ؛ ولا هم يحزنون على فراقها ، لأن المؤمن ينتقل بالموت ، من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة ، كما ينتقل الوليد من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا ..



وكيف يقعد المؤمن عن استرداد حقه المغتصب والله تعالى يقول :

وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾

[سورة المائدة 12]

وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾

[سورة الأنفال 10]

إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾

[سورة آل عمران 160]

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾

[سورة محمد7]

وكيف يقعد المؤمن عن استرداد حقه المغتصب ، والله عز وجل يخاطب المؤمنين الصادقين في كتابه :



يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿٦٥﴾

[سورة الأنفال 65]

وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾

[سورة النساء 104]

اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً ، والحمد لله رب العالمين .

الخطبة الثانية :

ذكر الحافظ محمد بن نصر المروزي في جزء قيام الليل ، عن الأحنف بن قيس ، أنه كان يوماً جالساً فعرضت له هذه الآية :

لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٠﴾

[سورة الأنبياء 10]

فانتبه فقال : عليَّ بالمصحف ، لألتمس ذكري اليوم ، حتى أعلم من أنا ، ومن أشبه ؟ يعني أنه لما علم أن القرآن قد ذكر جميع صفات البشر ، وبين طبقاتهم ومراتبهم أراد أن يبحث عن نفسه ، في أي الطبقات ، وفي أي المراتب هو ؟ فنشر المصحف وقرأ فمرَّ بقوم :

كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴿١٩﴾

[سورة الذاريات 17]

ومر بقوم :



تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾

[سورة السجدة 16]

ومرَّ بقوم :

ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾

[سورة آل عمران 134]

ومرَّ بقوم :

وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾

[سورة الحشر 9]

فوقف الأحنف ثم قال : اللهم لست أعرف نفسي هاهنا .. أي لم يجد هذه الصفات في نفسه ، حتى يَعُدَّ نفسه من هؤلاء .. ثم أخذ الأحنف السبيل الآخر ، فمر بالمصحف على قوم :

إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾

[سورة الصافات 35]

ومر على قوم يُسألون :



مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾

[سورة المدثر 42]

فوقف الأحنف وقال : اللهم إني أبرأ إليك من هؤلاء ، فما زال يقلب ورق المصحف ، ويلتمس في أي الطبقات هو ، حتى وقع على هذه الآية :

وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾

[سورة التوبة 102]

فقال : أنا من هؤلاء .. ولعله قالها تواضعاً .. فإذا قرأ أحدنا القرآن فلينظر موضع نفسه في كتاب الله ..

والآن إلى السنة النبوية المطهرة ، وما فيها من أحاديث صحيحة بشأن القرآن : فقد روى عثمان بن عفان رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : **((خيركم من تعلم القرآن وعلمه))** .

[صحيح البخاري 4739]

وروى سيدنا عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : **((إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع آخرين))** .

[رواه الإمام مسلم في صحيحه]

ومن أحاديث متفق عليها :

أن **((الـــذي يقرأ القرآن ، وهو ماهر به ، مع السفرة الكرام البررة))** ، وأن **((المؤمن الذي يقــرأ القرآن ، مثل الأترجة ريحها طيب ، وطعمها طيب))** ، وأنه **((لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتــــاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل ، وآناء النهار ، ورجل آتاه الله مالاً ، فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار))** .



[أخرجه مسلم في صحيحه واللفظ له]

ومن حديث موجه لسيدنا معاذ رضي الله عنه : **((أن يا معاذ ، المؤمن لدى الحق أسير ، يعلـــــم أن عليه رقيباً ، على سمعه ، وبصره ، ولسانه ويده ، وإن المؤمن قيده القرن عن كثير من هوى نفسه ، وشهواته وحال بينه وبين أن يهلك فيما يهوى))** .

[رواه أبو نعيم في الحلية]

وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه : **((لا يحزن قارئ القرآن ، ولا يعذب الله قلباً وعى القرآن ، ومن جمع القرآن متعه الله بعقله حتى يموت))** .

ويقول أيضاً : **((اقرأ القرآن ما نهاك ، وإن لم ينهك فلست تقرؤه))** .

[ذكره الديلمي في الفردوس]

((وما آمن بالقرآن من استحل محارمه ، وربَّ تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه)).

[قال الحافظ العراقي : أخرجه الترمذي من حديث صهيب ، وقال : ليس إسناده بالقوي انظر حاشية إحياء علوم الدين 274/1 ط]

04 - القضاء والقدر

نشرت في مجلة نهج الإسلام ، عدد (32)

الإيمان بالقضاء والقدر ، من العقائد التي يجب أن تعلم بالضرورة.

أشار إلى هذا صاحب الجوهرة :

وواجب إيماننا بالقدر و بالقضا كما أتى في الخبر

لقوله صلى الله عليه وسلم : **" الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره " .**

(رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي)

والقضاء تعلق علم الله وإرادته بإيجاد الأشياء على وجه مخصوص والقدر إيجادها فعلاً على هذا النحو .

[تعلق القضاء بالعلم ، وتعلقت الإرادة بالقدرة والفعل]

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أن هناك علاقة بين توحيد الألوهية وبين القضاء والقدر ، فقال صلى الله عليه وسلم ، فيما رواه الديلمي بمسند الفردوس :

"الإيمان بالقدر نظام التوحيد "

النتائج النفسية التي يحققها الإيمان بالقضاء والقدر فيما رواه الحاكم في تاريخه : "



الإيمان بالقدر يُذهب الهم والحزن " .

ولكن النبي صلى الله عليه وسلم نهانا عن الخوض في موضوع القضاء والقدر ، والبحث في مكنون أسرارهما ، لأن المخلوق الحادث لا يستطيع أن يدرك علم الخالق القديم ، فقال صلى الله عليه وسلم :

"إذا ذُكر أصحابي فأمسكوا ، وغذا ذُكرت النجوم فأمسكوا، وإذا ذُكر القدر فأمسكوا "

[رواه الطبراني وابن عدي بسند حسن]

والمؤمن يجب أن يعتقد أن جميع أفعال العباد ، وكل حادث في الكون إنا هو بقضاء الله وقدره ، ولكنَّ مشيئة الله شاءت أن يكون للإنسان مشيئة حرة، هي أساس التكليف ، والابتلاء، ومناط الثواب والعقاب ، وبسببها يكسب الإنسان الخير ، أو الشر ، فيُثاب على الخير ، ويُعاقب على الشر قال تعالى :

لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ

[سورة البقرة الآية 286]

والقضاء والقدر نوعان : نوع لا كسب فيه للإنسان ؛ لأنه لا إرادة له فيه ولا يؤاخذ عليه ، كحركة الأفلاك والأنواء ، ونزول المطر ، ونمو النبات ، واختلاف أحوال الناس من صحة ومرض ، وقوة وضعف وغنى وفقر ، وحياة وموت ، وبما أن من لوازم الحكيم ، أن تكون أفعاله حكيمة ، والقضاء والقدر من أفعاله ، فالقضاء والقدر الذي لا كسب للإنسان فيه متعلق بالحكمة ، والحكمة متعلقة بالخير المحض ، قال تعالى مشيراً إلى هذا النوع من القضاء والقدر :

قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ

[سورة آل عمران الآية 26]

والنوع الثاني من القضاء والقدر متصل بأفعال العباد ، فالإنسان مُنح إرادة حرة هي أساس التكليف ، والابتلاء ، وقد منحه الله أيضاً مقومات التكليف ، والابتلاء ، فسخر له ما في السماوات والأرض تسخير تعريف وتكريم ، ليؤمن به ويشكره ، ومنحه العقل قوةً إداركية يتعرف به إلى الله خلال الكون المسخر ، قال تعالى :



وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾

[سورة الرحمن]

وبعث الأنبياء والرسل ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ، ليكون منهجاً للإنسان يهتدي به .. قال تعالى :

فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى

[سورة طه الآية 123]

وأودع الله في الإنسان الشهوات ، ليرقى بها صابراً أو شاكراً إلى رب الأرض والسماوات ، قال تعالى :

وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾

[سورة النازعات]

لقد منح الإنسان إرادة حرة ، لتكون أساس التكليف والابتلاء ، وليكون النجاح بها ثمن العطاء ، ومادام الإنسان قد مُنح هذه الإرادة الحرة ليكسب بها أعماله الاختيارية ، وليكون مسؤولاً في حدود ما منحه الله إمكانات ، فلن تُسلب منه هذه الإرادة الحرة ؛ لأنه يستحيل أن تتناقض إرادات الله ، ومتى توجهت إرادة الإنسان إلى فعل شيء ، في الدائرة التي هي مناط اختياره ، تعلقت إرادة الله فأمدته بالقدرة على تحقيقها وسيَّرت الفعل الاختياري الكسبي للإنسان إلى الجهة التي تستحق الخير أو الشر ، وهكذا تُوظَّف مشيئة الإنسان الحرة الخيِّر ة ، أو الشريرة للخير المطلق. قال تعالى :

وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ

[سورة الأنعام الآية 129]

وهنا محل الإشارة إلى مقولة : " **إن الله خالق لفعل الإنسان** " فهذا لا يعني أنه أجبره عليه ، ولا يعني أيضاً أنه رضيه منه ، ومقولة : " **إن الله علم ما كان وما سيكون** " لا يعني أن علم الله هو إلغ اء لاختيار الإنسان ، إنه علم كشف وليس جبراً ، فالجبر يتناقض مع التكليف .



(ويضيف بعض العلماء على مقومات التكليف ، القدرة الظاهرة على تنفيذ مشيئة الإنسان ، وهي في حقيقتها قدرة الله التي تتحقق بها مشيئة الإنسان)
والابتلاء والمسؤولية والجزاء والثواب والعقاب .. لقول الله عز وجل :

سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾

[سورة الأنعام الآية 148-149]

وهذه آية محكمة هي أصل في نفي الجبرية ، وتُحمل الآيات المتشابهة كما هو رأي علماء الأصول على الآيات المحكمة .

ولعل في قول سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنهما

(الحسن بن علي رضي الله عنهما : هو سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وريحانته ، وأشبه خلق الله به في وجهه ، ولد في سنة 3هـ . كان يحبه صلى الله عليه وسلم ، وكان أكثر دهره صامتاً ، فلا يدخل في مراء ، ولا يُدلي بحجة حتى يرى قاضياً ، توفي بعد وفاة والده بستة أشهر . وصالح معاوية سنة 41هـ وسُمي ذلك العام عام الصلح، ورُفع مقامه فهو وأخوه سيدا شباب أهل الجنة .(سير الأعلام 245/3)(البداية والنهاية 42/8))

تلخيصاً لعقيدة القضاء والقدر عند أهل السنة والجماعة : من لم يؤمن بقضاء الله فقد كفر، ومن حمل ذنبه على الله فقد فجر ، وإن الله تعالى لا يُطاع استكراهاً ، ولا يُعصى بغلبة، لأنه تعالى مالكٌ لما ملّكهم ، وقادرٌ على ما أقدرهم ، فإن عملوا بالطاعة لم يحل بينهم وبين ما عملوا وإن عملوا بالمعصية فليس هو الذي أجبرهم على ذلك ، ولو أجبر الخلق على الطاعة لأسقط الثواب ، ولو أجبرهم على المعصية لأسقط العقاب ، ولو أهملهم كان ذلك عجزاً في القدرة ، فإن عملوا بالطاعة فله المنّة عليهم ، وإن عملوا بالمعصية فله الحجة عليهم " .



[انظر (المرقاة 52/1) نقلاً عن تائية القضاء والقدر وشرحها]

وللحسن البصري رضي الله عنه أجوبة شافية في القضاء والقدر ، فعندما قيل له : إن الله أجبر عباده ؟ قال : الله أعدل من ذلك ، فلمَّا قيل له : أفوض إليهم ؟ قال : هو أعزُّ من ذلك ، ثم قال : لو أجبرهم لما عذبهم ، ولو فوَّض إليهم لما كان للأمر معنى.

وهناك من يعتذر بالقضاء والقدر ليتنصل من المسؤولية ، وهذا عذرٌ واهٍ وحجة باطلة.

فتجاهل الإرادة الحرة التي منحها الله للإنسان ، وكذلك الفكر الذي يميز به الخير من الشر ، والشرع الذي فيه تبيان لكل شيء ، فإن هذا التجاهل لا يُعفي صاحبه من المسؤولية .

"أتي برجل سارق إلى عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، فقال له عمر : ما حملك على السرقة ؟ فقال : قضاء الله وقدره يا أمير المؤمنين فأمر عمر بقطع يده ثم حسمت ، ثم جلده ثمانين جلدة ، وقال له : إنما قطعت يدك لسرقتك ، وإنما جلدتك لكذبك على الله واحتجاجك بالقضاء والقدر ، فقضاء الله تعالى لم يخرجك من الاختيار إلى الاضطرار. "

(من كتاب شرح الطريقة المحمدية للشيخ عبد الغني النابلسي)

* * *

وعند أهل السنة والجماعة هناك فرق بين القضاء والمقضي ، فالقضاء فعل الله تعالى وإرادته ومشيئته ، وقضاء الله تعالى كلّه حق ، وكله للعباد ، وكله حسن ، والمقضي هو كسب العبد وفعله ظاهراً ، وفيه العدل والجور ، والخير والشر ، والحسن والقبح ، ويجب على المسلم بناء على هذا ــ أن يقاوم المقضي إذا كان جوراً ، أو شراً ، أو قبحاً لا أن يستسلم له ؛ لأن الرضا بالكفر كفر ، والرضا بالظلم ظلم ، وهكذا قال تعالى :

وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾

[سورة الشورى]

فإن عجز المسلم عن إزالة المقضي ، أو مقاومته ، فعليه أن يضرع إلى الله أن ينجيه منه ، قال تعالى :

وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾



[سورة الأنعام الآية 42-43]

وللدعاء أثر في رد القضاء ، فقد قال صلى الله عليه وسلم :

"الدعاء يردُّ القضاء. "

[رواه الحاكم في صحيحه عن ثوبان]

وقال أيضاً :

"لا يردُّ القدر إلا الدعاء. "

[رواه الترمذي والحاكم عن سلمان بسند صحيح]

"فالدعاء من أنفع الأدوية ، وهو عدو البلاء يدافعه ، ويعالجه ، ويمنع نزوله ، ويرفعه أو يخففه إذا نزل ، وهو سلاح المؤمن " .

[انظر الطب النبوي لابن قيم الجوزية]

وقد أشار العلامة البيجوري في حاشيته على جوهرة التوحيد عند قول الناظم :

وعندنا أن الدعاء ينفع كما من القرآن وعداً يُسمع

لقد أشار إلى أن الدعاء ينفع في القضاء المبرم ، فيكون اللطف ، وفي القضاء المعلق فيكون الدفع .

لذلك لا يُجدي الذكاء ، والحيطة ، والحذر ، في ردِّ القضاء ، ولكن الدعاء المخلص ، عقب التوبة الصادقة ، ينفع في ردِّ القضاء ، أو اللطف به .. قال صلى الله عليه وسلم :

"لا يُغني حذر من قدر ، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل."

[رواه الحاكم في صحيحه عن عائشة]

والإيمان بالقضاء والقدر لا يتناقض مع الأخذ بالأسباب ، فلا تتم مصالح العباد في معاشهم إلا بدفع الأقدار بعضها ببعض ، فكيف بمعادهم ، فإن الله أمرنا أن ندفع السيئة وهي من قضائه وقدره ، بالحسنة وهي من قضائه وقدره ، فقد روى الإمام البخاري عن عمر بن الخطاب وعن الصحابة ، رضوان الله عليهم أجمعين ، أنهم لما قصدوا الشام وانتهوا إلى الجابية ، بلغهم أن بها موتاً عظيماً ، ووباءً ذريعاً ، فافترق الناس فرقتين ، فقال بعضهم : لا ندخل على الوباء ، فنلقي بأيدينا إلى التهلكة ، وقالت طائفة أخرى : بل ندخل ونتوكل ، ولا نهرب من قدر الله ، ولا نفر من الموت ، فرجعوا إلى عمر فسألوه عن رأيه فقال : نرجع ولا ندخل على الوباء ، فقال له المخالفون لرأيه : أنفرُّ من قدر الله ؟ فقال عمر : نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله ! ، أرأيتم لو كان لأحدكم غنم فهبط وادياً له شعبتان ، إحداهما مخصبة ، والأخرى مجدبة ، أليس إن رعى المخصبة رعاها بقدر الله تعالى ، وإن رعى المجدبة رعاها بقدر الله ؟ " .



* * *

ومن ثمرات الإيمان الصحيح المتوازن بالقضاء والقدر ؛ الاستقامةُ على أم ر الله ، والعمل بما يرضيه لأنه ؛

" **إليه يُرجعُ الأمرُ كُلُّهُ** "

[سورة هود الآية 123]

مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾

[سورة فاطر]

ومن ثمرات الإيمان الصحيح : الشجاعة ، والإقدام ، فقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعرفون جبناً ، ولا إحجاماً ، ففي آذانهم دويُّ التوجيه الإلهي ، قوله تعالى :

قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾

[سورة التوبة]

ومن ثمرات الإيمان الصحيح : التحلي بالصبر الجميل ، والرضا والتسليم ، فعندما تنزل المصائب ، يذكر المؤمن عند الصدمة الأولى قوله تعالى :

وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾

[سورة البقرة]

وهكذا نجد أن الإيمان بالقضاء والقدر ركن خطير من أركان الإيمان وهو من العقائد الأساسية التي يجب أن تُعلم بالضرورة .



05 - الإيمان والعمل الصالح

الحمد لله رب العالمين ، يا رب قد عجز الطبيب فداوِنا ، يا رب قد عم الفساد فنجنا ، يا رب قلت الحيلة فتولنا ، وارفع غضبك ومقتك عنا ، ولا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ولا تعاملنا بما فعل السفهاء منا ، وتوفنا غير فاتنين ولا مفتونين .

يا رب اغفر ذنوبنا ، واستر عيوبنا ، واقبل توبتنا ، وأصلح قلوبنا ، وارحم ضعفنا ، وتول أمرنا ، واستر عوراتنا ، وآمن روعاتنا ، وآمنا في أوطاننا ، وبلغنا فيما يرضيك آمالنا ، واختم بالصالحات أعمالنا ، يا رب أعطنا ، ولا تحرمنا ، وأكرمنا ، ولا تهنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وأرضنا ، وارض عنا ، وكن لنا ، وإن لم نكن لأنفسنا ، لأنك أولى بنا .

يا ذا الجلال والإكرام ، يا ذا الكمال والإنعام ، يا ذا العفو والغفران ، سبحانك إذا كان عفوك يستغرق الذنوب فكيف يكون رضوانك ؟ وإذا كان رضوانك تزكو به النفوس ، فكيف يكون حبك ؟ وإذا كان حبك ينير القلوب ، فكيف يكون ودك ؟ وإذا كان ودك ينسي كل ما سواك فكيف يكون لطفك ؟

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إذا ظهر قهر ، وإذا تجلى طاشت لأنوار جلاله ألباب البشر ، فيما رواه البيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن سيدنا داود ناجى ربه فقال : " **يا رب ، أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك ؟ قال : يا داود أحب عبادي إلي تقي القلب ، نقي اليدين ، لا يمشي إلى أحد بسوء ، أحبني ، وأحب من أحبني ، وحببني إلى خلقي .. فقال : يا رب ، إنك تعلم أني أحبك ، وأحب من يحبك ، فكيف أحببك إلى خلقك ؟ قال : يا داود ، ذكرهم بآلائي ، ونعمائي ، وبلائي** " .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، وصفيه وخليله ، صاحب المقام المحمود ، والحوض المورود ، والشفاعة العظمى ، أول العابدين ، وسيد ولد آدم أجمعين .

ففيما روى الطبراني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

((**بئس العبد عبد تخيل واختال ، ونسي الكبير المتعال ، بئس العبد عبد تجبر ، واعتدى ، ونسي الجبار الأعلى ، بئس العبد عبد سها ولها ، ونسي المقابر والبلى ، بئس العبد عبد عتا وطغى ، ونسي المبتدى والمنتهى ، بئس العبد عبد يخلط الدين بالشبهات ، بئس العبد عبد يخلط الدنيا بالدين ، بئس العبد عبد طمعٌ يقوده ، بئس العبد عبد هوى يضله ، بئس العبد عبد رَغَبٌ يذله**)) .



اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ، وآل بيته الطيبين الطاهرين ، الهداة المهديين ، الغر الميامين ، أبطال دعوته ، وقادة ألويته ، الذين خصوه بمهجهم ، وافتدوه بأرواحهم ، ورغبوا بأنفسهم عن نفسه .

فيما روي عن سيدنا علي كرم والله وجهه ، أنه أوصى كميل النخعي ، فقال يا كميل : **"الناس ثلاثة ، عالم رباني ، ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح ، لم يستنيروا بنور العلم ، ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق ، فاحذر يا كميل أن تكون منهم .**

يا كميل العلم خير من المال ، لأن العلم يحرسك ، وأنت تحرس المال ، والمال تنقصه النفقة ، والعلم يزكو على الإنفاق .

يا كميل معرفة العلم دين يُدان به ، يُكسب الإنسان الطاعة في حياته ، وجميلَ الأحدوثة بعد وفاته ، العلم حاكم والمال محكوم عليه .

يا كميل مات خُزان المال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقي الدهر ، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة " .

عباد الله أوصيكم بتقوى الله وأحثكم على طاعته ، وأستفتح بالذي هو خير .

الإسلام عقيدة وشريعة :

أيها الإخوة المؤمنون في دنيا العروبة والإسلام ، الإسلام هو دين الله الذي أوحاه إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فيه عقيدة وشريعة ، والعقيدة بكلياتها أصل ، والشريعة بأحكامها التفصيلية فرع ، وإن صحت عقيدة المرء صح عمله ، وإن فسدت فسد عمله .

وأركان العقيدة ه ي أركان الإيمان ، وأركان الشريعة هي أركان الإسلام وفروعه ، من عبادات ومعاملات وأخلاق .

1 ـ العقيدة إيمان والشريعة عملٌ صالح :



وقد عبر القرآن عن العقيدة بالإيمان ، وعن الشريعة بالعمل الصالح فورد الإيمان مقترناً بالعمل الصالح ، في أكثر آيات القرآن الكريم ، لأن العلاقة بين الإيمان والعمل الصالح علاقة السبب بالنتيجة ، وعلاقة الشجر بالثمر ، فقال تعالى :

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا

(سورة الكهف 107)

ولأن الإسلام دين الفطرة ، فقد راعى في الإنسان الجانب العقلي ، وجعل كماله معرفة الحقائق المطابقة للواقع ، المؤيدة بدليل قطعي ، وراعى في الإنسان الجانب السلوكي ، وجعل كماله انطلاقة من حقائق يقينية ، وتوجيهه نحو هدف كبير لتحقيق سعادة الفرد والمجتمع ، في الدنيا والآخرة .

2 ـ لابد من طلب العلم لمعرفة الأمر والنهي :

إن السنة المطهرة الثابتة جاءت لتبين للناس ما نزل إليهم ، فحضت على طلب العلم بالله ، وبأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى ، وما يتبع ذلك من إيمان باليوم الآخر ، والملائكة والكتاب والنبيين ، ليصح الإيمان ، وحضت على طلب العلم بالأمر والنهي والحلال والحرام، والمندوب والمكروه والمباح ، ليصح الإسلام .

كل ذلك تحقيقاً لمفهوم التكليف الذي ورد في معرض الأمانة التي حملها الإنسان ، والتي استنكفت السماوات والأرض والجبال عن حملها ، قال تعالى :

إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾

(سورة الأحزاب)



فنحن في الدنيا في دار تكليف ، وهل من عمل أجل وأعظم من أن نعرف ما التكليف ؟ وما فحواه ؟ وما مؤداه ؟ لأننا إذا عرفناه وأخذنا به ، انتقلنا إلى دار التشريف ، حيث ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

روى الإمام البخاري رضي الله عنه في صحيحه ، وصحيحا البخاري ومسلم هما أصح كتابين بعد كتاب الله ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

((**من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين**)) .

وقال أيضاً :

((**إنما العلم بالتعلم ، وقليل الفقه خير من كثير العمل**)) .

[أخرجه البخاري في كتاب العلم]

فلقد بين النبي صلى الله عليه وسلم في هذين الحديثين أن الخير كله في العلم ، وأن العلم مقدم على العمل ، وأن للعلم طريقاً واحداً لكسبه ، ألا وهو التعلم ، ولم يقل عليه الصلاة والسلام التعليم ، لأن كلمة التعلم تفيد بذل الجهد الذاتي للمتعلم ، بناءً على رغبة حرة صادقة ، بينما التعليم يفيد بذل جهد المعلم لا المتعلم ، ويفيد الإلزام ، لا الرغبة الطوعية .

ولقد حض النبي عليه الصلاة والسلام على طلب العلم ، وعلى تعلمه ، وتعليمه ، وبذله ، ومذاكرته ، ومدارسته ، فقال عليه الصلاة والسلام ، فيما رواه بن عبد البر والديلمي عن سيدنا معاذ بن جبل :

((**تعلموا العلم ، فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة لأنه معالم الحلال والحرام ، ومنار سبيل أهل الجنة ، وهو الأنيس في الوحشة ، والصاحب في الغربة ، والمحدث في الخلوة ، والدليل على السراء والضراء ، والسلاح على الأعداء ، والزين عند الأخلاء ، ولأن العلم حياة القلوب ومصابيح الأبصار ، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار والدرجات العلا في الدنيا والآخرة ، التفكر فيه يعدل الصيام ، ومدارسته تعدل القيام ، به توصل الأرحام، وبه يُعرف الحلال من الحرام ، وهو إمام العمل يُلهمه السعداء ويُحرمه الأشقياء**)) .

وبما أن الإنسان خُلق ليسعد إلى الأبد في جنة ربه الفرد الصمد ، وبما أن ثمن الجنة هو العلم الصالح ، لقوله تعالى :



ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٣٢﴾

(سورة النحل)

3 ـ طلب العلم واجب :

وبما أن العمل الصالح لا يصح إلا إذا صحت العقيدة ، لهذا كان طلب العلم فرضاً على كل مسلم ، ليحقق الهدف الذي خُلق من أجله ، لذا قال صلى الله عليه وسلم :

((**طلب العلم فريضة على كل مسلم**)) .

[رواه بن ماجه والديلمي ، وهو حديث حسن بطرقه]

فكما أن تنفس الهواء فرض لاستمرار الحياة ، كذلك طلب العلم فرض لتحقيق السعادة في الدنيا والآخرة ، وإذا أعرض الإنسان عن طلب العلم ، أو طلبه من غير أهله ، زاغت عقيدته وساء عمله ، وهلك في الدنيا ، وشقي في الآخرة ، لذلك كان طلب العلم ، بل طلب العلم من أهله الصادقين المخلصين ، ضماناً لسلامة الدين ، يروى في الأثر : **((دينك .. دينك . إنه لحمك ودمك ، خذ عن الذين استقاموا ، ولا تأخذ عن الذين مالوا))** .

ويُعزى للإمام مالك رضي الله عنه ، قوله : "**إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم**" .

طلب العلم حياة للقلب ، والجهل موت له ، فليس الإنسان جسماً بعضه القلب ، ولكنه قلب غلافه الجسم ، ولعلك يا أخي إن فتشت عن أعجب ما خلق الله في السماء والأرض ، لن تجد أعجب ، ولا أروع ، ولا أدق ، ولا أجمل من قلب الإنسان ، تصلح أوتاره بالعلم ، والعمل ، والإقبال ، فيفيض رحمة وشفقة ، وحباً وحناناً ، ومعاني لطافاً ، وشعوراً رقيقاً حتى يجاوز في سموه الملائكة المقربين .. وتفسد أوتاره بالجهل ، والإساءة ، والإعراض ، فينضح قسوةً ، وسوءًا ، ولؤماً ، حتى يهوي إلى أسفل السافلين .

يكبر القلب ولا نرى كبره ، فيتضاءل أمامه كل كبير ، ويصغر القلب ، ولا نرى صغره ، فيتعاظم عليه كل حقير .

إن من وجد كل شيء ، وفَقَدَ قلبه لم يجد شيئاً ، ففيما رواه الطوسي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :



((**طالب العلم بين الجهال كالحي بين الأموات**)) .

والعلم عزٌّ حقيقي ، لا يُسلب منك ، ولأن رتبة العلم أعلى الرتب ، ولا شيء يذل الإنسان كجهله ، ففيما رواه الشهاب ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

((**ما أعز الله بجهل قط ، ولا أذل بعلم قط ، سبحانك يا رب ، إنه لا يذل من واليت ، ولا يعز من عاديت ، وما اتخذت ولياً جاهلاً ، لو اتخذته لعلمته**)).

اجعُل لربك كـل عـزك يستقـــر ويثبـت
فإذا اعتززت بمن يموت فإن عـزك ميـت

ومعرفة الله ، والاستقامة على أمره ، والتقرب إليه بالعمل الصالح هو أثمن ما في الحياة الدنيا ، وسبب الفوز في الآخرة .

ففيما روى ابن عبد البر في كتاب العلم من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

((**إذا أتى عليَّ يوم لا أزداد فيه علماً يقربني إلى الله فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم**)) .

4 ـ القرآن مصدر العلوم :

وبما أن القرآن الكريم هو كتاب الله ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والذي يهدي للتي هي أقوم ، وهو قطعي الثبوت ، وقطعي الدلالة ، وهو الغنى الذي لا فقر بعده ، ولا غنى دونه ، لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم :

((**من أوتي القرآن فرأى أن أحداً أوتي خيراً منه فقد حقر ما عظمه الله**)) .

[رواه النووي في آداب حملة القرآن]

وبما أن شرف المرسَل من شرف المرسِل ، وبما أن العلماء أمناء الرسل ، لذلك قال النبي الكريم صلى الله عليه وسلم :

((**إن من إجلال الله إكرام العلم والعلماء ، وإكرام حملة القرآن وأهله**)) .

[رواه أبو داود]

لكن العلم كما يرى الإمام الغزالي رحمه الله : " لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك ، فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً " .

ومن لم يأخذ هذا العلم عن الرجال فهو ينتقل من محال إلى محال .



ولا يرتجي الوصول من لم يقتف أثر الرسول .

5 ــ الأحاديث الصحيحة الأخذ بها واجب :

إن ما صح من التوجيهات النبوية ، من أقوال وأفعال وإقرار ، يجب العمل بها لأنها المصدر الثاني للأحكام التشريعية ، ولأن الله تعالى أمرنا أن نأخذ بها فقال :

وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾

(سورة الحشر)

بل إن علماء الأصول يعدون ما صح من السنة المطهرة وحياً غير متلو ، استنباطاً من قوله تعالى :

وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾

(سورة النجم)

اجتنبوا مثل هذه الظنون السيئة :

وقد يتوهم المرء أنه يعرف الله ، وهو في الحقيقة لا يعرفه ، فحينما يظن به ظناً يتناقض مع أسمائه الحسنى أو صفاته الفضلى ، أو حينما يظن به ظناً يتناقض مع عدالته ،



وحكمته ، وحمده ، وحينما يظن به ظناً يتناقض مع تفرده بالربوبية والألوهية ، حينما ييأس من رحمته ونصره فهو لا يعرفه ولو ادعى ما ادعى ، وفعل ما فعل ..

فمن ظن أن هؤلاء الذين ساءت طويتهم ، فاجترحوا السيئات ، وارتكبوا الموبقات ، وبنوا سعادتهم الموهومة على أنقاض الآخرين ، وحسبوا أنهم فازوا وسبقوا ، من ظن من هؤلاء جهلاً ، أو تجاهلاً أن الله سيسوي بينهم وبين الذي ن آمنوا وعملوا الصالحات ، وأخلصوا دينهم لله ، في الحياة الدنيا وفي الحياة الآخرة ، فقد ضل ضلالاً بعيداً ، لأن موازين هؤلاء قد اختلت ، وأحكامهم قد اضطربت .. قال الله تعالى :

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾

(سورة الجاثية)

ومن ظن أن الله يترك خلقه سدى معطلين من الأمر والنهي ، ولا يبين لهم طريق سعادتهم ، ولا طريق شقائهم ، ولا الحقائق التي يجب أن يعلموها بالضرورة ، ولا المنهج القويم الذي يجب أن يتبعوه ، فقد ظن بالله غير الحق ، ظن الجاهلية .. قال الله تعالى :

أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

(سورة القيامة)

ومن ظن أن الله لن يجمع عبيده بعد موتهم ليجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، ويبين لخلقه حقيقة ما اختلفوا فيه ، ويظهر لهم صدق رُسله ، وكذب أعدائه فقد ظن به غير الحق ظن الجاهلية ، قال الله تعالى :



أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾

(سورة المؤمنون)

ومن ظن أن الله يضيع على المؤمن عمله الصالح ، ويتفلت المجرم من عدالته ، فقد ظن بالله غير الحق ، ظن الجاهلية ..

يروى أن أعرابياً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : يا رسول الله ، عظني وأوجز .. فقال :

((**فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً ير ه** ، فقال : قد كفيت .. عندها قال النبي الكريم : **فَقُه الرجل**)) .

[ورد في الأثر]

ولم يقل : فقِه ، لأن " فقِه " تعني معرفة الحكم .. أما فقُه فتعني أنه صار فقيهاً .

ويروى أن أعرابياً آخر جاء النبي صلى الله عليه وسلم وقال له : يا رسول الله ، عظني ولا تطل ؟ فقال الني الكريم :

((**قل آمنت بالله ثم استقم**)) ، فقال الأعرابي : أريد أخف من ذلك ، فقال : ((**إذاً استعد للبلاء**)) .

[ورد في الأثر]

وحينما يعسر الفهم ، ويعز التفسير فلا بد من التسليم للعلي القدير ، فأصل الدين معرفته ، وحسن الظن بالله ثمن الجنة .

من ظن انفكاك لطفه عن قدره فذلك لقصور نظره ، وربما أعطاك فمنعك ، وربما منعك فأعطاك ، وقد يكون العطاء من الخلق حرماناً ، والمنع من الله إحساناً ، ومتى فتح لك باب الفهم في المنع ، عاد المنع عين العطاء ، وإنما يؤلمك المنع لعدم فهمك عن الله فيه .

ومتى أوحشك من خلقه فليفتح لك باب الأنس به ، وربما وجدت في الفاقات ما لا تجده في الصوم والصلاة ، فلا تستبطئ منه النوال ، ولكن استبطئ من نفسك وجود الإقبال ، وما لم تُفرّغ قلبك من الأغيار ، فلن يملأه بالمعارف والأسرار ، فكما أنه لا يحب العمل المشترك .. فإنه لا يحب القلب المشترك ، فالعمل المشترك لا يقبله ، والقلب المشترك لا يُقبل عليه ، وهذا كله منطوٍ في قوله تعالى :



كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦

ويروى عن الحسن ابن علي رضي الله عنهما أنه قال : **<<** من حمل ذنبه على الله فقد فجر ؛ إن الله لا يطاع استكراهاً ، ولا يعصى بغلبة ، فإن عمل الناس بالطاعة ، لم يحل بينهم وبين ما عملوا ، وإن عملوا بالمعصية فليس هو الذي أمرهم ، ولو أجبرهم على الطاعة لأسقط الثواب ، ولو أمرهم بالمعصية لأسقط العقاب ، ولو أهملهم لكان عجزاً في القدرة ، فإن عملوا بالطاعة فله المنة عليهم ، وإن عملوا بالمعصية فله الحجة عليهم >> .

الإيمان والأخلاق :

حينما تطلب العلم من أهله تصح عقيدتك ، عندئذ تحملك عقيدتك الصحيحة على عبادة الله حق العبادة ، تلك العبادة التي تثمر طمأنينة وأمناً لا يعرفها إلا من ذاقها ، وتثمر صفاءً وسعادة ، لا ينكرها إلا من حرمها ، وتثمر رؤية صحيحة تنفذ إلى حقائق الأشياء ، متجاوزةً صورها الخداعة ، وتثمر سلوكاً أخلاقياً أصيلاً ، هو النتيجة اللازمة للإيمان .

1 ــ إصلاح الأخلاق من مهمة الأنبياء



فقد وضّح النبي صلوات الله عليه أن الهدف الكبير من بعثته إرساء البناء الأخلاقي في الفرد والمجتمع بقوله :

((**إنما بعُثت معلماً ، إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق**)) .

[رواه الإمام مالك ، ورواه الإمام أحمد والحاكم وابن عبد البر]

2 ــ الأخلاق الحسنة أثقل في ميزان المؤمن :

وقد جعل الإيمان والأخلاق يتلازمان تلازماً ضرورياً في مجموعة من أحاديثه الشريفة الصحيحة ، فبين أن أحسن الناس إسلاماً أحسنهم خلقاً ، وأن أكملهم إيماناً أحسنهم خلقاً ، وأن من أحب عباد الله إلى الله أحسنهم خلقاً ، وأن خير ما أعطي الإنسان خلقٌ حسن ، وأنه ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن ، وإن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم ، بل إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة ، والخلق الحسن يذيب الخطايا كما يذيب الماء الجليد ، والخلق السوء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل .

يقول الإمام الغزالي رحمه الله : " لو قرأتَ العلم مائة سنة ، وجمعت ألف كتاب لا تكون مستعداً لرحمة الله إلا بالعمل الصالح " ، قال الله تعالى :

وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾

(سورة النجم)

وقال تعالى :

قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا

(سورة الكهف 110)

ومن ظن أنه بدون الجهد يصل فهو متمنٍّ ، والمنى بضائع الحمقى ، وطلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب ، والعلم بلا عمل جنون ، والعمل بلا علم لا يكون .



3 ـ النبي قمة الأخلاق :

فالإسلام إذاً ، عقيدة وشريعة ، وعلم وعمل ، وإيمان واستقامة ، ودعوة وإحسان ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أسوةً حسنة ، وقدوة صالحة ، ومثلاً أعلى .

فلما عرض عليه الأسرى عقب بعض الغزوات وقفت امرأةٌ أسيرة وقالت : يا رسول الله ، هلك الوالد ، وغاب الوافد ، فامنن علي منَّ الله عليك ، وخل عني ولا تشمت بي أحياء العرب ، فإن أبي كان سيد قومه ، يفكُّ العاني ، ويعفو عن الجاني ، ويحفظ الجار ، ويحمي الذمار ، ويفرج عن المكروب ، ويطعم الطعام ، ويفشي السلام ويحمل الكلَّ ، ويعين على نوائب الدهر ، وما أتاه أحد في حاجة فرده خائباً .. أنا بنت حاتم طيِّئ .. فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يا جارية ، هذه صفات المؤمنين حقاً ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : خلوا عنها ، فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق " ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : ارحموا عزيز قوم ذل ، وغنياً افتقر ، وعالماً ضاع بين الجهَّال ، فاستأذنته بالدعاء .. وقالت : أصاب الله ببرك مواقعه ، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة ، ولا سلب نعمة عن كريم قوم إلا جعلك سبباً في ردها ، ورجعت إلى أهلها ، وقالت لأخيها عدي : ائت هذا الرجل ، فإني قد رأيت هدياً ، وسمتاً ، ورأياً يغلب أهل الغلبة ، ورأيت فيه خصالاً تعجبني ، رأيته يحب الفقير ، ويفك الأسير ، ويرحم الصغير ، ويعرف قدر الكبير ، وما رأيت أجود ، ولا أكرم منه ، فإن يكن نبياً فللسابق فضله ، وإن يكن ملكاً فلا تزال في عز ملكه ، قيل : وأسلمت ، واستجاب لها أخوها ، وقَدِم إلى المدينة ، وهو يظن أنه سيلقى ملكاً فقال : دخلت على محمد ، وهو في المسجد ، فسلمت عليه ، فقال : من الرجل ؟ فقلت : عدي بن حاتم ، فقام ، وانطلق بي إلى بيته ، فوالله إنه لعامد بي إليه ، إذ لقيته امرأة ، ضعيفة كبيرة في الطريق فاستوقفته ، فوقف طويلاً تكلمه في حاجتها ، فقلت في نفسي ، والله ما هذا بملك .. ثم مضى بي حتى دخل بيته .. فتناول وسادة من أدم محشوة ليفاً فقذفها إليَّ ، فقال : اجلس على هذه ، قلت : بل أنت فاجلس عليها ، فقال : بل أنت .. فجلست عليها ، وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأرض ، ثم قال لي : ((**لعلك يا عدي ، إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من فقرهم ، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ، ولعله إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من كثرة عدوهم ، وقلة عددهم ، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها فتزور هذا البيت لا تخاف .. ولعله إنما يمنعك من دخول**



في هذا الدين أنك ترى المُلْك والسلطان في غيرهم ، وايم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل ، قد فتحت عليهم ، وأن كنوز كسرى قد صارت لهم)) .

[مصنف ابن أبي شيبة عن حذيفة]

قال : فأسلمت .. ولقد عُمِّر عدي حتى رأى بنفسه كيف تحققت كل بشارات النبي صلى الله عليه وسلم .

أيها الإخوة الأحباب ، أيها الإخوة المستمعون ، لقد رأيتم من خلال ما تم عرضه من حقائق مؤيدة بالأدلة النقلية المتوافقة مع الأدلة العقلية أن الإنسان هو المخلوق الأول من بين المخلوقات ، المكرم بأن سخر الله له ما في الأرض والسماوات ، المكلف بمعرفة ربه معرفة يقينية ، وبطاعته طاعة تامة ومخلصة ، وأن التكليف يقتضي التخيير وأن التخيير يقتضي المسؤولية والجزاء ، فعن قيس بن عاصم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

((**يا قيس إن مع العز ذلاً ، وإن مع الحياة موتاً ، وإن مع الدنيا آخرة ، وإن لكل شيء حسيباً ، وعلى كل شيء ر قيباً ، وإن لكل حسنة ثواباً ، ولكل سيئة عقاباً ، وإن لكل أجل كتاباً ، إنه لا بد لك يا قيس من قرين يدفن معك وهو حي ، وتُدفن معه ، وأنت ميت ، فإن كان كريماً أكرمك ، وإن كان لئيماً أسلمك ، ألا وهو عملك**)) .

[ورد في الأثر]

***

إلى متى أنت باللذات مشغـــــول ... و أنت عن كل ما قدمت مســـؤول

***

تزود من الدنيا فإنك لا تـــــــــدري ... إذا جن ليل هل تعيش إلى الفجــر

فكم من صحيح مات من غير علة ... وكم من سقيم عاش حيناً من الدهر

الخطبة الثانية : كأس الحليب

أن يتفكر الإنسان في خلق السماوات والأرض ، وما بث فيهما من دابة ، وأن ينظر الإنسان ممَّ خلق ، وأن ينظر إلى طعامه ، وأن ينظر فيما حوله من مخلوقات وكائنات ، وأشجار ونباتات ، وأن ينظر إلى ما فوقه من أطيار وأنواء ، وإلى ما تحته من بحار وأسماك



، وأن يفكر ، وينظر في ملكوت السماوات والأرض ، لهو باب من واسع من أبواب معرفة الله سبحانه وتعالى ، ومعرفة الله أصل الدين ، وأصل التكليف وأصل السعادة ، وثمن الجنة .

1 ـ الحليب آية من آيات الله :

أيها الناس ، كأس الحليب الذي تشربونه ، أو طبق اللبن الذي تحتسونه ، وما اشتق منهما من خيرات حسان آيات بينات دالة على عظمة الخالق وجلاله ، وتربيته ، ورعايته ، وفضله ، وإنعامه .. قال الله تعالى :

وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾

(سورة النحل)

فهذا الحليب يحتوي على نسب دقيقة وجليلة ، من الماء ، والدسم ، والسكريات ، والمواد المرممة ، وأملاح المعادن ، والفيتامينات ، وعدد كبير من الغازات المنحلة .. من حدّد هذه المكونات ؟ ومن ضبط هذه النسب فيما بينها ؟ .. ومن جعلها كذلك ؟ لتكون غذاءً كاملاً لبني البشر .. أإله مع الله ؟ .. بل أكثرهم لا يعلمون ..

2 ـ انظر إلى هذه البقرة التي تنتج الحليب :

ثم إن هذه البقرة ، التي نأخذ منها الحليب ، من خلقها ؟ .. ومن خلق أجهزتها ؟ .. ومن ذللها للإنسان ؟ .. ومن جعل نتاجها من الحليب غذاءً مناسباً لنا ، لأنه يفوق بكميته حاجة وليدها ، ومن جعله اقتصادياً ؟ لأنه يزيد بثمنه على مصاريف العناية بها وإطعامها .

يذكر العلماء أن الغدة الثديية ، للبقرة ، هي المعمل الحيوي الذي يقوم بتكوين الحليب وإفرازه ، ويُعد السنخ الوحدة الوظيفية ، لتصنيع الحليب ، وهو مجموعة من الخلايا على شكل كرة مجوفة ، محاطة بشبكة من الشعريات الدموية تأخذ المواد الأولية اللازمة لتصنيع



الحليب من الدم الذي يمر في شبكة الشعريات ، ثم تصنعها حليباً ، ثم تطرحها في جوف السنخ ، ليجتمع في قنوات تصب في ضرع البقرة .

هل تستطيع الخلايا غير العاقلة وحدها أن تختار المواد الأولية للحليب من دم البقرة ، لتكون غذاءً كاملاً للإنسان ؟ .. وهل تستطيع هذه الخلايا غير العاقلة وحدها أن تصنّع بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ، يحبه الصغار والكبار ؟

يقول العلماء : إن طريقة عمل هذه الخلايا ، وسر تصنيع الحليب غير معروف تماماً حتى الآن .. علماً بأن اللتر الواحد من حليب البقرة المصنع في الغدد الثديية ، يحتاج إلى أربعمائة لتر من الدم تجول في الأوعية الدموية المحيطة بالغدد الثديية .

سبحان من سخر لنا هذه البقرة ، لتكون معملاً عظيماً ، لتصنيع الغذاء الأول للإنسان ، خلقها ، وسخرها ، وذللها لنا ، نأكل من لحمها ، ونشرب من لبنها ، وننتفع بخدماتها ، قال الله تعالى :

أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَـٰرِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾

(سورة يس)

فيا خجلي منه غداً إذ يقول لـــي — أيا عبدنا هلاّ قرأت كـــتابنـــــا

أما تستحي منا ويكفيك ما جـــرى — أما تخشى من عتبنا يوم جمعنا

أما آن أن تمضي عن الذنب راجعاً — وتدري ما الذي فيه وعـــــدنا

فلو شاهدت عيناك من حسننا الذي — رأوه لما وليت عنا لغيرنـــا

ولو سمعت أذناك حسن خطابنـــا — خلعت ثياب العجب عنك و جئتـنا

ولو لاح من أنوارنا لك لائــــح — تركت جميع الكائنات لأجلنـــا

ولو نسمت من قربنا لك نسمـــة — لمت غريباً واشتياقاً لقربنـــا

ولو ذقت من طعم المحبــــة ذرة — عذرت الذي أضحى قتيلاً بحبنـــا

فما حبنا سهل و كل من ادعـــى — سهولته قلنا لـــــه جـــهلتنـــا



بهذا يستجاب الدعاء :

أيها الإخوة المؤمنون ، روى الإمام أحمد في مسنده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

((ليس شيء أكرم على الله من الدعاء ، وإن الله يحب الملحين في الدعاء ، وإن الله حيي كريم يستحي من عبده أن يبسط إليه يديه ثم يردهما خائبتين)) .

ولكن ما لنا ندعوه فلا يستجيب لنا ؟ .. يجيب عن هذا السؤال إبراهيم بن أدهم ، فقد مر بسوق البصرة فقيل له : يا أبا إسحاق ، إن الله تعالى يقول :

ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ

(سورة غافر : من الآية 60)

ونحن ندعوه فلا يستجيب لنا ، فقال لهم : " لأن قلوبكم ماتت بعشرة أشياء ، عرفتم الله فلم تؤدوا حقه ، وقرأتم القرآن فلم تعملوا به ، وادعيتم حب رسوله فلم تعملوا بسنته ، وقلتم إن الشيطان لكم عدو فاتخذتموه ولياً ، وقلتم إنكم مشتاقون إلى الجنة فلم تعملوا لها ، وقلتم إنكم تخافون من النار فلم تتقوها ، وقلتم إن الموت حق فلم تستعدوا له ، واشتغلتم في عيوب الناس ، وتركتم عيوبكم ، وتقلبتم في نعمة الله ، فلم تشكروه عليها ، ودفنتم موتاكم فلم تعتبروا فكيف يستجاب لكم " .

06 - الوقت

أعزائي المشاهدين أخوتي المؤمنين السلام عليكم ورحمة الله وبركاته :

موضوع لقائنا اليوم قيمة الوقت في حياة الإنسان ، لقد سئلت السيدة رابعة رحمها الله ، وكانت تناجي ربها وتقول :

فليـــــتكَ تحلُو والحــيـــاة مريرةٌ وليتك ترضى والأنامُ غــضابُ

وليت الذي بيني وبينك عامرٌ وبيني وبين العـــــــــــالمين خرابُ

إذا صحَ منك الود فالكل هينٌ وكل الذي فوق التراب تـــــــــــــبُ



أيها الأخوة الأحباب :

سئلت هذه العاشقة ، العارفة ، سئلت ما الإنسان ؟ فقالت : هو بضعة أيام ، كلما انقضى يوم ، انقضى بضع منه ، إنه إذاً وقت محدود ومعلوم ، إن الوقت وعاء لعمله ، ومحل لكسبه، وهو رأس ماله الحقيقي .

يا أيها الأخوة الأحباب :

من خصائص الوقت ، سرعة انقضائه أو هكذا يشعر الإنسان هكذا يشعر الإنسان لأن دقيقة الألم ساعة ، وساعة اللذة دقيقة ، إن الوقت يمر مر السحاب ويجري جري الرياح .

قال الله تعالى :

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ

(سورة يونس : 45) .

ومن خصائص الوقت أيضاً ، أنه إذا مضى لا يعود ولا يعوض .

ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها وما من يوم ينشق فجره ، إلا وينادي يا ابن آدم ، أنا خلق جديد وعلى عملك شهيد ، فتزود مني فإني لا أعود إلى يوم القيامة .

هذا الوقت أيها الأخوة :

الذي هو عمر الإنسان ، قصيرٌ جداً إذا قيس بحياته الأبدية في الدار الآخرة ، فأي رقم مهما كبر ، ولو كان الرقم فلكياً إذا قيس باللانهاية ، إذا قيس بالحياة الأبدية ، فإنه يغدو صفراً .

لذلك يتحسر الإنسان يوم القيامة ، حينما يكتشف أنه ضيع الحياة الأبدية الباقية ، من أجل حياته الفانية ، قال تعالى :

وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِا۟ىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾

(سورة الفجر : من 22 ــ إلى 25) .



قيل أيها الأخوة :

إن الدنيا ساعة ، فجعلها طاعة .

أعزائنا المشاهدين :

في القرآن الكريم إشارات كثيرة ، إلى قيمة الوقت في حياة الإنسان ، وفي القرآن الكريم حضٌ كثير على الاستفادة منه ، بل إن كلمات " وسارعوا " " وسابقوا " في كتاب الله تؤكد هذا المعنى .

قال تعالى :

وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا

(سورة البقرة : **148**) .

يأيها الأخوة الأكارم :

هذه الآية بالإضافة إلى معناها السياقي تشير في مقطعها الأول " **ولكل وجهة هو موليها** " تشير إلى أن وجهة الإنسان الصحيحة ، أو المنحرفة ، ومواقفه المشرفة ، أو غير المشرفة وأعماله الصالحة ، أو غير الصالحة ، هي من كسبه وحده "**ولكل وجهة هو موليها** " وسوف يسأل عنها ، ويجازى عليها ، قال تعالى :

فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

(سورة الحجر : **92**) .

وأن هذه الحرية في الكسب ، هي التي تثمن عمله ، وعمله الطوعي ، الصالح ، والخالص ، سر سعادته الأبدية ، وهذه الحرية بالكسب ، عارية مسترده ، فما دامت المهمة جليلةً وما دام الوقت محدوداً ، دعانا الله جل وعلا إلى الاستفادة من الوقت ، وحضنا على فعل الخيرات فيه .

قال تعالى :

وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ



ففي هذا المقطع كما ترون معي حض على الاستفادة من الوقت في فعل الخيرات ، وترك المنكرات .

ولكن يا أخوة الإيمان يا أيها الأخوة المشاهدون :

هذه الحرية في الكسب لن تدوم طويلاً لابد من أن تسترد إنها تسترد عند الموت والدليل المقطع الثالث .

أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ

أيها الأخوة الأحباب :

من جهل قيمة الوقت ، وهو يملك أن ينتفع به ، فسيأتي عليه حين يعرف قيمته ، ويعرف قدره ، ويعرف نفاسته ، ولكن بعد فوات الأوان عندما يعتصر الندم قلبه ، ولات ساعة مندم.

قال تعالى :

وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾

(سورة المنافقين : 10) .

ماذا كان جواب الله عز وجل ؟ جاء الجواب !.

وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

(سورة المنافقين : 11) .

وهذا الإنسان الذي يجهل قيمة الوقت سوف يعرف قيمته مرةً ثانية ، ولكن يوم القيامة ، حين توفى كل نفس بما عملت ، وحينما تجزى كل نفس بما كسبت ، وحينما يدخل أهل الجنة الجنة ، وحينما يدخل أهل النار النار ، هناك يتمنى أهل النار ، لو يعودون مرةً أخرى إلى حياة التكليف ليعملوا الصالحات ! .



قال تعالى :

وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ

(سورة فاطر : 37) .

ويأتي الجواب :

أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ

(سورة فاطر : 37) .

ولكن ما النذير أيها الأخوة ؟ جاء في تفسير القرطبي أن النذير هو القرآن الكريم ، لأنه خطاب الله للإنسان ، إنه تعليمات الصانع إنه نور يضيء له الطريق ، ويهدي للتي هي أقوم ، والنذير أيضاً هو النبي عليه الصلاة والسلام بسنته التي بين أيدينا .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾

(سورة الأحزاب : 45) .

والنذير هو الشيب ، يقول الله في الحديث القدسي : عبدي كبرت سنك ، وشاب شعرك ، وانحنى ظهرك ، وضعف بصرك فاستح مني ، فأنا أستحي منك .

والنذير أيها الأخوة سن الأربعين ، فمن بلغ الأربعين فقد دخل في أسواق الآخرة .

والنذير هي المصائب :

وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾

(سورة السجدة : 21) .

أيها الأخوة الأكارم : من أشد الأحاديث النبوية الشريفة ، دلالة على قيمة الوقت قوله صلى الله عليه وسلم : بادروا بالأعمال الصالحة فماذا ينتظر أحدكم من الدنيا ــ أي إذا جعل المرء الدنيا أكبر همه ومبلغ علمه ، إذا وضع كل آماله في الدنيا ، ونسي المبتدى والمنتهى ونسي الجبار الأعلى ، ماذا ينتظر من الدنيا يأتي الجواب ــ هل تنتظرون إلا غنىً مطغياً ،



أو فقراً منسياً ، أو مرضاً مفسداً ، أو موتاً مجهزاً ، أو الدجال فشر غائب ينتظر ، أو الساعة، فالساعة أدهى وأمر .

وقد قيل ، إن الليل والنهار يعملان فيك أيها الإنسان ؛ أي يقربانك من أجلك ، فاعمل فيهما الصالحات ، ليكون الوقت مستثمراً لا مستهلكاً ، فمن علامات المقت إضاعة الوقت .

07 - حقيقة الإنسان

المسلمون يعدون في العالم مليار ومائتين مليون ، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول في الحديث الشريف الصحيح :

لن تغلب أمتي من أثني عشره ألف من قله

وفي حديث ثاني يقول عليه الصلاة والسلام : **يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، قالوا أمن قلةٍ نحن يومئذً يا رسول الله قال لا : بل أنتم كثير ولكنكم غثاءٌ كغثاء السيل .**

إذاً لن تغلب أمتي من أثنى عشره ألف من قله ، وأمة النبي عليه الصلاة والسلام في آخر الزمان كثيرةٌ !! كثيرة !!

مليار ومائتين مليون ، ولكنهم غثاء كغثاء السيل ، والشيء الملاحظ أن كل المسلمين يؤمنون بالله واليوم الآخرة والملائكة والكتاب والنبيين والقضاء والقدر خيره وشره من الله تعالى ، ومعظم المسلمين يشهدون أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويحجون البيت ، فكيف هلك المسلمون ؟ من الذي أهلكهم ؟ في درسٍ سابق ذكرت لكم أن تسعة أعشار المعاصي من كسب المال .

يقول العبد يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب له.

الآن لو أن إنسان ضبط كسب ماله ، من أين يأتي ، إذا الإنسان ضبط جوارح يؤتى من كسب ماله وإذا ضبط كسب ماله يؤتى من لسانه دقق.

لا يستقيم إيمان عبداً حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه يا رسول الله هل نؤاخذ بما نقول فقال ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب النا س في النار على أنوفهم إلا حصائد ألسنتهم.

ماذا قالت السيدة عائشة رضي الله عنها عن أختها صفية قالت إنها قصيرة فقال النبي



عليه الصلاة والسلام : يا عائشة ، لقد قلت كلمةً لو مزجت بمياه البحر لأفسدته.
إحدى أكبر مدن العالم الساحلية نيويورك ، إذا الإنسان ركب طائرة يرى خطاً أسوداً في البحر يزيد طوله عن ستين كيلو متر ، هذه المياه المالحة مياه المجاري تسير في البحر ستين كيلو متر مع ذلك البحر ماءه طاهر .
أما كلمة قصيرة لو مزجت بمياه البحر لأفسدته ، وهل يكب الناس على أنوفهم إلا حصائد ألسنتهم .
فالإنسان إذا ضبط دخل الم ال يؤتى من لسانه ، النبي عليه الصلاة والسلام يقول : **إن الشيطان يئس أن يعبد في أرضكم عبادة الأوثان انتهت إلى غير رجعة ، ولكن رضي فيما تحقرون من أعمالكم .**
بتلاقي غيبه ، نميمة ، بهتان ، سخريه ، عجب ، احتقار ، تجاوز تطاول ، مزاح ملغوم، مزاح رخيص ، كلام بذيق ، اعتزاز بالنفس كلمات فيها شرك ، فلذلك أيها الأخوة : ورد حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .
يقول فيه : الذنب شؤم على غير صاحبه ، على صاحبه الأمر منته واضح وضوح الشمس ، الإنسان إذا ارتكب ذنب يدفع الثمن باهظاً
إن لكل سيئةٍ عقابٌ ، أما أن يكون الذنب شؤما على غير صاحبه هذا كيف ؟ فقال إن ذكره فقد اغتابه ، هذا أولاً ، وأن عيره ابتلي فيه ، وإن رضي به شاركه في الإثم ، يعني لك صديق ، لك جار ، لك قريب ، لك أخ ، لك أخ مؤمن في الله ، وقع بمعصية صغيرة أو كبيرة ،وقع بمخالفة ، دقق أيها الأخ كم مزلق هناك أمام هذه المشكلة ، وفرضنا كسب مال حرام وركز وضعه واشترى بيت ، قلت والله دبر حاله ، شو حكيت أنت ؟ والله دبر نفسه شاطر ، برم ، ركز وضعه واشترى بيت ، البيت من مال حرام جايبه أنت حينما أثنيت على عمله شاركته في الإثم وأنت لا تدري ، وأنت لا تدري ، لأنه من غاب عن مع صيةٍ فرضيها كان كمن شهدها ، ومن شهد معصيةٍ فأنكرها كان كمن غاب عنها ، هذا أول مزلق ، إذا إنسان كسب مال حرام وأنت أثنيت عليه ، وقلت ذكي وشاطر ، برم ، فهمان ، دبر حاله ، ركز وضعه ، أمن مستقبله والمال حرام ، شاركته في الإثم وأنت لا تشعر ، لأنك طمأنت الناس عمل مشروع صار ، لأن الله سبحانه وتعالى يغضبُ إذا مدح الفاسق ، إذا مدحت الفاسق تعمل إطراب بالنفوس ، تهتز القيم ، فاسق وتمدحه ، لبق قلبه طيب تقي ، الآن الناس يكيدون المديح جزافاً، إذا



واحد مدحته مدحاً كثيراً وهو متلبس بمعصية ، ضيعت أولادك ، اطربوا أولادك ، هذا جيد بابا ، طبعاً هذا جيد ، آدمي ، لطيف ، فهيم هو متلبس بمعصية ، إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق ، نحن ما قلنا لك أن تزمه لكن تمدحه ، تصبغ عليه صفات التقوى والصلاح وهو ماله حرام ، أو الذكاء والفهم والكياسة وهو في عنده نفاق ، هي أول مزلق ، قال إن رضيه فقد شاركه في الإثم ، وإن ذكره فلان دريت هكذا ساوى ماله حق يساوي هذا ، فضحته أنت ، النصيحة شيء ، والفضيحة شيء آخر ، اذهب إليه قل له يا أخي عملك غلط ، هذه آية ، وهذا حديث ، فأنت إما أن ترضى عن عمله فقد شاركته في الإثم ، وإما أن تتحدث عن غلطته فقد اغتبته ، وسببت له مت اعب كبيرة ، وحرج كبير وهدرت له كرامته في المجتمع .

الحالة الثالثة : أنا ما لا أساوي هذا يا أخي شو هاد ، شو الله عامي على قلبه ، قال : وإن عيره ابتلي به ، فإذا ارتكب أخوك ذنب إياك أن ترضى عن ذنبه فإن رضيت عن ذنبه شاركته في الإثم ، وإياك أن تعيره وتعتز بنفسك أنا هذه الغلطة ما بغلطها أنا، هذا اعتزاز بالنفس أشركت نفسك مع الله ، شوف موقف سيدنا يوسف ، كم هو أديب ربي أن لم تصرف عني كيدهن أصبُ إليهم وأكون من الجاهلين .

الحالة الأولى : أن ترضى عنه فقد شاركته في الإثم .

الحالة الثانية : أن تعيره ، إذاً لابد من أن يؤدبك الله وأن يبتليك بهذا الذنب نفسه .

الحالة الثالثة : أن تذكره فقد اغتبته ، إذا أخوك ارتكب ذنب يجب أن تخاطب الله فيما بينك وبينه ، يا رب احفظني من هذا الذنب وتب على أخي، إذا في إمكان أن تنصحه انصحه ما بينك وبينه ، التجئ إلى الله قل يا ربي احفظني من هذا ال ذنب وتب على أخي، فالعلى الله عز وجل يقبله ، وإذا كان بالإمكان تنصحه توجه إليه وانصحه فيما بينك وبينه ، إذاً الإنسان إذا ضبط ماله ، يؤتى من جوارحه ، وإذا ضبط جوارحه يؤتى من ماله ، وإذا كان ما ضبط لا جوارحه ولا ماله يؤتى مرة من جوارحه ، ومرة من ماله ، مع أنه مؤمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، مع أنه يصلي ويصوم ويحج ويزكي .

لذلك الخطورة أن يقع الإنسان في الصغائر وأن يصر عليها ، تبدو الصغائر كبائر ، لأنها تصبح حجاباً بينك وبين الله .

المسلم إذا وصل إلى الله وصل إلى كل شيء ، ولن يستطيع أن يصل إلى الله إلا إذا



استقام على أمره ، إلا إذا ضبط دخله وضبط جوارحه ، لأنه بصراحة مجتمع المسلمين، السرقة وشرب الخمر والزنى والقتل هذه كبائر ، يعني المسلمون الأغلب بعيدون عنها ، بطولتك ليس بترك الزنى ، ولا في ترك السرقة ، ولا في ترك شرب الخمر ، ولا في ترك القتل ، ولكن بطولتك في ضبط ما يظنه الناس صغائر وهو كبائر ، ضبط السان ، قلت كلمةً لو مزجت بمياه البحر لأفسدته ، إن الرجل ليتكلم بكلمة في سخط الله تعالى ما يلقي لها بالاً ، يهوي بها بجهنم سبعين خريفاً .

أيها الأخوة الكرام :

كان أحد علماء الشام الكبار ، لا يجرء إنسان يتكلم أمامه كلمة عن إنسان ، يقول له يا با، اسكت أظلم قلبنا ، إذا بتقدر ما تسمح لإنسان يتكلم عن إنسان كلمة ، ضبط السان ، لا غيبه ، لا نميمه ، لا بهتان ، لا إفك ، لا افتراء ، لا سخرية ، لا محكات، إذا حاكيت إنسان فقد اغتبته قلدته مثلاً له حركة معينة ، له غمزة معينة ، له مشية معينة ، إذا قلدته فقد اغتبته ، الإمام الغزالي في الإحياء ذكر غيبة القلب ، إذا أنت بقلبك شو الله عامي على قلبه ، وينه هذا وين عقله ، هذه غيبة أيضاً .

فا الله يجرنا من زلات السان .

احفظ لسانك أيها الإنسان لا يــلدغنك إنـــه ثعبان

كم قي المقابر من قتيل لسانه كانت تهابُ لقائه الشجعان

والله عز وجل قال : ولقد قالوا كلمة الكفر .

واحد كان صحابي فلم دعي إلى الجهاد ، تباطؤ له ابن أخت عنده يربيه لما دعاه ا بن أخته إلى بذل المال ، قال له : لو أن محمداً صادق مما يقول لكنا شرٌ من الحمر ، هي الكلمة قالها ، فنزل قرآن قال الله عز وجل : ولقد قالوا كلمة الكفر .

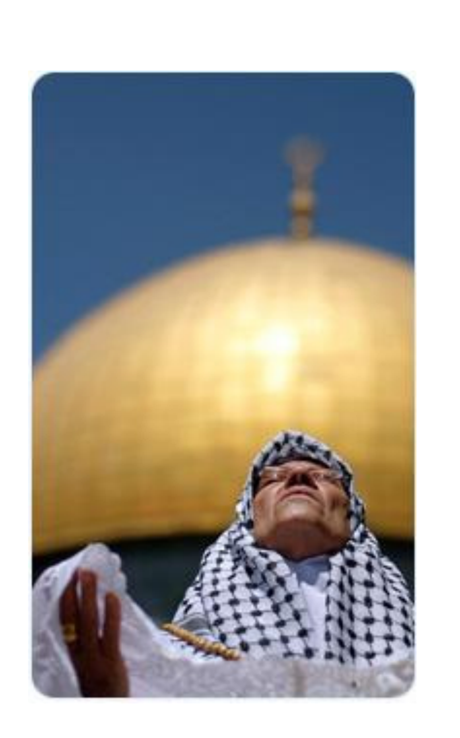
أيام بتقول كلمة أنت ، كلام عام الله، أخي عاطي الحلاوة ليلي ماله دراس ، شو هذا الكلام ، معناه الله ليس حكيم ، وأنت لا تدري معناه الله ليس حكيم سبحان الله ، الله خلقنا ليعذبنا ، ويذهب إلى الجامع ويحُكيها هذه كلمت كفر ، الله عز وجل قال : إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم .

خلقهم ليرحمهم ، شو ليعذبهم ؟

فالإنسان يضبط لسانه ، في العقائد في الأوامر في النواهي في العلاقات الاجتماعية .



الباب الثاني: العبادات





01 - حقيقة العبادات

أعزائي المؤمنين أما بعد :

فصيام رمضان عبادةٌ من عبادات الإسلام ، والعبادات أيها الأخوة لا تتضح حقيقتها ، إلا إذا ربطت بأصول الدين .

لماذا وجدتُ ؟!.

وما مهمتي في هذا الوجود ؟!.

وماذا بعد الموت ؟!.

سؤال كبير ! واجب على كل إنسانٍ أن يطرحه على نفسه وأن يفكر ملياً في الإجابة عنه .

فإن كل جهل ، مهما عظمت نتائجه ، قد يغتفر ، إلا إن يجهل الإنسان سر وجوده ، وغاية حياته ، ورسالة نوعه .

فعليه إن يعرف ، من أين ؟ وإلى أين ؟ ولماذا ؟ .

وأكبر عارٍ أيها الأخوة :

وأكبر عارٍ على هذا المخلوق الأول ، والمكرم (الإنسان) الذي أوتي العقل ، والإرادة ، إن يعيش غافلاً ، يأكل ، ويتمتع كما تأكل الأنعام ، لا يدري شيئاً عن حقيقة نفسه ، ولا عن طبيعة دوره في الحياة .

قال تعالى :

وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ

. (سورة البقرة : 130)

ومعنى " سفه نفسه " ؛ أي ما عرف قدرها .

وليست قصة الإنسان أيها الأخوة ــ كما يتوهم الماديون ــ أرحاماً تدفع ، وأرضاً تبلع ، والإنسان بين صرخة الوضع ، وأنة في النزع يعاني ما يعاني ، ولا خلود ولا جزاء ، يستوي في ذلك من أحسن غاية الإحسان ، ومن أساء كل الإساءة ، يستوي في ذلك من عاش عمره للناس على حساب شهواته ، ومن عاش عمره لشهواته على حساب الناس ، يستوي في ذلك من ضحى بحياته في سبيل الحق ، ومن اعتدى على حياة الآخرين في سبيل الباطل .

قال تعالى :



أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

.(سورة القيامة : من 36 إلى 40)

وقال تعالى :

أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾

. (سورة المؤمنون : 115)

وفي آية أخرى :

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ

. (سورة الجاثية : 21)

أيها الأخوة المشاهدون :

لقد خلق الله الإنسان ليكون خليفته في الأرض قال تعالى :

إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ

. (سورة البقرة : 30)

وأول شيءٍ في هذه الخلافة ، أن يعرف الإنسان ربه ، حق المعرفة .

قال تعالى :

ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا

. (سورة الطلاق : 12)



وثاني شيءٍ في هذه الخلافة ، أن يعبد الإنسان ربه حق العبادة قال تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾

(سورة الذاريات : 56) .

فالماء للأرض ، والأرض للنبات ، والنبات للحيوان والحيوان للإنسان ، والإنسان لمن؟ ..
الإنسان لله ، لمعرفة الله لعبادة الله ؛ ليسعد الإنسان بهذه المعرفة ، وتلك العبادة ، وذلك القرب لا ليعبد بشر ، ولا حجر ، ولا بقر ، ولا شجر ، ولا شمس ، ولا قمر " ابن آدم اطلبني تجدني ، فإذا وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فتك فاتك كل شيء ، وأنا أحب إليك من كل شيء " .

يارب ماذا وجد من فقدك ؟ وماذا فقد من وجدك ؟ إذا كان الله معك فمن عليك ، وإذا الله عليك فمن معك ، إن معرفة الله موجوداً وواحداً ، وكاملاً ، نهاية العلم ، وإن طاعة الله ، والتقرب إليه نهاية العمل ، وهاتان الحقيقتان هن فحوى رسالات الأنبياء جميعاً ... قال تعالى :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة الأنبياء : 25).

معرفة الألوهية والعبودية لله عز وجل فحوى رسالات الأنبياء جميعاً .

أيها الأخوة المشاهدون :

العبادة هي غاية الخضوع ، مع غاية الحب ، فمن خضع ، ولم يحب ، لا يكون عابداً ، ومن أحب ولم يخضع ، لا يكون عابداً ،

تعصي الإله وأنت تظهر حبــه ذاك لعمري في المقال شنيع

لو كان حبك صادقاً لأطعتـــــــه إن المحب لمن يحب مطيـــــع

الخضوع والحب هو ما فطر عليه الإنسان ، قال تعالى :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ ﴾

(سورة الروم : 30) .



لذلك أيها الأخوة ، نلمح في العبادة أمرين أثنين :

الأول : الالتزام بما شرعه الله عز وجل ، أمراً ونهياً وتحليلاً وتحريماً ، فليس عبداً لله ، ولا عابداً له ، من أستكبر عن إتباع منهجه ، واستكبر عن أن ينقاد لشرعه ، وإن أقر بأن الله خالقه ورازقه ، وإن دعاه في الكربات ، واستغاثه في الشدائد .

أساس الخضوع أيها الأخوة :

أساس الخضوع لله هو الشعور الواعي بوجود الله ، ووحدانيته وعلمه ، ومحاسبته ، وبأنه وحده ، يملك النفع والضر ، والخير والشر والحياة والموت ، له الخلق والأمر ، ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، إليه يرجع الأمر كله ، فعبده وتوكل عليه ، والله يحكم لا معقب لحكمه ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها .

وكلما أزداد ذلك الشعور الواعي عمقاً ، وأتساعاً ، قوي الاتجاه إلى الله ، والاعتماد عليه ، والسعادة بقربه .

الشيء الثاني أيها الأخوة :

أن يصدر هذا الالتزام ، عن قلباً يحب الله تعالى ، فليس في الوجود من هو أجدر من الله ، بأن يحب ، فهو صاحب الفضل والإحسان ، خلق الإنسان ، ولم يكن شيئاً مذكورا ، وخلق له ما في الأرض جميعا ، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنه ، خلق في أحسن تقويم ، وكرمه أعظم تكريم ، فضله على كثير من العالمين ، رزقه الطيبات ، ويسر له القربات ، استخلفه في الأرض ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، فمن عرف الله أحبه ، وبقدر درجته في المعرفة ، تكون درجته في المحبة ، ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم ، أشد الناس حباً لله ، لأنه كان أعرفهم بالله ، وكانت قرة عينه في الصلاة ، لأنها الصلة المباشرة بين قلبه و بين الله ، قال عليه الصلاة والسلام : أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً .

فالصيام أيها الأخوة :

عبادة ، ومن لوازم هذه العبادة ، الخضوع لأمر الله في كل ما أمر ، وأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .



02 - العبادات

الإنسان ... هو المخلوق الأول رتبةً ... قال تعالى :

إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾

(سورة الأحزاب : 72) .

والإنسان أيضاً هو المخلوق المكرم ، لقوله تعالى :

۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾

(سورة الإسراء : 70) .

شيء آخر ، هو أن الكون كله بسماواته وأرضه مسخر للإنسان تسخير تعريف وتكريم ، قال تعالى :

وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ

(سورة الجاثية : 13) .

إذا كان الكون مسخر للإنسان ، فلإنسان لمن ؟ .

الإجابة عن هذا السؤال الإنسان لله ، ليعرفه ، لعبده ، ليسعد بقربه إلى أبد الآبدين ، قال تعالى :

وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾

(سورة الذاريات : 56) .

والعبادة في بعض تعاريفها الدقيقة ، طاعة طوعيه ، تخالطها محبة قلبية ، أس اسها معرفة يقينية ، تفضي بالإنسان إلى سعادة أبدية فالمعرفة أساس العبادة ، والعبادة أساس السعادة .

سؤال :



طيب هل تقتصر العبادة في الإسلام على الصوم ، والصلاة والزكاة ، وما إلى ذلك ؟ أم أن لها مفهومات تشمل الحياة كلها ، وكيان الإنسان كله أيضا ؟

الأستاذ :

الحقيقة أستاذ عدنان ، أن العبادة نوعان :

عبادة تعاملية ، كل أمر أمر الله به ، الائتمار به من العبادة وكل نهي نهى الله عنه ، الانتهاء عنه من العبادة .

إذاً : تطبيق أوامر الله عز وجل ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأحكام الفقهية التي استنبطها المجتهدون ، هذا التطبيق بحد ذاته هو العبادة .

لكن النوع الثاني من العبادة :

هو العبادات الشعائرية ، كالصلاة ، والصيام ، والحج والزكاة ، فبعض هذه العبادات قولي ، كتلاوة القرآن ، والأدعية والأذكار ، وبعض هذه العبادات بدني ، كالصلاة ، وبعض هذه العبادات مالي ، كالزكاة ، وبعض هذه العبادات بدني مالي ، كالحج والعمرة .

لكن العبادة الشعائرية في جوهرها ، وهذا أهم ما فيها ، إنها اتصال بالله بشكل أو بآخر ، هذا الاتصال لا ينعقد إلا إذا كان العبد ملتزماً بالعبادة التعاملية ؛ أي كان عند الأمر والنهي ، لأن الذنب حجاب بين العبد وربه .

لذلك ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أن رُب تالٍ للقرآني والقرآن يلعنه ، إن لم يطبق أوامر الله التي وردت في القرآن .

وفي موضوع الدعاء ، يقول العبد : يارب ، يارب ، ومطعمه حرام ومشربه حرام ، وغُذي بالحرام ، فأنى يستجاب له ؟.

وعن الصلاة : فمن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً .

وعن الصوم : رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش .

وعن الإنفاق :

قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ

(سورة التوبة : 53) .



وركعتان من ورع ، خير من ألف ركعة من مخلط ، ومن لم يكن له ورع يصده عن معصية الله لم يعب الله بشيء من عمله وترك دانق من حرام خير من ثمانين حجة بعد الإسلام .

إذاً : فالعبادات الشعائرية لا تحقق هدفها ، ولا تقطف ثمارها إلا إذا كان العبد ملتزماً بأمر الله ونهيه .

سؤال ؟

يقول الإمام الشافعي رضي الله عنه : العبادات معللة بمصالح الخلق ، كيف نفهم هذه العبادات في ضوء هذا القول ؟

الأستاذ :

رضي الله عنه عن الإمام الشافعي كما تفضلتم ، الحقيقة أن الصلاة ، والصيام ، والحج ، والزكاة ، عبادات معللة كما قال الشافعي بمصالح الخلق فالصلاة مثلاً ذكر لله عز وجل .

قال تعالى :

وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾

(سورة طه : 14) .

والصلاة أيضاً قرب لله عز وجل ،

قال تعالى :

وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب۩ ﴿١٩﴾

(سورة العلق : 19) .

والصلاة وعي وعقل .

قال تعالى :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ

(سورة النساء : 43) .



فمن صلى ولم يعي ما قرأ في الصلاة فكأنه في حالة السكران وليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها ، والصلاة فضلاً عن ذلك فيها تطهير للنفس من الأدران ، إنها نور تهتدي به النفس في ظلمات الحياة ، الصلاة عماد الدين ، وعصام اليقين ، وسيدة القربات ، وغرة الطاعات ، ومعراج المؤمن إلى رب الأرض والسماوات .

والزكاة أيضاً : تطهر الغني من الشح ، تطهر الفقير من الحقد تطهر المال من تعلق حق الغير به ، تنمي شعور الغني بقيمته في المجتمع ، من خلال بذله ، تنمي شعور الفقير بأن مجتمعه مهتم به تنمي المال التي دفعت زكاته ، كل هذه المعاني استنبطها علماء التفسير، من قوله تعالى :

خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ

(سورة التوبة : 103) .

والصوم ؟

الأستاذ :

الصوم : ونحن في شهر الصوم ، صوم رمضان دورة سنوية مكثفة ، يدع فيه المؤمن طعامه ، وشرابه ، تقرباً إلى الله عز وجل ففي الصيام يعرف الإنسان عبوديته لله عز وجل، وفي الصيام يتعرف إلى فضل الله عليه .

والصيام أيضاً : مناسبة تتقوى فيها إرادة الإنسان الخيرة ، بل هو قفزة نوعية في معرفة الله ، والتقرب منه ، وفضلاً عن كل ذلك ففيه وقاية وصيانة لأجهزة الجسم المختلفة .

أما حج بيت الله الحرام :

فهو رحلة إلى الله تعالى ، تبعد الإنسان عن كل أوهام المادة وتهيئه للقاء الله عز وجل حيث السعادة الأبدية .

سؤال :

تفضلتم أن في الصوم يتعرف الإنسان على عبوديته لله تعالى هذه العبودية هل فيها منقصة للإنسان ؟ أم فيها رفعة للإنسان ؟

الأستاذ :

الحقيقة أستاذ عدنان :



لا يرقى الإنسان إلى أعلى مراتبه إلا إذا كان عبداً لله ، لا يتألق ، بل لا تتألق إنسانيته إلا إذا كان عبداً لله ، والإنسان حينما يعبد الله يستمد من الله عز وجل كل قوته ، وكل حكمته ، وكل كماله الإنساني .

فالإنسان إذا عبد الله ، حقق وجوده ، وأكد ذاته ، وحقق الهدف الذي من أجله خلق ، أو خلقه الله عز وجل .

03 - الإسراء والمعراج

الحمد لله رب العالمين ، ما منْ يومٍ إلا والجليل سبحانه وتعالى ينادي عبده فيقول : " عبدي ، ما أنصفتني ، أذكركَ وتنساني ، وأدعوكَ إليَّ وتذهبُ إلى غيري ، وأُذهِبُ عنك البلايا وأنت مُعتَكِفٌ على الخطايا .

عبدي ، ماذا تقول غداً إذا جئتني ؟

خلقتُ الأشياءَ كلَّها من أجلك ، وخلقتُك من أجلي ، فاشتغلتَ بما خلقتُه لك عني ، فإذا اشتغلت بالنعمة عن المُنعِمِ ، وبالعطية عن المُعطي ، فما أديتَ شكرَ نعمتي ، ولا رَعَيت حُرمتي ، فكل نِعمةٍ شغَلَتْك عني فهي نِقمة ، وكلُّ عطيةٍ ألهَتْك عني فهي بلية .

وأشهد أن لا إله إلا أنتَ وحدك لا شريك لك ، لك العبادةُ ، وإليكَ التوجُّه ومنك الخشية وعليك الاعتمادُ ، لا احتكامَ إلا إليك ، ولا سُلطان إلا لشريعتك ، ولا اهتداء إلا بهداك .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، سيدي يا رسول الله :

سَرَيت من حَرمٍ ليلاً إلى حَـــــــرم   كما سَرى البدرُ في داجٍ من الظلــم
وبتَّ ترقى إلى أن نِلتَ منزلـــــــةً   من قابِ قوسين لم تُدركْ ولم تُــرَمِ
وقدَّمتك جميعُ الأنبياء بــــــهـــا   و الرُسْلِ تقديمَ مخدومٍ على خَـــدَمِ
فَجَلَّ مقدارُ ما ولّيْتَ مــــن رُتَــبٍ   و عزَّ إدراكُ ما وُلِّيتَ من نِعَــــــمِ

***

اللهم صلِ ، وسلم ، وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الغُرِّ الميامين ، أمناء دعوته ، وقادة ألويته ، وارضَ عنا وعنهم يا رب العالمين .



شكوى النبي عليه الصلاة والسلام :

وبعد ؛ عباد الله ، فأوصيكم ونفسي بتقوى الله ، وأحثكم على طاعته ، وأستفتح بالذي هو خير .

((اللهـم إليـك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس يـا أرحم الراحميـن ، أنت ربُّ المستضعفين ، وأنت ربِّي ، إلى من تكلني إلى بعيد يتجهمني ، أم إلى عدوٍّ ملكتـه أمري ؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ، ولك العتبى حتى ترضى ، ولكن عافيتَـك هي أوسعُ لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بي غضبك أو يحلَّ عليَّ سخطك ، ولا حول ولا وقوة إلا بك)) .

[الطبراني عن عبد الله بن جعفر]

كان هذا دعاء النبي صلوات الله وسلامه عليه ، في الطائف ، وقد خرج إلى أهلها ، يلتمس هدايتَهم ونصرتَهم ، فردُّوا دعوته رداً منكراً ، وأغلظوا له في القول ، وأغرَوا به سُفهاءهم ، يصيحون به ، ولقد جاءه جبريل عليه السلام ــ فيما رواه الشيخان عن عائشة ــ يعرض عليه أن يُطْبِقَ على هؤلاء الجبلين ، فقال قولةً عبَّرت عن رحمته الفياضة ، وعن خُلُقه العظيم :

((بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا)) .

أيها الإخوة ، إن الشكوى إلى الله من أجلَّ مظاهر العبودية ، والضراعة إليه من أعظم القربات ، وكانت خديجة صدِّيقة النساء التي حَنَتْ عليه ساعة العُسرة ، والتي واسَتْهُ في أيام الشدَّة بنفسها ومالها ، قد توفيت ، وكان عمُّه أبو طالب ، الذي أظهر من النُبْلِ في كفالته ، ومن البطولة في الدفاع عنه الشيء الكثير قد توفي أيضاً ، وقد نالت قريش من النبي بعد وفاة عمِّه ما لم تنل منه في أي وقت مضى ، وجاء ردُّ سادة ثقيف في الطائف وسفهائهم جافياً قاسياً ، فكان العام العاشر من البعثة بحقٍ عام الحزن ، فقد تحمل النبي صلوات الله وسلامه عليه فيه من الشدائد ما لا يحتمله بشر على الإطلاق إلا أن يكون نبياً ، قال تعالى :



﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧ ﴾

(سورة المائدة)

الإسراء والمعراج :

وكانت معجزة الإسراء والمعراج ، وهو حدث ضخم من أحداث الدعوة الإسلامية سبقته البعثة ، وجاءت من بعده الهجرة ، لقد كان مسحاً لجراح الماضي ، وتثبيتاً لقلب النبي ، وتطميناً للمستقبل ، وتعويضاً عن جفوة الأرض بحفاوة السماء ، وعن قسوة الناس بتكريم الملأ الأعلى ، وإشعاراً له أن الله معه ، بالرعاية والعناية ، وتكريماً له فريداً من دون الأنبياء ، وتعريفاً له بأنه سيد ولد آدم ، وسيد الأنبياء و المرسلين ، وإراءةً له لملكوت الأرض والسماوات ، ولِما تؤول إليه الخلائق بعد الممات .

إخوة الإيمان في كل مكان ، كلُّ ذكرى من ذكرياتنا العطرة فيها دلالات كُبرى ، ومنارات ٌ جُلّى ومواعظُ بليغة ، وليستِ العبرةُ في ذِكر الوقائع والتفصيلات ، لمجرد الذكرِ أو التعرف ، ولكنَّ العبرةَ في أن نستنبط من هده الأحداث الدروس والعِبر ، حيثُ تكون هذه الدروس والعبر نوراً نهتدي به في طريقنا إلى الله ، ومشعلاً وضّاءً نستضيءُ به في دروب الدعوة إليه.



دروسُ الإسراء والمعراج :

ودروسُ الإسراء والمعراج أكثرُ من أن تُحصى ، وأجلُّ من أن تُستقصى :

1 ـ الدنيا دار امتحان وبلاء :

إنها تعلّمنا أن الدنيا دارُ التواء ، لا دارُ استواء ، ومنزل ترح لا منزلُ فرح ، وأن من عرفها لم يفرح لرخاء ، ولم يحزن لشقاء ، وأن الله قد جعلها دار بلوى ، وجعل الآخرة دار عقبى ، فجعل بلاءَ الدنيا لعطاء الآخرة سبباً ، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً ، فيأخذ ليعطي ، ويبتلي ليجزي .

2 ـ للمحن والمصائب حِكَمٌ جَليلة :

إن دروس الإسراء والمعراج تُعلمنا أن للمحن والمصائب حِكَماً جَليلة ، منها أنها تسوق أصحابها إلى باب الله تعالى ، وتُلبسهم رداءَ العُبودية ، وتُلجئهم إلى طلب العون من الله .

3 ـ المحن والمصائب لا تصد المؤمن عن ربه :

إنها تُعلِّمنا أنَّه لا ينبغي أن تَصدَّنا المحن والعقبات ، عن متابعة السير في استقامة وثبات .

4 ـ الله هو الضامن والحافظ والناصر :

إنها تُعلِّمنا أنَّه ما دام الله هو الآمر ، فلا شكَّ أنه هو الضامن والحافظ والناصر .



5 ــ لولا الجهادُ والصبر ما عُبِدَ الله في الأرض :

إنها تُعلِّمنا أنه لولا الجهادُ والصبر ، ما عُبِدَ الله في الأرض ، ولا انتشر الإسلام في الخافقين ، ولا قُمنا في هذا المكان ، وعلى أمواج الأثير نوحِّدُ الله ونُسبِّحه ، وندعو إليه .

6 ــ اليسر مع العُسر ، والنصر مع الصبر :

إنها تُعلِّمنا أن اليسر مع العُسر ، وأن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب .

7 ــ فضل الصلاة بفرضها في المعراج :

وإنَّ من أجلِّ دروس الإسراء والمعراج ، أنَّ الله تعالى ، كـــــرَّم النبي صلى الله عليه وسلم بالعروج إليه لينال به أعلى درجات القُربات ، وكرَّم أمَّته بأن فرَضَ عليهم الصلوات ، لتكون معراجهم إلى ربِّ الأرض والسماوات ، لقد فرضت الصلاة التي هي من أجل القرب في أعلى مستويات القرب .

الصلاة :

1 ــ الصلاة عماد الدين :

لقد فُرضت الصلاة وحياً مباشراً ، والنبي صلى الله عليه وسلم في سِدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، بعد أن دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى .

إنَّ من أجلِّ دروس الإسراء والمعراج ، أنَّ الصلاة عمادُ الدين ، فمن أقامها فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الد ين ، فجوهر الدين اتصال بالخالق ، وإحسانٌ إلى المخلوق ، فلو لم يكن هذا الاتصال ، أو انقطع بعد أن كان ، أو أصبح اتصالاً شكلياً أجوفَ ، كان التفلُّت من قواعد الشرع والإساءة إلى كلِّ الخلق .



2 ــ الصلاة رقيٌّ :

الناس إما شقيٌّ أو سعيد ، أي مقطوعٌ عن الله ، متفلّت من أوامره ، مسيء إلى خلقه ، أو موصولٌ بالله بالشرع ، منضبطٌ محسنٌ إلى الخلق ، وفي الصلاة يرقى مِن حالٍ إلى حال ، ومن منزلة إلى منزلة ومن مقام إلى مقام ، ومن رؤيةٍ إلى رؤيةٍ ، إنها ترقى بالمصلي من عالم المادة إلى عالم القيم ، ومن عالم الأوهام إلى عالم الحقائق ، ومن سفاسف الأمور إلى معاليها ، ومن مرتبة مدافعة التدني إلى مرتبة متابعة الترقي ، ومن التمرغ في وحول الشهوات إلى التقلب في جنَّات القربات .

3 ــ الصلاة ذكرٌ :

فالصلاة ذكرٌ ، قال تعالى :

﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ ١٤

(سورة طه)

4 ــ الصلاة قربٌ :

والصلاة قربٌ ، قال تعالى :

﴿ كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ۩ ﴾ ١٩

(سورة العلق)



5 ـ الصلاة خشوعٌ :

والصلاة خشوع ، قال تعالى :

قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾

(سورة المؤمنون)

6 ـ الصلاة مناجاة :

والصلاة مناجاةٌ ، قال عليه الصلاة والسلام :

((**إِنَّ الْمُصَلِّيَ يُنَاجِي رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ بِمَا يُنَاجِي رَبَّهُ**)) .

[أحمد]

7 ـ الصلاة مناجاة :

والصلاة وعيٌ ، قال تعالى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ

(سورة النساء آية 43)

8 ـ الصلاة عقلٌ :

والصلاة عقلٌ ، قال عليه الصلاة والسلام :

((**ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها**)) .

[إتحاف السادة المتقين ، للزبيدي]



9 ــ الصلاة عُروجٌ :

بل هي عروجٌ إلى الله ، قال عليه الصلاة والسلام :
((**الصلاة معراج المؤمن**)) .

10 ــ الصلاة ميزان لمعرفة بالله :

ولن تكون الصلاةُ ذكراً ، وقرباً ، وخشوعاً ، ومناجاةً ، ووعياً ، وعقلاً ، وعروجاً إلا إذا بُنيت على معرفة الله ، والاستقامة على أمره ، واتباع سُنَّة نبيه ، فكيف تذكر ، وتناجي من لا تعرفه ، أم كيف تتقرب ممن تعصي أمره ، إن الجهل مانعٌ ، والمعصية حجابٌ ؛ فالتفكر في خلق السماوات والأرض يُعَرِّفك بمن تذكره وتناجيه ، فيزول المانع .
والتوبة النصوح تهدم كلَّ شيء قبلها ، فيمزَّقُ الحجاب .
والعمل الصالح يُسَرِّعُ الخُطى إلى الله ، ويرفع الدرجات عنده ، قال تعالى :
﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾

(سورة الكهف : الآية 110)

لذلك تُعدُّ الصلاة ميزاناً دقيقاً لمعرفتك بالله ، ولاستقامتك على أمره ، ولعملك الصالح ، فقد روى الإمام أحمد في مسنده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :
((**مثلُ الصلاة المكتوبة ، كالميزان ، فمن أوفى استوفى**)) .
أي فمن أوفى صلاته شروطها ، استوفى منها ثمارها التي وعد الله بها .



حكمة وثمار الصلاة :

ولكن ما ثمارها لماذا فرضت ؟ ما الحكمة منها ؟ ما الغاية من فرضها ؟ما ثمارها ؟ !

1 ــ الصلاة تطهير للنفس :

إنها تُطهّر نفس المصلي من النزوات الشريرة والشهوات المنحرفة ، والأمراض النفسية المهلكة ، فالنفس التي تشتهي المحرَّمات ، وتستهوي البدع ، لهي نفسٌ مريضة ، والصلاة ــ كما أرادها الله تعالى ــ دواؤها وشفاؤها ، إنها تنهي صاحبها نهياً ذاتياً عن الفحشاء والمنكر ، على أساس الوازع الداخلي ، لا على أساس الرادع الخارجي ، قال تعالى :

وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ

(سورة العنكبوت)

وقد أشار بعض العلماء إلى أن الذكر هو أكبرُ ما في الصلاة أخذاً من قوله تعالى :

وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾

(سورة طه)

وقد بيَّن النبي صلى الله عليه وسلم هذه الوظيفة الأساسية للصلاة ، فقال فيما رواه البخاري ومسلم : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، أَنَّه سَمِعَ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يَقُولُ :

((أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهَرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ ، مَا تَقُولُونَ ؟ هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ ؟ قَالُوا : لاَ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ ، قَالَ : ذَاكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا)) .



2 ـ الصلاة نور المؤمن :

وفضلاً عن أن الصلاة طهور ، فهي نور المؤمن ، كما قال عليه الصلاة والسلام : ((**يرى به الحق حقاً فيتبعُه ، والباطل باطلاً فيجتنبه**)) .

[ورد في الأثر]

قال تعالى :

أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ

(سورة الأنعام : من الآية 122)

وقال تعالى :

هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾

(سورة الأحزاب)

فكل عمل صالح ، أو طالح وراءه رؤيةٌ صحيحةٌ أو منحرفة ، ولن يستقيم العمل ، ولن يطيب، حتى يستنير صاحبه بنور الله .

3 ـ الصلاة تبعثُ في النفس السرور :

وفضلاً عن أن الصلاة طَهور ونور ، إنها تبعثُ في النفس السرور ، فالقلب لا يطمئن ، والنفس لا تَسعد إلا بها ، قال تعالى :

وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾

(سورة طه)



﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة الرعد : الآية 28)

وعَنْ أَنَسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((... **وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**)) .

[أخرجه النسائي وأحمد]

((**ولا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تَبعاً لما جئت به**)) .

[رواه البغوي في شرح السنة عن عبد الله بن عمرو]

إن الإنسان المنقطع عن الله ، شديد الهلع ، كثير الجزع ، لكن المصلي معافى من هذا الضعف ، قال تعالى :

﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة المعارج)

ويكفي أن النبي صلى الله عليه وسلم إذا حز به أمرٌ بادر إلى الصلاة وكان يقول :

((**أرحنا بها يا بلال**)) .

[أخرجه أبو داود بلفظ يَا بِلالُ أَقِمِ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا]

وعن السيدة عائشة رضي الله عنها ، قالت :

((**كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في مهنة أهله – تعني خدمة أهله – فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة**)) .

[أخرجه البخاري]

ورضي الله عن سيدنا سعد بن أبي وقاص ، إذ يقول : << ثلاثة أنا فيهنَّ رجل ، وفيما سوى ذلـــك فأنا واحدٌ من الناس ؛ ما سمعت حديثاً من رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلا علمت أنه حقٌّ من الله تعالى ، ولا صليت صلاةً فشُغلت نفسي بغيرها حتى أقضيها ولا سِرت في جنازةٍ ، فحدثتُ نفسي بغير ما تقول حتى أنصرف عنها >> .

وصفوة القول ما ورد في الحديث القدسي الذي رواه الديلمي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل :



((ليس كلُّ مصلٍ يصلي ، إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي ، وكفَّ شهواته عن محارمي ، ولم يُصرَّ على معصيتي ، وأطعم الجائع ، وكسا العريان ، ورحم المص اب ، وآوى الغـــــريب ، كلُّ ذلك لي ، وعزتي وجلالي إن نورَ وجهه لأضوأ عندي من نور الشمس ، على أن أجعل الجهالة له حلماً ، والظلمةَ نوراً ، يدعوني فألبيه ، ويسألني فأعطيه ، ويقسم عليَّ فأبرُّه ، أكلأه بقربي ، واستحفظه ملائكتي ، مثله عندي كمثل الفردوس ، لا يُمسُّ ثمرها ، ولا يتغير حالها)) .

فالصلاة عماد الدين ، وعصام اليقين ، وسيدة القربات ، وغرَّةُ الطاعات ، ومعراج المؤمن إلى ربِّ الأرض والسماوات ، وهي الركن الوحيد المتكرر من أركان الإسلام الذي لا يسقط بحال ، إنها أسُّ العبادات ، وأصل القربات ، ومبدأ الطاعات ، وهي ركن الأركان ، وأساس البنيان ، وهي أول ما يحاسب عنه المرء يوم القيامة ، ولا يُفلح المؤمن إلا بها ، قال تعالى :

قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢

(سورة المؤمنون)

اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً .

والحمد لله رب العالمين

الخطبة الثانية : في ذكرى الإسراء والمعراج :

1 ـ الإيمان والجهاد :

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله صاحب الخلق العظيم ، اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أيها الإخوة المؤمنون في دنيا العروبة والإسلام ، إن الإسلام يربط الإيمان بالجهاد ربطاً محكماً ، بحيث لا يتحقق إيمانٌ صادقٌ عميقٌ راسخٌ من دون أن يكون الجهاد جزءاً تكوينياً من مقوماته ، قال تعالى :



﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾

(سورة التوبة)

والمسجدُ الأقصى الذي بارك الله حوله أضحى بالإسراء إليه والمعراج منه رمزاً للشخصية المعنوية للمسلمين ، وأنه لا يصحُّ أن يكون عُرضةً للاستيلاء عليه ، وتدنيس رحابه الطاهرة ، من قبل أعداء الله ، الذين أكثروا في الأرض الفساد .

2 ـ المسجد الأقصى :

وفي ذكرى الإسراء والمعراج إيماءٌ قوي إلى العرب والمسلمين أنه مفروضٌ عليهم ألا يتهاونوا في أمر الحفاظ على هذا المسجد ، لأنه الموطن الذي شرَّف الله به هذا النبي العظيم ، وهو موطن تشريفهم بالضرورة ، كياناً وشخصيةً ، وأمةً وديارا ً ، وديناً ، ومن هنا كان الجهاد في سبيل تخليصه من أيدي الغزاة وشذاذ الآفاق فرضاً عينياً على كل قادر من المسلمين ، من أجل تطهيره من دنس الصهاينة المجرمين .

3 ـ انتفاضة المسجد الأقصى :

وإن انتفاضة أهلنا في الأرض المحتلة اليوم مستوحاةٌ من ذكرى الإسراء والمعراج ، ففي هذه الذكرى تعرج الأرواح إلى بارئها طالبةً دحر الظالمين ، وتدميرَ الطغاة العابثين .

أيها الإخوة الثائرون في الأرض المحتلة ، بوركت سواعدكم ، وسَلمت أيديكم ، لقد كنتم رمز البذل والعطاء ، لقد ضربتم المثل في التضحية والفداء ، يا من تحركت فيكم معاني العزة والإباء ، فأقلقتم مضاجع الصهاينة الأعداء ، لقد انتزعتم إعجاب شعبكم ، وأمتكم ، وإعجاب العالم أجمع ، فتعاطفتْ معكم القلوب ، وتعلقت بكم الأفئدة ، ورُفعت لكم الأكف .



كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ومن معه من الأجناد :
<< أما بعـــدُ ، فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فإنَّ تقوى الله أفضل العُدَّة على العدو ، وأقوى المكيدة في الحرب ، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشدَّ احتراساً من المعاصي ، فإنَّها أضرُّ عليكم من عدوِّكم ، وإنما تنصرون بمعصية عدوكم لله ، فإن استويتم في المعصية كان لهم الفضل عليكم بالقوة ".

04 - التوبة

1 ــ كيف بك لو أدّيت العبادات على الوجه المراد ؟

أيها الإخوة المؤمنون في كل مكان ، رمضان ، شهر التوبة والغفران ، والإحسان والقرآن ، والقرب والرحمة ، والزلفى والتقوى ، لقد شرع الصيام لتقوية إرادة الإنسان على طاعة ربه ، ولتنمية الإخلاص في قلبه ولتمتين الصلة بخالقه ، ولترسيخ معاني العبودية له .

فلو أديت العبادات ــ ومنها الصيام ــ على النحو الذي أراده الله عز وجل ، لجعلت من المؤمن شخصية فذة ، إليها تنجذب النفوس ، وبها تتعلق الأبصار ، ومن نورها تهتدي القلوب.

ولو أديت العبادات على النحو الذي أراده الله عز وجل لجعلت من المؤمن رجلاً نيّر الذهن والقلب معاً ، حاد البصر والبصيرة جميعاً ، تتعانق فكرته وعاطفته ، فلا تدري أيهما أسبق ، صدق أدبه أم حسن معرفته ، ولا تدري أيهما أروع ؟ خصوبة نفسه الجياشة ، أم فطانة عقله اللماح ..

ولو أديت العبادات على النحو الذي أراده الله ، لجعلت المؤمن ذا أفق واسع ، ونظر حديد ، ومحاكمة سليمة ، ولجعلته منغمساً في سعادة لا تقوى متع الأرض الحسية أن تصرفه عنها ، ولجعلته ذا أخلاق أصيلة ، لا تستطيع سبائك الذهب اللامعة ، ولا الضغوط المانعة أن تقوضها .



فالمؤمن الحق ، كما أراده الله أن يكون كالجبل رسوخاً ، وكالصخر صلابةً ، وكالشمس ضياءً ، وكالبركان تدفقاً ، وكالبحر عمقاً ، وكالسماء صفاءً ، وكالربيع نضارة ، وكالماء عذوبة ، وكالعذراء حياءً ، وكالطفل وداعةً .

2 ــ الصيام من أجل الانتصار على الشهوة :

لقد كان الصيام من أجل انتصار الإنسان على نفسه ، كي يقودها نحو سعادتها الأبدية .. فقد رُكِّب المَلَكُ من عقل بلا شهوة ، ورُكّب الحيوانُ من شهوة بلا عقل ، وركب الإنسان من كليهما ، فإن سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة ، وإن طغت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان .

3 ــ لا تلتزم بهذا في رمضان فقط :

فليست البطولــة أن ننتصر على النفس في رمضان ، ثم ننخذل أمامها بقية العام ، ولكن البطولة أن نحافظ على هذا النصر على طول الدوران ، وتقلبات الزمان والمكان ..

وليست البطولة أن نضبط ألسنتنا في رمضان فننزهها عن الغيبة والنميمة ، وقول الزور ، ثم نطلقها بعد رمضان إلى حيث الكذب والبهتان ، ولكن البطولة أن تستقيم منا الألسنة ، وأن تصلح فينا القلوب ما دامت الأرواح في الأبدان ..

وليست البطولة أن نغض أبصارنا عن محــارم الله ، وأن نضبط شهواتنا غير المشروعة في رمضان ، ثم نعود إلى ما كنا عليه بعد رمضان .. إنا إذاً كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً ، ولكن البطولة أن تصوم جوارحنا عن كل معصية في رمضان وبعد رمضان ، فلا تفطر حتى تلقى الواحد الديان .

ليست البطولة أن نتحرى الحلال في رمضان خوفاً أن يردّ علينا صيامنا ، ثم نتهاون في تحريه بعد رمضان ، على أنه عادة من عوائدنا ، ونمط شائع في سلوكنا ، ولكن البطولة أن يكون الورع مبدأً ثابتاً وسلوكاً مستمراً .

وليست البطولــــة أن نبتعد عن المجالس التي لا ترضي الله إكراماً لشهر رمضان ، ثم نعود إليها ، وكأن الله ليس لنا بالمرصاد في بقية الشهور والأعوام.



وليست البطولة أن نراقب الله في أداء واجباتنا وأعمالنـــــــــــا ما دمنا صائم ين ، فإذا ودعنا شهر الصيام آثرنا حظوظ أنفسنا على أمانة أعمالنا وواجباتنا .

إنّ مثل هذا الإنسان لم يفقه حقيقة الصيام ، ولا جوهر الإسلام ، إنه كالناقة عقلها أهلها ، ثم أطلقوها ، فلا تدري لِمَ عقلت ، ولا لِمَ أطلقت ، وهو لا يدري لِمَ صام ، ولا لِمَ أفطر .

التوبة :

1 ـ ليست التوبة مقصورة على شهر رمضان :

ومع أن شهر رمضان شهر التوبة والغفران ، لكن هذا لا يعني أن التوبة مقصورة عليه محصورة فيه ، بل إن أبواب التوبة مفتحة على مصاريعها في كل أشهر العام .

كيف لا والله سبحانه يقول :

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣ ﴾

(سورة الزمر : 53)



2 ــ الله تعالى يدعو إلى التوبة :

إنه جل وعلا يدعو المسرفين إلى التوبة فكيف بالمقتصدين ؟ كيف لا والحق جل وعلا يقول في كتابه العزيز :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٨﴾

(سورة التحريم)

والتوبة النصوح كما قال بعض العلماء : " الندم بالقلب ، والاستغفار باللسان والإقلاع عن الذنب " .

كيف لا وفي الحديث القدسي عن أنس بن مالك عن علي رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال الله تعالى :

((يا ابن آدم ، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ، ولا أبالي ، يا ابن آدم ، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقُراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة)) .

[أخرجه الترمذي في الدعوات ، وقال حديث حسن صحيح وأخرجه الدارمي]

إنه شرط واحد : ألا تشرك به .

3 ــ الله يفرح بتوبة العبد :

كيف لا والله أفرح بتوبة التائب من الظمآن الوارد ، ومن العقيم الوالد ، ومن الضال والواجد :

((فمن تاب إلى الله توبة نصوحاً أنسى الله حافظيه وجوارحه وبقاع الأرض كلها خطاياه وذنوبه)) .

[رواه أبو العباس الهمذاني مرسلاً]



كيف لا والحق جل وعلا يقول في الحديث القدسي الذي رواه البيهقي عن أبي الدرداء :

((**أهل ذكري أهل مودتي ، أهل شكري أهل زيادتي ، أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي ، إن تابوا فأنا حبيبهـــــم ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب**)) .

كيف لا وإذا رجع العبد العاصي إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض أن أيتها الخلائق هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله .

4 ـ التوبة علم وحال وفعل :

والتوبة : علم وحال وفعل .. فهي علم لأنها معرفة ضرر الذنوب ، وكيف أنها حجاب بين العبد وبين المحبوب ، وهذا العلم يولد حالة نفسية هي الشعور بالندم ، على ما اقترف من الذنوب ، وعلى ما فات من الخيرات ، وهذه الحالة من الندم تولد إرادة وقصداً إلى فعل له تعلق بالحال وبالماضي ، وبالاستقبال .

فالتائب يترك الذنب الذي كان متلبساً به في الحال ، والتائب يعزم بقلبه على ألا يعود إليه في الاستقبال ، والتائب يسعى لإصلاح ما كان في الماضي ، وقد لخص النبي صلى الله عليه وسلم هذه المراحل الثلاث بالندم ، فقال فيما رواه الإمام أحمد في مسنده عن أنس بن مالك : ((**الندم توبة**)) ، حيث لا يخلو الندم من علم أوجبه ، ومن عمل أثمره .

5 ـ صغائر الذنوب تعظم بالإصرار والمواظبة :

وقد بين الإمام الغزالي رحمه الله ما تعظم به صغائر الذنوب ، فأدرج منها الإصرار والمواظبة ، إذ لا صغيرة مع الإصرار ، ولا كبيرة مع الاستغفار ، ومنها استصغار الذنب ، فالذنب كلما استعظمه العبد في نفسه صغر عند الله ، وكلما استصغره العبد في نفسه كبر عند الله ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري :

((**إن المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه ، يخاف أن يقع عليه ، والمنافق يرى ذنبه كذباب مر على أنفه فأطاره**)) .

ومنها أن يظهر العبد الذنب ، ويتهاون بستر الله عليه ، وحلمه عنه ، وإمهاله إياه ، وقد قيل : " لا تنظر إلى صغر الذنب ، بل انظر على من اجترأت .." .



6 ـ العمل الصالح قوام الحياة :

ومع أن رمضان شهر العمل الصالح والقربات ، لكن هذا لا يعني أن فرص العمل الصالح قاصرة عليه ، بل إن أبواب الخير مفتحة في كل الشهور ، ومسالك القرب نافذة في كل الأوقات ..

فالعمل الصالح قوام حياة النفس ، كما أن الطعام والشراب قوام حياة الجسد ، والفقر في حقيقته ، فقر العمل الصالح ، والغنى في جوهره وفرة العمل الصالح ، والإمام علي كرم الله وجهه يقول : << **الغنى والفقر بعد العرض على الله** >> .

وإذا صح أن المعاصي والمخالفات عقبات كأداء على الطريق إلى الله ، وأن التوبة النصوح إزالة لهذه العقبات ، حيث يصبح الطريق إلى الله سالكاً وآمناً ، فإنه يصح أيضاً أن العمل الصالح تحركٌ ، وتقدمٌ على هذا الطريق .. قال تعالى :

فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾

(سورة الكهف : 110)

7 ـ العمل الصالح هو المظهر العملي للإيمان :

والعمل الصالح هو المظهر العملي للإيمان ، بل هو المشعر به المؤكد لوجوده الدال على صحته ، لهذا قرن العمل الصالح بالإيمان في أكثر من مائة آية في كتاب الله ، قال تعالى :

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا

(سورة الكهف : 107)

8 ـ مكانة المؤمن عند الله بحجم عمله الصالح :

بل إن مكانة المؤمن عند الله ، يحددها حجم عمله الصالح .. قال تعالى :

وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾

(سورة الأنعام)



فإذا أردت أن تعرف مقامك ، فانظر فيما استعملك ..
بل إن تحريك مقام الإنسان عند الله ورفع مستواه ، لا يتم إلا بالعمل الصالح .. قال تعالى :

وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ

(سورة فاطر : 10)

9 ــ العمل الصالح لابد له من إخلاص ومتابعة :

ولا يكون العمل الصالح صالحاً إلا إذا كان صالحاً للعرض على الله ، والحق جل وعلا لا يتقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم ، فقد ورد في صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : قال الله تعالى :
((**أنا أغنى الأغنياء عن الشرك ، ومن عمل عملاً أشرك فيه معي غيري ، تركته وشركه**)) .

فالدرهم الذي يُنفق في إخلاص خير من ألف درهم يُنفق في رياء ، وقد وصف الله تعالى ، إخلاص المؤمنين فقال :

إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩

(سورة الإنسان)

ولا يكون العمل صالحاً إلا إذا سَلِمَ من التخليط ، وهو أن يخلط المرء عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فقد روى الديلمي ، في مسند الفردوس أن النبي عليه صلوات الله وسلامه قال :
((**ركعتان من رجل ورع أفضل من ألف ركعة من مخلط**)) .

[ورد في الأثر]

وقيل : من لم يكن له ورع يصده عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله بشيء من عمله .



10 ــ ربما كان العمل الصالح مقدماً على العبادة لأنه ثمرتها :

وربما كان العمل الصالح مقدماً على العبادة لأنه ثمرتها ، ودليل صحتها ، فعن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال صلى الله عليه وسلم:

((**لأن أُعين أخي المؤمن على حاجته ، أحبُّ إليَ من صيام شهر واعتكافه في المسجد الحرام**)) .

[ذكره الهندي في كنز العمال]

فالخلق عيال الله ، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله ..

وقد كان ابن عباس رضي الله عنه معتكفاً في مسجد النبي الشريف ، فخرج من المسجد ليمشي في حاجة أخ له ، فقيل له : أنسيت أنك معتكف ؟ قال : لا ، ولكني سمعت صاحب هذا القبر ــ والعهد به قريب ، فدمعت عيناه ــ يقول :

((**من مشى في حاجة أخيه ، وبلغ فيها كان خيراً له من اعتكاف عشر سنين**)) .

[رواه الطبراني في الكبير ، والحاكم والبيهقي والخطيب وضعفه البيافي ، وقال الخطيب : غريب عن ابن عباس]

وقد رُويَ أن زيد الخير رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما علامة الله فيمن يريد ؟ وما علامته فيمن لا يريد ؟ فقال : " **كيف أصبحت يا زيد ؟** " قال : أصبحت أحب الخير وأهله ، وإن قدرت عليه بادرت إليه ، وإن فاتني حزنت عليه ، وحننت إليه ، فقال : " **هذه علامة الله فيمن يريد ..** " .

فيجب ألا يمنعنا من اصطناع المعروف للناس جحودهم وإساءتهم ، فقد روى مالك عن ابن عمر عن علي رضي الله عنه ، أن الني صلى الله عليه وسلم قال :

((**اصنع المعروف إلى من هو أهله ، وإلى غير أهله ، فإن أصبت أهله ، أصبت أهله ، وإن لم تصب أهله ، كنت أنت أهله**)) .

[ذكره السيوطي في الجامع الصغير]

11ــ من أفضل الأعمال الصالحة مجاهدة العدو :

أيها الإخوة المؤمنون في دنيا العروبة والإسلام ، حينما تسلب أرض شعب ، وتُنهب ثرواته ، وتنتهك حرماته ، وتداس كرامته ، وتقهر إرادته ، وتفسد عقائده ، وتفّرغ قيمه ، ويُزوِّر تاريخه ، ويحمل على الفساد والإفساد ، وتمارس عليه ألوان التجهيل ، والتجويع ،



والتعذيب على يد أعدائه ، أعداء الله ، أعداء الحق ، وأعداء الخير ، وأعداء الحياة ، فعندئذ لا يكون من عمل صالح أعظم عند الله تعالى من مجاهدة هذا العدو الغاصب والضرب على يده لتكون كلمة الله هي العليا ، قال الإمام علي كرم الله وجهه : **<<** إن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فتحه الله لخاصة أوليائه ، وهو لباس التقوى ، ودرع الله الحصينة وجُنّته الوثيقة ، فمن تركه رغبةً عنه ، ألبسه الله ثوب الذل ، وشملةَ البلاءِ ، ودُيِّثَ بالصغار والقماءة **>>** .

أيها الإخوة المؤمنون ، من هنا كانت انتفاضة أهلنا في الأراضي المحتلة ، تأكيداً لمعاني الجهاد والاستشهاد ، وتجسيداً لقيم التضحية والفداء ، وترسيخاً لفضائل البذل والعطاء ، قال تعالى :

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾

(سورة آل عمران)

اللهم علمنا بما ينفعنا ، وانفعنا بما علمتنا ، وزدنا علماً .

والحمد لله رب العالمين

التوبة والعمل الصالح أساس الصحة النفسية :

إن الحديث عن التوبة ، وعن العمل الصالح بعد رمضان يقودنا إلى الحقائق التالية :

لقد فُطر الإنسان فطرةً عالية ، وكيف لا تكون عالية ، وهي فطرة الله التي فطر الناس عليها، فإذا حاد الإنسان عن مبادئ فطرته ، وخرق حدود إنسانيته بالإثم والعدوان اختل توازنه النفسي ، وأحس بكآبـــــة مدمره لصحته النفسية ، وهذا ما يسمى عند علماء النفس بالتوتر النفسي ، الذي هو سبب رئيسي لكثير من الأمراض التي تصيب العضوية ، كتسرع ضربات القلب واضطرابها ، وتضيُّق الشرايين الاختلاجي ، وارتفاع ضغط الدم ذي



المنشأ العصبي ، الذي هو في حقيقته ارتفاع لضغط الدم ، وتقرحات الجهاز الهضمي ، وأمراض الحساسية ، وأمراض الأعصاب ، والشلل العضوي ذي المنشأ النفسي .

حينما يصطلح الإنسان مع الله فيتوب من ذنوبه ، ويستقيم على أمر ربه ، ويعمل الصالحات تقرباً إليه عندئذ يشعر بأنه قد أزيح عن صدره كابوس ضاغط ، كأنه جبل جاثم ، وأن ظلمات بعضها فوق بعض قد تبددت من أمامه ، وأن مشاعر الكآبة والضيق قد اختف ت إلى غير رجعة ، وعندئذ يشعر أن في قلبه من الطمأنينة والسعادة ما لو وُزعت على أهل بلد لأسعدتهم جميعاً ، وعندها تتأثر العضوية بهذه الصحة النفسية ، تأثراً إيجابياً ، فتزول أعراض أكثر الأمراض العضوية ذات المنشأ النفسي .

فالتوبة والعمل الصالح ، أساس الصحة النفسية ، والصحة النفسية أساس صحة الجسد ، فقد روى الإمام أحمد في مسنده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله :

((**استقيموا ولن تحصوا**)) .

وقد وضح الإمام المناوي في شرح هذا الحديث أنه " إذا استقمتم فلن تحصوا الخيرات التي تجنونها من الاستقامة " .

05 - الزكاة

مقدمة : الإسلام عقيدة وشريعة:

الإسلام هو دين الله الذي أوحاه إلى محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وفيه عقيدة وشريعة ، والعقيدة بكلياتها أصل ، والشريعة بأحكامها التفصيلية فرع ، وإن صحَّت عقيدة المرء صح عمله ، وأركان العقيدة هي أركان الإيمان ، وأركان الشريعة هي أركان الإسلام ، من عبادات ومعاملات وأخلاق ، وقد عبَّر القرآن عن العقيدة بالإيمان ، وعن الشريعة بالعمل الصالح ، فورد الإيمان مُقترناً بالعمل الصالح في أكثر آيات القرآن الكريم ، لأن العلاقة بين الإيمان والعمل الصالح هي علاقة سبب بنتيجة علاقة الشجر بالثمر .

والعبادات في الإسلام منها ما هو قولي كالنطق بالشهادتين ، ومنها ما هو بدني كالصلاة ، ومنها ما هو مالي كالزكاة ، ومنها ما هو بدني ومالي كالحج .



الزكاة :

1 ــ أهمية الزكاة :

فالزكاة : حارس على الأموال وعلى أصحابها ، فإذا شبع الجائع ، واكتسى العاري عم الأمن والسلام ، إنها تطبع الفرد على حب البذل والسخاء ، وتغرس في المجتمع بذور التعاون والإخاء ، وهي لا تحل المشكلة المالية بالعصا والسوط ، ولكن بإيقاظ الضمائر وتنوير العقول .

2 ــ المال مال الله ، والإنسان مستخلَف فيه :

المال مال الله ، والغني مُستخلف فـيه ، والفقراء عيال الله ، وأحب خلفاء الله إلى الله أبرهم بعياله ، والبر ذمةٌ وفريضة لا منةٌ وعطاء ، قال تعالى :

وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ

(سورة الحديد : 7)

أنتم خلفاؤه في المال .

3 ــ الزكاة ركن من أركان الإسلام :

إنها ركن من أركان الإسلام ، ودعامة من دعائم الإيمان ، وإيتاؤها مع إقامة الصلاة ، والشهادة لله بالوحدانية ، ولمحمد بالرسالة ، عنوان على الدخول في الإسلام ، واستحقاق لأخوّة المسلمين ، قال تعالى :

فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِۗ

(سورة التوبة : 11)



إنها فريضة لازمة يُكفوَّ مَن جاحدها ، ويفسق من منعها ، وإنها ليست تبرعاً ، يتفضل به غني على فقير ، أو يُحسن به واجدٌ إلى معدوم إنها أبعد من ذلك غوراً ، وأوسع أفقاً .

4 ـ الزكاة جزء مهم من نظام الإسلام الاقتصادي :

إنها جزء مهم من نظام الإسلام الاقتصادي ، إنها نقل الأمة بعض مالها من إحدى يديها إلى اليد الأخرى ، من اليد المستخلفة على حفظ المال ، وتنميته ، وهي يد الأغنياء ، إلى اليد العاملة الكادحة ، التي لا يفي عملها بحاجتها أو التي عجزت عن العمل ، وهي يد الفقراء .

عن علي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

((**إن الله فرض على أغنياء المسلمين في أموالهم بالقـــــدر الذي يسع فقراءهم ، ولن يجهد الفقراء إذا جاعوا إلا بما يضيّع أغنياؤهم ألا وإن الله سيحاسبهم حساباً شديداً ، ويعذبهم عذاباً أليماً**)) .

[الطبراني في المعجم الصغير]

ويقول الإمام علي كرَّم الله وجهه : << .. إذا بخل الغني بماله ، باع الفقير آخرته بدنيا غيره >> .

استنباطات من آيةٍ قرآنية هي أصلٌ في فرضية الزكاة :

قال تعالى :

خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ

(سورة التوبة : 103)

.



وهذه الآية أصل في فريضة الزكاة ، لذلك سنقف عندها وقفة مُتأنية :

الاستنباط الأول : خُذْ

يُستنبط من كلمة " **خذ** " أن الزكاة ليست مجرد عمل طيب من أعمال البر ، وليست خُلَّةً حسنة من خِلال الخير ، بل هي ركن أساسي من أركان الإسلام ، وشعيرة كبرى من شعائره ، إنها حجر الزاوية في النظام الاقتصادي للإسلام ، وأساس من أسس ال تكامل الاجتماعي ، وإنها ليست إحساناً اختيارياً ، ولا صدقة تطوعية ، إنما هي فريضة تتمتع بأعلى درجات الإلزام الشرعي والخلقي ، لذلك لم يأمر الله عز وجل المؤمنين بدفعها ، بل أمر نبيه صلى الله عليه وسلم وأولي الأمر من بعده بأخذها ، فالزكاة تؤخذ ، ولا تُعطى ، بفوض ولا تُستجدى .

الاستنباط الثاني : مِنْ

ويُستنبط من كلمة " **من** " التي هي للتبعيض ، أن الزكاة لا تطول جميع المال ، بل بعضه ، وقد بينت السنة مقادير هذا البعض ، بحسب أنواع الأموال ، وبحسب طريقة تحصيلها ، وبحسب مقدار الجهد المبذول في جمعها .

الاستنباط الثالث : أَمْوَالِهِمْ

ويُستنبط من كلمة " **أموالهم** " التي وردت جمعاً ، أن الزكاة تطول كل أنواع المال ، فتجب الزكاة في كل ما أخرجته الأرض من إنتاج زراعي ، وفي الثروة الحيوانية ، ومُنتجاتها ، وفي الذهب والفضة ، وفي كل أنواع النقد المتداول ، و السندات ، والديون ، والسُلف ، وفي عروض التجارة بشتى أنواعها ، وفي الحلي التي ليست للاستعمال الشخصي ، بل وتجب في الثروات المعدنية والنفطية .



الاستنباط الرابع : الضمير (هِمْ)

ويُستنبط من ضمير الجمع في " **أموالهم** " أن الزكاة مفروضة على جميع المسلمين كافة ، ممن يملكون النصاب الذي بينته السنة ، من دون استثناء ، أو إعفاء ، أو تخفيض أو طي ..

الاستنباط الخامس : صَدَقَةً

ويُستنبط من كلمة " **صدقةً** " أن المسلم حينما يدفع زكاة ماله ، يؤكد صدقه ، أي تطابق فعله مع اعتقاده ، ويؤكد تصديقه لأمر الله ، وتصديقه بيوم الدين ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه الإمام مسلم في صحيحه : ((**وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ**)) .

[مسلم عن أبي مالك الأشعري]

أي برهانٌ على صدقك ، وعلى تصديقك .

فالزكاة عبادة مالية يؤكد بها المسلم تصديقه وصدقه ، فلو لم يُطالبه بها السلطان طالبه بها القرآن .

الاستنباط السادس : تُطَهِّرُهُمْ

ويُستنبط من كلمة " **تطهرهم** " أن الزكاة تطهير لنفس الغني ، من الشح البغيض ، تلك الآفة النفسية الخطرة التي قد تدفع بصاحبها إلى الدم فيسفكه ، أو إلى العرض فيبذله ، أو إلى الوطن فيبيعه ، ولن يُفلح فرد أو مجتمع سيطر عليه الشح ، وملك ناصيته ، قال تعالى :

وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾

(سورة الحشر)

وهي تطهير لنفس الفقير أيضاً من الحسد والضغن على ذلك الغني الكانز لمال الله ، والذي يمنعه عن عباد الله ، فمن شأن الإحسان أن يستميل قلب الإنسان ، ومن شأن الحرمان أن يملأه بالبغض والحقد ، وهي تطهير للمجتمع كله من عوامل الهدم ، والتفرقة ، والصراع ، والفتن .



وهي تطهير للمال من تلوثه بتعلق حق الغير به ، فالحجر المغصوب في الدار سبب خرابها ، وكذلك الدرهم الذي استحقه الفقير في المال رهن بتلويثه كله ، بل وبإتلافه ، قال صلى الله عليه وسلم :

((**إذا أديت زكاة مالك فقد أذهبت عنك شره**)) .

[رواه ابن خزيمة وصححه الحاكم على شرط مسلم]

وقال أيضاً :

((**حصنوا أموالكم بالزكاة ، وما تلف مال في برّ أو بحر إلا بحبس الزكاة**)) .

[رواه الطبراني والبيهقي مرفوعاً متصلاً ، ورواه أبو داود في المراسيل]

الاستنباط السابع : وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا

الزكاة نماء لشخصية الغني :

ويُستنبط أيضاً من كلمة " **وتزكيهم بها** " في هذه الآية ، النماء والزيادة نماء للغني ، وللفقير ، ولمال كل منهما ، ونماء للعلاقات الاجتماعية ، ونماء للقيم الإنسانية .

أما أن الزكاة نماء لشخصية الغني وكيانه المعنوي فالإنسان الذي يُسدي الخير ، ويصنع المعروف ويبذل من ذات نفسه ويده ، لينهض بإخوانه في الدين والإنسانية ، وليقوم بحق الله عليه يشعر بامتدادٍ في نفسه ، وانشراح ، واتساع في صدره ، ويُحسُّ بما يُحسُّ به من انتصر في معركة ، وهو فعلاً قد انتصر على ضعفه ، وأثرته ، وشيطان شُحِّه ، وهواه ، فهذا هو النمو النفسي والزكاة المعنوية ، ولعل هذا بعض ما قصدته كلمة " وتزكيهم بها " وما عناه عطف التزكية على التطهير وتأخُّرها عنه " تطهرهم وتزكيهم بها " .

الزكاة نماء لشخصية الفقير :

والزكاة أيضاً هي نماء لشخصية الفقير ، حيث يشعر أنه ليس ضائعاً في المجتمع ، ولا هيناً عليه ، ولا متروكاً لضعفه وفقره ، إن مجتمعه ليعمل على إقالة عثرته ، ويحمل عنه أثقاله ، ويمدُّ له يد المعونة ، بكل ما يستطيع ، وبعد ذلك هو لا يتناول الزكاة من يد فردٍ



يشعر بالضعف أمامه ، بل يأخذها من أولي الأمر ، حرصاً على كرامته أن تُخدش ، ولو قدّر للأفراد أن يُعطوا فإن القرآن يحذرهم من المن والأذى ، قال تعالى :

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ

(سورة البقرة : 263)

الزكاة نماء للمال :

والزكاة بعد ذلك نماء للمال ، وبركة فيه ، وكيف يكون ذلك ؟ وهي في الظاهر نقص من المال بإخراج بعضه ، ولكن العارفين يعلمون أن هذا النقص الظاهر وراءه زيادة حقيقية ، زيادة في مال المجموع ، وزيادة في مال الغني نفسه ، فتأدية الزكاة ترفع القوة الشرائية عند الفقير ، وهذا يعود بالنفع على دافع الزكاة ، وهذا معنى قوله تعالى :

وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾

(سورة سبأ)

وقال تعالى :

يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ

(سورة البقرة : 276)

وقد يزيد مال دافع الزكاة بالعناية الإلهية المباشرة بغير ما نعرف من الأسباب .



الزكاة وسيلة من وسائل الضمان الاجتماعي :

والزكاة بعد ذلك وسيلة من وسائل الضمان الاجتماعي الذي جاء به الإسلام ، فالإسلام يأبى أن يوجد في مجتمعه ، من لا يجد القُوت الذي يكفيه ، والثوب الذي يستره ، والمسكن الذي يُؤويه ، فالمسلم مُطالب أن يحقق هذه الضروريات ، وما فوقها من جهده وكسبه ، فإن لم يستطع فالمجتمع المسلم يكفله ويضمنه ، ولا يدعه فريسة للجوع والعري والتشريد ، فالمسلمون كالجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

الزكاة وسيلة لتقريب المسافة بين الأغنياء والفقراء :

والزكاة وسيلة من وسائل الإسلام لتقريب المسافة بين الأغنياء والفقراء ، وما دام الإسلام دين الفطرة فإنه يعترف بنوازع الإنسان الفطرية لكسب المال وتملُّكه ، ولكنه يضع حدوداً ومسارات وتنظيمات فلا يدع الغني يزداد غنىً ، ولا يرضى للفقير أن يزداد فقراً ، فقد حرَّم الربا ، والاحتكار ، والسرف ، والترف ، وأمر بالتعاون ، والإنفاق والصدقة ، وقد حرَّم الإسلام كنز المال ليساهم المال في ميدان العمل ، والتنمية ، ويعود نفعه على الأمة كلها ، رخاءً وقوةً وسيادة ، ولئلا يكون المال قوة معطلة شلاّء ينفقه صاحبه إنفاقاً استهلاكياً تبذيرياً ، يزيد الهوة عمقاً واتساعاً بين الأغنياء والفقراء ، لذلك حرَّم الله كنز المال ، وأعلن القرآن عن سخط الله على الكانزين الأشحاء ، قال تعالى :

وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴿٣٥﴾

(سورة التوبة)



وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أن كل مالْ أُديت زكاته ليس بكنز ، بل إن فريضة الزكاة تدفع أصحاب الأموال إلى استثمارها في مشاريع إنتاجية تنموية ، لئلا تأكلها الزكاة لذلك أمر النبي صلى الله عليه وسلم الأوصياء على أموال اليتامى أن يتّجروا بأموال اليتامى حتى لا تأكلها الزكاة .

والإسلام فوق كل ذلك حرم الإسراف في إنفاق المال ، والتبذير فيه وإتلافه بشكل أو بآخر ، لتعلق حق الغير به ورد في الأثر القدسي :

((**الأغنياء أوصيائي ، والفقراء عيالي ، فمن منع مالي عيالي أذقته عذابي ولا أُبالي**)) .

[ورد في الأثر]

هذه بعض آثار الزكاة :

وهذه بعض من ثمار الزكاة اليانعة ، وكيف لا تكون يانعة ، والقرآن يهدي للتي هي أقوم .

روي التاريخ : أن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعث سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن أميراً عليها ، فبعث معاذ إلى عمر بثلث الزكاة ، فأنكر ذلك عمر ، وقال له : << لم أبعثك جابياً ، ولا آخذ جزية ، ولكن بعثتك لتأخذ من أغنياء الناس فتردها على فقرائهم ، فقال معاذ : ما بعثت إليك بشيء ، وأنا أجد أحداً يأخذه مني ، فلما كان العام الثاني بعث إليه بنصف الزكاة فتراجعا بمثل ذلك ، فلما كان العالم الثالث بعث إليه بالزكاة كلها ، فراجعه عمر بمثل ما راجعه قبل ذلك ، فقال سيدنا معاذ : ما وجدت أحداً يأخذ مني شيئاً >> .

وقد قيل : << ما مات سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وقد ولي الخلافة ثلاثين شهراً ، حتى صار الرجل يأتينا بالمال العظيم فلا نجد من يأخذه ، وقد قيل : أغنى عمر الناس .. والأصح أن نقول : لقد أغنى الإسلام الناس .. ولقد بشَّر النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الخير العميم فقال :

((**تصدقوا فإنه يأتي عليكم زمان يمشي الرجل بصدقته فلا يجد من يقبلها يقول الرجل : لو جئت بها بالأمس لقبلتُها فأما اليوم فلا حاجة لي بها**)) .

[رواه الطبراني في الكبير]



القحط والجفاف والأوبئة نتائج منع الزكاة :

قد تشحُّ الأمطار ، وتجف الأنهار ، وتغور الينابيع ، وقد يقضي الصقيع على الزرع والكلأ ، وقد يكثر الشجر ويقل الثمر ، وقد تُتلفُ الحشرات ، والأوبئة بعض المحاصيل ، وقد تهب الرياح العاتية فتقتلع الأشجار ، وتهدم البيوت ، وقد تُسلط ذبابة فتقضي على محصول كبير ، ودودة على محصول آخر ، وقد يأتي الجراد فيأكل الأخضر واليابس .. ويقف الإنسان حائراً أمام هذه الظواهر ، ويحاول أن يبحث عن السبب .

يقول له العلم : إن ارتفاع نسبة غاز الفحم في الجو سببت تخلخلاً في طبقة الأوزون المحيطة بالأرض ، الأمر الذي أدى إلى اضطراب درجات الحرارة وسرعة الرياح ، واضطراب وانتقال خطوط المطر ، وهذا التفسير العلمي لا يكفينا .. ولا يمنعنا أن نسأل مسبب الأسباب ، وخالق الأكوان ، ومُنزل القرآن عن السبب الأبعد والأهم لكل هذا ، وعن السبب الحقيقي ، وها هو القرآن ذا يجيبنا قائلاً :

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ

(سورة الأعراف : 96)

وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾

(سورة الجن)

ولنسأل مبعوث العناية الإلهية النبي عليه الصلاة والسلام فيجيبنا قائلاً :

((**ما منع قوم الزكاة إلا ابتلاهم الله بالسنين**)) .

أي الفقر والقحط .

[رواه الطبراني في الأوسط ، وصححه الحاكم على شرط مسلم انظر مجمع الزوائد ومنبع الفوائد 96/3]

((**ولم يمنعوا زكاة مالهم إلا مُنعوا القطر من السماء ، ولولا البهائم لم يُمطروا**)) .

[رواه الحاكم وصححه وغيره]

((**ما تلف مال في برٍ أو بحرٍ إلا بحبس الزكاة**)) .



[رواه الطبراني في الأوسط ، وقال الهيثمي في المجمع 93/3 : فيه عمر بن هارون وهو ضعيف]

زكاة الفطر :

1 ـ زكاة الفطر طهرة للصائم :

وبقي علينا في الخطبة موضوع صغير ، ألا وهو زكاة الفطر ، لأن صيامنا وقيامنا لا يُرفع إلى الله تعالى إلا بتأدية هذه الزكاة ، لقد فرض الله علينا زكاة الفطر طُهرة للصائم مما بدر منه من لغو أو رفث ، وطُعمة للمسكين وإغناءً له عن السؤال .

2 ـ على من تجب زكاة الفطر ؟

وصدقة الفطر تجب على كل مسلم يملك قوت يومه حرٍ أو عبدٍ ذكرٍ أو أنثى ، صغير أو كبير ، غني أو فقير ، يخرجها الرجل عن نفسه أولاً ، وعن كل من يمونه ، ويلي عليه ، كزوجته ، وأولاده ، وعن أمه ، وأبيه ، وإخوته ، وأخواته ، إن كان يُنفق عليهم .

3 ـ مقدار زكاة الفطر ؟

ومقدارها في الحد الأدنى ثمن نصف صاع من القمح ، ونصف الصاع من القمح يعدل اثنين كيلو من القمح ، عن كل فرد ، أو ثمن اثنين كيلو من القمح ، ولا حد لأكثرها ، لقول الله عز وجل :

لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ

(سورة الطلاق : 7)

لا إسراف في الخير ولا خير في الإسراف .



4 ـ حكمتها :

وحكمتها أن يذوق كل مسلم طعم الإنفاق حتى الفقراء ، ولكي يتدرب الإنسان على الإنفاق في العسر واليسر ، ولكي تكون يده هي العليا ، ووقت أدائها من أول رمضان ، وحتى قُبيل الخروج لصلاة العيد ، ويفضل أن تعطى للأقارب عدا الأصول والفروع " الآباء مهما علوا ، والأبناء مهما دنوا ، وعدا الزوج والزوجة .

1 ـ عدم الإنفاق إلقاءٌ بالنفس إلى التهلكة :

يقول المولى عز وجل في كتابه العزيز :

وَأَنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ

(سورة البقرة : 195)

من معاني هذه الآية : أن المسلم إن لم ينفق في سبيل الله ، وإيتاء الزكاة من الإنفاق ، فقد ألقى نفسه بيده إلى التهلكة .

2 ـ قصة ثعلبة حمامة المسجد !!!

وترسيخاً لهذا المعنى ، ومن باب التطبيق العملي لهذه الآية ننتقل إلى المدينة المنورة ... وندخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحن في المسجد إذا برجل يسمى ثعلبة ، وقد كان يسمى حمامة المسجد ، لأنه كان لا تفوته تكبيرة الإحرام خلف سيد الأنام ، رآه النبي صلى الله عليه وسلم يرتدي ثوباً بالياً فسأله ، كيف حالك يا ثعلبة ؟ فيقول : حالي كما تراني ، ولم يقل : الحمد لله .. لقد غفا قلبه ، وانغمس في وحول الحياة ، ثم قال ثعلبة : سل الله أن يغنيني يا رسول الله ؟ فنظر إليه الني صلى الله عليه وسلم بعين البصيرة ، وقال له : " يا ثعلبة ، قليل يكفيك خير من كثير يطغيك ، قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تؤدي حقه ، يا ثعلبة ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس ، يا ثعلبة ليس الغنى عن كثرة العرض ، ولكن الغنى غنى النفس ، ومن أصبح حزيناً على الدنيا فقد أصبح ساخطاً على ربه ، من شكا



مصيبة نزلت به فكأنما يشكو الله عز وجل ، من قعد إلى غني لينال من ماله فقد ذهب ثلثا دينه .. " لكن ثعلبة ألح في الطلب .. بل قال : لئن أغناني الله لأصدَّقنَّ ، ولأكونن من الصالحين ، عندها قال صلى الله عليه وسلم : " اللهم أغن ثعلة بما شئت ، وكيف شئت " ودعوة الرسول ليس بينها وبين الله حجاب ..

ورزق ثعلبة برؤوس الأغنام ، وزادت وتوالدت حتى ضاقت بها شعاب المدينة ، ثم ماذا حدث بعد هذا لقد قطع ثعلبة صلته بالمسجد فتفقده النبي صلى الله عليه وسلم فلم يجده ، فسأل عن حمامة المسجد فإذا بها قد قُصت أجنحتها ، وتمرغت في وحول المال ..

ما الحياة في جوهرها أيها الإخوة ؟ درهم ودينار .. لا والله ، ولكنها طاعة للرحمن .

إذا المرء لم يلبس ثياباً من التقى تقلب عرياناً و لو كان كاسيـــا

و خير لباس المرء طاعة ربـــه ولا خير في من كان لله عاصيا

قطع ثعلبة صلته بالمسجد ، واستنكفت نفسه أن يجلس على الأرض ، واستكبرت نفسه أن تسجد لله .. ومضى عام ، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى ثعلبة من يأخذ منه زكاة ماله ..

نظر ثعلبة في الأمر ، فإذا به ينطق بكلمة السوء ، ويقول لعامل بيت المال : بلِّغ صاحبك " ولم يقل بلِّغ رسول الله " أن ليس في الإسلام زكاة ، فقال له مبعوث رسول الله : أو ما تراه لك صاحباً ؟ لقد جمعت إلى منع الزكاة نقض العهد ، وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر ثعلبة وقوله فقال : " يا ويح ثعلبة " ، ثم نزل بثعلبة وبأمثاله قرآن يُتلى إلى يوم القيامة :

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾



أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (77)أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾

(سورة التوبة)

لقد صدق الله العظيم إذ قال :

وَأَنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ

(سورة البقرة)

وقال :

۞ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾

(سورة المعارج)

06 - حكمة الحج

الحج :

1 ـــ العبادات الشعائرية هدفها السمو بالإنسان :

في الإسلام فضلاً عن العقائد التي تعد أساس الدين عبادات تنظم علاقة الإنسان بربه ، ومعاملات تنظم علاقة الإنسان بأخيه ، وإذا صحت العبادات ارتقت المعاملات ، وكان ارتقاء المعاملات مؤشراً على صحة العبادات ، والعبادات تهدف أول ما تهدف إلى السمو بالإنسان



نفسـاً وقولاً وعملاً ، عن طريق إحكام الصلة بالله رب العالمين ، والاهتداء بهديه ، والتنعم بقربه ، والتقلب في رحمته ، والارتشاف من عذب شرابه ، وقطف ثمار فضله ، ومن هذا المنطلق شُرعت العبادات الشعائرية ، كالصلاة والصيام والحج .

2 ـ الحج عبادة مالية بدنية :

الحج هو أحد أركان الإسلام الخمسة ، وهو عبادة مالية ، بدنية شعائرية ، وهو تلك الرحلة الفريدة في عالم الأسفار ، ينتقل فيها المسلم ببدنه ، وقلبه إلى البلد الأمين الذي أقسم الله به ، في القرآن الكريم ليقف في عرفات ، وليطَّوَّف ببيت الله الحرام ، الذي جعله الإسلا م رمزاً لتوحيد الله ، ووحدة المسلمين ، ففرض على المسلم أن يستقبله كل يوم خمس مرات في صلواته ، قال تعالى :

قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾

(سورة البقرة)

ثم فرض عليه أن يتوجه إليه بشخصه ، ويطوف به بنفسه في العمر مرة واحدة .

3 ـ البيت العتيق : بناء إبراهيم ودعوته بالرزق لأهله :

إن هذا البيت العتيق هو أول بيت وُضع للناس ، هو أول بيت أُقيم في الأرض لعبادة الله، ومجدِّدُ بنائه الخليل إبراهيم وولده الذبيح إسماعيل ، وهما الرسولان الكريمان اللذان جعل الله من ذريتهما هذه الأمة المسلمة ، واستجاب دعوتهما الخالصة ، وهما يُشيد ان هذا البناء العتيد ، قال تعالى :



وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾

(سورة البقرة)

قال صلى الله عليه وسلم :

((**دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ ، وَبُشْرَى عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ**)) .

[أحمد عن أبي أمامة]

4 ــ الحج برهان عملي يقدمه المؤمن لربه ولنفسه :

والحج برهان عملي يقدمه المؤمن لربه ولنفسه ، على أن تلبية دعوة الله بدافع محبته وابتغاء رضوانه ــ أفضل عنده من ماله ، وأهله ، وولده ، وعمله ، ودياره ، ومما تتميز به هذه العبادة أنها تحتاج إلى تفرغ تام ، فلا تؤدى إلا في بيت الله الحرام .

إذاً : لا بد من مغادرة الأوطان ، وترك الأهل ، والخلان ، وتحمّل مشاقِّ السفر ، والتعرض لأخطاره ، وإنفاق المال في سبيل رضوانه .

5 ــ ثمار الحج :

وإذا صح أن ثمن هذه العبادة باهظ التكاليف فإنه يصحُّ أيضاً أن ثمرة هذه العبادة باهرة النتائج ، حيث قال المصطفى صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري ومسلم :

((**مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ ، وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ**)) .

[رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة]



وقال أيضاً : ((**وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ**)) .

[مسلم عن عمرو بن العاص]

و عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
((**الْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ**)) .

[أحمد]

وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ :
((**الْحَاجُّ وَالْعُمَّارُ وَفْدُ اللَّهِ ، إِنْ دَعَوْهُ أَجَابَهُمْ ، وَإِنِ اسْتَغْفَرُوهُ غَفَرَ لَهُمْ**)) .

[البيهقي في السنن الكبرى]

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
((**تَابِعُوا بَيْنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ ، فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَ دِيدِ وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، وَلَيْسَ لِلْحَجَّةِ الْمَبْرُورَةِ ثَوَابٌ إِلَّا الْجَنَّةُ**)) .

[رواه الترمذي والإمام أحمد]

عَنْ بُرَيْدَةَ الأَسْلَمِى قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم :
((**النَّفَقَةُ فِي الْحَجِّ كَالنَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ سَبْعِينَ ضِعْفًا**)) .

[البيهقي في السنن الكبرى]

6 ـ التلبية معزاها ومدلولها :

يذهب المسلم إلى بيت الله الحرام ، ويُخلِّف في بلدته هموم المعاش والرزق ، هموم العمل والكسب ، هموم الزوجة والولد ، وهموم الحاضر والمستقبل ، وبعد أن يُحرم من الميقات يبتعد عن الدنيا كلياً ، ويتجرَّد إلى الله عز وجل ويقول : " لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك " .

هذه التلبية كأنها استجابة لنداء ودعوة يقعان في قلبه ، أن يا عبدي خلِّ نفسك وتعال ، تعال يا عبدي ، لأريحك من هموم كالجبال ، تجثم على صدرك ، تعال يا عبدي لأطهرك من شهوات تُنغِّص حياتك .

إلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمته مسؤول ؟

تعالَ يا عبدي ، وذق طعم محبتي .. تعال يا عبدي ، وذق حلاوة مناجاتي .

" لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك " .



تعال يا عبدي لأريك من آياتي الباهرات ، تعالى لأريك ملكوت الأرض والسماوات ، تعالى لأضيء جوانحك بنوري الذي أشرقت به الظلمات ، تعال لأعمر قلبك بسكينة عزت على أهل الأرض والسماوات تعال لأملأ نفسك غنىً ورضىً شقيتْ بفقدهما نفوس كثيرة ، تعال لأخرجك من وحول الشهوات إلى جنات القربات ، تعال لأنقذك من وحشة البعد إلى أُنس القرب ، تعال لأخلصك من رُعب الشرك وذل النفاق إلى طمأنينة التوحيد وعز الطاعة .

لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك ، والملك لا شريك لك "

تعال يا عبدي لأنقلك من دنياك المحدودة ، وعملك الرتيب ، وهمومك الطاحنة إلى آفاق معرفتي ، وشرف ذكري ، وجنة قربي ، تعال يا عبدي وحُطَّ همومك ومتاعبك ، ومخاوفك عندي ، فأنا أضمن لك زوالها ، تعال يا عبدي واذكر حاجاتك ، وأنت تدعوني فأنا أضمن لك قضاءها " ، إن بيوتي في الأرض المساجد ، وإن زوارها هم عُمارها ، فطوبى لعبد تطهَّر في بيته ثم زارني ، وحقَّ على المزور أن يكرم الزائر " ..

فكيف يكون إكرامي لك إذا قطعت المسافات ، وتجشمت المشقات ، وتحملت النفقات ، وزرتني في بيتي الحرام ، ووقفت بعرفة تدعوني ، وتسترضيني .

" لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد ، والنعم ة لك ، والملك ، لا شريك لك " .

تعال يا عبدي ، وزرني في بيتي ، لتنزاح عنك الهام ، ولتعاين الحقائق ولتستعد للقاء ، فعَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ يَرْفَعُهُ قَالَ : يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ :

((إِنَّ عَبْدًا أَصْحَحْتُ جِسْمَهُ ، وَأَوْسَعْتُ عَلَيْهِ فِي الْمَعِيشَةِ تَأْتِى عَلَيْهِ خَمْسَةُ أَعْوَامٍ لَمْ يَفِدْ إِلَيَّ لَمَحْرُومٌ)) .

[سنن البيهقي]

7 ـ الطواف وتقبيل الحجر الأسود :

تعال يا عبدي ، وطُف حول الكعبة طواف المحب حول محبوبه ، واسعَ بين الصفا والمروة سعي المشتاق لمطلوبه ، تعال يا عبدي ، وقبِّل الحجر الأسود ، يميني في الأرض ، واذرُف الدمع على ما فات من عمر ضيعته في غير ما خُلقت له ، وعاهدني على ترك المعاصي والمخالفات على الإقبال على الطاعات والقربات ، " وكن لي كما أُريد لأكن لك كما تريد ، كن لي كما أريد ولا تعلمني بما يصلحك ، فإذا سلَّمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد ،



وإن لم تُسلِّم لي فيما أُريد أتعبتك فيما تريد ، ثم لا يكون إلا ما أريد خلقت لك ما في الكون من أجلك فلا تتعب ، وخلقتك من أجلي فلا تلعب ، فبحقي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك عما افترضته عليك " .

" لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك ، والملك لا شريك لك " .

8 ـ الوقوف بعرفة نفحة ودعاء ومعرفة :

تعال يا عبدي إلى عرفات ، يوم عرفة فهو يوم اللقاء الأكبر ، تعالى لتتعرض لنفحة من نفحاتي تطهر قلبك من كل درن وشهوة ، وتُصفي نفسك من كل شائبة ، وهذه النفحات تملأ قلبك سعادة وطمأنينة ، وتشيع في نفسك سعادة لو وُزِّعت على أهل بلد لكفتهم ، عندئذ لا تندم إلا على ساعة أمضيتها في قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال .

تعال لعرفات يوم عرفة ، لتعرف أنك المخلوق الأول من بين كل المخلوقات ، ولك وحدك سخرت الأرض والسماوات ، وأنك حُمِّلت الأمانة التي أشفقت منها الجبال والأرض والسماوات ، وأني جئت بك إلى الدنيا لتعرفني ، وتعمل عملاً صالحاً يؤهلك لجنة الخلد ، تعال إلى عرفات يوم عرفة ، لتعرف أن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر ، وأنك إن وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فُتُّك فاتك كلُّ شيء.

وبعد أن يذوق المؤمن في عرفات ، من خلال دعائه ، وإقباله ، واتصاله ، روعة اللقاء ، وحلاوة المناجاة ، ينغمس في لذة القرب ، عندئذ تصغر الدنيا في عينيه ، وتنتقل من قلبه إلى يديه ، ويصبح أكبر همه الآخرة فيسعى إلى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، وقد يُكشف للحاج في عرفات أن كل شيء ساقه الله له مما يكرهه ، هو محض عدل ، ومحض فضل ، ومحض رحمة ، ويتحقق من قوله تعالى :

كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ

(سورة البقرة : 216)



9 ــ رمي الجمرات : معرفة عداوة إبليس :

وبعد أن يفيض الحاجُّ من عرفات ، وقد حصلت له المعرفة واستنار قلبه ، وصحت رؤيته يرى أن السعادة كلها في طاعة الله ، وأن الشقاء كله في معصيته عندئذ يرى عداوة الشيطان ، وكيف أنه يَعِدُ أولياءه بالفقر إذا أنفقوا ، ويخوفهم مما سوى الله ، إذا أنابوا وتابوا ، ويعدهم ، ويمنيهم ، وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ، قال تعالى :

وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٢﴾

(سورة إبراهيم)

عندئذ يُعبِّر الحاج عن عداوته للشيطان تعبيراً رمزياً برمي الجمار ، ليكون الرمي تعبيراً مادياً ، وعهداً موثقاً في عداوة الشيطان ، ورفضاً لوساوسه وخطراته .

يقول الإمام الغزالي : " اعلم أنك في الظاهر ترمي الحصى في العقبة ، وفي الحقيقة ترمي بها وجه الشيطان ، وتقصم ظهره ، ولا يحصل إرغام أنفه إلا بامتثالك أمر الله تعالى " .

10 ــ الهدي والأضاحي : شكر وتضحية :

وحينما يتجه الحاج لسوق الهدي ، ونحر الأضاحي ، وكأن الهدي هدية إلى الله تعبيراً عن شكره لله على نعمة الهدى ، التي هي أثمن نعمة على الإطلاق ، وكأن ذبح الأضحية ذبح لكل شهوة ، ورغبة لا تُرضي الله ، وتضحية بكل غالٍ ورخيص ، ونفس ونفيس في سبيل مرضاة رب العالمين .



قال تعالى :

لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾

(سورة الحج)

11 ــ طواف الإفاضة والوداع : تهيئة العودة وتفكر في الرحلة الأخيرة :

ثم يكون طواف الإفاضة تثبيتاً لهذه الحقائق ، وتلك المشاعر ، ثم يطوف طواف الوداع لينطلق منه إلى بلده إنساناً آخر استنار قلبه بحقائق الإيمان ، وأشرقت نفسه بأنوار القرب ، وعقد العزم على تحقيق ما عاهد الله عليه ، وإذا صحَّ أن الحج رحلة إلى الله ، فإنه يصحُّ أيضاً أنه الرحلة قبل الأخيرة ، لتجعل الرحلة الأخيرة مُفضية إلى جنة عرضها السماوات والأرض .

12 ــ زيارة المدينة النبوية حنين وطاعة :

وبعد أن ينتهي الحجاج من مناسك الحج يتجهون إلى المدينة المنورة ، التي هي من أحب بلاد الله إلى الله ، يتجهون إليها لزيارة سيد الأنام صلى الله عليه وسلم ، فقد رُوي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

((**من زارني بعد موتي فكأنما زارني في حياتي**)) .

[الترغيب والترهيب ، وإسناده ضعيف]

وقد عُلِّقت في مكان بارز من الحجرة الشريفة الآية الكريمة :



وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا

(سورة النساء : 64)

طاعة النبي من طاعة الله :

وقد أشار القرطبي إلى أن الآية تصدق على زيارة النبي صلى الله عليه وسلم في حياته وبعد مماته ، وليس هذا لغير النبي صلى الله عليه وسلم .

وقد أورد القاسمي في تفسيره أن في هذه الآية تنويهاً بشأن النبي صلوات الله وسلامه عليه ، فالرجل حينما يظلم نفسه بمعصية ربه ، من خلال خروجه عن سنة النبي صلى الله عليه وسلم وجب عليه أن يستغفر الله ، وأن يعتذر من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا تتم التوبة إلى الله ، ولا تُقبل إلا إذا ضمَّ إلى استغفار الله استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم عين طاعة الله ، ورفض سنة النبي صلى الله عليه وسلم عين معصية الله وإرضاء رسول الله صلى الله ع ليه وسلم هو عين إرضاء الله ، يستنبط هذا من إفراد الضمير في قوله تعالى عند كلمة يرضوه :

يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ لِيُرۡضُوكُمۡ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾

(سورة التوبة)

هكذا بضمير المفرد ، ولا أدل على ذلك من قول الله تعالى :

مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًا

(سورة النساء : 80)



ومن قوله تعالى :

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾

[سورة آل عمران]

ولعل سرَّ السعادة التي تغمر قلب المسلم حينما يزور مقام النبي صلى الله عليه وسلم أنه ما إن يرى معالم المدينة حتى يزداد خفقان قلبه ، وما إن يبصر الروضة الشريفة حتى يجهش بالبكاء ، وعندئذ تُصبح نفس الزائر صافية من كل كدر ، نقية من كل شائبة ، سليمة من كل عيب ، منتشية بحبها له صلى الله عليه وسلم وقُربها منه ، وهذه حقيقة الشفاعة التي أشار إليها النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : "من جاءني زائراً ، لم تنزعه حاجة إلا زيارتي كان حقاً على الله أن أكون له شفيعاً يوم القيامة " .

[رواه ابن خزيمة في صحيحه والبزار والدارقطني عن ابن عمر رضي الله عنهما]

وإذا شئت الدليل القرآني على ما يشعر به المسلم من سكينة وسعادة حينما يتصل برسول الله صلى الله عليه وسلم بنحو أو بآخر ، فهو قوله تعالى :

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾

(سورة التوبة)

وقال الرازي في تفسيره : إن روح محمد صلى الله عليه وسلم كانت روحاً قوية صافية مشرقة باهرة لشدة قربه من الله ، ولأن قلبه الشريف مهبط لتجليات الله جل وعلا ، فإذا ذكر أصحابه بالخير والود ، أو ذكره المؤمنون بالحب والتقدير فاضت آثار من وقته الروحانية على أرواحهم ، فأشرقت بهذا السبب نفوسهم ، وصفت سرائرهم ، وهذه المعاني تفسر قوله تعالى :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾

(سورة الأحزاب)



رُوي أن بلالاً رضي الله عنه سافر إلى الشام ، وطال به المقام ، بعد وفاة سيد الأنام صلى الله عليه وسلم ، ولقد رأى وهو في منامه وهو بالشام رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له : " ما هذه الجفوة يا بلال ؟ أما آن لك أن تزورني " ؟ فانتبه حزيناً ، وركب راحلته ، وقصد المدينة ، فأتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم فجعل يبكي عنده كثيراً ، فأقبل الحسن والحسين رضي الله عنهما وجعل يضمهما ، ويقبلهما فقالا : نشتهي أن نسمع أذانك ، الذي كنت تؤذن به لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأصرّا عليه ، فصعد وعلا سطح المسجد ، ووقف موقفه الذي كان يقفه .

ولما بدأ بقوله : الله أكبر .. وتذكر أهل المدينة عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتجَّت المدينة ، وخرج المسلمون من بيوتهم ، فما رأيت يوماً أكثر باكياً وباكيةً في المدينة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك اليوم .

لقد صدق أبو سفيان رضي الله عنهم حينما قال : ما رأيت أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً .. وهذه الحقيقة ينبغي أن تنسحب على كل مؤمن إلى يوم القيامة ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((**فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ**)) .

[رواه البخاري ومسلم44]

الخطبة الثانية : خطبة حجة الوداع مبادئ ودروس :

لقد خطب النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع خطبة جامعة مانعة تضمنت مبادئ إنسانية سيقت في كلمات سهلة سائغة ، كيف لا وقد أوتي النبي صلى الله عليه وسلم جوامع الكلم ، فلقد استوعبت هذه الخطبة جملة من الحقائق التي يحتاجها العالم الشارد المعذب ليرشد ويسعد ، قال تعالى :

قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾

(سورة طه)



إن الله جل وعلا ربى محمداً صلى الله عليه وسلم ليُربي به العرب ، وربى العرب بمحمد صلى الله عليه وسلم ليُربي بهم الناس أجمعين ، قال تعالى :

وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

(سورة الحج)

فمن المبادئ التي انطوت عليها خطبة النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع :

1 ـ الإنسانية متساوية القيمة :

ـ الإنسانية متساوية القيمة في أي إهاب تبرز ، على أية حالة تكون وفوق أي مستوى تتربع ، ((**يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ ، إِلَّا بِالتَّقْوَى ، أَبَلَّغْتُ ؟ قَالُوا : بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**)) .

[أحمد عن أبي نضرة]

2 ـ حرمة الدماء والأموال والأعراض :

ـ النفس الإنسانية ما لم تكن مؤمنة بربها مؤمنة بوعده ووعيده مؤمنة بأنه يعلم سرَّها وجهرها ، لأن النفس الإنسانية تدور حول أثرتها ، ولا تُبالي بشيء في سبيل غايتها ، فربما بنت مجدها على أنقاض الآخرين ، وبنت غناها على فقرهم ، وبنت غزها على ذلهم ، بل ربما بنت حياتها على موتهم ، لذلك قال الرسول الكريم في حجة الوداع :



((**أيها الناس إن دماءكم وأموالكم ، وأعراضكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم ، إنما المؤمنون إخوة ، لا يحل لامرئ مالُ أخيه إلا عن طيب نفس منه ، وإنكم ستلقون ربكم ، فيسألكم عن أعمالكم ، ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد**)) .

[الحاكم والبيهقي]

3 ــ المال قوام الحياة :

ــ والمال قوام الحياة ، وينبغي أن يكون مُتداولاً بين كل الناس ، وأنه إذا ولد المالُ المال من دون جهد حقيقي يسهم في عمارة الأرض وإغناء الحياة ، تجمَّع في أيدٍ قليلة ، وحُرمت منه الكثرة الكثيرة ، عندها تضطرب الحياة ، ويظهر الحقد ، ويُلجأ إلى العنف ، ولا يلد ا لعنف إلا العنف ، والربا يسهم بشكل أو بآخر في هذه النتائج المأساوية التي تعود على المجتمع البشري بالويلات ، لهذا قال المصطفى صلى الله عليه وسلم في خطبة الوداع :
((**أَلَا وَإِنَّ كُلَّ رِبًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ لَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْ لِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ غَيْرَ رِبَا الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ** – أي أسقطه –)) .

[مسلم عن جابر]

4 ــ النساء شقائق الرجال :

ــ النساء شقائق الرجال ، ولأن المرأة مساوية للرجل تماماً من حيث إنها مكلفة كالرجل بالعقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق ، ومساوية له من حيث استحقاقُها الثواب والعقاب ، وأنها مساوية له تماماً في التشريف والتكريم ، لهذا قال صلى الله عليه وسلم في خطبة حجة الوداع :
((**اتقوا الله بالنساء واستوصوا بهن خيراً ، ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد ...**)) .

5 ــ وصايا عامة :

ثم يُتابع خطبته فيقول :
((**لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ**)) .

[البخاري عن ابن عباس]



((أيها الناس إن الشيطان قد يئس أن يُعبد في أرضكم هذه ، ولكنه رضي أن يُطاع فيما سوى ذلك مما تحقرونـــه من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم ، وقد تركتُ فيكم ما إن اعتصمتم به فلـــن تضلوا أبداً ، أمراً بيناً : كتاب الله وسنة نبيه ، وإنكم ستسألون عني فما أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت ، وأديت ، ونصحت فجعل يُشير بإصبعه المسبحة إلى السماء ثم إلى الناس وهو يقول : اللهم اشهد ، اللهم اشهد)) .

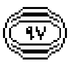
07 - أحكام الحج

الحج :

1 ــ الحج فرض عين :

إخوة الإيمان في دنيا العروبة والإسلام ، يقول الله جل جلاله :

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ



(سورة آل عمران)

الحج فرض عين على كل مسلم ومسلمة ، بالغ ، عاقل ، حر مستطيع ، مرةً في العمر كله ، يُكفَّر جاحده ، ويُفسَّق تاركه ، كما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم فعَنْ عَلِيٍّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :



((**مَنْ مَلَكَ زَادًا وَرَاحِلَةً تُبَلِّغُهُ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ وَلَمْ يَحُجَّ فَلَا عَلَيْهِ أَنْ يَمُوتَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾**)) .

[رواه الترمذي ، وقال : في إسناده مقال]

2 ـ الحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام :

وهو الركن الخامس من أركان الإسلام ، الذي عُلم من الدين بالضرورة ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم :

((**بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ : شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَالْحَجِّ ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ**)) .

[رواه البخاري ، ومسلم]

3 ـ الحج واجب في العمر مرة واحدة :

والحج عبادة قولية ، وقلبية ، وبدنية ، ومالية ، وشعائرية ، تؤدى في أمكنة مُخصصة ، وفي أزمنة مُخصصة ، وبأعمال مُخصصة ، وإذا كانت الصلاة تتكرر في اليوم الواحد خمس مرات ، وفريضة الجمعة تؤدى كل أسبوع ، وفريضة الصوم تؤدى في العام شهر اً ، فإن فريضة الحج تجب في العمر كله مرة واحدة ، لقوله صلى الله عليه وسلم :

((**الْحَجُّ مَرَّةٌ فَمَنْ زَادَ فَهُوَ تَطَوُّعٌ**)) .

[أخرجه أبو داود ، والنسائي ، وأحمد]

4 ـ الحج رحلة خالصة إلى الله :

الحج رحلة إلى الله .. فقد شاءت إرادته ، لحكمة مطلقة ، مراعاة للنزعة المادية في كيان الإنسان ، أن يضع للناس في الأرض بيتاً له يُمكِّن المؤمنين به ، من أن يعبروا من خلال إتيانه ، من كل فج عميق أن يُعبِّروا عن حبهم لله ، وشوقهم إليه ، فالمؤمن يؤكد من خلال قصده البيت الحرام ، مُلبياً دعوة ربه ، أن الله أحب إليه م ن أهله ، وولده ، وماله ، وعمله ، وبلده ، والناس أجمعين ، فيتحمل نفقات الحج التي ربما كانت باهظة ، ويتحمل ترك الأهل ، والولد الذي ربما كان صعباً ، ويتحمل ترك العمل والكسب الذي ربما كان أثيراً، كل ذلك حُباً لله وطمعاً بالقرب منه .



خصوصية مكان بيت الله الحرام :

وشاءت حكمة الله ، أن يكون بيته الحرام ، في المنطقة الحارة من الأرض ، وفي وادٍ غير ذي زرع ، ليكون واضحاً لدى الحجاج أن الاتصال الحقيقي بالله ، يحقق للمرء سعادة ، يستغني بها عن كل الشروط المادية ، التي يتوهم أنها سبب سعادته ، وأن سعادة الإنسان تنبع من داخله ، لا مما يحيط به نفسه من ألوان النعيم .

ولو كان بيت الله الحرام في المنطقة المعتدلة من الأرض حيث الجبال الخضراء ، والمياه العذبة ، والبحيرات الصافية ، والبساتين الغناء ، والجو اللطيف ، والنسيم العليل ، وكان الحج على مدار العام دفعاً للازدحام ، لأقبل كل الخلق على أداء الفريضة الممتعة طلباً للاستجمام ، لا حُبًّا بخالق الأكوان ، قال تعالى :

﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾

(سورة إبراهيم)

5 ـ أشياء يحرم فعلُها على المُحرِم :

وفضلاً عن موقع البيت الحرام ، وعن طبيعة الجو فيه ، فإن الحاج المحرم يُحظر عليه لُبس المخيط من الثياب ، ويُحظر عليه التطيب بكل أنواع الطيب ، ويُحظر عليه الحلق والتقصير ، ويُحظر عليه مقاربة المتع المباحة خارج الحج ، كل ذلك ليُحكم اتصاله بالله ، وليسعد بقربه وحده بعيداً عن كل مداخلة من مُتع الأرض ، ليتحقق الحاج أنه إذا وصل إلى الله وصل إلى كل شيء ، وأن الدنيا كلها لا يمكن أن تُسعد الإنسان ، ولينطلق لسانه بشكل عفوي قائلاً : يا رب ، ماذا فقد من وجدك ؟ وماذا وجد من فقدك ؟ ..



مجمل القول :

ومجمل القول : إن الحج عبادة قوامها اتصال متميز بالله عز وجل ، وثمنه التفرُّغ التام ، إذا لا يُؤدى إلا في بيت الله الحرام ، إذاً لا بد من مغادرة الأوطان ، وترك الأهل والخلاّن ، وتحمُّل مشاقِّ السفر ، والتعرض لأخطاره ، وإنفاق المال ابتغاء مرضاة الله ، وإذا صحَّ أن ثمن هذه العبادة باهظ التكاليف ، فإنه يصحُّ أيضاً أن ثمارها باهرة النتائج .

ثمار الحج :

1 ــ مغفرة الذنوب :

قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري ومسلم عَنْ هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((**مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ**)) .

وإن الحج يهدم ما كان قبله ، وإن الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة .

2 ــ الحجاج والعُمَّار وفد الله :

والحجاج والعُمَّار وفد الله إن دَعَوه أجابهم ، وإن استغفروه غفر لهم ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((**تَابِعُوا بَيْنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ ، فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، وَلَيْسَ لِلْحَجَّةِ الْمَبْرُورَةِ ثَوَابٌ دُونَ الْجَنَّةِ**)) .

عن بُرَيْدَةَ بْنِ الْحُصَيْبِ ، رَضِيَ الله عَنْهُ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيه وسَلَّم :

((**النَّفَقَةُ فِي الْحَجِّ ، كَالنَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ الله سبْعِمِئَة ضِعْف**)) .

[أحمد]



ماذا على المسلم فعلُه قبل الحج حتى يُقبل منه ؟

ولكي تؤدى هذه العبادة العظيمة على نحو يقبلها الله ، ويرضى عنها ، ولئلا يُنفق الإنسان المال الكثير ، والوقت الثمين ، ويتجشم المشاقَّ ، ثم لا تُقبل حجته ، ويُقال له : لا لبيك ولا سعديك ، وحجك مردود عليك ، لئلا تضيع حجته سدى :

1 ــ التوبة إلى الله :

عليه أن يتوب قبل الذهاب إلى الحج ، من كل الذنوب والآثام ، كبيرها وصغيرها ، جليلها وحقيرها .

2 ــ أداء حقوق الناس وردّ المظالم :

فيجتنب كل كسب حرام ، وكل علاقة متلبسة بالآثام ، عليه أن يؤدي الحقوق التي عليه بالتمام والكمال ، وبخاصة تلك الحقوق المتعلقة بالخلق ، لأن حقوق العباد مبنية على المشاححة ، بينما حقوق الله مبنية على المسامحة ، عليه أن يؤدي الحقوق ، ويُقلع عن الذنوب .

3 ــ عقدُ العزمِ على ألا يعود إلى الذنوب والمظالم بعد الحج :

وأهمّ من هذا أن يعقد العزم على ألا يعود إليها بعد الحج ، وإلا أصبح الحج من الطقوس لا من العبادات ، فمن الخطأ الكبير ، والوهم الخطير ، أن يظن الحاج أن الحج يهدم كل ما قبله من الذنوب ، وفيه تُغفر كل خطيئة ، وقد اتُفق على أن الأحاديث الشريفة التي تبين أن الحاج يعود من الحج كيوم ولدته أمه ، وقد غُفرت ذنوبه كلها ، هذه الذنوب التي أشار إليها النبي صلى الله عليه وسلم هي ا لذنوب التي بين العبد وربه حصراً ، أما الذنوب التي بينه وبين الخلق ، وأما الحقوق التي في ذمته ، وأما الواجبات التي قصَّر في أدائها ؛



فهذه لا تسقط ، ولا تُغفر إلا بالأداء أو المسامحة ، فالذنوب ثلاثة ؛ ذنب لا يُغفر وهو الشرك ، وذنب لا يُترك ، وهو ما كان بين العبد والخلق ، وذنب يُغفر وهو ما كان بين العبد وربه .

مشاعر الحج :

قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾

(سورة البقرة)

1 ــ معنى المشاعر :

وقد ورد في معاجم اللغة أن الشعائر هي المعالم والمناسك ، أي : الأعمال التي يُؤمر بها الحاج في تلك الأماكن ، ومفردها ؛ شعيرة وفي قوله تعالى :

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَـٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾

(سورة البقرة)

والمَشعر : المَعْلَم الظاهر ، وجمعها " مشاعر " ، والمشاعر المقدسة هي الأماكن المقدسة .

والآن ألا ينبغي للحاج ، وهو في المشاعر المقدسة ، أن يشعر بمشاعر مقدسة ؟



2 ــ مشاعر الحج شعور المحب مع محبوبه :

ألا ينبغي للحاج وهو في بيت الله الحرام يطوف حول الكعبة ، أن يشعر بمشاعر المحب ، يطوف حول محبوبه .

وأن يشعر وهو يسعى بين الصفا والمروة بمشاعر الساعي المشتاق لمطلوبه ؟

ألا ينبغي للحاج أن يشعر وهو يفاوض الحجر الأسود بمشاعر التوبة والإنابة ؟

ألا ينبغي للحاج أن يشعر وهو في عرفات أن يشعر بروعة اللقاء ونشوة الاتصال ..

ألا ينبغي للحاج أن يشعر وهو ينحر الأضاحي أنه ينحر شهوته التي تحجبه عن ربه ؟

ألا ينبغي للحاج أن يشعر وهو يرجم الشيطان ، أن الرجم تعبير يرمز إلى معاداة الشيطان الأبدية ؟

ألا ينبغي للحاج أن يشعر وهو في الروضة الشريفة أنه في روضة من رياض الجنة ؟

مجمل القول : ينبغي للحاج وهو يؤدي نسك الحج في المشاعر المقدسة أن يشعر بمشاعر مقدسة ، تتنوع بتنوع الأمكنة وتنوع النسك ، فكل منسك له شعوره الخاص ، وهذا الشعور هو محصلة إيمانه .

سقوط القيم المادية في الحج :

في حياة الإنسان الشارد قيم مادية طاغية هي بشكل أو بآخر موازين غير صحيحه ، يوزن بها الإنسان في المجتمع المادي ، كالمال ، والقوة والوسامة ، والذكاء .. وهي قيم مضلّلة ، تحجب الإنسان عن حقيقته الإنسانية ، وعن رسالته الربانية ، تحجبه عن سر وجوده ، وغاية وجوده ، وعن مصيره الأبدي ، وحينما يرحلُ الإنسان من حياته الدنيا الفانية إلى حياته الأخرى الباقية ، يُصعَق حينما تنهار أمامه القيم المادية ، وتتعطل الموازين غير الصحيحة ، وتسقط الأقنعة المزيفة ، وتنزاح الحجب المضللة ، كل هذا بعد فوات الأوان ، يُصعق حينما لا يُقيم عمله وفق مدى معرفته بربه ، ومعرفته بمنهج ربه ، واستقامته على منهج ربه ، وبحجم أعماله الصالحة التي نفع بها الخلق ، ولئلا يُصعق الإنسان في رحلته الأخيرة ، فرض الله الحج على المستطيع ، وهو الموسر ليكون رحلة إلى الله قبل الأخيرة ، فلعله يستعد من خلال دروسها البليغة للرحلة الأخيرة .



يأتي الحاج المستطيع إلى بيت الله الحرام ، حاسرَ الرأس ، بادي القدمين ، مشتمل الإزار ، مجرداً من الثياب التي يُعبِّر بها الإنسان في أكثر الأحيان عن غناه المادي ، أو عن مرتبته الاجتماعية ، أو عن منصبه الرفيع ، لقد نزع الحاج ثيابه ، ونزع معها أقنعة المال ، والجاه والسلطان يأتي البيت الحرام ليطوف ، ويسعى فلا يجد أمكنة لعلية القوم ، وأخرى لسوقتهم ، إنه مكان واحد يطوف فيه الغني والفقير ، والأمير والخفير ، والقوي والضعيف ، في بيت الله الحرام تزول الفوارق بين البشر ، وتتحقق المساواة بين الخلق ، ولا يبقى من المرجحات إلا مرجحٌ واحد ، وهو التقوى ، لقوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (١٣)

(سورة الحجرات)

التجرد والمساواة سِمَتان بارزتان في الحج ، فيهز الحاجَ جلالةُ الموقف ، ويغمر قلبَه الخشوعُ ، وتفيض بالدمع عيناه ، ويتوجه إلى الله داعياً متضرعاً ، تائباً مستغفراً ، وهو يرى الجموع الحاشدة ، وقد لُفَّت أبدانُها بأقمشة بيضاء بشبه الأكفان ، يذكِّره هذا الموقف بيوم القيامة حيث يقوم الناس لرب العالمين .

حقاً إن الحج رحلة قبل الرحلة الأخيرة تُذكِّر الحاج بالرحلة الأخيرة .

الاستطاعة أصلٌ في فرضية الحج :

والاستطاعة التي وردت في الآية ، التي تعد أصلاً في فرضية الحج ، وهي قوله تعالى :

﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾

(سورة آل عمران : الآية 97)



1 ـ استطاعة الحج عامة :

هي استطاعة بدنية ومالية وأمنية ، فالمسلم الذي لا يقوى جسمه على تحمُّل أداء مناسك الحج بَغَلبة يقينية ، أو بإخبار طبيب متخصص مسلم حاذق ورع ، يُجزئه أن يُكلِّف من يحج عنه في حياته ، أو يوصي بحجة بدل بعد مماته ، وفق أحكام هذا النوع من الحج ، والمسلم الذي لا يملك المال الكافي الذي يغطي نفقات الركوب بأنواعها ، ونفقات السكن في مكة والمدينة ، وثمن الطعام والشراب ، فضلاً عن نفقات أهله وولده في غيبته ليس مستطيعاً .

2 ـ لا ينبغي للمسلم غير المستطيع اللجوء إلى طرق ملتوية للحج :

لا ينبغي للمسلم غير المستطيع أن يبذل ماء وجهه من أجل جمع نفقة الحج ، ولا أن يسلك المسالك الملتوية من أجل أن يحصل على نفقة الحج ، فإنه في الأصل ليس مستطيعاً ، ولا حج عليه .

وحينما يقرر أولوا الأمر في ديار المسلمين أن يعتمدو ا نظاماً يُتيح لمن لم يحج أن يحج ، ويَمنع من حج حجة الفريضة قبل أقل من خمس سنوات أن يحج ، حينما يكون الباعث على هذا التنظيم إفساح المجال للمسلمين الذين لم يحجوا حجة الفريضة أن يؤدُّوها بيسر وطمأنينة ، فلا ينبغي للمرء أن يرتكب معصية ليحج حجة نافلة ، فالمسلم الذي لم يُسمح له أن يحج لا يُعَدُّ مستطيعاً .

3 ـ لا بد أن يكون مال الحج طيباً حلالاً :

وما دام الحج من العبادات المالية التي تستوجب إنفاق المال فلا بد في المال الذي سينفقه الحاج في هذه الفريضة من أن يكون مالاً طيباً وحلالاً ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((**أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا ...**)) .

[أخرجه مسلم]

وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :



((**إذا خرج الحاج حاجاً بنفقة طيبة ووضع رجله في الَغْرز** – ركاب الدابة – **فنادى : لبيك اللهم لبيك ، ناداه منادٍ في السماء: لبيك وسعديك زادُك حلال ، وراحلتك حلال وحجك مبرور غير مأزور ، وإذا خرج بالنفقة الخبيثة ، فوضع رجله في الغرز فنادى : لبيك اللهم لبيك ، ناداه منادٍ من السماء : لا لبيك ولا سعديك ، زادك حرام ونفقتك حرام وحجك مأزور غير مأجور**)) .

[رواه الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة]

وبما أن الحج فريضة فرضها الله على المستطيع ، والفقيرُ ليس مستطيعاً ، فلا ينبغي للفقير أن يقترض ليحج ، فعن عبد الله بن أبي أوفى قال :

((**سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل لم يحج أوَ يستقرض ؟ قال : لا**)).

[رواه البيهقي]

والمدين لا تُقبل حجته إلا بموافقة دائنه .

يتبغي اجتناب الوقوع في محظورات الحج :

وبما أن عبادة الحج فرضها الله على المستطيع في العمر كله مرة واحدة ، فإنْ أخلَّ الحاج في مناسكها ، فلم يؤدِ ركناً ، أو نسي واجباً ، أو ترك سنَّة ، أو حرص على سنة أدَّت إلى انتهاك حرمة ، أو اقتراف معصية ، أو فعل محظوراً فقد أبطل حجه ، أو لَزِمه الدمُ ، أو أساء ، أو قصر ، أو ترك الأولى ، إنْ فعل هذا فقد ضيّع فرصة فريدة لا تتكرر ، فرصة لمغفرة ذنبه ، واستحقاقه جنة ربه ، كل هذا بسبب الجهل الذي هو أعدى أعداء الإنسان ، فالجاهل يفعل بنفسه ما لا يستطيع أن يفعله عدوه به ، لذلك نقول : أيها الحجاج ؛ تفقهوا قبل أن تحجوا ، فعالم واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ، وقليل من الفقه خير من كثير من العبادة ، فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ، وكما أن انتظار الصلاة يُعَدّ من الصلاة ، كذلك الإعداد الفقهي للحج من الحج ، فكم من حاجٍّ أهمل التفقُّه قبل الحج ، وعاد من الحج ، ولم يطف طواف الركن ، فبطل حجُّه ، وكم من حاج اجتاز الميقات المكاني ، غير محرمِ فلزمه الدم ، وكم من حاج فعل محظورات الإحرام وهو يحسب أنه يُحسن صنعاً .



هل الحاج تكرار الحج ؟

1 ـ يجوز تكرار الحج لمن استوفى الشروط :

من فقه الرجل أن يتحرك في حياته وفق سُلّم للأوليات ، فإذا أدى حجة الإسلام وهي حجة الفريضة ، وتاقت نفسه إلى أن يحج مرة ثانية وثالثة ، وكان مستطيعاً بماله وبدنه ، وموافقة أولي الأمر له ، ولم يسهم من خلال تصريح غير مطابق للواقع في حرمان مسلم من حجة الفريضة ، وكان قد أدى كل ما عليه من واجبات تجاه والديه ، وأولاده ، وإخوته ، وأخواته ، وأصدقائه ، وجيرانه ، فلا عليه أن يحج ثانية وثالثة ورابعة ، فالحج جهاد لا شوكة فيه ، وهو جهاد الكبير والمرأة والضعيف ، وقد ورد في الحديث القدسي عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ حَدِيثًا يَرْفَعُهُ قَالَ : يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ :

((**إِنَّ عَبْدًا أَصْحَحْتُ جِسْمَهُ ، وَأَوْسَعْتُ عَلَيْهِ فِي الْمَعِيشَةِ تَأْتِى عَلَيْهِ خَمْسَةُ أَعْوَامٍ لَمْ يَفِدْ إِلَىَّ لَمَحْرُومٌ**)) .

[البيهقي في السنن الكبرى ، وانظر الجامع الصغير للسيوطي]

2 ـ تزويج الابن الذي يُخشى عليه الانحراف أولى من حج النفل :

لكن حينما يحج المسلم حجة الفريضة ، وله ولد في سن الزواج ، ويخشى عليه الانحراف فالأولى أن يزوِّجه بدل من أن يحج حجة النفل ، لأن درء المفاسد مقدم على جلب المنافع ، وأن الله لا يقبل نافلة أدَّت إلى ترك واجب .

ومن يُؤتَ الحكمة فقد أوتي خيراً كثراً ، ومن أدعية النبي صلى الله عليه وسلم :

((**اللهم حجةً لا سُمعة فيها ولا رياء**)) .

[الجامع الصغير عن أنس ، وسنده صحيح]

ومعنى هذا أن من انحراف الحاج أن يبتغي من حجه السمعة والرياء.



3 ـ إعانة الفقراء وذوي الحاجات أولى من حج النفل :

قال ابن كثير : خرج عبد الله بن المبارك إلى الحج ، فاجتاز ببعض البلاد ، فمات طائرٌ معهم ، فأمر بإلقائه في قمامة البلدة ، وسار أصحابه أمامه ، وتخلف هو وراءهم ، فلما مر بالقمامة إذا بجارية قد خرجت من دار قريبة ، وأخذت ذلك الطائر الميت ، ثم أسرعت به إلى الدار ، فجاء ابن المبارك ، وسألها عن أمرها ، وأخْذها الطائرَ الميت ، واستحيت أولاً ، ثم قالت : أنا وأمي هنا ، وليس لنا شيء إلا هذا الإزار ، وليس لنا قوت إلا ما يُلقى على هذه القمامة ، وكان لنا والد ذو مال عظيم ، أُخذ ماله ، وقتل لسبب أو بآخر ، ولم يبق عندنا شيء نتبلغ به ، أو نقتات منه ، سمع ذلك ابن المبارك فدمعت عيناه ، وأمر برد الأحمال والمؤونة ، وقال لوكيله : كم معك من النفقة ، قال : ألف دينار ، فقال له : أبقِ لنا عشرين ديناراً تكفينا لإيابنا ، وأعط الباقي إلى هذه المرأة المصابة ، فوالله لقد أفجعتني بمصيبتها .

يقول ابن المبارك : وإن هذا أفضل عند الله من حجنا هذا العام ، ثم قفل راجعاً ، ولم يحج ، واعتقد أن هذه الصدقة فوق الحج المبرور ، والسعي المشكور .

وسأل رجل ذا النون المصري قائلاً له : عندي مائة درهم أأحج بها أم أتصدق ؟ قال ذو النون : أحَجَجْتَ الفرض ؟ قال : نعم ، قال : إن قسمتها على عشرٍ من العائلات الفقيرة ، وأعطيـــت كلاً عشرة دراهم كان ذلك خيراً عند الله من حجة النفل ، فإن شئت فاسمع مني ما أقول ، ففعل الرجل ، وتصدَّق بالمال .

من الإعجاز العلمي في آية الحج : مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَميق

بقيت إشارة لطيفية إلى نوع من الإعجاز العلمي في آية الحج ، وهي قوله تعالى :

وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ 

(سورة الحج)



أي من كل فج بعيد ، هذا هو المعنى ، والسؤال ، لمَ قال الله جل جلاله : ﴿ **مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ** ﴾ ، ولم يقل : من كل فج بعيد ؟

إن كلمة عميق تشير إلى خاصة في الأرض لم تكن معروفة يوم نزول القرآن .. ما الخاصة ، وما نوع الإعجاز ؟

أيها الإخوة الأكارم ، تأملوا في كلمة : ﴿ **مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ** ﴾ ، لمَ لمْ يقل ربنا : من كل فج بعيد ؟ فإن لم تهتدوا إلى الإجابة الصحيحة فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون .

08 - التقوى

التقوى :

1 ــ أهمية التقوى :

إخوة الإيمان في كل مكان ، التقوى موضوع هذه الخطبة ، لها شأن كبير في القرآن الكريم ، فقد وردت في أكثرَ من ثلاثمائة موضع فيها ، والتقوى لغةً من وقى ، وهل تكون الوقاية إلا من الخطر ؟

فالإنسان في حياته الدنيا إن لم يتبع هدى ربه فهو مُعرَّض لكثير من المخاطر ، فالدنيا خضرةٌ نضرة ، سُمها في دسمها ، فيها منزلقات ومتاهات ، مالها يُغري ، ويردي ، ويشقي ، ونساؤها حبائل الشيطان ، الأهل والولد مشغلة مجبنة مبخلة ، الشهوات فيها مستعرة في أبهى حُللها ، والفتن فيها يقظة في أجمل أثوابها .

2 ــ أسئلة لابد لها من جواب :

فكيف يتقي الإنسان الضياع في تلك المتاهات والضلالات ؟

وكيف يتقي الإنسان الانجذاب إلى هذه الفتن المُهلكات ؟ ..

وكيف يتقي الإنسان خطر الانغماس في تلك الشهوات ؟ ..

وكيف يتقي الإنسان حمأة المزاحمة في جمع الدراهم والثروات ؟

وكيف يتقي الإنسان شقاء الدنيا وعذاب الآخرة ؟ ..



للإجابة عن هذه الأسئلة نقول :

حينما يبني الإنسان تصوراته عن الكون والحياة والإنسان وَفق ما جاء في البيان الإلهي ، وحينما ينطلق في حركته اليومية ، وفق التشريع الرباني ، يكون قد أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان ، أما إذا ضل عقله وساء عمله فقد أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم .

وعبادة الله الحقيقية الخالصة تقي الإنسان شقاء الدنيا وعذاب الآخرة ، قال تعالى :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾

(سورة البقرة)

لعلكم تتقون شقاء الدنيا وعذاب الآخرة .

فهل غير الله واجب الوجود الذات الكاملة ، الحي القيوم ذوي الأسماء الحسنى والصفات الفضلى ، الواحد الأحد الفرد الصمد ، الأول والآخر ، والظاهر ، والباطن ، من بيده ملكوت كل شيء ، ومن إليه يُرجع الأمر كله مالك الملك ، إيجاداً وتصرفاً ومصيراً ؟

وهل غير الله تعالى يُتقى سخطه ، ويُرجى رضوانه ؟ وهل غير الله تعالى يُتقى عذابه ، وتُرجى رحمته ؟ وهل غير الله تعالى تتقى ناره ، وترجى جنته ؟

3 ـ الله يأمرنا بالتقوى :

إن الله يأمرنا بالتقوى ، لأنه بكل شيء عليم ، ولأنه سريع الحساب ، ولأنه إليه الحشر والمصير ، ولقد صدق الله العظيم إذ يقول :



(سورة النحل)



4 ــ الله أهل التقوى :

نحن أيها الإخوة لا نتقي الله لأننا في قبضته ، أو لأن أمرنا كله راجع إليه فحسب ، بل لأنه ذو الجلال والإكرام ، وذو الطول والإنعام ، رحمن رحيم ، منعم كريم ، إنه كما قال عن نفسه :

هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

(سورة المدثر)

5 ــ التقوى تحصل لمن آمن بها وبثوابها :

ولكن الإنسان لن يتقي سخط جهة ، ولن يسعى لمرضاتها ، إلا إذا أيقن بوجودها أولاً ، وأيقن بما يناله منها من مغنم كبير إذا هو أطاعها ، وما يصيبه منها من خسارة فادحة إذا هو عصاها ، هذا شأن الإنسان ، فلن يتقي ربه ، أي لن يجتنب ما نهاه عنه ، ولن يفعل ما أمره به إلا إذا عرفه ، فأصل الدين معرفته ، قال تعالى :

وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾

(سورة المائدة)

فالإيمان أساس التقوى .. حيث قال تعالى :

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ

(سورة الأعراف)



التفكر في الكون باب إلى معرفة الله :

وأبواب معرفة الله كثيرة من أهمها خلق السماوات والأرض ، قال تعالى :

إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾

(سورة آل عمران)

فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾

(سورة الطارق)

فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾

(سورة عبس)

أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾

(سورة الغاشية)

أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾

(سورة الملك)

إن النظر والتأمل والتفكر في الآيات التي بثها الله في السماوات والأرض يصل بصاحبه إلى اليقين القطعي ، بأن لهذا الكون خالقاً عظيماً ، ورباً رحيماً ، ومسيّراً حكيماً ، هو أهل لأن يطيعه ليتقي بطاعته عذابه ، قال تعالى :



إِنَّ فِى ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾

(سورة يونس)

القرآن الكريم باب لمعرفة الله :

ومن أبواب معرفة الله : القرآن الكريم .. ذلك المنهج القويم ، والصراط المستقيم ، وحبل الله المتين ، فإذا تدبر الإنسان آياته ، ونظر فيها رأى تطابق مضامين هذا الكتاب المعجز ، مع مبادئ العقل وملامح الفطرة ، ومع مصالح الإنسان الحقيقية ، منفرداً ومجتمعاً ، وإن تدبر القرآن يصل بصاحبه إلى اليقين القطعي بأنه كلام الله تعالى ، المُنزل على نبيه ، وأنه المنهج الوحيد ، والأمثل ، لإسعاد الإنسان ، في الدنيا والآخرة ، قال تعالى :

قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾

(سورة الزمر)

6 ـ لماذا لا يتقي ربه ؟

وإن تعجب فعجب من هؤلاء الذين لا يتقون ، بل إذا قلت لأحدهم ؛ اتق الله أخذته العزة بالإثم ، لم لا يتقي الإنسان ربه ؟ لم لا يتقي أن يعصيه ؟ لم لا يهتدي بهديه في أعماله كلها ، وأقواله كلها ، وأحواله كلها ؟ مع أن الله يُعلِّم الإنسان من خلال العقل الذي أودعه فيه ، ومن خلال الفطرة التي فطره عليها ، ومن خلال الكتاب الذي أنزله على رسوله ، ومن خلال السنة التي بينت كتابه ، ومن خلال الحوادث التي تؤكد حكمته وعدالته، ومن خلال دعوة الدعاة ، وإلهام الملائكة ، لمَ لا يتقي الإنسان ربه ، مع أن الله يُعلِّمه ؟ ، قال تعالى :



﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٢٨٢)

(سورة البقرة)

الوسائل الفعّالة التي تسرِّع الخطى إلى التقوى :

ومن الوسائل الفعالة التي تُسرِّع الخطى إلى التقوى :

1 ــ الصدق :

أن تكون صادقاً مع نفسك ، وصادقاً مع ربك ، و صادقاً مع الآخرين ، فلا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ، قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١) ﴾

(سورة الأحزاب)

2 ــ صلاح البيئة الاجتماعية :

ومن الوسائل الفعَّالة ، التي تسرّع الخطى إلى التقوى ، أن تكون البيئة الاجتماعية التي تحتضن المرء بيئةً طيبةً صالحة مؤمنة ، قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ (١١٩) ﴾



(سورة التوبة)

3 ـ ابتغاء الوسيلة إلى الله :

ومن هذه الوسائل ، أن تبتغي إلى الله الوسيلة ، وهي تَعلُّم العلم الموصل إلى الله عز وجل ، على أيدي علم اء عاملين مخلصين ، ومن الوسيلة العمل الصالح الخالص ، ومن الوسيلة العبادات المخلَصَة الدؤوبة ، قال تعالى :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّـذِينَ ءَامَنُـواْ ٱتَّقُـواْ ٱللَّـهَ وَٱبْتَغُـوٓاْ إِلَيْـهِ ٱلْوَسِـيلَةَ

(سورة المائدة)

4 ـ الصبر :

وطريق التقوى ليست مفروشة بالرياحين ، بل هي طريق محفوفة بالمكاره لماذا ؟ لأن سلعة الله غالية ، ولأن عمل الجنة حَزْنٌ بربوة ، وعمل النار سهلٌ بسهوة ، فلا بد من الانضباط الذاتي ، ولا بد من البذل والتضحية ، قال تعالى :

إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾

(سورة يوسف)

5 ـ استنفاذ الجهد كله :

والتقوى لا تقبل أن يعطيها الإنسان بعضه ، بل لا بد من أن يعطيها كله ، فلا يُقبل من المتقي بذل بعض الجهد ، بل لا بد له من بذل كل الجهد ، ولذلك فحجم الإنسان عند ربه بحجم عمله الصالح ، وإخلاصه وصوابه ، فلكلٍّ درجات مما عملوا ، والعمل الصالح يرفعه ، قال تعالى :



فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ

(سورة التغابن : 16)

أي استنفذوا كل الجهد .

إكرام الله للمتقين :

1 ــ تكفير السيئات :

ومن عظيم إكرام الله عز وجل أن الإنسان حينما يخطو الخطوة الأولى في طريق التقوى يكفّر الله عنه سيئاته ، وينسي حافظيه ، وبقاع الأرض كلها ، خطاياه وذنوبه ، ويعظم له أجراً ..

وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴿٥﴾

(سورة الطلاق)

2 ــ تيسير الأمور :

ومن عظيم إكرام الله عز وجل أن الإنسان حينما يخطو الخطوة الأولى في طريق التقوى يجعل الله له من أمره يسراً ، فتنحل العقد ، وتفرّج الكرب ، ويصبح الحزن سهلاً ، قال تعالى :

وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرًا ﴿٤﴾

(سورة الطلاق)



3 ـ التقوى مخرَجَ الإنسان من كل ضيق :

ومن عظيم إكرام الله عز وجل أنه جعل التقوى مخرجاً للإنسان من كل ضيق ، قال تعالى :

وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴿٢﴾

(سورة الطلاق)

استنباطات هامة من الآية :

وإعجاز هذه الآية في إيجازها ، وبلاغتها في إطلاقها ، قال النبي صلى الله عليه وسلم :

((**إني لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم ، ثم تلا هذه الآية**)) .

[مسند الفردوس عن أبي ذر]

فحينما تضيق الأمور ، وتستحكم الحلقات ، وتُسد المنافذ ، وتنتصب العق باتَ ، ويقنط الإنسان تأتي التقوى ، فيتسعُ بها الضيق ، وتُحل بها العقد ، وتُفتح بها المسالك ، وتذلل بها العقبات .

فمن يتق الله عند نزول المصيبة ، فيوحّده ، ويصبر لحكمه ويرضى بقضائه ، ويثبت على مبدئه واستقامته ، يجعل الله له مخرجاً منها ، ويبدل ضيقه فرج اً ، وخوفه أمناً ، وعسره يسراً .

ومن يتق الله فلا يسمح للأفكار الزائفة ، أن تأخذ طريقها إلى عقله ، ويجعل الله له مخرجاً من الضياع والحيرة والضلال وخيبة الأمل .

ومن يتق الله فيبرأ من حوله وقوته وعلمه ، يجعل الله له مخرجاً مما كلفه به بالمعونة عليه .

ومن يتق الله فيقف عند حدود الله فلا يقربها ، ولا يتعداها يجعل الله له مخرجاً من الحرام إلى الحلال ، ومن الضيق إلى السعة ، ومن النار إلى الجنة .

ومن يتق الله في كسب الرزق ، فيتحرى الحلال الذي يُرضي الله عز وجل يجعل الله له مخرجاً من تقتير الرزق بالكفاية ، ومن إتلاف المال بحفظه ونمائه .



ومن يتق الله في اتّباع السنة ، يجعل الله له مخرجاً من ضلال أهل البدع ونتائج ابتداعهم .

ومن يتق الله في اختيار زوجته ، وفي التعامل معها ، يجعل الله له مخرجاً من الشقاء الزوجي .

ومن يتق الله في تربية أولاده ، يجعل الله له مخرجاً من عقوقهم ، ومن شقائه بشقائهم .

ومن يتق الله في اختيار عمله ، وحسن أدائه ، يجعل الله له مخرجاً من إخفاقه فيه .

التقوى مستويات :

وللتقوى مستويات عديدة ، قال تعالى :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ

(سورة آل عمران : 102)

فمن التقوى ، أن تستقيم على أمر الله ، الذي وصلك بالنقل الصحيح ، فإذا صحت استقامة العبد ، انعقدت صلته بالله ومن خلال هذه الصلة يقذف الله في قلب المؤمن التقي النور ، فيرى به الحق من الباطل والخير من الشر ، والصحيح من الزائف ، فيرى المؤمن بنور ربه حقائق الأمور ، وبواطنها ومؤدّاها ونتائجها ، قال تعالى :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ

(سورة الحديد : 28)

قد تضع يدك وأنت مُغمض العينين على شيء ناعم الملمس ، لين المجس ، انسيابي الخطوط ، ثم تفتح عينيك فإذا هي حيَّة رقطاء ، في أنيابها السم الناقع ، عندئذ تنتفض مُبتعداً عنها ، وتصرخ مذعوراً منها ، لقد ركنت إلى ملمسها الناعم ، ومجسِّها اللين قبل أن تفتح عينيك ، وابتعدت عنها حينما رأيت حقيقتها ، وكذلك الدنيا تغرُّ وتضرُّ وتمرُّ .



فالتقوى كما يقول الإمام الغزالي رحمه الله : "نور يقذفه الله في القلب" ، وهذا النور هو أساس الرؤية الصحيحة ، تلك الرؤية الصحيحة ، أساس صحة العمل وصحة العمل أساس سعادة الدارين .

إذا كنت تريد تحقيق هذه الأمنيات فاتق الله :

ألا يتمنى أحدنا أن يكون أكرم الناس على الله ؟ .. إذاً فليتق الله ، قال تعالى:

إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾

(سورة الحجرات)

وقد ورد في الحديث الشريف :

((**إذا أردت أن تكون أكرم الناس فاتق الله ، وإذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله ، وإذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك**)) .

[كنز العمال بلفظ قريب من هذا عن أبي الدرداء]

ألا يتمنى أحدنا أن يحبه الله خالق السماوات والأرض ؟ وإذا أحبك الحق ألقى محبتك في قلوب الخلق ، أنزل السكينة على قلبك ، وجعل لك مقعد صدق عنده .

فليتك تحلو والحيــاةُ مريــرةٌ ... وليتك ترضى والأنامُ غضابُ
وليت الذي بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خــرابُ
إذا صح منك الوصلُ فالكل هين ... وكلُّ الذي فوق التراب تُراب

***

إذا أردت أن تكون كذلك فاتق الله ، لأن الله تعالى يقول :

بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾

(سورة آل عمران)



ألا يتمنى أحدنا أن يكون الله ربُّ العالمين ذو الجلال والإكرام وليّه ، يُخرجه من الظلمات إلى النور ، ويُدافع عنه ، ويكون في موضع عنايته وحفظه ؟ إذاً فليتق الله ، يقول الله تعالى :

وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾

(سورة الجاثية)

ألا يتمنى أحدنا أن يكون الله معه ؟ وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ ومعيّة الله ، هذه معيّة خاصة ، تعني الحفظ ، والتأييد ، والرعاية ، والتكريم ، والتشريف .. إذاً فلنتق الله ، يقول الله تعالى :

إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

(سورة النحل)

الفوز الكبير في تقوى الله تعالى :

الفلاح كلُّ الفلاح ، والنجاح كل النجاح ، والفوز كل الفوز ، والرشاد كل الرشاد ، والتفوق كل التفوق ، والغنى كل الغنى ، والتوفيق كل التوفيق ، والسعادة كل السعادة في تقوى الله عز وجل ، قال تعالى :

وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾

(سورة البقرة)

وقال تعالى :

وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ

فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾

(سورة الأحزاب)



المتقي يضع قدمه على طريق الشكر :

وإذا شعر الإنسان أنه مغمور بفضل الله ، وتاقت نفسه إلى شكره نظر حواليه كيف يشكر الله عز وجل ؟ وهو قائم به غارق في فضله ؟ .

وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ

(سورة النحل : 53)

وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ

(سورة إبراهيم : 34)

فنحن عاجزون عن إحصاء خيرات نعمة واحدة ، فلأن نكون عاجزين عن إحصاء كل النعم فمن باب أولى ، وإذا كنا عاجزين عن إحصائها فنحن عن شكرها أشد عجزاً ، لكن الله عز وجل لعظيم كرمه يُبين لنا أن الإنسان الذي يتقي ربه يضع قدمه في طريق الشكر ، قال تعالى :

فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾

[سورة آل عمران]

ومجمل القول : التقوى أن تتقي الكفر بالإيمان ، والشرك بالتوحيد ، والرياء بالإخلاص ، والكذب بالصدق ، والغش بالنصيحة ، والمعصية بالطاعة ، والابتداع بالاتباع ، والشبهة بالورع ، والدنيا بالزهد والغفلة بالذكر والشيطان بالعداوة .

تزود من التقوى فإنـك لا تـدري إذا جن ليلٌ هل تعيش إلى الفجر
فكم من فتى أمسى و أصبح ضاحـكاً وقد نُسجت أكفانه وهو لا يدري
و كم من صغارٍ يُرتجى طول عمرهم وقد أُدخلت أجسادهم ظلمة القبـر
وكم من عروس زيَّنوها لزوجهـا و قد قبضت أرواحُهم ليلة القـدر

***



جانب من التقوى في حياة السلف الصالح :

وسيدنا **عمر بن عبد العزيز** رضي الله عنه كان له مستشار خاص اسمه عمر بن مهاجر قال له : يا عمر بن مهاجر ، إذا رأيتني ضللت الطريق فخذ بمجامع ثيابي ، وهزني هزاً عنيفاً ، وقل لي : اتق الله يا عمر ، فإنك ستموت ..

وسيدنا **أبو حنيفة النعمان** ، رحمه الله تعالى امتنع عن الجلوس في ظل شجرة لرجل له عليه دين .. لما ورد في الخبر : أن كل قرض جر نفعاً فهو ربا .

جاء رجل إلى **الحسن البصري** رحمه الله تعالى : فقال يا إمام : السماء لا تمطر ، فقال : استغفر الله ، و جاءه آخر فقال يا إمام زوجتي لا تنجب ، فقال : استغفر الله ، وجاءه ثالث ، فقال : أشكو الفقر ، فقال : استغفر الله ، فقال أحد الجالسين ، يا إمام ، أو كلما جاءك رجل يشكو تقول له : استغفر الله ، فقال الإمام الحسن البصري : ألم تقرأ قوله تعالى :

فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾

(سورة نوح)

النبي عليه الصلاة والسلام ، استعاد بالله من قلب لا يخشع ، وعين لا تدمع ، ونفس لا تشبع ، ودعوة لا يُستجاب لها ، ولكن ، لمَ ، ومتى لا يُستجاب الدعاء ، مع أن الله تعالى يقول :



وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾

(سورة غافر)

ونبيه صلى الله عليه وسلم يقول :

((**إن الله حييٌ كريم ، يستحي من عبده ، أن يبسط إليه يديه ، ثم يردهما خائبين**)) .

[أبو داود وابن ماجه]

وليس شيء أكرم على الله من الدعاء .

1 ـ لا يستجيب الرب لدعاء العبد حتى يستجيب العبد لأمر الله :

يبدو أن الله عز وجل لا يستجيب دعاء العبد حتى يستجيب العبد لأمر الرب ، قال تعالى :

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾

(سورة البقرة)

أي إذا آمنوا بي استجابوا لي ، وإذا استجابوا لي يُرشدون إلى الدعاء المُجاب .

2 ـ بالمثال يتّضح المقال :

لنضرب على ذلك مثلاً : كلنا يعلم أن المركبة مبنية على علم متطور ، وفيها أجهزة وتوصيلات بالغة الدقة والتعقيد ، فإن توقفت هذه المركبة عن السير فلا بد أن نعكف على دراسة مبادئ الحركة ، ونظام التوصيلات ، وأن نراقب سلامة الأجهزة حتى نكتشف موطن الخلل تمهيداً لإصلاحه ، أما إذا وقفنا إلى جانب المركبة ، وملأنا الفضاء صياحاً ، وضجيجاً ، وبكاءً ، وعويلاً ، ودعاءً ، فما الذي يحصل ؟ لا يحصل شيء ، وتبقى المركبة معطلة ، وكذلك حالنا مع الله .



لا بد من أن نعكف على دراسة السنن الثابتة التي سنها الله لتحديد وتنظيم علاقتنا بربنا ، وبأنفسنا ، وبمن حولنا ، وبما حولنا ، فإذا تعرفنا إلى هذه السنن ، وأيقنا بمصداقيتها ، فكشفنا في ضوء هذه المعرفة موطن الخلل في حياتنا وعلاقاتنا ، وكشفنا زاوية انحرافنا عن منهج الله ، وأصلحنا هذا الخلل ، وعدنا إلى ذلك المنهج ، عندئذ ندعوه فيستجيب لها .

3 ـ عشرة أسباب تمنع من استجابة الدعاء :

أيها الإخوة ، العارف بالله إبراهيم بن أدهم مرَّ بسوق البصرة ، فقيل له : يا أبا إسحاق ، إن الله تعالى يقول : ﴿ **ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** ﴾ ، ونحن ندعوه فلا يستجيب لنا ، فقال لهم : لأن قلوبكم ماتت بعشرة أشياء :

1 ـ عرفتم الله فلم تؤدوا حقه .

2 ـ وقرأتم القرآن فلم تعملوا به .

3 ـ وادعيتم حب رسوله فلم تعملوا بسنته .

4 ـ وقلتم : إن الشيطان لكم عدو فاتخذتموه ولياً .

5 ـ وقلتم : إنكم مشتاقون إلى الجنة فلم تعملوا لها .

6 ـ وقلتم : إنكم تخافون من النار فلم تتقوها .

7 ـ وقلتم : إن الموت حق فلم تستعدوا له .

8 ـ واشتغلتم بعيوب الناس ، وتركتم عيوبكم .

9 ـ وتقلبتم في نعمة الله فلم تشكروه عليها .

10 ـ ودفنتم موتاكم فلم تعتبروا ، فكيف يُستجاب لكم ؟

العدوان والكسب الحرام يحول بين الدعاء وبين الإجابة ، قال تعالى :

ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾

(سورة الأعراف)

أي لن يستجيب له ، لأنه لا يحبه ، ويقول عليه الصلاة والسلام :

((**يا سعد ، أطب مطعمك تُكن مستجاب الدعوة**)) .

[الطبراني في المعجم الأوسط عن ابن عباس ، وسنده ضعيف]



الباب الثالث: المعاملات





01 - الرزق

الرزق :

1 ـ الناس في كسب المال ثلاثة أطباق :

أيها الإخوة المؤمنون في كل مكان ، الناس في كسب المال ثلاثة أطباق ؛ رجل شغله معاشه عن معاده فهو من الهالكين ، ورجل شغله معاده عن معاشه فهو من الفائزين ، ورجل شغله معاشه لمعاده فهو من المقتصدين ، فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله :

((**تكون أمتي في الدنيا على ثلاثة أطباق : أما الطبق الأول فلا يرغبون في جمع المال، ولا ادخاره ، ولا يسعون في اقتنائه ، واحتكاره ، إنما رضاهم من الدنيا ، ما سد جوعةً وستر عورة ، ما بلغ بهم الآخرة ، فأولئك الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .**

أما الطبق الثاني : فيحبون جمع المال من أطيب سُبله ، وصرفه في أحسن وجوهه ، يصلون به قرابتهم وأرحامهم ، ويؤثرون به إخوانهم ، ويواسون فيه فقراءهم ، ولأن يعضَّ أحدهم على الحجارة ، أسهل عليه من أن يكتسب درهماً من غير حله ، وأن يضعه في غير وجهه ، وأن يمنعه من يستحقه ، وأن يكون له خازناً إلى حين موته ، فأولئك إن نوقشوا عَذّبوا ، وإن عُفي عنهم سلموا .

وأما الطبق الثالث : فيحبون جمع المال مما حلَّ وحرم ، ومنعه مَن فُرض له ، وإن أنفقوه أَنفقوه إسرافاً ، وإن أَمسكوه أَمْسَكوه بخلاً واحتكاراً ، أولئك ملكت الدنيا أزمة قلوبهم ، حتى أوردتهم النار بذنوبهم)) .

[ورد في الأثر]

وقد روي عن الإمام علي كرّم الله وجهه أنه قال : **<<** الدنيا حلالها حساب ، وحرامها عذاب ، وشبهتها عقاب **>>** .

[رواه الدارقطني والديلمي عن ابن عباس]



2 ـ الإسلام حثَّ على طلب الرزق :

لقد حضنا الله على طلب الرزق ، ويسر لنا سُبله فقال تعالى :

وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا ﴿١١﴾

(سورة النبأ)

وقال :

وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ

وقال :

فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٠﴾

(سورة الجمعة)

وفي الحديث الشريف :

((**إن الله كتب عليكم السعي فاسعوا**)) .

[الطبراني عن ابن عباس بسند صحيح]

وقال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه : **<<** لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول : اللهم ارزقني ، وقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة **>>** .

وقال أيضاً : **<<** استغن عن الناس يكن أصون لدينك ، وأكرم لك عليهم **>>** .

ولكن دفعاً للقلق من أجل الرزق ، ومنعاً من ارتكاب المعاصي ، واحترازاً من أن يقف الإنسان موقف مذلة طمأن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم المؤمن بأن رزقه مقسوم ومضمون ، وموزون ، وأن رزق الله تعالى ، لا يجره حرص حريص ، ولا ترده كراهة كاره ، وأن الله تعالى جعل الروح والفرح في الرضا واليقين ، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط ، وقال صلى الله عليه وسلم :



((إن روح القدس نفثت في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها ، فاتقوا الله عباد الله تعالى ، وأجملوا في الطلب ، واستجملوا مهنكم ، ولا يحملنكم استبطاء شيء من الرزق على أن تطلبوه بمعصية فإن الله تعالى لا ينال ما عنده بمعصيته)) .

[حديث صحيح بشواهده ، ابن ماجه ، وأبو نعيم في الحلية والحاكم وابن حبان]

وقد ورد في بعض الآثار القدسية :

((عبدي خلقت السماوات والأرض ، ولم أعيَ بخلقهن ، أفيعييني رغيف أسوقه لك كل حين ؟ لي عليك فريضة ، ولك علي رزق ، فإن خالفتني في فريضتي ، لم أخالفك في رزقك .. وعزتي وجلالي ، إن لم ترض بما قسمته لك ، فلأسلطن عليك الدنيا ، تركض فيها ركض الوحش في البرية ، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ، ولا أبالي وكنت عندي مذمومًا)) .

[ورد في الأثر]

لذلك نهانا ربنا جل وعلا ، أن نتشاغل بما ضمنه لنا عما افترضه علينا .

3 ـ على المؤمن تحرِّي الرزق الحلال :

ولكن ليس كل رزق حلالاً ، ولا كل كسب مشروعاً ، فالمؤمن يتحرى الحلال في كسبه ، لأنه يعلم أن المال الحرام ، يذهب من حيث أتى ، وأنه يَتلف ، ويُتلف صاحبه ، وهو يعلم علم اليقين ، أنه من كان كسبه حراماً سقط من عين الله ، ولأن يسقط الإنسان من السماء إلى الأرض ، أهون من أن يسقط من عين الله ، لذلك أمرنا الله عز وجل بصريح الآية المحكمة أن نأكل الحلال الطيب ، فقال :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾

(سورة البقرة)

والحلال ما كان حلالاً في ذاته ، وفي طريق كسبه ، فهو يحل لكم ، ويُبقي على الصلة بينكم وبين ربكم ، والطيب ما طابت به أجسامكم ونفوسكم وحياتكم .

وقد يكون الحلال الطيب أقلَّ من الحرام الخبيث من حيث الكم ، وفي هذا ابتلاء من الله لعباده المؤمنين ، فمن نجح في هذا الام تحان ، وآثر القليل من الحلال الطيب على الكثير من



الحرام الخبيث ، بارك الله له في ماله ، فانتفع منه وفي أهله وأولاده فسعد بهم ، وحفظ الله له صحته ومكانته ، وضمن له سعادته في الدنيا والآخرة ، قال الله تعالى :

إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾

(سورة الكهف)

ولحكمة بالغة جعل كسب الحلال الطيب أصعب ، وأشق من كسب الحرام الخبيث ، ليبتلى المؤمن ثانية في مدى حرصه على الحلال الطيب ، بل في مدى حرصه على رضوان الله قال النبي صلى الله عليه وسلم :

((**من بات كالاً** ــ متعبا ــ **في طلب الحلال ، بات مغفوراً له**)) .

[رواه ابن عساكر عن أنس ، والطبري عن ابن عباس]

والشرع الحنيف ، حينما يأمر المؤمن يتحرى الحلال في كسبه ينهاه أشد النهي عن أن يتحرى الحلال والحرام في كسب الآخرين ، فمن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه ، وطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس .

4 ــ العمل المشروع سعي في سبيل الله :

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أنه من طلب الرزق من طرقه المشروعة ، وتقصى الحلال من الكسب ، وابتغى كف نفسه عن المسألة ، وإغناء أبويه وأهله وأولاده ، لقي الله تعالى وهو عنه راض ، فقال صلى الله عليه وسلم :

((**من طلب الدنيا حلالاً وتعففاً عن المسألة ، وسعياً على عياله ، وتعطفاً على جاره لقي الله ووجهه كالقمر ليلة البدر**)) .

[رواه البيهقي]

وقد كان صلى الله عليه وسلم جالساً مع أصحابه ذات يوم فنظروا إلى شاب ذي جلد وقوة ، وقد بكر يسعى فقالوا : ويح هذا ، لو كان شبابه وجلده في سبيل الله ، فقال صلى الله عليه وسلم :

((**لا تقولوا هذا ، فإنه إن كان يسعى على نفسه ليكّفها عن المسألة ، ويغنيها عن الناس ، فهو في سبيل الله ، وإن كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف ليغنيهم ويكفيهم فهو في سبيل الله ، وإن كان يسعى تفاخراً وتكاثراً فهو في سبيل الشيطان**)) .



لقد أكد النبي صلى الله عليه وسلم من خلال هذين الحديثين الشريفين :

((**إِنّمَا الأَعْمَالُ بِالنّيَاتِ ، وَإِنّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**)) .

[البخاري عن عمر]

أن النية وحدها تحدد قيمة العمل .. فقد يلتقط الرجل لقطة ، فإن نوى أخذها فهو معتد ، وإن نوى البحث عن صاحبها فهو محسن ، وشتان بين العدوان والإحسان .

فالعمل على إطلاقه أساس الرقي عند الله ، فمن العمل الصالح العمل الذي تكسب به رزقك أيها المؤمن ، إذا بني هذا العمل على الإتقان والنصح وعدم الغش ، واهتم صاحبه في تطويره وتحسينه ، توصلاً لخدمة الخلق ، الذين هو عيال الله ، وترفق بالناس بالأجر أو السعر وعاملهم باللين والحكمة ، كان هذا العمل نفسه وسيلة لكسب رضوان الله ، والفوز بنعيم الجنة الأبدي ، قال صلى الله عليه وسلم :

((**إن الله تعالى يحب المؤمن المحترف**)) .

[رواه الحاكم والطبراني في الكبير والبيهقي عن ابن عمر]

بل ربما كان الذي يكسب رزقه حلالاً باذلاً من أجله جهداً ، ووقتاً ، وعرقاً ، أفضل عند الله تعالى ممن انقطع للعبادة ، وهو عالة على غيره يروى أن رجلاً كان يعبد الله فقيل له : ما تصنع ؟ قال : أتعبد الله فسئل : فمن يطعمك ؟ فقال : أخي ، فقيل له : أخوك أعبد منك ..

5 ـ النهي عن سؤال الناس :

والنبي صلى الله عليه وسلم ينهى عن المسألة مبيناً أنها تفتح على العبد أبواب الفقر فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَحْتَطِبَ عَلَى ظَهْرِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَأْتِيَ رَجُلًا فَيَسْأَلَهُ أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ**)) .

[رواه البخاري]

روى الترمذي من حديث أبي كبشة الأنماري :

((**ولاَ فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلاّ فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ**))

وفي الأثر أنه :

((**من جلس إلى غني فتضعضع له** – أي تمسكن – **له ذهب ثلثا دينه**)) .

(رواه ابن جرير)

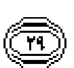


فلا ينبغي للمؤمن أن يذلَّ نفسه ، بل ينبغي أن يطلب الحوائج بعزة الأنفس ؛ فإن الأمور تجري بالمقادير ، فاليد المعطاءة العليا خير من اليد الممدودة السفلى .

6 ـ النهي عن أكل أموال الناس بالباطل :

ولقد نهانا الشرع الحنيف عن أكل أموال الناس بالباطل ، وجعله من كبائر المحرمات ، حيث قال :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا



(سورة النساء 29)

لم يقل الله عز وجل : لا تأكلوا أموال الناس ، لقد أشارت كلمة " لا تأكلوا أموالكم " ، إلى ما هو عليه المؤمنون ، أو إلى ما ينبغي أن يكون عليه المؤمنون ، من أخوّة صادقة ، ومشاركة وجدانية حانية ، يجسدها الشعور ، بأن مال أخيك هو مالك ، من زاوية أنه يجب عليك أن تحافظ عليه ، وأن تصونه من التلف والضياع ، فلأن تمتنع عن أكله بالباطل من باب أولى ، فإذا أكلت مال أخيك أضعفته ، وفي ضعفه ضعف لك ، فأنت بهذا قد أكلت مالك .

وأشارت كلمة (بينكم) إلى أن المال يجب أن يكون متداولاً بين جميع أفراد الأمة ، وأكله بالباطل يجعله متداولاً بين الأغنياء فقط ، وفي هذا تضييق على الفقراء ، بل عُدْم لهم .

والمال قوام الحياة ، وأكل أموال الناس بالباطل ، عدوان على قوام حياتهم ، وهذا يستوجب غضب الله ، وعقابه الأليم ، فالإضرار بالناس يقترب من الشرك بالله ، أما أكل المال بالحق : فهو أن يكون نظير عوض حقيقي ، أو خدمة صحيحة ، وأن يكون المأكول ماله راضياً أشد الرضا ، حتى لو كشف الغطاء ، وهذا مستنبط من قوله تعالى :



يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا



(سورة النساء)

وقد شدد النبي صلى الله عليه وسلم على حرمة المال الحرام ، وجعلها كحرمة الدم والعرض فقال :

((**كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ**)) .

[مسلم عن أبي هريرة]

وفيما رواه البيهقي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

عَنْ عَمْرِو ابْنِ يَثْرِبِيٍّ قَالَ : خَطَبَنَا رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فَقَالَ :

((**أَلاَ وَلاَ يَحِلُّ لاِمْرِئٍ مِنْ مَالِ أَخِيهِ شَيْءٌ إِلاَّ بِطِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ**)) .

[أحمد]

عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((**... وَمَنْ انْتَهَبَ نُهْبَةً فَلَيْسَ مِنَّا**)) .

[رواه الترمذي]

ومِن أكلِ أموال الناس بالباطل : الغصب ، والنهب ، والسلب ، والرشوة ، والغلول ، والسرقة ، والميسر ، والربا ، وهذه الأنواع من أكل أموال الناس بالباطل ، بينةٌ حرمتها ، واضحةٌ حدودها ، وظاهرة نتائجها ، لذلك تجد الكثرة الكاثرة من المسلمين يبتعدون عنها خشية أن يحلَّ عليهم غضب الله ، ومن يحلل عليه غضب الله فقد هوى .

ولكن هناك أنواع من أكل أموال الناس بالباطل تخفى على كثير من المسلمين بسبب توانيهم عن حضور مجالس العلم ، أو عزوفهم عن سؤال أهل الذكر ، وقد روي عن سيدنا عمر رضي الله عنه أنه كان يطوف بالسوق ، ويعنف بعض التجار ويقول : **<<** لا يبع في سوقنا إلا من تفقه ، وإلا أكل الربا شاء أم أبى **<<** .



صورٌ من أكل أموال الناس بالباطل

1 ــ الاحتكار :

ومن أكل أموال الناس بالباطل " الاحتكار " ، وهو بالتعريف الدقيق ؛ حبس مالٍ ، أو منفعة ، أو عمل ، والامتناع عن بيعه وبذله حتى يرتفع سعره ارتفاعاً فاحشاً غير معتاد ، بسبب قلّته أو انعدام وجوده في مظانِّه ، مع شدة الحاجة إليه ، والمحتكر من خ لال أحاديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ملعون وخاطئ ، وقد برئت منه ذمة الله ، وقد توعده الله بالنار ، فقد قال صلى الله عليه وسلم :

((**لاَ يَحْتَكِرُ إِلاَّ خَاطِئٌ**)) .

[حديث رواه مسلم وغيره عن معمر بن عبد الله]

وقال :

((**الْجَالِبُ مَرْزُوقٌ وَالْمُحْتَكِرُ مَلْعُونٌ**)) .

[رواه ابن ماجه]

وقال :

((**من احتكر الطعام أربعين ليلة يريد به الغلاء ، قد برئ من الله وبرئ الله منه**)) .

[رواه أحمد عن ابن عمر]

وقد أثنى النبي صلى الله عليه وسلم على من ترك الاحتكار خوفاً من الله ، وإشفاقاً على المسلمين ، وتيسيراً عليهم فقال :

((**من جلب طعاماً فباعه بسعر يومه فكأنما تصدق به**)) .

[قال الحافظ العراقي في تخريجه على الإحياء : أخرجه ابن مردويه من حديث ابن مسعود بسند ضعيف]

فالاحتكار : أكل لأموال الناس بالباطل ، وابتزازها بافتعال قلة العرض مع كثرة الطلب ، وليس هذا الربح الزائد الذي يجنيه المحتكر حلالاً ؛ لأنه ليس نظير خدمات حقيقية يقدمها التاجر ، ولم يُؤخذ بالرضى الحقيقي للمشتري ، إنما هو إلجاء أصحاب الحاجات إلى شراء حاجاتهم ، بأكثر من أثمانها الحقيقية ، وقد قال صلى الله عليه وسلم :

((**بئس العبد المحتكر ، إن أرخص الله الأسعار حزن ، وإن أغلاها فرح**)) .

[ذكره الطبراني في الكبير والبيهقي عن معاذ]



بل إن علماء الأصول بنوا حكم الاحتكار لا على النصوص الجزئية التفصيلية الخاصة به فحسب ، بل على أصول عامة ، ثبتت بالاستقراء الدقيق ، قال الإمام أبو يوسف رحمه الله : " كل ما أضر بالناس حبسه فهو احتكار " ، وقال بعض الفقهاء المحدثين : "كل إيهام أو تضليل ، من شأنه أن يزيد في الطلب على السلعة ، مع قلة العرض ، تمهيداً لرفع السعر فهو احتكار " .

2 ـ الغش :

ومن أكل أموال الناس بالباطل : الغش ، وللغشّ أنواع كثيرة وصور شتى ، يرجع معظمها إلى المخادعة ، بإظهار شيء ، وإخفاء خلافه ، في باطنه .

ومن ذلك الكذب في التعريف فيعرّف الرديء بأنه جيد ، وذو السعر الرخيص بأنه ذو السعر الغالي .

ومن الغش دس الرديء في أثناء الجيد ، وبيعه جميعاً بقيمة الجيد دون بيان الواقع والحقيقة .

ومن الغش أن يقول البائع : اشتريته بكذا ، كذباً ، ليخدع المشتري في هامش ربحه ، ومن الغش إخفاء العيب والتلاعب بالوزن ، والكيل والعدد ، والطول والحجم والمساحة .

ومن الغش تزوير منشأ البضاعة ومصدرها ، أو الكذب في الإخبار عنها ، ومن الغش عرضها بطريقة تزيد من مزاياها ، وتخفي من عيوبها ، ومن الغش توجيه المشتري إلى بضاعة رديئة كاسدة استغلالاً لجهله ، ومن الغش استغلال جهل المشتري ، ورفع السعر أضعافاً مضاعفة ، وهذا المشتري الجهول بنوعية البضاعة وقيمتها سماه النبي صلى الله عليه وسلم " المسترسل " فقال :

((**غَبنُ المسترسل ربا**)) .

[رواه البيهقي عن أنس]

وقال :

((**غبن المسترسل حرام**)) .

[رواه الطبراني عن أبي أمامة]

وهكذا فكل مالٍ يكسبه الإنسان عن طريق الغش فهو حرام ، وهو سحت ، وظلم ، وهو من أكل أموال الناس بالباطل .



والغش كما يكون بالبيع يكون في الشراء ، فقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن تلقي الركبان لشراء بضاعتهم قبل أن يعرفوا قيمتها الحقيقية ، ونهى عن كل جهالة تمكن البائع أو الشاري من الغش ، وتفضي إلى منازعة .

وسواء في الإثم أن تغش المسلمين ، أو غيرهم ؛ لأن الحق لا يفرّق ، ولا يجزأ ، فا لخلق كلهم عيال الله ، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله ، قال صلى الله عليه وسلم :

((**من غش فليس منا**)) .

[رواه الترمذي عن أبي هريرة ، ورواه مسلم في حديث : ما هذا يا صاحب الطعام ..]

وكلمة غش جاءت مطلقة .

بل إن غش غير المسلمين أشد إثماً ، لأنه يؤدي إلى جرح مكانة الدين ، فأنت أيها المسلم على ثغرة من ثغر الإسلام فلا يُؤتَيَنَّ مِن قِبلك.

روى مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه

((**أَنَّ رَسُولَ اَللَّهِ صلى الله عليه وسلم مَرَّ عَلَى صُبْرَةِ طَعَامٍ ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا ، فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلًا ، فَقَالَ : مَا هَذَا يَا صَاحِبَ اَلطَّعَامِ ؟ قَالَ : أَصَابَتْهُ اَلسَّمَاءُ يَا رَسُولَ اَللَّهِ ، فَقَالَ : أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ اَلطَّعَامِ كَيْ يَرَاهُ اَلنَّاسُ ؟ مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي**)) .

[رواه مسلم]

وقد أثنى النبي صلى الله عليه وسلم على التجار الذين إذا حدثوا لم يكذبوا ، وإذا وعدوا لم يخلفوا ، وإذا ائتمنوا لم يخونوا ، وإذا باعوا لم يطروا ، وإذا اشتروا لم يذموا ، وإذا كان عليهم لم يمطلوا ، وإذا كان لهم لم يعسّروا .

وقال صلى الله عليه وسلم :

((**مَن عامل الناس فلم يظلمهم ، وحدثهم فلم يكذبهم ووعدهم فلم يخلفهم ، فهو ممن كملت مروءته ، وظهرت عدالته ووجبت أخوته وحرمت غيبته**)) .

[القضاعي في مسند الشهاب عن علي]

فإذا ظلمهم ، أو كذبهم ، أو أخلفهم ، فقد سقطت عدالته ، لكن الفقهاء عدوا بنوداً كثيرة تجرح العدالة ، منها : أكل لقمة من حرام ، ومنها تطفيف بتمرة ..



أمثلةٌ حية عن التجار الصادقين :

المبادئ والقيم والمثل لا تعيش إلا في المثل الحي ، والمثل الحي يجسد المبادئ ، ويحقق القيم ، ويجعل الطريقة المثلى واقعاً ، والمثل الحي حقيقة مع البرهان عليها ، والمثل الحي ، نموذج إنساني خالد ، ونبراس للأجيال من بعده ، فأبو حنيفة النعمان رحمه الله أكرم علمه ونفسه ، وحزم أمره على أن يأكل من كسب يمينه ، وأن تكون يده هي العليا دائماً ، وقد أيقن أنه ما أكل أمرؤ لقمة أزكى ولا أعز من لقمة ينالها من كسب يده ، لذلك خصص شطراً من وقته لكسب رزقه ، فاتجر بالخز (القماش) وأثوابه ، فكان له متجر معروف يقصده الناس ، فيجدون فيه الصدق في المعاملة ، والأمانة في الأخذ والعطاء ، وكانوا يجدون فيه أيضاً ، الذوق الرفيع : يأخذ المال من حله ، ويضعه في محله ، و كلما حال عليه الحول ، أحصى أرباحه من تجارته ، واستبقى منها ما يكفيه لنفقته ، ثم يشتري بالباقي حوائج القرّاء والمحدثين والفقهاء وطلاب العلم وأقواتهم وكسوتهم .

ومثل حي آخر ، الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي كان مثلاً أعلى في العدالة والرحمة والزهد ، وقد أتعب الذين أتوا من بعده ، ففي عهده وفد إلى المدينة المنورة رسول من أذربيجان ، وقد وصلها في ساعة متأخرة من الليل ، وكره أن يطرق باب أمير المؤمنين في هذا الوقت فتوجه إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسمع صوتاً فيه الأنين والحنين إلى الله ، سمع صاحب هذا الصوت يقول : " يا رب ، أنا واقف ببابك ، مستمسك بحبالك ، هل قبلت توبتي فأهنئ نفسي ، أم رددتها فأعزيها ، فقال الرسول : من أنت يرحمك الله ؟ قال : أنا عمر بن الخطاب ، فقال : يا أمير المؤمنين ألا تنام الليل ؟ قال عمر : إنني إن نمت الليل كله ، أضعت نفسي أمام ربي ، وإن نمت النهار أضعت رعيتي ، ويمكثان في المسجد حتى صلاة الفجر ، وبعد الصلاة يدعو عمر رسول عامله على أذربيجان إلى بيته ، ويسأل عمر أم كلثوم زوجته ، ماذا عندك من طعام يا بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : ليس عندنا والله إلا الخبز وبعض حصاة الملح ، ويتناولان هذا الطعا م الخشن ، ويسأل عمر ضيفه فيم جئتنا ، فيقول ، إن عاملك هناك أرسلني بهذه الهدية إليك علبة فيها بعض الحلوى ، لا تصنع إلا هناك ، فقال عمر : أو يأكل عامة المسلمين هناك هذا الطعام ؟ قال : لا ، هذا طعام الخاصة ، قال : أوَ أعطيت كل فقراء المدينة مثلما أعطيتني ، قال :لا ، هذا لك وحدك ، قال عمر : بلغْ الأمير هناك أن يأكل مما يأكل منه عامة المسلمين



، وألاّ يعود إلى مثلها ، وأمر الرسول أن يذهب بهذه الحلوى إلى فقراء المسلمين في المسجد ، وأن يقسمها فيما بينهم ، وقال قولته الشهيرة ، حرام على بطن عمر أن يذوق حلوى لا يطعمها فقراء المسلمين .

كيف لا وهو الذي خاطب بطنه من قبل بعد أن حرمه اللحم أشهراً عدة في عام المجاعة ، خاطبه فقال : << قرقر أيها البطن ، أو لا تقرقر ، فو الله لن تذوق اللحم حتى يشبع منه صبية المسلمين >> .

لله در صحابة رسول الله ، ماذا نقول بحقهم ؟ أنقول : إنهم بشر .. نعم ، ولكن ليسوا ككل البشر .. أنقول : إنهم ملائكة .. نعم ، ولكن في الطهر والصفاء والنقاء .

أيها الناس ، توبوا إلى ربكم قبل أن تموتوا ، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا ، وصلوا الذي بينكم وبين ربكم تسعدوا ، وأكثروا الصدقة ترزقوا ، وأمروا بالمعروف ، وانهوا عن المنكر تنصروا ، إن أكيسكم أكثركم للموت ذكراً ، وأحزمكم أشدكم استعداداً لها ، ألا وإن من علامات العقل التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والتزود لسكنى القبور ، والتأهب ليوم النشور .

الخطبة الثانية : الحاجز بين البحرين :

أيها الإخوة الكرام ، انطلاقاً من قوله تعالى :

سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾

(سورة فصلت)

1 ـ اكتشاف الحاجز بين البحرين المالح والعذب :

انطلاقاً من هذه الآية ، لقد اكتشف العلماء الغربيون مؤخراً أن بين كل بحرين مالحين حاجزاً ، تم تصويره من سفن الفضاء ، هذا الحاجز يمنع مياه كل بحر من أن تختلط بمياه



البحر الآخر ، فلا يبغي بحر على بحر ، بل يحافظ كل بحر على كثافة مياهه ، ودرجة ملوحته ، ونوع مكوناته ، وهذا الحاجز ليس ثابتاً ، بل هو متحرك بفعل الرياح ، وحركة المد والجزر .

2 ـ السبق العلمي في القرآن الكريم :

وحينما أطلّ بعض هؤلاء العلماء ، وهم في نشوة اكتشافهم هذا أن في القرآن الكريم إشارة إلى هذا الكشف العلمي ، وهو قوله تعالى :

﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ﴿١٨﴾

(سورة الرحمن)

أخذتهم الدهشة .. وقد اكتشفوا أيضاً أن بين البحرين ، الملح الأجاج ، والعذب الفرات شيئين : حاجزاً يمنع مياه كل بحر من أن تطغى على الآخر ، كما هو بين البحرين المالحين ، وحاجزاً يمنع أسماك المياه المالحة من أن تنتقل إلى المياه العذبة .. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الكشف أيضاً .. وسمى الحاجز الأول برزخاً ، والثاني حِجراً .. فقال تعالى :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

أما طبيعة هذين الحاجزين فما زالت موضع الدراسة .



02 - الأمانة

الأمانة :

1 ــ السماوات والأرض والجبال يرفضن حمل الأمانة :

الأمانة أشفقت مِن حملها السماوات والأرض والجبال ، وأبين أن يحملنها ، وقال الإنسان : أنا لها ، وحملها ، فهل كان بحملها ظلوماً جهولاً ؟

قال تعالى :

إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾

(سورة الأحزاب)

أياً كان معنى الأمانة فهي شيء عظيم ، وخطير ، ومصيري ، بدليل أن السماوات والأرض والجبال أشفقن منها ، وأبين أن يحملنها ، والإنسان من خلال موقفه منها إما أن يرقى إلى أعلى عليين ، أو يهوي إلى أسفل سافلين ، موقفه من الأمانة سيحدد ما إذا كان مؤمناً ، أو مشركاً ، أو منافقاً .



2 ـ مفهوم الأمانة :

على الرغم من أن المسلم قد يفهم الأمانة بادئ ذي بدء اسماً لشيء يودع عند الآخرين ، ليحتفظوا به ، ويحفظوه ، ثم ليردوه إلى من أودعه بالتمام والكمال ، ويفهمها أيضاً صفة طيبة لمن يؤدي الأمانات إلى أهلها على الوجه الصحيح .

على الرغم من أن عامة الناس يفهمونها فهماً محدوداً ، فإن للأمانة مفاهيم واسعةً ، وعميقةً ، ومتعددة ، فهي أحد الفروع الخُلقية لحب الحق وإيثاره ، وهي ضد الخيانة ، وهي عفة عن المحارم ، وعفة عن المطامع ، من دون أن يكون المرء الأمين مداناً عند الناس ، هي أداء طوعي للحقوق والواجبات ، وحفظ لكل ما استؤمن عليه الإنسان ، هذا من جانب الإنسان .

أما من جانب الواحد الديان فهي سؤال ، وحساب ، وإدانة ، وجزاء لكل ما أوكل أمره للإنسان ، وقد أعطي الإمكانات والقدرات الكافية ليصح التكليف ، وأعطي الإرادة الحرة لتحقيقه .

روى الإمام البخاري في صحيحه عَنْ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ يَقُولُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((**كُلُّكُمْ رَاعٍ ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، الْإِمَامُ رَاعٍ ، وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا ، وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ ، وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**)) .

[متفق عليه]

3 ـ الأمانة هي التكليف :

والآن ما الأمانة بمفهومها الخطير والمصيري ؟ .. إنها التكليف .. فالإنسان حينما قَبِلَ حمل الأمانة قبلِ أن تكون نفسُه التي بين جنبيه أمانةً عنده ليعرفها بربها ، فأصل الدين معرفته ، وليطهرها من أدرانها فالله يحب المتطهرين ، وليزكيها بالكمال الإنساني ، قال تعالى :



﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ ﴾

(سورة الشمس)

كل هذا من أجل أن يكون إيمانها ، وعملها الصالح مؤهلاً لها لدخول الجنة التي أعدَّت لها ، ففيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

مقومات التكليف :

ولكن الله عز وجل حين كلف الإنسان حمل الأمانة منحه مقومات هذا التكليف ، **فسخر له ما في السماوات وما في الأرض** جميعاً منه ، تسخير تعريف وتكريم ليؤمن به ويشكره .

ومنحه بعد ذلك **العقل** قوةً إدراكيةً ، يتعرف به إلى الله من خلال الكون ، قال تعالى :

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ ﴾

(سورة الرحمن)

وأودع فيه **الشهوات** ليرقى بها صابراً أو شاكراً إلى رب الأرض والسماوات .

ومنحه الإرادة الحرة ، ليصح التكليف والابتلاء ، وليكون النجاح فيهما ثمن العطاء .

وحرصاً على قيامه بواجب التكليف ، بعث **الأنبياء والرسل وأنزل معهم الكتاب بالحق** .

وإذا حملت الأمانة ، كما ينبغي ــ وهذه مقوماتها ــ تحقق الهدف من خلق الإنسان ، وهو العبادة ، التي هي طاعة طوعية ، ممزوجة بمحبة قلبية ، تسبقها معرفة يقينية ، تفضي إلى سعادة أبدية .. قال تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ ﴾

(سورة الذاريات)

عندئذٍ كان النجاح والفلاح .. قال تعالى :



﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾

(سورة الشمس)

مستويات الأمانة :

وبعد أن يكون المرء أميناً على نفسه من أن تضل ، أو تزل يمكن أن يكون أميناً مع الخلق ، وأمانة الخلق لها مستويات عديدة ودوائر متعاظمة ، أعلاها مستوىً وأوسعها شمولاً :

1 ــ أمانة التبليغ :

وهي الأمانة العظمى التي حُمّلت للأنبياء والمرسلين ، الذين هم أمناء وحي السماء ، وقد رعوها حق رعايتها ، وأدوها على الوجه المطلوب ، فظهرت في عصورهم بطولات فذّة ، ومجتمعات فاضلة مكنت قوى الخير من أن تنتصر على قوى الشر .

2 ــ أمانة التبيين :

ثم أوكلت هذه الأمانة إلى العلماء الذين هم ورثة الأنبياء ، وأمناء الرسل ، وقد أدى الأصحاب الكرام ، والتابعون الأعلام ، والعلماء العاملون المخلصون من بعدهم هذه الأمانة ، وحفظوا ميراث النبوة ، وتحمَّلوا مسؤولية الأداء ، وما تنصلوا ، وما تعللوا ، وما اعتذروا ، وما ألقوا ذلك على عاتق غيرهم ، فكانت مجتمعاتهم بشكل أو بآخر امتداداً لعصور الازدهار والتألق .

ولقد أخذ الله العهد على العلماء أن يُبيِّنوا الحق للناس ، ولا يكتموه ، وهذه أمانة العلم ، ولن يستطيع العلماء أداء أمانتهم تلك إلا إذا كانوا علماء عاملين مخلصين ..

ولكن واقع المجتمع الإسلامي اليوم يختلف اختلافاً بيِّناً عن واقع المجتمع الإسلامي في عهود الازدهار والتألق ، فمعظم الناس اليوم لا يتخلقون بأخلاق ا لإيمان ، ولا يلتزمون بسنة النبي العدنان ، ولا يقفون عند حدود الله ، بل يتجاوزونها ؛ وبيوت المسلمين ليست على



ما ينبغي لها ، والعلاقات الاجتماعية والمالية ليست منضبطة وفق الشرع الحنيف ، لقد قصر مفهوم الدين على أداء العبادات الشعائرية من صوم ، وصلاة ، وحج ، و زكاة .. ونسي الناس أن ترك درهم من حرام خير من ثمانين حجة بعد حجة الإسلام ، ولأن يمشي الرجل في حاجة أخيه المؤمن ، خير له من صيام شهر واعتكافه ..

والأمة الإسلامية بأجيالها الحاضرة والقادمة .. من المسؤول عن اهتزاز القيم الدينية فيها ؟ ومن المسؤول عن تفلت الناس من قواعد الدين القويم ، وأحكام الشرع الغراء ؟ إنهم العلماء ، والمربون ، والقادة الموجهون ، إنهم مسؤولون أمام الله عز وجل ، لأنه حمَّلهم أمانة الأداء ، وأخذ عليهم العهد أن يبيِّنوا الحق للناس ولا يكتموه ، إنهم لن يستطيعوا أداء أمانتهم إلا إذا كانوا علماء عاملين مخلصين ، ويجب أن يكونوا قدوة بأخلاقهم ، قبل أن يكونوا موجهين بألسنتهم .. قال تعالى :

ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾

(سورة الأحزاب)

3 ـ أمانة الولاية :

ومن مستويات الأمانة ، أمانة الولاية ، وهذه الأمانة تكمل أمانة التبليغ ، وأمانة الأداء .. يقول صلى الله عليه وسلم :

((**صنفان من الناس إذا صلحا صلح الناس ، وإذا فسدا فسد الناس : العلماء والأمراء**)) .

[أخرجه أبو نعيم في الحلية]

فالورع حسن ، لكنه في العلماء أحسن ، والعدل حسن ، ولكنه في الأمراء أحسن .. ولقد قرر النبي صلى الله عليه وسلم مبدأ المسؤوليات على كل المستويات ، بدءاً من الأمير ، وانتهاءً بغيره ، فقد روى البخاري في صحيحه عَنْ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ يَقُولُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :



((كُلُّكُمْ رَاعٍ ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، الْإِمَامُ رَاعٍ ، وَمَ سئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا ، وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ ، وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ)) .

[متفق عليه]

تروي فاطمة بنت عبد الملك ، زوجة الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين قالت : " دخلت على عمر يوماً في مصلاه فرأيته واضعاً يده على خده ، ودموعه تسيل ، فقلـــت له : ما بالك ؟ وفيم بكاؤك ؟ فقال : ويحك يا فاطمة ، إني قد وُليت هذا الأمر ففكرت في الفقير ، والجائع ، والمريض الضائع ، والعاري المجهول ، واليتيم المكسور ، والمظلوم المقهـــور ، والغريب ، والأسير ، والشيخ الكبير ، والأرملة الوحيدة ، وذوي العيال الكثير ، والـــــرزق القليل ، وأشباههم في أطراف البلاد ، فعلمت أن ربي سيسألني عنهم جميعاً يوم القيامة ، وإن خصمي دونهم يومئذ سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فخشيت ألا تثبت لي حجة ، فلذلك أبكي " .

[سير أعلام النبلاء ، للذهبي " ترجمة عمر بن عبد العزيز]

4 ــ أمانة التولية :

ومن فروع أمانة الولاية ، أمانة التولية .. وهي أن يوضع كل رجل في مكانه الصحيح اللائق به ، وأن يسند كل عمل لصاحبه الحقيق به .. فعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ الله عَنْهُ أَنَّهُ سَأَلَ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيه وسَلَّم الإِمَارَةَ ، فَقَالَ :

((إِنَّكَ ضَعِيفٌ ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ ، إِلاَّ مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا ، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا)) .

[رواه مسلم]

سيدنا عمر رضي الله عنه عملاق الإسلام ، أسند إلى رجل ولاية وأراد أن يمتحنه ليتحقق من أهليته ، وأن يوجهه ليحقق مهمته فسأله : << ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارق أو ناهب ؟ قال : أقطـــــع يده .. فقال عمر : إذاً إن جاءني من رعيتك من هو جائع أو عاطل فسأقطع يدك ، يا هذا ، إن الله قد استخلفنا على خلقه لنسد جوعتهم ، ونستر عورتهم ، ونوفر لهم حرفتهم ، فإن وفينا لهم ذلك تقاضيناهم شكرها .. إن هذه الأيدي خلقت لتعمل ،



فإذا لم تجد في الطاعـــــــة عملاً التمست في المعصية أعمالاً ، فاشغلها بالطاعة ، قبل أن تشغلك بالمعصية >> .

5 ـ أمانة الواجب :

من معاني الأمانة أن يحرص المرء على أداء واجبه كاملاً من خلال العمل الذي أنيط به ، وأن يستنفذ جهده في إبلاغه تمام الإحسان ، انطلاقاً من الإيمان والشعور بأن الله سيسأل عن العمل الذي وُكل إليه ، هل أداه كاملاً غير منقوص ؟ أم كان الخلل والتقصير ؟ وهل نصح أم غش ؟ وهل أتقن أم أهمل ؟ وهل أنصف أم ظلم ؟ وهل أحسن أم أساء ؟ وهل رحم أم قسا ؟ وهل حفظ أم ضيغ ؟ وهل أعطى أم منع ؟

فالطالب أمانة في عنق المعلم ، فهل عني في تعليمه وتقويمه ، أم أهمل وقصر ؟ وهل كان مخلصاً للحقيقة ، أم مزوراً ، ومنتحلاً لها ؟ وهل أخلص في علمه أم خان ضميره المسلكي وضيع ما استودع ؟

والمريض أمانة في عنق الطبيب ، فهل حرص على شفائه من دائه أم حرص على ابتزاز ماله ؟

والموكِّل أمانة في عنق المحامي ، فهل صدقه ونصحه ؟ والخصمان المتنازعان أمانة في عنق القاضي فهل عدل أم ظلم ؟

والأبنية والمنشآت والجسور والطرقات أمانة في عنق المهندس الذي صممها والمهندس الذي نفذها ، والمهندس الذي تسلمها .. هل حفظ مال الأمة أم ضيعه ؟

والصنعة والحرفة أمانة في عنق الصانع فهل أتقنها ، وهل حسَّنها وهل طوَّرها ، أم أهملها ؟ فكانت العيوب والنقائص ، وكان الخلل والكساد ، علماً بأن إتقان الصنعة جزء من الدين ..

((**إن الله يحب من العبد إذا عمل عملاً أن يتقنه**)) .

[رواه أبو يعلى والعسكري عن عائشة]

والشجرة والنبتة ، أمانة في عنق الزارع .. هل أحسن العناية بها كي تؤتي أكلها كل حين، أم تركها نهبة للعطش والأمراض والأوبئة فانخفض الإنتاج وتضرر الناس ؟

والمستهلك أمانة في عنق البائع فهل نصحه أم غشه ، في النوع أو الكم أو السعر ؟



والمُراجع أمانة في عنق الموظف هل سهل له طلبه ، ويسّر له أمره ؟ أم وضع له العقبات والعراقيل ليأخذ منه ما ليس له بحق ؟

6 ــ أمانة الأموال والأعراض والدماء :

ويدخل في أمانة الأموال : البيوع ، والديون ، والمواريث ، والودائع والرهون ، والعواري ، والوصايا ، والهبات ، وأنواع الولايات الكبرى والصغرى ، وغير ذلك .

ويدخل في أمانة الأعراض كفُّ النفس ، والسمع ، والبصر ، واللسان ، واليد ، والغيبة ، والقذف ..

ويدخل في أمانة الأجسام والأرواح كفُّ النفس ، واليد عن التعرض لها بسوء ، من قتل ، أو جرحٍ ، أو ضر ، أو أذى ..

7 ــ الأمانة العلمية :

ويدخل في الأمانة ، الأمانة العلمية ، وهي صحة النقل ، ونسبته إلى صاحبه ، من دون تحريف أو تزوير ، أو انتحال ، أو حذف ، أو زيادة أو تدليس ..

ومن الأمانة صيانة حقوق الابتكار ، والاختراع وعدم التقليد وعدم تقليد العلامات التجارية .

ومن الأمانة صيانة الحقوق الأدبية للإنتاج الأدبي والعلمي ، وعدم النقل ، والاقتباس ، وكذلك الطبع دون إذن صاحب المؤلف ، يقول صلى الله عليه وسلم :

((إن الله تعالى سائل كل راع عما استرعاه ، قَلَّت رعيته أم كثرت أحفظ ذلك أم ضيعه ؟ حتى يسأل الزوج عن زوجته ، والوالد عن ولده والسيد عن خادمه ، هل أقام فيهم أمر الله ؟)) .

[رواه النسائي وابن حبان عن أنس ، ورواه ابن عساكر عن أبي هريرة]



الأمانة غنى :

بقيت بشارة لأولئك الذين حفظوا الأمانة ، أمانة الواجب ، ولم يضيعوها ، قال صلى الله عليه وسلم :

((**الأمانة غنى**)) .

[رواه القضاعي عن أنس]

فالأمانة في نص الحديث من أسباب التوفيق في الأعمال ، فالأمين العفيف المتقن الناصح الذي يؤدي واجبه كاملاً يكسب ثقة الناس ، وهذه الثقة أكبر رأسمال يملكه الإنسان ويتحرك به .. فالأمانة تغنيه عن السؤال ، وتغنيه عن الابتذال ، والأمانة تحقق التوازن النفسي ، حيث تغني عن استجداء المديح ، وهي تكسب المرء ثقة بطهر نفسه ، وهذه الثقة تجعله عزيزاً رافع الرأس ..

8 ـ أمانة المجالس :

ومن معاني الأمانة أن تحفظ حقوق المجالس ، التي تشارك فيها فلا تدع لسانك يفشي أسرارها ، ويسرد أخبارها ، فكم من حبال تقطعت ، ومصالح تعطلت لاستهانة الناس بأمانة المجالس ، وذكرهم ما يدور فيها من كلام منسوبٍ إلى قائله ، أو غير منسوب قال صلى الله عليه وسلم :

((**إذا حدث الرجل رجلاً حديثاً ، ثم التفت فهو أمانة**)) .

[رواه أبو داود]

وحرمات المجالس تصان مادام الذي يجري فيها مضبوطاً بحدود الأدب ، وشرائع الدين ، وإلا فليست لها حرمة .. قال صلى الله عليه وسلم :

((**المجالس بالأمانة إلا ثلاثة مجالس : مجلسُ سفكِ دمٍ حرام ، أو فرجٍ حرام ، أو اقتطاع مال بغير حق**)) .

[رواه أبو داود]



9 ــ أمانة العلاقات الزوجية :

وللعلاقات الزوجية في نظر الإسلام قداسة ، فما يضمه البيت من شؤون بين الرجل وامرأته ، يجب أن يطوى في أستار مسبلة ، فلا يطَّلع عليه أحد ، مهما قرب .. قال صلى الله عليه وسلم :

((إن أعظم الأمانة عند الله يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ، ثم ينشر سرها)) .

[رواه مسلم]

الخطبة الثانية : توضيح مقتضيات الأمانة :

تطبيقاً لمفهوم الأمانة العلمية ، وتوضيحاً لما تقتضيه أمانة هذا الموضوع ، فإن التقصير في أداء الواجـــب في كل الأعمال والحرف والوظائف يدخل الشبهة على المال الذي يكسبه المقصر ، لقد ضل من قصر الدين على أداء العبادات من صوم ، وصلاة ، وحج ، وزكاة ، ونسي أن ترك درهم من حرام خير من ثمانين حجة بعد حجة الإسلام ، ونسي أن الرجل لأن يمشي في حاجة أخيه خير له من صيام شهر واعتكافه ، فمن أجل أن يصح دين الرجل ، ينبغي أن يحرر دخله من الشبهات ومن التقصير في أداء الواجبات ، وهذه هي حقيقة الورع ، وركعتان من ورِع خير من ألف ركعة من مخلط ، والمخلط ، هو الذي جمع عملاً صالحاً وآخر سيئاً .

درجات الورَع :

وقد صنف الإمام الغزالي الورَع في أربع درجات :

- أدناها ورع العدول ، وهو الذي يوجب الفسق باقتحامه ، ويسقط العدالة بنواله ، ويثبت العصيان والتعرض للنيران ، وهو الورع عن كل ما تحرمه فتاوى الفقهاء .



- والدرجة الثانية ورَع الصالحين ، وهو الامتناع عن كل ما فيه شبهة التحريم ، ولكن المفتي يفتي بحله ، بناء على ظاهر أمره ، وقد بني هذا على قول النبي عليه الصلاة والسلام :

((**دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ**)) .

[الترمذي عن الحسن بن علي]

- والدرجة الثالثة فهي ورَع المتقين ، وهي الامتناع عما لا تحرمه الفتوى ، ولا شبهة في حله ، ولكن يخشى أن يؤدي إلى محرم ، وهذا مأخوذ من قول النبي عليه الصلاة والسلام :

((**لاَ يَبْلُغُ الْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَا لاَ بَأْسَ بِهِ حَذَرًا لِمَا بِهِ بَأْسٌ**)) .

[الترمذي عن عطية السعدي]

- وأما الدرجة الرابعة ، وهي أعلى الدرجات ، إنها ورع الصديقين ، وهي الامتناع عما لا بأس به أصلاً ، ولا يُخشى أن يؤدي إلى ما به بأس ، ولكنه يُتناول لغير الله ، وعلى غير نيّة التقوي على عبادة الله ، قال عليه الصلاة والسلام :

((**من لقي الله ورِعاً أعطاه الله ثواب الإسلام كله**)) .

[قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء : لم أقف له على أصل]

الشريعة الإسلامية عدل كلها ، ورحمة كلها ، ومصالح كلها ، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور ، وعن الرحمة إلى ضدها ، وعن المصلحة إلى المفسدة ، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة وإن أدخلت عليها بألف تأويل وتأويل .

كسب الحلال من الجهاد في سبيل الله :

قد يقول قائل ، إذا كان من الكسب الحلال أداء واجبات الأعمال فإن هذا يستهلك الوقت والجهد وراحة البال ، ونحن ننقل لهذا القائل قول النبي عليه الصلاة والسلام الذي لا ينطق عن الهوى :

((**من أمسى وانياً** - أي متعباً - **في طلب الحلال ، بات مغفوراً له وأصبح الله راضياً عنه**)) .

((**من بات كالا** - أي تعِباً - **في طلب الحلال بات مغفورا له**)) .

[ابن عساكر عن المقدام بن معد يكرب]



فكما أن طلب العلم فريضة على كل مسلم ، كذلك طلب الحلال فريضة على كل مسلم ، ومن أكل الحرام عصت جوارحه شاء أم أبى ، علم أم لم يعلم .

روي أن سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعله مستجاب الدعوة ، ونحن على وشك الدعاء ، فقال عليه الصلاة والسلام : ((**يا سعد ، أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة**)) .

[الطبراني في المعجم الصغير عن ابن عباس]



الباب الرابع: مكارم الأخلاق





01 - الأخوة الإيمانية

الأخوة الإيمانية :

1 ـ لا ينفع نسب بلا إيمان :

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لسيدنا سعد بن أبي وقاص ، وسيدنا سعد بن أبي وقاص صحابي جليل ، هو الصحابي الوحيد الذي قال له النبي يوم أحد :

((**ارْمِ سَعْدُ ، فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي**)) .

[الترمذي ، ابن ماجه عن سعد]

وهو الصحابي الوحيد الذي إذا قدم على النبي صلى الله عليه وسلم حيّاه وداعبه ، وقال له : ((**هَذَا خَالِي فَلْيُرِنِي امْرُؤٌ خَالَهُ**)) .

[الترمذي عن جابر]

هذا الصحابي الجليل ذاته ، قال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه : << يا سعد ، لا يغرنَّك أنه قد قيل : خال رسول الله ، فالخلق كلهم عند الله سواسية ، ليس بينهم وبينه قرابة إلا طاعتهم له >> .

عباد الله ، أوصيكم ونفسي بتقوى الله ، وأحثكم على طاعته ، وأقول لكم : لو أن رجلاً عاصر النبي صلى الله عليه وسلم ، واستطاع بذكاء حاد وحُجة قوية ، وطلاقة لسان أن ينتزع من فم النبي صلى الله عليه وسلم حكماً في خصومة لصالحه ، وهو ليس محقاً لا ينجو من عذاب الله ، لقول النبي عليه الصلاة والسلام في حديث أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((**إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ ، فَأَقْضِي عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْهُ ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَ هُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ**)) .

[البخاري]

فالشريعة عدل كلها ، مصالح كلها ، رحمة كلها ، فكل قضية خرجت من العدل إلى الجور ، ومن الرحمة إلى القسوة ، ومن المصلحة إلى خلافها ، فليست من الشريعة ولو أدخلت عليها بألف تأويل وتأويل .



2 ــ الناس من طبيعة نفسية وفطرة واحدة :

أيها الإخوة المؤمنون في دنيا العروبة والإسلام ، الناس مهما اختلفت أعراقهم ، وبيئاتهم ، ومستوياتهم ، وأحوالهم هم من طبيعة نفسية واحدة ، قال تعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾

(سورة الأعراف)

ولهم فطرة واحدة ، قال تعالى :

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾

(سورة الروم)

ولهم جبلة واحدة ، فقد ورد في الحديث القدسي :

((**يا داود ، ذكر عبادي بإحساني إليهم ، فإن النفوس جُبلت على حب من أحسن إليها ، وبغض من أساء إليها**)) .

[حديث قدسي رواه البيهقي عن عمير بن وهب]

3 ــ الشرع جاء ليحافظ على الأخوة الإيمانية :

فمن لوازم هذه الخصائص المشتركة التي يلتقي عندها بنو البشر أن تسود الأخوة الإنسانية فيما بينهم ، لكن الناس وحينما تتحكم أهواؤهم في تصرفاتهم ، وتحملهم شهواتهم



المستعرة على أخذ ما ليس لهم من أموال الناس ، والعدوان على أعراضهم ، وتأتي قوى الشر ، وعلى رأسها الشيطان لينزغ بينهم ، ويوقع العداوة والبغضاء فيما بينهم ، عندها تنعدم الأخوة والتعاون ، ليحل محلها فيهم العداوة والبغضاء والعدوان .

لقد جاء التشريع الإلهي ؛ إنْ في الكتاب أو في السنة يحضُّ على الحفاظ على هذه الأخوة الإنسانية ، والعمل على تنميتها منطلقاً من وحدة البنية النفسية لبني البشر ، ومن أن الإنسان يتكامل في حاجاته الأساسية والثانوية مع أخيه الإنسان ، قال تعالى :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾

(سورة الحجرات)

أما أخوة الإيمان فهي أصل من أصوله وألزم لوازمه ، والمظهر الصارخ له ، وقد قرر القرآن الكريم هذا الأصل الكبيو في العلاقة بين المؤمنين ، فقال جلَّ من قائل :

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾

(سورة الحجرات)

.



وقفة مع هذه الآية :

وللمفسرين عند هذه الآية وقفات متأنية ، جملة اسمية ركناها المبتدأ والخبر ، ومن شأن التركيب الاسمي الثبات والاستمرار ، ومن شأن التركيب الفعلي الحدوث والانقطاع ، في الأعم الأغلب .

و "إن" في صدر الآية تفيد تأكيد الأخوة بين المؤمنين ، و "إنما" أداة قصر وحصر ، تفيد أن المرء ما لم يشعر بالانتماء لمجموع المؤمنين ، وما لم يشعر بالاخوة الصادقة بينه وبينهم فليس مؤمناً على قول ، وليس كامل الإيمان على قول آخر ، والمؤمنون في الآية إخوة، وليسوا إخواناً ، أي أن العلاقة بينهم ترتقي إلى أمتن علاقة ، وهي أخوة النسب ، بل تفوقها في أكثر الأحيان ، لقول النبي عليه الصلاة والسلام : (رب أخ لك لم تلده أمك) ، أما العداوة ، والبغضاء ، والتنافس ، والحسد فهي علاقات مَرَضية بين المؤمنين ، يجب إصلاحها ، لذلك قال تعالى :

إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٠﴾

(سورة الحجرات)

4 ـ الأخوة الإنسانية :

وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم الأخوة الإنسانية من مقومات الإيمان ، فقال :

((**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**)) .

[رواه البخاري ، ومسلم عن أنس]

وحتى يكره له ما يكره لنفسه ، وقد ذكر بعض شُرَّاح الحديث أن كلمة أخيه في الحديث لم تُقيد بصفة تحدُّ إطلاقها ، والمُطلق في النصوص المحكمة على إطلاقه .

إذاً فالأخوة التي قصدها المصطفى صلى الله عليه وسلم هي الأخوة الإنسانية ، ويؤكد هذا قوله الآخر :



((**الْخَلْقُ كُلُّهُمْ عِيَالُ اللهِ ، وَأَحَبُّهُمْ إِلَى اللهِ أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ**)) .

[رواه الطبراني وأبو نعيم والبيهقي البزار عن أنس]

5 ـ الشرع نهى عن كل ما يقوّض الأخوّة كالعداوة وأسبابها :

والبيان الإلهي نهى عن كل ما يُقوّض هذه الأخوة بين المؤمنين فنهى عن السخرية ، والتنابز بالألقاب ، وسوء الظن ، والتجسس ، والغيبة فقال تعالى :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ

إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢﴾

(سورة الحجرات)

والبيان النبوي نهى أيضاً عن أسباب العداوة والبغضاء والتي تُضعف الأخوة بين المؤمنين أو تهدمها ، فقد ورد ذلك في أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحيحة فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((**الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ ، لَا يَخُونُهُ ، وَلَا يَكْذِبُهُ ، وَلَا يَخْذُلُهُ ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ : عِرْضُهُ وَمَالُهُ وَدَمُهُ ، التَّقْوَى هَا هُنَا ، بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنْ الشَّرِّ أَنْ يَحْتَقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ**)) .

[رواه البخاري ومسلم ، واللفظ للترمذي]

ولا شك أن النفي في هذه الأحاديث أبلغ من النهي ، وأن التركيب الخبري آكد في البلاغة من التركيب الإنشائي .



ثم نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن تعاطي أسباب العداوة والبغضاء ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ
عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :
((**إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ ، وَلَا تَحَسَّسُوا ، وَلَا تَجَسَّسُوا ، وَلَا تَحَاسَدُوا ، وَلَا تَدَابَرُوا ، وَلَا تَبَاغَضُوا ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا**)) .

[رواه البخاري ومسلم وغيرهما]

6 ــ الشيطان يسعى إلى الإفساد بين المؤمنين :

بل إن الشيطان حينما ييأس أن يُعبد غير الله في الأرض يتجه إلى التحريش بين المؤمنين ، وإيقاع العداوة والبغضاء فيما بينهم ، عَنْ جَابِرٍ قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :
((**إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ**)) .

[مسلم]

وقد نُدهش حينما نرى النبي صلى الله عليه وسلم يُبين أن فساد الأخوة بين المؤمنين هي من الخطورة حيث تُفسد عليهم دينهم ، وتقطع صلتهم بربهم ، فقد قال صلى الله عليه وسلم :
((**إِيَّاكُمْ وسُوءَ ذَاتِ البَيْنِ ، فَإِنَّهَا الحَالِقَةُ**)) .

[أخرجه الترمذي ، وصححه]

طُرُق ترسيخ الأخوة الإيمانية :

ولم يكتف التشريع الإسلامي بالنهي عن كل ما من شأنه أن يُضعف الأخوة الإيمانية أو يُقوضها ، بل أمر بكل ما من شأنه أن يُرسخ الأخوة الإيمانية ، ويمتنها ، وينميها ، ويطورها

1 ــ إفشاء السلام :

فقد أمر الشارع الحكيم بإفشاء السلام ، فقال عز وجل :

وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾

(سورة النساء)

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا :



((**أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ ؟ قَالَ : تُطْعِمُ الطَّعَامَ ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ ، وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ**)) .

[حديث صحيح أخرجه الترمذي 1856]

فأعجز الناس من عجز عن الدعاء ، وأبخلهم من بخل بالسلام .

ومما رواه الترمذي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

((**يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، أَفْشُوا السَّلَامَ ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ ، وَصِلُوا الْأَرْحَامَ ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ**)) .

[أخرجه ابن ماجه وأحمد]

ومن خصائص إفشاء السلام بين الأنام أن يعُمَّ السلام ، وينحسر الخصام ، حيث قال النبي الكريم صلى الله عليه وسلم :

((**أَفْشُوا السَّلَامَ تَسْلَمُوا**)) .

[رواه الإمام أحمد في مسنده عن البراء]

2 ـ عيادة المريض وتفقّد أحواله :

ومما أمر به الشارع الحكيم ترسيخاً للأخوة الإيمانية ، وتمتيناً لأواصرها ؛ عيادة المريض ، فقد قال صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه البخاري عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((**أَطْعِمُوا الْجَائِعَ ، وَعُودُوا الْمَرِيضَ ، وَفُكُّوا الْعَانِيَ**)) .

[أخرجه البخاري]

ويلحق بعيادة المريض ، تفقد أحواله ، وتعهده ، والتلطف به ، وحسبك حديث أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ :

((**يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي ، قَالَ : يَا رَبِّ ، كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ قَالَ : أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ ...**)) .

[رواه مسلم]

وإضافة المرض إلى ذاته تعالى تشريف للمريض ، وتطييب لقلبه ، وكلمة وجدتني عنده تشير إلى أن العبد إذا سُلب الصحة مُنح السكينة والقُرب .

3 ـ إجابة الدعوة :



ومما أمر به الشارع الحكيم ترسيخاً للأخوة الإيمانية ، وتمتيناً لأواصرها : إجابة الدعوة ، فَعَنْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((**مَنْ دُعِيَ فَلَمْ يُجِبْ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ**)) .

[أخرجه أبو داود]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((**لَوْ دُعِيتُ إِلَى كُرَاعٍ لَأَجَبْتُ ، وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ**)) .

[البخاري]

4 ــ النصح لكل مسلم :

ومما أمر به الشارع الحكيم ترسيخاً للأخوة الإيمانية ، وتمتيناً لأواصرها : النصح لكل مسلم ، عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((**الدِّينُ النَّصِيحَةُ ، قُلْنَا : لِمَنْ ؟ قَالَ : لِلَّهِ ، وَلِكِتَابِهِ ، وَلِرَسُولِهِ ، وَلِأَئِمَّةِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَعَامَّتِهِمْ**)) .

[أخرجه مسلم]

5 ــ الإحسان إلى الإنسان :

وقد أمرنا النبي صلى الله عليه وسلم تمتيناً لهذه الأخوة ، أن نرحم الصغير ، ونوقر الكبير ، وأن نُعين الضعيف ، وأن ننصر المظلوم ، وأن نكظم الغيظ ، وأن نعفو عن الناس ، وأن نُحسن إليهم .

ومُجمل القول أن النبي صلى الله عليه وسلم فضلاً عن أنه نهى عن كل ما من شأنه أن يُضعف الأخوّة الإيمانية أو يقوضها ، وأمر بكل ما من شأنه أن يُمتِّن أواصر هذه الأخوّة ، فضلاً عن كل ذلك كان الني صلى الله عليه وسلم قُدوة لأصحابه في حياته ولأمته من بعده ، ففي موقعة بدر كانت الرواحل قليلة ، فقال صلى الله عليه وسلم :

((**كل ثلاثة على راحلة وأنا وعلـــي وأبو لبابة على راحلة**)) ، فلما جاء دور النبي صلى الله عليه وسلم في المشي توسّل صاحباه أن يبقى راكباً فقال صلى ا لله عليه وسلم : **ما أنتما بأقوى مني على السير ولا أنا بأغنى منكما عن الأجر**)) .

[أحمد]

وحينما أراد أصحابه أن يعالجوا شاة قال أحدهم : عليَّ ذبحها ، وقال آخر : وعليَّ سلخها ، وقال ثالث : وعلي طبخها ، فقال صلى الله عليه وسلم : " وعليَّ جمع الحطب " ، فقال أصحابه : نكفيك ذلك .. قال :



((أعلم ذلك ، ولكن الله يكره أن يرى عبده متميزاً على أقرانه)) .

[ورد في الأثر]

التفسير العلمي للأخوة الحقيقية بين المؤمنين :

وإذا أردنا أن نبحث عن التفسير العلمي للأخوة الحقيقية بين المؤمنين نجد أن في شخصية كلٍّ منا سماتٍ ، وصفات ، وتصورات ، وقيماً ، ومبادئ ، وأهدافاً ، وطباعاً ، وأخلاقاً ، وعاداتٍ ، وتقاليد ، وعواطف ، ومشاعر ، وميولاً ، ورغبات ، ونوازع ، واتجاهات ، ويمكن أن ينطوي تحت كل بند من هذه البنود بضع عشرات من الفروع ، والأقسام ، وما شخصية الإنسان إلا مجموع هذه الملامح والصفات ، وبما أن الإيمان الحقيقي يطبع الإنسان بطابع عميق ، وراسخ ، وصارخ ، ومتميز في تصوراته ، ومبادئه ، وأهدافه ، وقيمه ، وأخلاقه ، وطباعه ، وعاداته ، وعواطفه ، ومشاعره ، وميوله ، ورغباته ، ونوازعه ، واتجاهاته ، وأنه كلما كثرت الصفات المشتركة والملامح المتوافقة بين شخصيتين ازدادت الألفة والمحبة بينهما ، لأن كلاً منهما يرى ذاته ، وصفاته في أخيه .

لذلك قالوا : في حياة كلٍّ منا شخصية نكونها ، وهي شخصيتنا ، وشخصية نكره أن نكونها ، وهي الشخصية المتنافرة في صفاتها مع شخصيتنا ، وشخصية نحبها وهي التي تتوافق في صفاتها مع شخصيتنا ، وشخصية نتمنى أن نكونها وهي الشخصية القدوة التي نصبو إليها .

لذلك أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة ، فبين أن إنفاق أموال الأرض كلها لا يمكن أن يؤلف وحدة القلوب ، ولكن وحدة المبادئ والقيم والمشاعر التي تنبع من منهل علوي واحد هي التي تؤلف القلوب وتجمع النفوس قال تعالى :

﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

ولقد ورد في الحديث الشريف :



((أن المؤمنين نَصَحَةٌ متوادون ولو ابتعدت منازلهم ، والمنافقين غششة مُتحاسدون ولو اقتربت منازلهم)) .

[كنز العمال 757/1]

الخطبة الثانية : الجانب العملي للأخوة الإيمانية :

هذه هي مبادئ الأخوة الإيمانية فماذا عن التطبيقات العملية ؟ هذا هو الفكر النظري فماذا عن الممارسة العلمية ؟ وهذه هي المنطلقات فماذا عن الوقائع ؟ هذا هو الإسلام في الكتب ، فأين الإسلام في الحياة ؟

1 ـ المؤاخاة بين المهجرين والأنصار :

من أروع صور الأخوة بين المؤمنين : المؤاخاة التي كانت بين المهاجرين والأنصار ، بعد الهجرة إلى المدينة .. فقد آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين أصحابه اثنين اثنينِ مهاجر وأنصاري ، ومن هؤلاء الذين آخى النبي صلى الله عليه وسلم بينهم : " سعد بن الربيع الأنصاري ، وعبد الرحمن بن عوف المهاجر فقال سعد لعبد الرحمن : أي أخي ، أنا أكثر أهل المدينة مالاً ، عندي بستانان فانظر أي بستانيَّ أحب إليك حتى أخرج لك عنه ؟ فقال عبد الرحمن لأخيه الأنصاري : بارك الله لك في مالك ، ولكن دلني على السوق فدله عليه ، فجعل يتَّجر ، وطفق يشتري ، ويبيع ، ويربح ، ويدَّخر حتى اجتمع لديه مهر امرأة فتزوج " .

[رواه البخاري]

2 ـ بين أبي بكر وبلالٍ :

ومن أمثلة الأخوة الحقيقية بين المؤمنين التي تنعدم فيها الفوارق الكبيرة بين الطبقات التي كانت سائدة في المجتمع الجاهلي ، ما فعله سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه حينما مرَّ بأمية بن خلف وهو يُعذب بلالاً الحبشي ، فقال له : ألا تتقي الله عز وجل في هذا المسكين حتى متى تعذبه ؟ فقال أمية : أنقذه مما ترى ؟ فقال أبو بكر : أفعل ، خذ أكثر من ثمنه ، واتركه حراً ، نقد أبو بكر أمية الثمن ، وحرر بلالاً من رق العبودية ، وتأبط ذراعه ، إشعاراً بالمساواة التامة ، فقال أمية : خذه فو اللات والعُزى لو أبيت إلا أن تشتريه ب درهم



واحد لبعتكه .. فرأى الصديق في هذه مساً بكرامة بلال ، فقال له : والله لو طلبت فيه مائة ألف لأعطيتكها .. وسار الصديق متأبطاً ذراع بلال قائلاً : هذا أخي حقاً ، وكان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يقولون ، إذا ذكروا أبا بكر ، هو سيدنا وأعتق سيدنا يعنون بلالاً .

وحينما انتقل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ذهب بلال إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه وقال : يا خليفة رسول الله أردت أن أرابط في سبيل الله حتى أموت قال أبو بكر : ومن يؤذن لنا ؟ فقال بلال ، وعيناه تفيضان من الدمع : ما كنت لأؤذن لأحد بعد رسول الله ، فقال أبو بكر : بل ابق وأذن لنا يا بلال فقال بلال : إن كنت أعتقتني لأكون لك فليكن ما تريد ، وإن كنت أعتقتني لله فدعني وما أعتقتني له ، فقال أبو بكر : بل أعتقتك لله يا بلال ، فامض لما أردت .

3 ـ بين أبي بكر جيرانه :

وتتجلى الأخوة الحقيقية بين المؤمنين مع البون الشاسع بين مراكزهم الاجتماعية في هذا الموقف : فقد كان لسيدنا الصديق جيران عجائز مات أزواجهن ، أو استشهدوا في سبيل الله ، وكان رضي الله عنه ، يؤم بيوت جيرانه فيحلب لهن الشياه ، ولما آلت إليه الخلافة تناهى إلى سمعه حسرة هؤلاء العجائز ، لأنهن سيحرمن من هذه الخدمة الجليلة ، التي يؤديها هذا الرجل الصالح ، ولكنه أخلف ظنونهن ، وفي اليوم التالي لتوليه الخلافة يقرع باب إحدى تلك الدور ، وتُسارع فتاة صغيرة لتفتح الباب ، ولا تكاد ترى أبا بكر رضي الله عنه ، حتى تصيح : جاء حالب الشاة يا أماه .. أتدرون من حالب الشاة ؟ إنه سيدنا الصديق خليفة المسلمين.

لقد وصف الله المؤمنين بأنهم :

وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾

(سورة الحشر)



4 ـ الإيثار في الماء بين الجرحى في المعركة :

وخير ما يجسد الوصف الرباني لعباده المؤمنين ما رواه حذيفة العدوي حيث قال : انطلقت يوم اليرموك ، أطلب ابن عم لي في القتلى ، ومعي شيء من الماء ، وأنا أقول : إن كان به رمقٌ سقيته ، فإذا أنا به بين القتلى ، فقلت له أسقيك ؟ فأشار إلي أن نعم (والجريح يتحرق على شربة ماء كما هو معروف) فسمع رجلاً يقول : آه .. فأشار إلي ابن عمي أن انطلق واسقه ، فإذا هو هشام بن العاص قلت : أسقيك فأشار إليّ أن نعم ، فسمع آخر يقول : آه .. فأشار إلي أن انطلق إليه فجئته فإذا هو قد مات ، فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات ، فرجعت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات " .

هذا هو التطبيق العملي ، وهذه هي الممارسة الفعلية وهذا هو الإسلام في الحياة .

نعمة الأمطار :

1 ـ العادة الدعاء بالسقيا :

جرت العادة أيها الإخوة أن ندعو الله بالسقيا في أيام الشتاء ، ولا سيما في سنوات الجفاف ، ندعوه ، ونبتهل إليه أن يسقينا الغيث ، رحمة بالشيوخ الركع ، وبالأطفال الرضع ، والبهائم الرتع ، وندعوه أن لا يعاملنا بما يفعل السفهاء منا ، وفي السنوات الماضية قلت الأمطار كما تعلمون ، وجفــت بعض الأنهار ، وغارت أكثر الينابيع ، وكاد القنوط يتسلل إلى النفوس ، وأوشك اليأس أن يداخل القلوب .

2 ـ إمساك الله للغيث تأديب العباد :

ويبدو أن الله سبحانه وتعالى ، أراد أن يبين لعباده من خلال الأمطار الغزيرة التي هطلت خلال هذا العام ، أن تقنين السماء ليس تقنين عجز ولكنه تقنين تأديب ، قال تعالى :



﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾

(سورة الشورى)

وقال تعالى :

﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾

(سورة الحجر)

وقال تعالى :

﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾

(سورة الجن)

وقال تعالى :

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾

(سورة الأعراف)

3 ـ وجوب شكر النعم :

فلك الحمد يا ربنا على هذه الأمطار الغزيرة التي تفضلت بها علينا ، لك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً بعدد خلقك ، وبعدد كل نفس من أنفاسهم .

أيها الإخوة من خلال النشرات الرسمية لكميات الأمطار الهاطلة حتى تاريخ الثالث عشر من الشهر الأول لهذا العام الجديد يتضح أن كمية الأمطار الهاطلة في ثماني محافظات ثلاثة أمثال ما هطل حتى التاريخ نفسه في العام الماضي ، وأن نسبة هذه الكميات إلى المعدلات



السنوية بلغت من سبعين إلى ثمانين في المائة في خمس محافظات وأما كميات المياه في بعض السدود بلغت ضعف مخزونها في العام الماضي ، لك الحمد يا رب حمداً طيباً كثيراً مباركاً .

روي أن سعداً رضي الله عنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم سأله أن يدعو له بأن يكون مستجاب الدعوة ، قال له :

((**يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة**)) .

[الطبراني في المعجم الصغير عن ابن عباس]

وحين دعانا ربنا في القرآن الكريم أن ندعوه ذكرنا بأنه لا يحب المعتدين ، أي لا يستجيب دعاءهم ، قال تعالى:

ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾

(سورة الأعراف)

02 - الرحمة

مقدمة بين يدي موضوع الرحمة :

1 ـ الناس رجلان فقط :

أيها الإخوة ، الناس رجلان لا ثالث لهما ، مؤمن تقي كريم على الله ، وفاجر شقي هين على الله ، فمن عرف ربه ، وصحت عقيدته انقاد كلياً لأوامره ونواهيه ، عندها تنعقد الصلة بينه وبين خالقه ، ومن خلال هذه الصلة ، تطهر نفسه من أمراضها وأدرا نها ، وتصطبغ نفسه بالكمال الإنساني ، الذي هو أساس سعادته في الدنيا والآخرة ، فالصلاة نور ، وطهور ، وحبور ، ومن زاغت عقيدته ، ونسي خالقه ، انقاد لهوى نفسه ، فانقطع عن ربه ، وعاش في ظلمات بعضها فوق بعض ، وفي إساءات لنفسه ولمن حوله ، هذه الإساءات تُعد أساساً لشقائه في الدنيا والآخرة ، قال تعالى موضِّحاً المفارقة بين الرجلين :



أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٢١﴾

(سورة الجاثية)

وقال تعالى:

أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ﴿٦١﴾

(سورة القصص)

2-الإيمان حق وضرورة مصيرية :

أيها الإخوة ، الإيمان حق ، وضرورة مصيرية ، لأنه أساس الفضائل ولجام الرذائل ، وقوام الضمائر ، وسند العزائم في الشدائد ، وبلسم الصبر عند المصائب ، وعماد الرضى والقناعة بالحظوظ ، ونور الأمل في الصدور ، وسكن النفس إذا أوحشتها الحياة ، وعزاء القلوب إذا نزل بها الموت ، والعروة الوثقى بين الإنسانية ومُثُلها الكريمة .

ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ، ولكن الإيمان ما وقر في القلب ، وصدقه العمل ، والإيمان معرفة بالقلب ، وقول باللسان ، وعمل بالأركان .

أما المؤمنون فكما وصفهم عليه الصلاة والسلام :

((**المؤمنون بعضهم لبعض نصحةٌ متوادُّون ، ولو ابتعدت منازلهم ، والمنافقون بعضهم لبعض غششةٌ متحاسدون ، ولو اقتربت منازلهم**)) .

[الترغيب والترهيب للمنذري ، وفي إسناده مقال في صحته]

قال الله تعالى :

وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٣﴾

(سورة الأنفال)



3 ـ العلاقة بين المؤمنين أساسها الإحسانُ والمؤاثرةُ :

أيها الإخوة الأكارم ، العلاقة بين المؤمنين أساسها الانضباط ، والإحسان والمؤاثرة ، والعلاقة بين المعرضين أساسها التفلت ، والإساءة ، والأثرة .

وهذا سيدنا جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه يصف مجتمع الجاهلية قبل الإسلام وما فيه من قسوة وكفران ، ويصف مجتمع الإيمان وما فيه من رحمة وعرفان ، قال جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِب : ((**أَيُّهَا الْمَلِكُ ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ ، وَنُسِيئُ الْجِوَارَ ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا ، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ ، وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ ، وَأَمَرَ بِصِدْقِ الْحَدِيثِ ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ ، وَالْكَفِّ عَنْ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ ، وَنَهَانَا عَنْ الْفَوَاحِشِ ، وَقَوْلِ الزُّورِ ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ ، لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ ، وَالزَّكَاةِ ، وَالصِّيَامِ ... فَصَدَّقْنَاهُ ، وَآمَنَّا بِهِ ، وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ ، فَعَبَدْنَا اللَّهَ وَحْدَهُ ، فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا ، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا ، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا ، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا ، فَعَذَّبُونَا ، فَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ ، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنْ الْخَبَائِثِ**)) .

[أحمد في المسند]

شتان بين الجاهلية والإسلام ، وشتان بين الجهل والعرفان ، شتان بين الوثنية والتوحيد ، و شتان بين الانحراف و الاستقامة ، شتان بين الإساءة والإحسان ، وبين الكفر والشكر ، بين التفلت والانضباط ، و بين الغي والرشد ، بين البغي والعدل ، وبين البهيمية والإنسانية ، وبين الشقاء والسعادة ، بين جنة يدوم نعيمها ، و بين نار محرقة تلفح الوجوه ، وتنضج الجلود ، ولا ينفد عذابها .

وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

1 ـ الرحمة هي من آثار انعقاد الصلة بالله :

إخوة الإيمان ، إن من آثار انعقاد الصلة بالله جل وعلا أن يفيض قلب المصلي بالرحمة ، والحنان ، والعطف ، والإحسان على من حوله من الأقارب والأباعد ، فلا تُنزع الرحمة إلا من شقي مقطوع عن الله ، وأبعد القلوب من الله القلب القاسي ، وإن قلب النبي



صلى الله عليه وسلم يفيض رأفة ورحمة لا على الأقارب والأباعد ، بل على الإنسانية جمعاء ، قال الله تعالى :

لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾

(سورة التوبة)

صورٌ من رحمة النبي عليه الصلاة والسلام :

يا إخوة الإيمان ، وهذه صور من رحمته صلى الله عليه وسلم ، تؤكد هذه الصور أن الإيمان بالله والاتصال به يطهر النفس من أدرانها ، ويسمو بها إلى أعلى مراتب الكمال الإنساني :

الصورة الأولى : مع أبناء جعفر بن أبي طالب :

لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم مصرع سيدنا جعفر بن أبي طالب وصاحبيه ، في معركة مؤتة ، وكان قد أبلى فيها بلاء حسناً ، حزن عليه أشد الحزن ، وانطلق بنفسه وهو قمة المجتمع الإسلامي إلى بيت جعفر ليخفف وقع المصاب على أهله وأولاده ، فألفى زوجته تتأهب لاستقبال زوجها الغائب ، فهي قد عجنت عجينها ، وغسَّلت بنِّيها ، ودهنتهم وألبستهم ، قالت أسماء زوجة جعفر : فلما أقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وجدت غلالة من الحزن توشح وجهه الكريم ، فسَرَتِ المخاوف في نفسي ، غير أني لم أشأ أن أسأله عن جعفر مخافة أن أسمع منه ما أكره ، وقال : ائتني بأولاد جعفر ، فدعوتهم له ، فهبوا نحوه فرحين ، مزغردين ، وأخذوا يتزاحمون عليه ، كلٌ يريد أن يستأثر به ، فأكبَّ عليهم ، وجعل يقبلهم ، ويتشمَّمهم ، وعيناه تذرفان من الدمع ، فقالت زوجة جعفر : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما يبكيك ؟ أبلغك عن جعفر وصاحبيه شيء ؟ قال : نعم ، لقد استشهدوا هذا اليوم ، عندئذ غاصت البسمة من وجوه الصغار لما سمعوا أمهم تجهش بالبكاء ، وجمدوا في أماكنهم ، كأن على رؤوسهم الطير ،



أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يكفكف عبراته وهو يقول : ((**اللَّهُمَّ اخْلُفْ جَعْفَرًا فِي وَلَدِهِ**)) .

[أحمد]

هذه الرحمة التي يفيض بها قلب المصلي ليست رحمة خاصة تقتصر على الأقارب والأصحاب ، ولكنها رحمة عامة تشمل الأباعد ، بل والأعداء ، قال الله تعالى :

وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾

(سورة فصلت)

وقد قال عليه الصلاة والسلام : ((**أمرني ربي بتسع : خشية الله في السر والعلانية ، كلمة العدل في الغضب والرضى ، القصد في الفقر والغنى ، وأن أصل من قطعني ، وأعفو عمن ظلمني ، وأعطي من حرمني ، وأن يكون صمتي فكراً ونطقي ذكراً ، ونظري عبرةً**)) .

[ورد في الأثر]

الصورة الثانية : مع ثمامة بن آثال :

أيها الإخوة الأكارم ، هذه صورة أخرى من صور الرحمة التي فاض بها قلب النبي صلى الله عليه وسلم ، والتي تمثلت بعفوه عن ثمامة بن آثال الحنفي .. فمن ثمامة ؟ ثمامة بن آثال سيد من سادات بني حنيفة المعدودين ، تلقى رسالة النبي صلى الله عليه وسلم بالزراية والإعراض ، وأخذته العزة بالإثم ، فأصم أذنيه عن سماع دعوة الحق والخير ، وقد ظفر بعدد من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورضي الله عنهم ، وقتلهم شر قتله ، وكانت سرية من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم تجوس خلال الديار ، وكان ثمامة في طريقه إلى مكة ، فوقع في أسر هذه السرية ، وهي لا تعرفه ، وأتت به إلى المدينة ، وشدَّته إلى سارية من سواري المسجد ، منتظرة أن يقف النبي الكريم صلى الله عليه وسلم بنفسه على شأن هذا الأسير ، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْلًا قِبَلَ نَجْدٍ فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ يُقَالُ لَهُ : ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ ، فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ :



((مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ ؟ فَقَالَ : عِنْدِي خَيْرٌ يَا مُحَمَّدُ ، إِنْ تَقْتُلْنِي تَقْتُلْ ذَا دَمٍ ، وَإِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ مِنْهُ مَا شِئْتَ فَتُرِكَ حَتَّى كَانَ الْغَدُ ثُمَّ قَالَ لَهُ مَا عِ نْدَكَ يَا ثُمَامَةُ ؟ قَالَ : مَا قُلْتُ لَكَ ، إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ ، فَتَرَكَهُ حَتَّى كَانَ بَعْدَ الْغَدِ فَقَالَ : مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ ؟ فَقَالَ : عِنْدِي مَا قُلْتُ لَكَ ، فَقَالَ : أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ ، فَانْطَلَقَ إِلَى نَجْلٍ قَرِيبٍ مِنْ الْمَسْجِدِ فَاغْتَسَلَ ، ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ ، فَقَالَ : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، يَا مُحَمَّدُ ، وَاللَّهِ مَا كَانَ عَلَى الْأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ إِلَيَّ ، وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيَّ ، وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ ا لْبِلَادِ إِلَيَّ ، وَإِنَّ خَيْلَكَ أَخَذَتْنِي وَأَنَا أُرِيدُ الْعُمْرَةَ ، فَمَاذَا تَرَى ؟ فَبَشَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّ مَ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ ، فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ قَالَ لَهُ قَائِلٌ : صَبَوْتَ ، قَالَ : لَا ، وَلَكِنْ أَسْلَمْتُ مَعَ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَا وَاللَّهِ لَا يَأْتِيكُمْ مِنْ الْيَمَامَةِ حَبَّةُ حِنْطَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)) .

[متفق عليه]

الصورة الثالثة : مع الأنصار في حزنهم على الغنائم يوم حنين :

وهذه الرحمة التي يفيض بها قلب المصلي ، والتي تمثلت بالحزن والبكاء تارةً ، وبالعفو والصفح تارةً أخرى ، هذه هي الرحمة نفسها تتمثل بهذا الموقف الذي وقفه النبي صلى الله عليه وسلم من الأنصار ، يوم وجدوا عليه في أنفسهم ، وقد أترع هذا الموقف وفاءً ، ورقة ، واعترافا بالجميل ، وحكمة في تصريف الأمور ، وتأليف القلوب ، واستئصال الضغائن ، وإشاعة المودة والمحبة ، ما هذا الموقف ؟

حين انتهى المسلمون من غزوة حنين ، راح رسول الله صلى الله عليه وسلم يوزع غنائمها على المسلمين ، واهتم يومئذ اهتماماً خاصاً بالمؤلفة قلوبهم ، وذوي الحاجة من المسلمين ، أما أولو الإسلام المكين فقد وكلهم إلى إسلامهم ، ولم يعطهم من غنائم هذه الغزوة شيئاً ، وكان عطاء رسول الله صلى الله عليه وسلم شرفاً يحرص عليه جميع الناس ، وقد تساءل الأنصار في مرارة : لِمَ لم يعطهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حظهم من الفيء والغنيمة ، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ :

((لَمَّا أَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَعْطَى مِنْ تِلْكَ الْعَطَايَا فِي قُرَيْشٍ وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ ، وَجَدَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى كَثُرَتْ فِيهِمْ الْقَالَةُ ، حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ : لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْمَهُ ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ



سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ هَذَا الْحَيَّ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أَنْفُسِهِمْ لِمَا صَنَعْتَ فِي هَذَا الْفَيْءِ الَّذِي أَصَبْتَ ، قَسَمْتَ فِي قَوْمِكَ ، وَأَعْطَيْتَ عَطَايَا عِظَامًا فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ ، وَ لَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنْ الْأَنْصَارِ شَيْءٌ ، قَالَ : فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ ؟ ــ يعني هل أنت مع قومك ؟ ــ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا أَنَا إِلَّا امْرُؤٌ مِنْ قَوْمِي ، قَالَ : فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الْحَظِيرَةِ ، قَالَ : فَخَرَجَ سَعْدٌ فَجَمَعَ النَّاسَ فِي تِلْكَ الْحَظِيرَةِ ، قَالَ : فَجَاءَ رِجَالٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ فَتَرَكَهُمْ فَدَخَلُوا ، وَجَاءَ آخَرُونَ فَرَدَّهُمْ ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا أَتَاهُ سَعْدٌ فَقَالَ : قَدْ اجْتَمَعَ لَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ الْأَنْصَارِ ، قَالَ : فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَحَمِدَ اللَّهَ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ ، ثُمَّ قَالَ : يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ، مَا قَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ ، وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ ، أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ ؟ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ ؟ وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ؟ قَالُوا : بَلْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ وَأَفْضَلُ ، قَالَ : أَلَا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ؟ قَالُوا وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ وَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ ، قَالَ : أَمَا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ ، وَصُدِّقْتُمْ ، أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ ، وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاكَ ، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ ، وَعَائِلًا فَأَغْنَيْنَاكَ ، أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ مِنْ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا ، وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ ، أَفَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ ، وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رِحَالِكُمْ ؟ فَوَ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنْ الْأَنْصَارِ ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا ، وَسَلَكَتْ الْأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ ، اللَّهُمَّ ارْحَمْ الْأَنْصَارَ ، وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ ، قَالَ : فَبَكَى الْقَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ ، وَقَالُوا : رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قِسْمًا وَحَظًّا ، ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَفَرَّقْنَا)) .

إخوة الإيمان أرأيتم كيف أن الإنسان إذا عرف ربه ، واستقام على أمره ، وأقبل عليه سعد بقربه ، وصغرت الدنيا في عينيه ، وانتقلت من قلبه إلى يديه ، وحينما يتصل الإنسان بالله رب العالمين ، مصدر الحق والخير والجمال ، فإنه يهتدي قلبه ، ويصلح عمله ، وتسعد نفسه ، وأنه حينما تنعقد الصلة بخالقه يفيض قلبه رحمة وحناناً ، وعطفاً وإحساناً ، وعفواً وتسامحاً ، ووفاءً ورقةً ، ومودةً ومحبةً ، قال الله تعالى :

فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾

(سورة طه)



وقال تعالى :

﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٣٨)

(سورة البقرة)

ما أحوجنا إلى اتباع الهدى ، كي لا نحزن على ما كان ، ولا نخشى ما سيكون ، ولا تضل عقولنا في متاهات الوهم ، ولا تشقى أنفسنا في وحول الشهوة وجفوة البعد .

أيها الإخوة ، حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزِنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم ، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا ، وسيتخطى غيرنا إلينا ، فلنتخذ حذرنا ، فالكيس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأماني .

كيف يعرف المرء ربه وهو لا يراه ؟

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((**مَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ ، وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنْ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ**)) . [الترمذي]

وكل مخلوق يموت ، ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت ، والليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال فلا بد من نزول القبر . .

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمولُ
فإذا حملت إلى القبور جنــازة فاعلم بأنك بعدها محمـــولُ

أيها الإخوة الكرام ، كأني بأحد الحاضرين أو المستمعين ، يسألني هذا السؤال ، قلتَ في مطلع هذه الخطبة ، إن الإنسان لا يسعد في دنياه وأخراه إلا إذا اتصل بربه وأقبل عليه ، وقد بينت لنا صوراً من آثار انعقاد الصلة بالله ، وقلتَ : إن هذه الصلة لا تكون إلا إذا استقامت جوارح الإنسان ، وصلح عمله ، وهذه الاستقامة الخالصة ، وذاك العمل الصالح ، لا يكونان إلا إذا عرف الإنسان ربه ، وصحت عقيدته ، أما السؤال ، فكيف يعرف المرء ربه وهو لا يراه ؟

وفي الجواب عن هذا السؤال أقول :



الكون ينطق بعظمة الله :

أيها الإخوة ، السماوات بمجراتها وكازاراتها ، ونجومها وكواكبها ، وبروجها ومذنباتها ، وشموسها وأقمارها ، والأرض بجبالها وسهولها ، وبحارها وأنهارها ، وأسماكها وأطيارها، ونباتاتها وأزهارها ، وحيواناتها ومخلوقاتها ، وليلها ونهارها ، وشمسها وقمرها ، والإنسان بخلقه ، وطباعه ، وبنيته وأعضائه وزوجته وأولاده ، كلها آيات دالَّةٌ على الله ، مشيرة إليه ، وناطقة لكمالاته ، مجسدة لأسمائه وصفاته ، فالخلق يدل على الخالق ، والصنعة تدل على الصانع ، والنظام يدل على المنظم ، والتسيير يدل على المسير ، والأقدام تدل على المسير ، والماء يدل على الغدير ، أفسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، ألا تدلان على الحكيم الخبير ؟

سل الواحة الخضراء والماء جاريـــا	هذي الصحارى والجبال الرواسيا
سل الروض مزدانا سل الزهر والندى	سل الليل والإصباح والطير شاديا
وسل هذه الأنسام والأرض والسمـــا	وسل كل شيء تسمع الحمد ساريا

***

الشمس والبدر من أنوار حكمــتــــه	والبر والبحر فيض من عطايــاه
فالطير سبحه والـــزرع قدســــه	و الموج كبره والحوت ناجـــاه
و النمل تحت الصخور الصم مجـــده	و النحل يهتف حمدا في خلايــاه
رب السماء و رب الأرض قد خضعت	إنـــس وجن و أملاك لعليـــاه
الناس يعصونه جهــراً فيسترهـــم	والعبد ينسى وربي ليس ينســاه



أيها الإخوة ، قال تعالى :

قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ
فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا
شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ
طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ﴿٢٦﴾
فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ﴿٢٨﴾ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ﴿٢٩﴾
وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ﴿٣١﴾

(سورة عبس)

وقال تعالى :

قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ
لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠١﴾

(سورة يونس)

الشمس آية عظيمة :

1 ـ بُعد الشمس عن الأرض :

و ها نحن أولاء يا رب ، ننظر كما أمرتنا ، في آيةٍ من آيات السماوات والأرض ألا وهي الشمس ، فالشمس آية ساطعة دالةٌ على الله كسطوعها ، وهي نجم متوسط الحجم إذا قِيست بالنجوم الأخرى ، ومع أنها تكبر الأرض بمليون وثلاثمائة ألف مرة حجماً ، وتبعد عنها مائة وخمسين مليون كيلو متر وسطياً ، ويقطع ضوء الشمس هذه المسافة في ثماني دقائق .



وهناك نجوم يزيد حجم أحدها على حجم الشمس والأرض مع المسافة بينهما .

2 ــ حرارة الشمس :

وأما عن حرارتها فهي تصل إلى عشرين مليون درجة في مركزها ، فلو ألقيت الأرض في جوف الشمس لتبخرت في وقت قصير ، ويزيد طول ألسنة اللهب المنطلقة من سطحها على نصف مليون كيلو متر ، وتنتج الشمس من الطاقة في كل ثانية ما يعادل إحراق ألفي مليار طن من الفحم الحجري في كل ثانية ، وتفقد الشمس في كل يوم من كتلتها ما يعادل ثلاثمائة وستين ألف مليون طن .

3 ــ اطمئنوا فلن تنطفئ الشمس إلا إذا قامت الساعة :

ويظن علماء الفلك أنه مضى على اتقادها ما يزيد على خمسة آلاف مليون عام ، وهم يطمئنون الناس إلى أن الشمس لن تنطفئ قبـــل خمسة آلاف مليون عام أخرى فاطمئنوا .

ولو انطفأت الشمس فجأةً لغرقت الأرض في ظلام دامس ، ولهبطت درجة الحرارة فيها إلى ثلاثمائة وخمسين درجة تحت الصفر ، ولتحولت الأرض إلى قبر جليدي ، وانعدام الدفء والنور كافيان لقتل كل مظهر من مظاهر الحياة على سطح الأرض .

سل الشمس من رفعها ناراً ، ونصبها مناراً ، وضربها ديناراً ، ومن علقها في الجو ساعة يدب عقرباها في الجو إلى قيام الساعة ، ومن الذي آتاها معراجها ، وهداها أدراجها ، وأحلها أبراجها ، ونقَّل في سماء الدنيا سراجها ؟

الزمان هي سبب حصوله ، ومنشعب فروعه وأصوله ، وكتابه بأجزائه وفصوله ، لولاها ما اتسقت أيامه ، ولا انتظمت شهوره وأعوامه ، ولا اختلف نوره وظلامه ، ذهبُ الأصيل من مناجمها ، والشفق يسيل من محاجمها ، تحطمت القرون على قرنها ، ولم يمح التقادم لمحة حسنها .

قال تعالى :

وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ

(سورة فصلت : من الآية 37)



وقال تعالى :

وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ

(سورة إبراهيم : من الآية 33)

وقال تعالى :

وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾

(سورة يس : الآية 38)

لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ
وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾

(سورة فصلت)

ها نحن أولاء يا رب نسبح بحمدك ، ونقدس لك ، ونسجد لعظمتك .
اللهم أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم ، ومن جفوة البعد إلى جنة القرب ، لقد صدق الله العظيم حينما قال :

وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا
وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ

(سورة يوسف)

ولقد صدق الله العظيم حينما قال :

إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟

(سورة فاطر : من الآية 28)



03 - العفو

العفو :

1 ــ الله عفوٌّ :

أيها الإخوة المؤمنون في دنيا العروبة والإسلام ، الله جل في علاه عفوٌّ غفور ، يعفو عن السيئات ، ويعفو عن كثير فإذا تاب العبد توبة نصوحاً ، أنسى الله حافظيه ، وجوارحه ، وبقاع الأرض كلها خطاياه وذنوبه ، فالعفو أبلغ من المغفرة ، لأن الغفران يُشعر بالستر ، بينما العفو يشعر بالمحو ، والمحو أبلغ من الستر .

2 ــ الله يأمر نبيَّه بالعفو :

وقد أمر الحق جلَّ وعلا نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم بالعفو والصفح ، فقال تعالى :

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وقال أيضاً :

﴿ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ ﴾

(سورة الحجر)

وقد فهم النبي صلى الله عليه وسلم العفو بأن تعطي من حرمك ، وتصل من قطعك وتعفو عمن ظلمك .



3 ـ الله يأمر المؤمنين بالعفو :

وقد أمر الله المؤمنين ، بما أمر به المرسلين ، فقال جل من قائل :

فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٠٩﴾

(سورة البقرة : 109)

وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾

(سورة النور : 22)

4 ـ لماذا يعفو أناس وينتقم آخرون ؟ :

ولكن لماذا يعفو أناس وينتقم آخرون ؟ ..

إذا اتصل الإنسان بالله العفو الكريم ، يشتق منه بعضاً من هذا الخلق العظيم .

وإذا استقرت الرحمة في قلب الإنسان فإنها تفيض حتى على خصومه بالعفو والغفران ، فيصبح العفو أحب إليه من الانتقام .

وإذا علم الإنسان ، أن خصمه بشكل أو بآخر أخ له في الإنسانية ، فإذا انتقم منه خسره ، وإذا عفا عنه ربحه ، ولأن يربح الإنسان أخاه خير له من الدنيا ، وما فيها ، وعندئذ يرى في العفو غنماً ، وفي الانتقام غرماً .

وإذا أيقن الإنسان أن العفو سلمٌ يرقى به إلى عزّ الدنيا والآخرة ، وأن الانتقام دركات يهوي بها إلى ذلٍّ ومقت يلاحقانه حتى الممات ، آثر العفو على الانتقام .



وإذا علم أبناء المجتمع الواحد ، أنه بالعفو تتسع دائرة الصداقات والمودات ، فيصبح المجتمع كالبنيان المرصوص ، يشد بعضه بعضاً وبالانتقام تفشو العداوات ، والأحقاد ، حتى تصل بالمجتمع إلى أحط الدركات ، صار العفو ديدنهم .

مع النبي صلى الله عليه وسلم في عفوه الجماعي عن الناس :

وتعالوا بنا إلى المصطفى صلى الله عليه وسلم أسوتنا الحسنة ، وقدوتنا الصالحة ، ومثلنا الأعلى ، الذي بعثه الله معلماً للبشرية ، ورحمة للإنسانية .

1 ـ عفوه عن المشركين لمّا دخل مكة عام الفتح :

تعالوا بنا لنرى نبينا الأكرم ، ومعلمنا الأعظم ، وهو يدخل مكة فاتحاً ، وهي التي ائتمرت على قتله ، و أخرجته ، و عذبت أصحابه ، ونكَّلت بهم ، وقاطعته ، و كذبته ، وقاتلته في بدر ، وأحد ، والخندق ، وألَّبت عليه العرب جميعاً .

لقد ألقى أهلها كل سلاح ، ومدوا إليه أعناقهم ، ليحكم فيها بما يرى إنهم الآن في قبضته ، فأمره نافذ في رقابهم ، وحياتهم جميعاً معلقة بين شفتيه ، وهذه عشرة آلاف سيف تتوهج يوم الفتح ، فوق ربى مكة ، تأتمر بأمره وتنتظر إشارة منه ، إنها تستطيع أن تبيد مكة وأهلها في لمح البصر .

لقد دخلها يوم الفتح الأعظم ، دخول المتأدبين الشاكرين ، معترفاً بعظم الفضل ، ولم يدخلها دخول المتكبرين المتجبرين ، ثملاً بنشوة النصر .

لقد سار النبي صلى الله عليه وسلم في موكب النصر يوم فتح مكة حانياً رأسه ، حتى تعذر على الناس رؤية وجهه ، وحتى كادت ذؤابة عمامته تلامس عنق بعيره ، مردداً ، بينه وبين نفسه ، ابتهالات الشكر المبللة بالدموع .

سأل أعداءه بعد أن استقر به المقام : يا معشر قريش ، ويا أهل مكة فاشرأبت إليه الأعناق ، وزاغت عند سؤاله الأبصار ، سألهم : ما تظنون أني فاعل بكم ؟

وصاحت الجموع الوجلة بكلمة واحدة ، كأنما كانوا على اتفاق بترديدها ، قالوا : خيراً .. أخ كريم وابن أخ كريم .. فقال :



((**اذهبوا فأنتم الطلقاء**)) .

[السيرة النبوية]

لقد غُمر المذنبون الذين كانوا ينتظرون القصاص ، ويستحقونه بأنبل عفو ، وأجمل صفح ، حتى قال أبو سفيان الذي ناصب رسول الله صلى الله عليه وسلم العداء أعواماً طويلة : << بأبي أنت وأمي يا رسول الله .. ما أرحمك ، وما أحلمك ، وما أحكمك ، وما أوصلك ، وما أكرمك >> .

ويا سيدي ، يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما أجمل عفوك عند المقدرة ، ما أعظم نفسك التي سمت كل هذا السموّ ، فارتفعت فوق الحقد ، وفوق الانتقام ، لقد ترفعت عن كل عاطفة دنيا ، وبلغت من النبل فوق ما يبلغ الإنسان ، لم تكن تعرف العداوة .. بل لم تكن تريد أن تقوم بين الناس ، لقد مكنك الله من عدوك ، فقدرت ، وعفوت فضربت بذلك للعالم كله ولأجياله مثلاً أعلى في العفو والصفح ، فلم تجعل من يوم فتح مكة يوم تشفٍّ ، ولا انتقام ، بل جعلته يوم برٍّ ، ورحمة وإحسان .

2 ــ عفوه أهل الطائف :

وعفوه صلى الله عليه وسلم عن أهل مكة ، يذكرنا بعفوه عن أهل الطائف الذين كذبوه أشد التكذيب ، واستخفوا بدعوته ، واستهزؤوا بها ، بل أغروا به سفهاءهم ، وصبيانهم .. ((**لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ ، وكانَ أَشَدُّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَاليِلَ بْنِ عَبْدِ كُلاَلٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي ، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلاَّ وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي ، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ ، فَنَادَانِي فَقَالَ : إِنَّ الله قَدْ سَمِعَ كَلاَمَ قَوْمِكَ لَكَ ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِم ، فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ ، ثُمَّ قالَ : يَا مُحَمَّدُ ، فَقَالَ : فَمَا شِئْتَ ؟ إِنْ شِئْتَ أُطْبِقُ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ ، قُلْتُ : بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ الله مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ الله وَحْدَهُ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً**)) .

[الحاكم عن عائشة]

((**اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون**)) .

[الجامع الصغير ، وفي سنده ضعف]



لم يتخل عن قومه ، وقد عفا عنهم ، والتمس لهم العذر ، وتوسم بأبنائهم الخير ، هذا عن عفوه الجماعي ، فماذا عن عفوه الفردي ؟..

مع النبي صلى الله عليه وسلم في عفوه عن أفراد الناس :

1 ـ عفوُه عن صفوان بن أمية :

يتجلى عفوه الفردي بالصفح عن نفر من المشركين بالغوا في عداوتهم ، وأذيتهم ، ويوم فتح مكة ، ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وهاموا على وجوههم ، ومن هؤلاء : صفوان بن أمية ، الذي شدَّ رحاله صوب جدة ، ليبحر منها إلى اليمن ، واشتد إشفاق عمير بن وهب على صديقه صفوان ، وصمم أن يسترده من يد الشيطان ، بكل وسيلة ، وذهب مُسرعاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : يا نبي الله ، إن صفوان بن أمية سيد قومه ، وقد خرج هارباً منك ، ليقذف نفسه في البحر ، فأمَّنه صلى الله عليك ، وقال : هو آمن .. " قال : يا رسول الله ، أعطني آية يعرف بها أمانك ، فأعطاه الرسول صلى الله عليه وسلم عمامته ، التي دخل بها مكة ، فخرج بها عمير ح تى أدركه ، وهو يريد أن يركب البحر فقال : يا صفوان ، فداك أبي وأمي .. الله اللهَ في نفسك أن تهلكها ، هذا أمان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد جئتك به ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل الناس ، وأبرُّ الناس ، وأحلم الناس ، عزّه عزُّك ، وشرفه شرفك ، قال صفوان : إني أخاف على نفسي ، قال : هو أحلم من ذلك وأكرم ، فرجع معه ، حتى دخل به على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال صفوان لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن هذا يزعم أنك أمَّنتني ، فقال صلى الله عليه وسلم : " صدق " قال صفوان : فاجعلني في الخيار شهرين ، فقال صلى الله عليه وسلم : " أنت في الخيار أربعة أشهر " ، وفيما بعد أسلم صفوان .

2 ـ عفوُه عن أعرابي غليظ الطباع :

لقد عفا رسول الله عن الكبراء ، وعن الدهماء ، فقد روي أن أعرابياً جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلب منه شيئاً ، فأعطاه ثم قال له : " هل أحسنت إليك ؟ " قال



الأعرابي : لا ولا أجملت ، فغضب المسلمون وقاموا إليه ، فأشار إليهم أن كفوا ، ثم قام ، ودخل منزله ، فأرسل إليه وزاده شيئاً ، ثم قال له : " أحسنت إليك ؟ " قال : نعم ، فجزاك الله من أهلٍ وعشيرة خيراً ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم :

((**إنك قلت ما قلت آنفاً ، وفي نفس أصحابي من ذلك شيء ، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب ما في صدورهم عليك ، قال : نعم ، فلما كان الغد ، جاء فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن هذا الأعرابي ، قال ما قال ، فزدناه ، فزعم أنه رضي أكذلك " ؟ قال : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً**)) ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

((**مثلي ومثل هذا كمثل رجل له ناقة شردت عليه ، فاتَّبعها الناس ، فلم يزيدوها إلا نفوراً ، فناداهم صاحبها ، فقال لهم : خلوا بيني وبين ناقتي ، فإني أرفق بها منكم وأعلم ، فتوجه لها بين يديها فأخذ من قمام الأرض فردها حتى جاءت واستناخت ، وشد عليهـــا رحلها ، واستوى عليها ، وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار**)) .

[تخريج أحاديث الإحياء للعراقي]

إن الرسول الحليم صلى الله عليه وسلم لم تأخذه الدهشة لجحود الأعرابي أول الأمر ، وعرف فيه طبيعة صنف من الناس مردوا على الجفوة في التعبير ، والإسراع بالشر ، وأمثال هؤلاء لو عوجلوا بالعقوبة لقضت عليهم ، ولَمَا كانت ظلماً ، ولكن العظماء أصحاب القلوب الكبيرة لا ينتهون بمصائر العامة إلى هذا الختام الأليم ، إنهم يفيضون من رحمتهم وحلمهم على ذوي النزق ، حتى يلجئوهم إلى الخير إلجاء ، إن هذا ، الأعرابي الذي اشترى النبي الكريم صلى الله عليه وسلم رضاه بهذا المال ، لا يبعد أن تراه بعد أيام ، وقد كُلِّف بعمل خطير ، أن يقدّم فيه الغالي والرخيص عن طيب خاطر ، وما المال إلا قمام الأرض تُستناخ به الرواحل الجامحة ، لتقطع عليها المفازات الشاسعة .

روى الإمام مسلم عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ :

((**مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ ، وَلَا امْرَأَةً ، وَلَا خَادِمًا ، إِلَّ ا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ ، إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللَّهِ فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ**)) .

[مسلم]

وقد أثر عنه صلى الله عليه وسلم أنه لم ينتقم من أحد لنفسه قط .



العفو عند الصحابة :

وقد تخلق الصحب الكرام ، بأخلاق نبيهم العدنان في العفو والصفح ، فقد روى البخاري عن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : << قَدِمَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنِ بْنِ حُذَيْفَةَ ، فَنَزَلَ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ الْحُرِّ بْنِ قَيْسٍ ، وَكَانَ مِنْ النَّفَرِ الَّذِينَ يُدْنِيهِمْ عُمَرُ ، وَكَانَ الْقُرَّاءُ أَصْحَابَ مَجَالِسِ عُمَرَ وَمُشَاوَرَتِهِ ، كُهُولًا كَانُوا أَوْ شُبَّانًا ، فَقَالَ عُيَيْنَةُ لِابْنِ أَخِيهِ : يَا ابْنَ أَخِي ، هَلْ لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذَا الْأَمِيرِ فَاسْتَأْذِنْ لِي عَلَيْهِ ، قَالَ : سَأَسْتَأْذِنُ لَكَ عَلَيْهِ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : فَاسْتَأْذَنَ الْحُرُّ لِعُيَيْنَةَ ، فَأَذِنَ لَهُ عُمَرُ ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ : هِيْ ، يَا ابْنَ الْخَطَّابِ ، فَوَاللَّهِ مَا تُعْطِينَا الْجَزْلَ ، وَلَا تَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالْعَدْلِ ، فَغَضِبَ عُمَرُ حَتَّى هَمَّ أَنْ يُوقِعَ بِهِ ، فَقَالَ لَهُ الْحُرُّ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنْ الْجَاهِلِ ينَ ﴾ ، وَإِنَّ هَذَا مِنْ الْجَاهِلِينَ ، وَاللَّهِ مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حِينَ تَلَاهَا عَلَيْهِ ، وَكَانَ وَقَّافًا عِنْدَ كِتَا ب اللَّهِ >> .

[البخاري]

من ثمار العفو :

1 ــ الأمن :

أورد السيوطي في الجامع الصغير حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

((**من كظم غيظا وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمنا وإيمانا**)) .

[ابن أبى الدنيا عن أبى هريرة]

انظروا إلى ثمار العفو التي نوّه بها النبي صلى الله عليه وسلم ، إنها الأمن والإيمان ، الأمن مع الخَلْق ، والإيمان مع الحق .

فهذا الذي يؤثر الانتقام على العفو يجعل الجو المحيط به ضاغطاً ، وعلاقاته مع الآخرين متوترة ، ويكون انتقامه تربة خصبة لانتقام مضاد فيتوقع المنتقم الشر ، وتوقُّع الشر شرٌّ من وقوعه ، وهكذا يفقد المنتقم الأمن ، وبفقد الأمن يفقد أثمن ما في الحياة النفسية ، قال تعالى :



وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ

(سورة الأنعام)

أما إذا آثر الرجل العفو على الانتقام ، فقد جعل الجو المحيط به ودياً وجعل علاقاته بالآخرين مريحة ، وجعل من أعدائه الألداء أصدقاء حميمين ، قال تعالى :

ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ

فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾

) سور فصلت 34(

2 ـــ الإيمان :

هذا عن الأمن أول ثمرة من ثمار العفو .. فماذا عن ثمرة الإيمان ؟

إن الإنسان إذا عفا عن أخيه كان أقرب إلى ربه مما لو انتقم منه ، لأن الخلق كلهم عيال الله ، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله ، وفي الحديث القدسي :

((**وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ**)) .

[رواه البخاري عن أسامة بن زيد]

إذا كانت إماطة الأذى عن الطريق شعبة من شعب الإيمان ، فما بالك بالعفو عن إنسان ، حيث بالعفو عنه يبدل خوفه أمناً ، وضيقه فرجاً ويأسه أملاً ..

إن العفو يدل على الإيمان ويؤكده ، ويزيد فيه ويجدده ، فالإنسان بنيان الله ، وملعون من هدم بنيان الله .

3 ـــ العفو عن المخطئ طريق لتوبته :

حينما تصح التوبة ، ويتحقق الندم ، وتصدق العزيمة على ترك الذنب ، عندئذ يصبح العفو حياة للمذنب ، كما كان القصاص حياة للمجتمع ، ويغدو العفو فرصة ثمينة ينالها



المذنب ، ليؤكد صحة توبته ، وعظيم ندمه ، وصدق عزيمته على ترك ما اقترفت يداه من الذنوب ، وليؤكد أيضاً الجانب الخير في الإنسان ، وربما أصبح المذنب الذي عُفي عنه علماً من أعلام الأمة ، ومصلحاً من كبار مصلحيها ، وقائداً فذاً من قادتها ، والتاريخ الإسلامي حافل بمثل أولئك المذنبين ، عفي عنهم ، فصاروا من قادتها الأبطال ، وعلمائها الأعلام ، وأوليائها المقربين ، كعكرمة بن أبي جهل ، وصفوان.

هذا ما فعله النبي عليه الصلاة والسلام مع عكرمة بن أبي جهل :

عكرمة بن أبي جهل ، الذي عادى النبي صلى الله عليه وسلم أشدَّ العداء ، وآذى أصحابه أفدح الإيذاء ، وهو أحد صناديد قريش المعدودين ، وأبرز فرسانها المرموقين ، وهو ابن أبي جهل ، جبَّار مكة الأول ، وزعيم الشرك الأكبر ، لم يكتف النبي صلى الله عليه وسلم بالعفو عنه ، بل وجه أصحابه قائلاً :

((**سيأتيكم عكرمة بن أبي جهل مؤمناً مهاجراً ، فلا تسبُّوا أباه ، فإن سبَّ الميت يؤذي الحي ، ولا يبلغ الميت**)) .

[كنز العمال عن عبد الله بن الزبير]

وقد عاهد عكرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلاً : لا أدع نفقة كنت أنفقتها في الصدِّ عن سبيل الله ، إلا أنفقت ضعفها في سبيل الله ، ولا قتالاً قاتلته صداً عن سبيل الله ، إلا قاتلتُ ضعفه في سبيل الله .

وفي اليرموك لما اشتدَّ الكرب على المسلمين نزل عن جواده ، وكسر عمد سيفه ، وأوغل في صفوف الروم ، فبادر إليه خالد بن الوليد ، وقال : لا تفعل يا عكرمة ، فإن قتلك سيكون شديداً على المسلمين ، فقال : إليك عني يا خالد ، لقد كان لك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سابقة ، أما أنا وأبي فقد كنَّا من أشد الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعني أكفِّر عما سلف مني .. لقد قاتلت رسول الله صلى الله عليه وسلم في مواطن كثيرة ، وأفرُّ من الروم اليوم ، إن هذا لن يكون أبداً ..



العفو ليس حصناً يحمي المجرمين :

إن الآيات الكريمة ، والأحاديث الشريفة الصحيحة التي تحضُّ على العفو لا تعني ، ولا تريد أن يكون العفو مرتعاً للمجرمين يسرحون ، ويمرحون في رحابه ، ولا تعني ، ولا تريد أن يكون العفو حصناً لهم يحميهم من حكم العدالة فيهم ، ولا تعني ، ولا تريد أن يكون العفو منطلقاً جديداً للعدوان على دماء المسلمين ، وأموالهم وأعراضهم قال تعالى :

وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾

(سورة البقرة : 179)

كان أبو عزَّة الجمحي الشاعر من أسارى بدر ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد حدد مبلغ أربعة آلاف درهم فداءً لكل أسير ، فكلم أبو عزَّة رسول الله صلى ا لله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ، لقد عرفتَ ما لي من مال ، وإني لذو حاجة ، وذو عيال ، فامنن عليَّ ، فمنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه ، وأخذ عليه العهد ألا يظاهر عليه أحداً ، لكنه نقض العهد ، وعاد إلى ما كان عليه من سب النبي صلى الله عليه وسلم ، وهجاء أصحابه ، وحضِّ الناس على قتاله ، وفي يوم أحد ظفر به النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله لا تقتلني ، وامنن عليَّ ، ودعني لبناتي ، وأعاهدك ألا أعود ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم :

((أين مَا أَعْطَيْتَنِي مِنْ الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ ؟ وَ اَللَّهِ لَا تَمْسَحُ عارضيك بمكة تَقُولُ : سَخِرْتَ بِمُحَمَّدٍ مَرَّتَيْن ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يُلْدَغُ من حجر مَرَّتَيْنِ)) .

[البيهقي عن سعيد بن المسيب]

ولم يعف عنه .

لهذا ليس من العفو أن نستسلم لعدو غاصب ، سلب الأرض ، وانتهك الحرمات ، وأفسد العقائد ، وأفرغ القيم ، وزوَّر التاريخ ، فالمؤمنون الصادقون إذا أصابهم البغي هم ينتصرون ، فبوركت سواعدكم يا أخوتنا في الأراضي المحتلة ، لقد لقنتم العدو المغتصب درساً لا يُنسى في التضحية والفداء .



الخطبة الثانية : الصلح بين ذات البين :

الله يأمرنا بإصلاح ذات البين :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

((بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم جالس، إذ رأيناه ضحك ، حتى بدت ثناياه ، فقيل له : مم تضحك يا رسول الله ؟ قال : " رجلان من أمتي جثيا بين يدي ربي عز وجل ، فقال أحدهما : خذ لي مظلمتي من أخي ، فقال الله تعالى : أعط أخاك مظلمته .. فقال : يا رب إنه لم يبقَ من حسناتي شيء ، فقال صاحبه : يا رب فليحمل من أوزاري ، ففاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدموع ، ثم قال : إن ذلك اليوم ليوم عظيم ، يوم يحتاج الناس فيه إلى أن يُحمل عنهم من أوزارهم ، ثم قال : قال الله تعالى للطالب حقِّه : ارفع بصرك فانظر إلى الجنان ، فيرقع رأسه فيرى ما أعجبه من الخير والنعمة ، فقال : لمن هذا يا رب ؟ .. فقال الله تعالى : لمن أعطاني ثمنه ، قال : ومن يملك ذلك يا رب ؟ قال : أنت قال : بماذا ؟ قال : بعفوك عن أخيك ، قال : أُشهدُكَ يا رب أني قد عفوت عنه ، فقال الله تعالى : خذ بيدِ أخيك ، ثم أدخِله الجنة ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فاتقُّوا الله وأصلِحُوا ذاتَ بينكم " ، فإن الله يصلح بين عباده يوم القيامة)) .

[كنز العمال عن أنس]

مستويات الإصلاح استنباطا من قوله : وَأَصلِحُوا ذَاتَ بَينِكُمْ

الله سبحانه وتعالى يأمرنا أن نصلح ذات بيننا ، وقد فهم بعض العلماء هذه الآية على ثلاثة مستويات .

المستوى الأول :

المستوى الأول : أن نصلح أنفسنا التي بين جوانحنا ، بتعريفها ربها ، وحملها على طاعته والتقرب إليه لتسعد بقربه .



المستوى الثاني :

والمستوى الثاني : أن نصلح كل علاقة بيننا وبين الآخرين ، الأقارب منهم والأباعد ، عن طريق معرفة الحقوق والواجبات ، والوقوف عند حدود الشرع ، واعتماد العدل والإحسان .

المستوى الثالث :

والمستوى الثالث : أن نصلح فيما بين الناس ، بحملهم على العفو والترغيب فيه ، وبيان ثماره اليانعة ، ونتائجه الطيبة ، ولو كلَّفنا وقتاً وجهداً ومالاً ، لأننا إن فعلنا ذلك ، فإنما نطبِّق قوله تعالى :

فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ

(سورة الأنفال : 1)

فطوبى لمن كان مفتاحاً لـلخير مغلاقاً للشر ، وطوبى لمن أصلح بين الناس ووفق بينهم ، وطوبى لمن استعمله الله في الخير .. " فإذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما استعملك " .

قيل في الحلم :

من عادة الكريم أنه إذا قدر غفر ، وإن رأى زلَّةً ستر ، فلا سؤدد مع الانتقام ، وأولى الناس بالعفو أقدرهم عليه ، وأقرب ما يكون العبد من غضب الله إذا غضب ، وكفى بالمرء إثماً أن يغضب إذا قيل له اتــق الله ، ولا يُعرف الحليم إلا عند الغضب ، وقيل لخليفة عُرف بالحلم :

ــ " إني آنف أن يكون في الأرض جهل لا يسعه حلمي " .

وقيل لابن المبارك رحمه الله تعالى : اجمع لنا حسن الخلق في كلمة واحدة ، فقال :



ــ " ترك الغضب " .

وقال الأحنف : إياكم ورأي الأوغاد فقيل له : وما رأي الأوغاد ؟ فقال :

ــ " الذين يرون الصفح والعفو عاراً وحمقاً " .

ــ وقال بعضهم :

يستوجب العفو الفتى إذا اعترف وتاب عما قد جناه واقترف

لقوله : قل للذين كفروا إن ينتهوا يُغفر لهم ما قد سلف

04 - التواضع

الأخلاق في الإسلام :

1 ــ الإسلام يدعو إلى البناء الأخلاقي :

موضوع هذه الخطبة الدينية هو خلق التواضع ، انطلاقاً من أن هناك تلازماً ضرورياً بين التدين الصحيح والخلق القويم ، حدد النبي صلى الله عليه وسلم ، حدد الغاية الأولى من بعثته ، والمنهج الأمثل لدعوته ، فقال فيما رواه الإمام أحمد رحمه الله عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ**)) .

[أخرجه الإمام أحمد والحاكم والبيهقي من حديث أبي هريرة]

فالهدف الأول لدعوته هو إرساء البناء الأخلاقي للفرد والمجتمع ، لأنه ثمن سعادة الدنيا والآخرة ، والوسيلة هي التعليم لا التعنيف ، قال صلى الله عليه وسلم :

((**علموا ولا تُعنِّفوا ، فإن المعلم خير من المُعنِّف**)) .

[أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ، وابن عدي في الكامل]

2 ــ التلازم الضروري بين التدين الصحيح والخلق القويم :

والمتتبع لنصوص القرآن الكريم ، وللسنة المُطهرة الصحيحة يجد ذلك التلازم الضروري بين التدين الصحيح والخلق القويم ، قال تعالى :



أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ﴿٢﴾

(سورة الماعون)

وقال تعالى :

فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ

(سورة القصص : 50)

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : مَا خَطَبَنَا نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا قَالَ :

((**لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ**)) .

[أحمد في المسند]

وقال أيضاً :

((**الإيمان والحياء قُرنَا جميعاً ، فإذا رُفع أحدُهما رُفع الآخر**)) .

[أخرجه الحاكم بسند صحيح عن ابن عمر]

3 ــ أحسن الناس إيمان أحسنهم خلقًا :

إذاً : فالإيمان أساس الفضائل ولجام الرذائل وقوام الضمائر ، وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أن أحسن الناس إسلاماً أحسنهم خلقاً ، وأن أكملهم إيماناً أحسنهم خلقاً ، وأن من أحبِ عباد الله إلى الله أحسنهم خلقاً ، وأن من أقرب المؤمنين مجلساً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة أحسنهم خلقاً ، وأن خير ما أُعطي الإنسان خلق حسن ، وأنه ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن ، وأن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم ، بل إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة ، والخلق الحسن يُذيب الخطايا كما يُذيب الماء الجليد ، والخلق السوء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل .

وقد ورد في صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((**أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ ؟ قَالُوا : الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ ، فَقَالَ : إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا ، وَقَذَفَ هَذَا ، وَأَكَلَ**



مَالَ هَذَا ، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا ، وَضَرَبَ هَذَا ، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ))

.

[مسلم]

4 ــ التواضع فضيلة وسطٌ بين طرفين :

وانطلاقاً من أن الحق وسط بين طرفين ، وأن الفضيلة مكرمة بين رذيلتين ، وأن الكمال في الوسط ، وأن النقص في التطرف ، فقد ينحرف التواضع إلى الذل ، وقد يصبح غلافاً للكبر .. وفي الطرفين انحراف بالتواضع عن الموقع الصحيح الذي أراده الله ، وتزييف لهذا الخلق الكريم الذي سنه المصطفى عليه صلوات الله وسلامه .

5 ــ الكِبر خلُقٌ سيئ :

فقد ينطوي المرء على نفس تتصف بأشد حالات الكبر ، ولكنه يسلك مع بعض الناس سلوك المتواضع توصلا بهذا السلوك إلى تحقيق مصالحه المادية ، إنه موقف ذكي أساسه المصلحة الراجحة .

فالكبرياء على العباد صفة رب العباد الذي خلق فسوى ، والذي قدر فهدى ، والذي إذا ظهر قهر ، وإذا تجلى طاشت لأنوار جلاله ألباب البشر .

فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

(سورة الجاثية)



6 ــ الذل لله عزة ، وللعبد مذلة وهوان :

فذلُ العباد لربهم بالحق لا بالباطل ، فهو الخالق العظيم ، والرب الرحيم ، والمسيّر الحكيم ، بديع السماوات والأرض ، ذو الفضل العظيم ، رب العزة ، ذو الجلال والإكرام ، إليه يُرجع الأمر كله .

حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا
وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا
فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ

(سورة يونس)

فمصائر العباد رهن مشيئته ، وطوع إرادته ، وهم إنما يكونون في أزكى أحوالهم ساعة ، تعنو جباههم لربهم خاضعين له ، مُنيبين إليه عندئذ يعرفون حجمهم ، ووضعهم فيلزمون حدهم ، ولا يتجاوزونه .

عَن عَبْد اللَّهِ بْن عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :
((**مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ أَكَبَّهُ اللَّهُ عَلَى وَجْهِهِ فِي النَّارِ**)) .
[رواه الإمام أحمد في مسنده]

فالمتكبِّر مبطل متطاول ، يزعم لنفسه ما ليس لها ، والكبر جملة من الخصال الخسيسة ، في طليعتها جحد الحق ، وتجاهل الواقع ، وسوء العشرة ، وتجاوز القدر ، وتحقير الفضل .

وقد يجهل الإنسان حقائق التوحيد ، أو يعتقد اعتقاداً فاسداً أساسه الشرك فيُذِّل نفسه ويقبل الدنية في دينه ، ودنياه لواحد من أمرين ؛ إما خوف أن يصاب برزقه ، أو أن يصاب بأجله ، مع أن الله قطع سلطان البشر عن الآجال والأرزاق جميعاً ، فليس لأحد إليهما سبيل ، وبين لنا في كتابه العزيز أن البشر ولو اجتمعوا بأسرهم أذلُّ من أن يمنعوا شيئاً أعطاه الله ، وأقلّ من أن يعطوا شيئاً منعه الله ، قال تعالى :



مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾

(سورة فاطر)

وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾

(سورة يونس)

هذا الذل ذل الشرك والخوف ، ليس من التواضع في شيء .

7 ـ لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه :

وقد يقصِّر الإنسان في أداء واجبه ، وقد يهمل عمله ، أو صنعته ، أو يسيء إلى الناس في تعامله معهم ، فيأتيه اللوم والتقريع ، فيتطامن ويستخذي ، وهذا الذل ؛ ذل التقصير ، والإهمال ، والإساءة ليس من التواضع في شيء .

إذاً : ذلة العبد لعبد مثله باطلة لا ريب ، فقد حرَّم الإسلام على المسلم أن يهون أو يُستذل ، أو يُستضعف ، قال تعالى :

وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾

(سورة آل عمران : 139)

وفي الحديث الشريف :

((**من أعطى الذلة من نفسه طائعاً غير مُكره فليس منا**)) .

[الطبراني عن أبي ذر ، وانظر مجمع الزوائد للهيثمي]

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :



((من أصبح حزيناً على الدنيا أصبح ساخطاً على ربه ، ومن أصبح يشكو مصيبة ، نزلت به فإنما يشكو الله تعالى ، ومن تضعضع لغني لينال مما في يده أسخط الله تعالى)) .

[الطبراني عن أنس ، وانظر مجمع الزوائد للهيثمي]

وفي رواية :

((من جلس لغني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه)) .

[أخرجه الخطيب عن ابن مسعود ، وأورده المنذري في الترغيب والترهيب، وقال رواه الطبراني في الصغير، ورواه أبو الشيخ في الثواب عن أبي الدرداء]

إذاً : فلا ينبغي للمؤمن أن يُذل نفسه ، فقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم :

((ابتغوا الحوائج بعزِّة الأنفس ، فإن الأمور تجري بالمقادير)) .

[ابن عساكر عن عبد الله بن بسر]

وقد قيل : " احتج إلى الرجل تكن أسيره ، واستغن عنه تكن نظيره ، وأحسن إليه تكن أميره ، وشرف المؤمن قيامه بالليل ، وعزه استغناؤه عن الناس " .

8 ـ ينبغي للمؤمن من عزة بالحقّ :

إن اعتزاز المسلم بنفسه ودينه وربه ، هو عزة الإيمان ، وعزة الإيمان شيء و كبرياء الطغيان شيء آخر ، إنها أنفة المؤمن أن يصغر لجهة أو أن يتَّضع في مكان ، أو أن يكون عبداً لإنسان ، إنها ترفُّع عن مغريات الأرض ، ومزاعم الناس ، وأباطيل الحياة ، وفيها انخفاض إلى خدمة المسلمين ، والتبسُّط معهم ، واحترام الحق الذي يجمعه بهم ، إنها إتيان البيوت من أبوابها ، وطلب العظمة من أصدق سبلها ، قال تعالى :

مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ

(سورة فاطر : 10)

اجعل لربك كل عزك يستقر ويثـــــــبت
فإذا اعتززت بمن يموت فإن عزك ميت

والعزة حق يقابله واجب ، وليس يسوغ لامرئٍ أن يطالب بماله من حق حتى يؤدي ما عليه من واجب ، فإذا كُلِّفت بعمل فأدّيته على أصح وجوهه ، عندئذ لا سبيل لأحد عليك ،



ولا يستطيع من فوقك ولا من دونك أن ينالك بلفظ جارح ، وتستطيع أن تحتفظ بعزة نفسك أمام كل الناس على اختلاف مراتبهم ، حين تسدُّ الثغرات التي ينفذ منها إليك اللوم والتقريع ، إن ألدَّ أعدائك حينئذ يتهيبك ، قال تعالى :

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾

(سورة يونس)

وقد قال صلى الله عليه وسلم :

((**إياك و ما يعتذر منه**)) .

[ذكره الهندي في كنز العمال عن أنس]

التواضع :

1 ـ تواضع المؤمن في عزة وقوة :

وبعد الحديث عن الكبر وبطلانه ، والذلة وأسبابها ، والعزة ومقوماتها يطيب الحديث عن التواضع : إنه تواضع العزيز ، لا تواضع الذليل ، وإنه تواضع القوي ، لا تواضع الضعيف ، وإنه تواضع المنتصر لا تواضع المنهزم ، وإنه تواضع الشريف ، لا تواضع الخسيس ، وإنه تواضع المؤمن الذي يؤمن أن الأمر كله بيد الله ، لا تواضع المشرك الذي



استحوذ الخوف على قلبه ، وإنه تواضع المؤدي لواجبه لا تواضع المقصّر فيه ، وإنه تواضع المتقن لعمله ، لا تواضع المهمل له ، وإنه تواضع المحسن ، لا تواضع المسيء ، ويدعم هذا التوجه .

2 ــ تعريف التواضع لغة :

وذاك التعريف أن التواضع لُغةً مصدر قياسي لفعل تواضع ، الذي على وزن تفاعل، حيث يفيد هذا الوزن إظهار ما ليس في الواقع ، فالمتواضع ليس وضيعاً ، كما أن المتمارض ليس مريضاً ، والمتكبر ليس كبيراً ، والمتعاظم ليس عظيماً .

3 ــ حقيقة التواضع :

فالتواضع في حقيقته ، رؤية صحيحة لعظمة خالق الأكوان ، وشعور واقعي بضعف الإنسان ، وسلوك أصيل أساسه الانضباط والإحسان ، فهو مظهر لعبودية الإنسان تجاه خالقه ، ونتيجة لرؤية افتقاره لفضله ، وليس سلوكاً ذكياً ، أساسه مصلحة راجحة ، ولا ضعفاً نفسياً أساسه توهُّم باطل ، أو رؤية ضبابية ، وليس تقصيراً ، أو إهمالاً ، أو إساءة .

إنه فضيلة الفضائل ، وهو بين دناءة الذلِّ وغطرسة الكبر ،

((**ليس كل مُصَلٍّ يصلي ، إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي ...**)) .

[من حديث قدسي طويل رواه الديلمي عن حارثة بن وهب]

والتواضع في أدق تعاريفه : خضوع العبد لسلطان الحق ، والانقياد له ، والدخول تحت مظلته ، ومن تكبر عن الانقياد للحق ، أذله الله ، وصغّره وحقّره ، ومن تكبَّر عن الانقياد للحق ، ولو جاءه من صغير أو بعيد أو عدو فإنما تكبّره على الله ، فإن الله هو الحق ، وكلامه حق ، ودينه حق ، والحق صفته ، والحق منه ، والحق إليه ، وحينما عرَّف النبي صلى الله عليه وسلم الكبر فقال إنه : ((**الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ** ــ أي جحد الحق ــ **وَغَمْطُ النَّاسِ**))

.

[رواه مسلم عن ابن مسعود]

أي احتقارهم وازدراؤهم ، وعرَّف التواضع بقاعدة " مفهوم المخالفة " ، أي إنه الخضوع للحق ، وإنصاف الناس لهذا قيل : من عرف نفسه عرف ربه ، ومن لم يعرف



نفسه فهو مغرور ، ومن نظر بعين المعرفة إلى سلطان الله ، فني عنه سلطان نفسه ، ومن نظر إلى عظمة ربه صغرت عنده نفسه ، وقهرت تحت جلال هيبته .

المؤمنون قوم فرَّغ الله قلوبهم من الكبر ، وجعل رحيق محبته مشروبهم ، وأطال على باب خدمته وقوفهم ، وجعل رضاه وقُربه مطلوبهم ، وغضبه وبعده مخوفهم ، فهم من خشيته مشفقون ، ومن هيبته مطرقون ، إن تواضعوا فلرفعته ، وإن تذللوا فلعزته ، وإن طمعوا ففي فضله ، وإن خضعوا فلعظمته ، إلى الله افتقارهم وبالله افتخارهم ، وإلى الله استنادهم ، هو كنزهم ، وعزهم ، وفخرهم ، وذخرهم ، ومعبودهم ، ومقصودهم .

وقل للواقفين بغير باب الله : يا طول هوانكم ، وقل للعاملين لغير الله : يا عظيم خسرانكم ، وقل للآملين لغير فضل الله : يا خيبة آمالكم ، وقل للساعين لغير وجه الله : يا ضيعة أعمالكم .

هذه بعض المنطلقات النظرية ، لخلق التواضع ، ولكن أين هي التطبيقات العملية ؟ .

التطبيقات العملية لخُلق التواضع :

1 ـ الإسلام يرفض الفصل بين النظري والتطبيقي :

إن هذا الانفصال بين المُثُل النظرية ، والواقع العملي ، بين ما ينبغي أن يكون وبين ما هو كائن ، يرفضه الإسلام أشد الرفض ، لقد رفع الإسلام الواقع إلى مستوى المثل ، وشد المثل لتكون واقعية ، فصار ما في الإسلام يسمى بالواقعية المثالية ، أو المُثُل الواقعية .

إليكم أنموذجاً واقعياً من خلق التواضع عند النبي صلى الله عليه وسلم :

2 ـ النبي عليه الصلاة والسلام المثال التطبيقي للتواضع :

لقد كان صلى الله عليه وسلم جمَّ التواضع ، وافر الأدب ، يبدأ الناس بالسلام ، وينصرف بكله إلى محدثه ، صغيراً كان أو كبيراً ، ويكون آخر من يسحب يده إذا صافح ، وإذا تصدق وضع الصدقة بيده في يد المسكين ، وإذا جلس جَلس حيث ينتهي به المجلس ، لم يُرَ ماداً رجليه قط ، ولم يكن يأنف من عمل لقضاء حاجته ، أو حاجة صاحب أو جار ، فكان



يذهب إلى السوق ، ويحمل حاجته بيده ويقول : أنا أولى بحملها ، وكان يجيب دعوة الحرِّ والعبد والمسكين ، ويقبل عذر المعتذر ، وكان يرفو ثوبه ، ويخصف نعله ، ويكنُس داره ، ويخدم نفسه ، ويعقل بعيره ، وكان في مَهنة أهله ، وكان يأكل مع الخادم ، ويقضي حاجة الضعيف والبائس ، وكان يمشي هوناً خافض الطرف ، متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ، لا ينطق من غير حاجة ، طويل السكوت ، إذ ا تكلم تكلّم بجوامع الكلم ، وكان دمثاً ليس بالجاحد، ولا المهين ، يعظم النِّعم ، وإن دقَّت ، ولا يذمُّ منها شيئاً ، ولا يذمُّ مذاقاً ، ولا يمدحه ، ولا تُغضبه الدنيا ، ولا ما كان منها ، ولا يغضب لنفسه ، ولا ينتصر لها ، إذا غضب أعرض وأشاح ، وإذا فرح غض طرفه ، كان يؤلِّف ولا يُفرق ، ويُقرّب ولا يُنفّر ، يكرم كريم كل قوم ، ويوليه عليهم ، يتفقد أصحابه ، ويسأل الناس عما في الناس ، يُحسِّن الحسن ويصوّبه ، ويُقبِّح القبيح ويوهِّنه ، لا يُقصِّر عن حق ، ولا يجاوزه ولا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه ، من سأله حاجة لم يرده إلا بها ، أو ما يَسّره من القول ، كان دائم البشر ، سهل الخُلق ، لين الجانب ، ليس بفظ ، ولا غليظ ، ولا صخَّاب ، ولا فحّاش ، ولا عيّاب ، ولا مزّاح ، يتغافل عما لا يشتهي ، ولا يُخيِّب فيه مؤمله ، وكان لا يذم أحداً ، ولا يعيِّره ، ولا يطلب عورته ، ولا يتكلم إلا فيما يُرجى ثوابه ، يضحك مما يضحك منه أصحابه ، ويتعجب مما يتعجبون ، ويصبر على الغريب وجفوته ، في مسألته ومنطقه ، لا يقطع على أحدٍ حديثه حتى يجوزه ... والحديث عن شمائله لا تتسع له المجلدات ، ولا خطب في سنوات ، ولكن الله جل في علاه ، لخَّصها في كلمات فقال :

وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾

(سورة القلم)



نماذج من تواضع النبي عليه الصلاة والسلام :

فمن عنايته بأصحابه ، وتواضعه لهم :

نموذج أول :

ما رواه الحاكم بإسناده أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل بعض بيوته ، فدخل عليه أصحابه حتى غصَّ المجلس بأهله وامتلأ ، فجاء جرير البجلي ، فلم يجد مكاناً فقعد على الباب ، فنزع رسول الله صلى الله عليه وسلم رداءه ، وألقاه إليه ، فأخذه جرير ، ووضعه على وجهه ، وجعل يقبِّله ، ويبكي ، وأعاده إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : ما كنت لأجلس على ثوبك ، أكرمك الله كما أكرمتني ، فنظر النبي صلى الله عليه وسلم يميناً وشمالاً ، وقال :

((**إِذَا أَتَاكُمْ كَرِيمُ قَوْمٍ فَأَكْرِمُوهُ**)) .

[أخرجه ابن ماجه من غير ذكر القصة]

نموذج ثان :

وعن عدي بن حاتم أنه قال : لما دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم ألقى إلي وسادة من أدم محشوٍّ ليفاً ، وقال : اجلس عليها ، فقلت : بل أنت فاجلس عليها ، قال : بل أنت ، فقال عدي : فجلست عليها ، وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأرض ، فقلت : أشهد أنك لا تبغي علواً في الأرض ولا فساداً .. وأسلم عدي بن حاتم .

نموذج ثالث :

وروى البيهقي في الدلائل أنه وفدَ وفدُ النجاشي على النبي صلى الله عليه وسلم فقام يخدمهم بنفسه ، فقال أصحابه : نحن نكفيك القيام بضيافتهم وإكرامهم ، فقال صلى الله عليه وسلم إنهم كانوا لأصحابنا مُكرمين ، وأنا أحب أن أكافئهم .

نموذج رابع :

وكان صلى الله عليه وسلم يمرُّ على الصبيان فيسلم عليهم ، وكانت الأمة (الطفلة الصغيرة) تأخذ بيده فتنطلق به حيث شاءت ، لقد كان هين المؤنة لين الخُلق ، كريم الطبع جميل المعاشرة ، طلق الوجه ، بساماً متواضعاً من غير ذلة ، جواداً من غير سرف رقيق القلب ، رحيماً بكل مسلم خافض الجناح للمؤمنين ، ولين الجانب لهم .



نموذج خامس :

وفي مختصر السيرة للطبري أنه صلى الله عليه وسلم كان في سفر فأمر أصحابه بإصلاح شاة ذُبحت ، فقال رجل : عليَّ سلخها ، وقال آخر : عليَّ ذبحها ، وقال صلى الله عليه وسلم " وعليَّ جمع الحطب " فقالوا : يا رسول الله ، نحن نكفيك العمل ، قال : ((**قد علمت ذلك ، ولكنني أكره أن أتميز عليكم ، وإن الله يكره من عبده أن يراه متميزاً على أصحابه**)) .

[كشف الخفاء ، وقال في السخاوي في المقاصد الحسنة : لا أعرفه]

ما من موقف ينزلق فيه صاحبه إلى الكبر ، والاستعلاء ، والغطرسة ، والعنجهية ، كأن يفتح مدينة مستعصية ناصبته العداء أمداً طويلاً .

نموذج سادس :

لقد دخل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مكة فاتحاً متواضعاً لله ، ذاكراً لفضله ، حتى أن ذؤابة عمامته كادت تلامس عنق بعيره من شدة تواضعه وشكره ، هذا هو تواضعه صلى الله عليه وسلم.

الخطبة الثانية : تقسيم غنائم حنين :

1 ـ النبي عليه الصلاة والسلام يخص المؤلفة قلوبهم بالغنائم :

حين انتهى المسلمون من غزوة حُنين راح النبي صلى الله عليه وسلم يوزِّع غنائمها على المسلمين ، واهتم يومئذٍ اهتماماً خاصاً بالمؤلفة قلوبهم ، ورأى الني صلى الله عليه وسلم أن يساعدهم على أنفسهم بهذا العطاء ، كما أعطى ذوي الحاجة من المقاتلين ، أما أولو الإسلام المكين فقد وكلهم إلى إسلامهم ، ولم يعطهم من غنائم هذه الغزوة شيئاً ، وكان مجرد عطاء الرسول صلى الله عليه وسلم شرفاً عظيماً يحرص عليه جميع المؤمنين .

2 ـ الأنصار وجدوا في أنفسهم من قسمة الغنائم :

تساءل الأنصار في مرارة : لِمَ لَمْ يُعطهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حظهم من الفيء والغنيمة ؟ وسمع زعيم الأنصار قومه يتهامسون بهذا الأمر ، فلم يُرضه هذا الموقف ،



واستجاب لطبيعته الواضحة الصريحة ، وذهب من فوره إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يا رسول الله ، إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك – أي متألمون منك – في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت ، وسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم : وأين أنت من ذلك يا سعد ؟ . فأجابه سعد : ما أنا إلا من قومي .. أي أنا مثلهم ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم إذاً اجمع لي قومك .

3 ـ النبي عليه الصلاة والسلام يملك غضب نفسه :

وقبل أن نتابع أحداث القصة ، لا بد من أن نذكر بأن النبي صلى الله عليه وسلم بلغه هذا النقد ، أو ذلك التساؤل ، وحينما شعر بهذا الغضب ، أو ذلك الحزن من الأنصار ، كان يتمتع بأعلى درجات القوة والسيطرة ، لقد فتح الله على يديه مكة ، التي ناصبته العداء عشرين عاماً ، وانتصر في آخر موقف قتالي ، وهي غزوة حُ نين ، ودانت له الجزيرة العربية بأكملها ، لقد كان من الممكن أن يلغي وجود هؤلاء المنتقدين ، وكان من الممكن أن يهدر كرامتهم ، ويصفهم بأنهم منافقون ، وكان من الممكن أن يهملهم ، وفلا يلتفت إلى نقدهم وتساؤلهم ، وكان من الممكن أن يعاتبهم على موقفهم منه ، وهو الن بي المُرسل والقائد المنتصر .. أتدرون ما ذا قال لهؤلاء المنتقدين يوم جمعهم ؟ .

4 ـ كيف تعامل النبي عليه الصلاة والسلام مع اعتراض الأنصار :

لقد ذكرهم بفضلهم عليه ، وتصديقهم له وذكّرهم بإيوائهم له ومواساتهم .

أخرج أحمد في مسنده عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ :

((لَمَّا أَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَعْطَى مِنْ تِلْكَ الْعَطَايَا فِي قُرَيْشٍ وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ ، وَجَدَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى كَثُرَتْ فِيهِمْ الْقَالَةُ ، حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ : لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْمَهُ ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ هَذَا الْحَيَّ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أَنْفُسِهِمْ لِمَا صَنَعْتَ فِي هَذَا الْفَيْءِ الَّذِي أَصَبْتَ ، قَسَمْتَ فِي قَوْمِكَ ، وَأَعْطَيْتَ عَطَايَا عِظَامًا فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنْ الْأَنْصَارِ شَيْءٌ ، قَالَ : فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ ؟ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا أَنَا إِلَّا امْرُؤٌ مِنْ قَوْمِي ... قَالَ : فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الْحَظِيرَةِ ، قَالَ



: فَخَرَجَ سَعْدٌ فَجَمَعَ النَّاسَ فِي تِلْكَ الْحَظِيرَةِ ، قَالَ : فَجَاءَ رِجَالٌ مِنْ الْمُهَاجِ رِينَ فَتَرَكَهُمْ فَدَخَلُوا ، وَجَاءَ آخَرُونَ فَرَدَّهُمْ ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا أَتَاهُ سَعْدٌ فَقَالَ : قَدْ اجْتَمَعَ لَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ الْأَنْصَارِ ، قَالَ : فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَحَمِدَ اللَّهَ ، وَأَ ثْنَى عَلَيْهِ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ ، ثُمَّ قَالَ : يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ، مَا قَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ ؟ وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ ، أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ ؟ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ ؟ وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ؟ قَالُوا : بَلْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ وَأَفْضَلُ ، قَالَ : أَلَا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ؟ قَالُوا : وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ وَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ ، قَالَ : أَمَا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُم وَصُدِّقْتُمْ ، أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ ، وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاكَ ، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ ، وَعَائِلًا فَأَغْنَيْنَاكَ ، أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ مِنْ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا ، وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ ؟ أَفَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ ، وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رِحَالِكُمْ ؟ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنْ الْأَنْصَارِ ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا ، وَسَلَكَتْ الْأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ ، اللَّهُمَّ ارْحَمْ الْأَنْصَارَ ، وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ ، قَالَ : فَبَكَى الْقَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ ، وَقَالُوا : رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قِسْمًا ، وَحَظًّا ، ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَتَفَرَّقْنَا)) .

[أحمد]

5 ـ قصة غنائم حنين جمعت أخلاق النبي عليه الصلاة والسلام كلَّها :

لو أردنا أن نؤلف كتاباً عن شمائله صلى الله عليه وسلم فأين نضع هذه القصة ؟ أنضعها في باب تواضعه تواضع القوي ، وتواضع المنتصر ، وتواضع الحكيم ، أم نضعها في باب عفوه وهو في أعلى درجات القوة ، أم نضعها في باب وفائه الشديد للذين اتَّبعوه ، ونصروه في ساعة العسرة ، أم نضعها في باب حنكته السياسية ، وكيف أنه امتص هذه النقمة، وأطفأ تلك الفتنة بكلمات صادقات ، أم نضعها في باب قيادته الحكيمة التي تجعل من العدو صديقاً ، ومن البعيد قريباً ، ومن البغيض حبيباً ؟

كان الله في عون كُتَّاب السير ، كم يواجهون من صعوبات في تصنيف أفعال النبي عليه صلوات الله وسلامه ومواقفه .



يا سيدي يا رسول الله ، يا سيد المتواضعين ، حقاً إنك سيد ولد آدم ، بلغت أعلى درجات الكمال البشري ، واختارك الله على علم لتكون أسوة حسنة وقدوة صالحة ، ومثلاً أعلى للمؤمنين الصادقين إلى يوم الدين ، ورحم الله حسان بن ثابت الأنصاري إذ يقول :

وأجمل منك لم تر قط عيني   وأكملُ منك لم تلدِ النساءُ

خلقت مُبَّرأً من كل عيـــبٍ   كأنك قد خُلقت كما تشاءُ



الباب الخامس: التربية النفسية





01 - التوبة

روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه أنه قال : **((يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب ولا أبالي ، فاستغفروني أغفر لكم))** .

وفي حديث قدسي آخر : **((وعزتي وجلالي إن أتاني عبدي ليلاً قبلته ، وإن أتاني نهاراً قبلته ، وإن تقرب مني شبراً ، تقربت منه ذراعاً ، وإن تقرب مني ذراعاً ، تقربت منه باعاً وإن مشى إلي ، هرولت إليه ، وإن استغفرني غفرت له ، وإن استقالني أقلته ، وإن تاب إلي تبت عليه ، من أقبل علي تلقيته من بعيد ، ومن أعرض عني ناديته من قريب ، ومن ترك لأجلي أعطيته فوق المزيد ومن تصرف بحولي وقوتي ألنت له الحديد ، ومن أراد مرادي أردت ما يريد ، أهل ذكري أهل مودتي ، أه ل شكري أهل زيادتي ، أهل طاعتي أهل كرامتي ، أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي ، إن تابوا فأنا حبيبهم ؛ فإني أحب التوابين وأحب المتطهرين ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب ، أشكر اليسير من العمل ، وأغفر الكثير من الزلل ، رح متي سبقت غضبي وحلمي سبق مؤاخذتي ، وعفوي سبق عقوبتي ، وأنا أرحم بعبدي من الأم بولدها...))** .

إن كل جهل مهما عظمت نتائجه قد يُغتفر ، إلا أن يجهل الإنسان سر وجوده ، وغاية حياته ، ورسالة نوعه ، وحقيقة مهمته ، وأكبر عارٍ على هذا المخلوق الأول المكرم ، الذ ي آتاه الله العقل ، ومنحه الإرادة ، أن يعيش جاهلاً وغافلاً ، يأكل ، ويتمتع كما تأكل الأنعام ، لا يدري شيئاً عن حقيقة وجوده ، ولا عن طبيعة عمله في الحياة ، فيضل الطريق وينحرف عنه بسبب جهله ، وغفلته ، أو بسبب إغراء عابث ، أو شهوة جامحة ، فيهبط مستواه الإنساني ، وتسقط قيمته النوعية ، ويصل إلى الدرك الذي يعوقه عن النهوض بتبعات الحق والخير ، عندئذ يبتعد عن التطهُّر والتسامي ، ويندفع إلى تحقيق ذاته ، وإشباع غرائزه ، وإيثار مصالحه الخاصة ، فيبني مجده على أنقاض الآخرين ، وغناه على فقرهم ، وسعادته الموهومة على شقائهم ، ويظل كذلك سادراً في غفلته وممعناً في طغيانه ، حتى يوافيه الموت بغتة فيواجه مصيره المجهول دون تنبه له ، ولا استعداد فيدفع ثمن غفلته ، وجهله ،



وانحرافه ، شقاءً أبدياً وحينئذ يندم حين لا ينفع الندم ، ويرجو الخلاص ، ولات حين خلاص .

أما الإنسان العاقل فيبادر ، يسأل نفسه هذا السؤال :

لماذا خُلقت ؟ .. وما مهمتي في هذا الوجود ؟ .. وما رسالتي في هذه الحياة ... والقرآن الكريم يجيبه عن هذه الأسئلة قائلاً :

وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾

[سورة الذاريات]

والعبادة غاية الخضوع لله عز وجل ، في أمره ونهيه ، لأن الجهة الصانعة هي الجهة الوحيدة التي تعرف ما يَصلُح لصنعتها وما لا يصلح ، قال تعالى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ

[سورة البقرة]

والعبادة غاية المحبة لله ، لأن الإنسان مفطور على حب ذاته ، وحب وجوده وسلامة وجوده ، وكمال وجوده ، واستمرار وجوده ، وهذا لا يتحقق إلا بمشيئة الله وفضله ، فما عَبَدَ الله من خضع له ولم يُحبه ، ولا من أحبه ولم يخضع له .

هناك من يعيش ليأكل ، ومن يأكل ليعيش ، أما المؤمن فيعيش ليعرف ربه ويعبده ويسعد بقربه ، وقد ورد في الأثر القدسي : **((يا عبادي إني ما خلقتكم لأستأنس بكم من وحشة ، ولا لأستكثر بكم من قلة ، ولا لأستعين بكم على أمرٍ عجزت عنه ، إنما خلقتكم لتعبدوني طويلاً ، وتذكروني كثيراً ، وتسبحوني بكرة وأصيلاً))** .

وفي حديث قدسي آخر : **((ابن آدم خلقت لك ما في السماوات والأرض من أجلك فلا تتعب وخلقتك من أجلي فلا تلعب ، فبحقي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك عما افترضته عليك))** .

لقد رُكِّب الإنسان من عقل وشهوة ــ كما قال الإمام علي كرم الله وجهه ــ وقد جاء الإسلام ، وهو دين الفطرة ليقيم توازناً دقيقاً عن طريق المنهج الرباني الذي رُسم للإنسان ، من خلال آيات القرآن وسنة النبي صلى الله عليه وسلم ، وبما أن الإنسان مُنح حرية الاختيار ، في دائرة التكليف ، والابتلاء ، وهي الأمانة التي حملها ... مع حرية الاختيار ، لتُثَمَّن



أعماله الكسبية ، فتكون سبباً لدخوله روضات الجنات ، أو التردي في حفر النيران ، وبما أن الإنسان خُلق ضعيفاً ، ليفتقر إلى الله في ضعفه ، فيسعد في افتقاره ، ومن لوازم ضعفه أنه ينسى ويسهو ، ويغفل ويغفو ، ويضعف ويُغلب ، فقد يعصي ربه ، ويخرج عن المنهج الذي رُسم له .

لهذا شرع الله للإنسان التوبة ، وفي تشريع التوبة وقبولها صيانة لحركة الهدا ية في الأرض.

إن التوبة مخرجُ النجاة للإنسان حينما تُحيط به خطيئاته ، وهي صمام الأمان حينما تضغط عليه سيئاته ، وهي تصحيح للمسار حينما تُضلّه أهواؤه ، وإنها حبل الله المتين الذي ينقذ الإنسان حينما تُغرقه زلاته .

((وإذا رجع العبد العاصي إلى الله ، نادى مناد في السماوات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله)) .

وقال بعض العارفين : لأهل الذنوب ثلاثة أنهار يتطهرون بها في الدنيا ، فإن لم تف بطهرهم طُهِّروا في نهر الجحيم يوم القيامة ؛ نهر التوبة النصوح ، ونهر الحسنات المستغرقة للأوزار المحيطة بها ، ونهر المصائب العظيمة المُكفِّرة ، فإذا أراد الله بعبد خيراً أدخله أحد هذه الأنهار الثلاثة ، فجاء يوم القيامة طيباً طاهراً ، فلم يحتج إلى التطهير الرابع.

ولو لم تُشرع التوبة لهلك الناس ، ولعم الفساد في الأرض ، لأن الإنسان إذا طُرد من رحمة الله ، لمجرد معصية واحدة ، فلن يرجع إلى منهج ربه لانعدام أمله في القَبول ، ولِمَ يرجع وقد طُرد من رحمته ؟ عندئذ سيعربد في الأرض انحلالاً وانحرافاً وطغياناً .

رأى بعض العارفين في بعض سكك المدينة باباً قد فُتح ، وخرج منه صبي يستغيث ، ويبكي ، وأمه خلفه تطرده ، حتى خرج فأغلقت الباب في وجهه ، ودخلت فذهب الصبي غير بعيد ثم وقف مفكراً ، فلم يجد له مأوى غير البيت الذي أخرج منه ، ولا من يؤويه غير والدته ، فرجع مكسور القلب حزيناً ، فوجد الباب مُرتجاً ، فتوسده ووضع خده على عتبة الباب ، ونام ، فخرجت أمه فلما رأته على تلك الحال لم تملك إلا أن رمت بنفسها عليه ، والتزمته تقبله ، وتبكي وتقول : يا ولدي أين تذهب عني ، ومن يؤويك سواي ؟ ألم أقل لك لا تُخالفني ، ولا تحملني بمعصيتك على خلاف ما جُبلت عليه من الرحمة بك والشفقة عليك وإرادة الخير لك .



ثم أخذته ودخلت ... لنتأمل قول النبي صلى الله عليه وسلم : **((للهُ أرحم بعبده من الأم بولدها))** .

[حديث صحيح رواه البخاري]

فحقيقة التوبة الرجوع إلى الله عز وجل ، ولا يصح الرجوع إلا بمعرفة الله بأسمائه وصفاته ، وآثارها في نفسه ، وفي الآفاق ، ومعرفة أنه كان فارًّا من ربه ، أسيراً في قبضة عدوه ، وأنه ما وقع في مخالب عدوه إلا بسبب جهله بربه ، وجرأته عليه ، فلا بد من أن يعرف كيف جهل ، ومتى جهل ؟ .. وكيف وقع أسيراً ، ومتى وقع .. ؟ .

والتوبة هي التخلص من العدو ، والرجوع إلى الكريم الرحمن الرحيم ، والسير على الصراط المستقيم ، إنها خلعُ ثياب المعصية ، وارتداء ثياب الطاعة ، وترك المحظورات ، وفعل المأمورات ، و التزام فعل ما يحب الله ، وترك ما يكره ، وقد علّق الله سبحانه وتعالى الفلاح كله على فعل المأمور ، وترك المحظور ، بقوله :

وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

[سورة النور]

فكل تائب مفلح ، وتارك الأمر ظالم لنفسه ، أشد الظلم ، وفاعل المحظور ظالم لنفسه أشد الظلم ، قال تعالى :

وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾

[سورة الحجرات]

والتوبة حقيقة الدين ، والدين كله داخل في التوبة ، لهذا استحق التائب أن يكون حبيب الله ، قال تعالى :

إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾

[سورة البقرة]

ولذلك يفرح الله الفرح العظيم بتوبة عبده المؤمن ، فقد ورد في الحديث الشريف : **((إنّ الله أفرح بتوبة عبده من الضال الواجد ، والظمآن الوارد ، والعقيم الوالد))** .



[ذكره السيوطي في الجامع الصغير عن أنس]

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : **((للَّه أشدُّ فرحاً بتوبة عبده المؤمن ، من رجل في أرض دَوَّيةٍ** – لا نبات فيها – **مَهْلَكَةٍ ، معه راحلته عليها طعامه وشرابه ، فنام ، فاستيقظ وقد ذهبت فطلبها حتى أدركه العطش ، ثم قال : أرجعُ إلى مكاني الذي كنت فيه ، فأنام حتى أموت ، فوضع رأسه على ساعده ليموت فاستيقظ وعنده راحلته ، عليها زاده وطعامه ، فالله أشد فرحاً بتوبة عبده المؤمن من هذا براحلته وزاده))** .

[أخرجه البخاري ومسلم واللفظ لمسلم]

التوبة كما يرى الإمام الغزالي ؛ علم .. وحال .. وعمل ..

إنها علمٌ ؛ لأن أول مرحلة في حلِّ أية مشكلة أن تعلم أن هناك مشكلة ، وإن أول مرحلة في التوبة من الذنب أن تعلم أنه ذنب ، وأنه يحجبك عن الرب .

فكيف يتوب المرء من الشرك الخفي ، أو الجلي ، وهو لا يعلم ما الشرك ؟ وما التوحيد ؟ ولا كيف يصل إلى التوحيد ؟ ولا كيف ينزلق في الشرك الذي هو أعظم الذنوب ؟

وكيف يتوب المرء من سوء الظن بالله ، قال تعالى :

وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾

[سورة الفتح]

وهو لم يبذل جهداً ، ولم يُخصص وقتاً لمعرفة الله حق المعرفة ، ومعرفة أسمائه ؛ أسماء ذاته ، وصفاته ، وأفعاله ، كذلك لا يعرف مصادر المعرفة ، ولا منهج المعرفة ؟

وكيف يتوب المرء من سوء الظن بالأنبياء والمرسلين الذين اصطفاهم الله من خيرة خلقه ، وطهرهم ، وزكاهم ، وعصمهم ، وجعلهم أسوة حسنة ، وقدوة صالحة ، ومثلاً أعلى لخلقه؟.. كيف يتوب المرء من هذا الذنب ، وهو لم يسأل الراسخين في العلم ، عن حقيقة عصمتهم، وسر مواقفهم ، وتأويل الآيات المتشابه عنهم .

وكيف يتوب المرء من كسب المال الحرام ، وهو لا يعرف حدود الحلال والحرام ، ولا حقيقة الربا ، ولا شروط البيع ، ولا ما يلابسه من حالات تجعله فاسداً أو باطلاً ، كما لا



يعرف طرق الكسب المشروعة وغير المشروعة ، وقد قال بعض العلماء : "ترك دانق من حرام خير من ثمانين حجة بعد حجة الإسلام".

[قول محمد بن سهل التستري]

وكيف يتوب من الذنوب المتعلقة بإنفاق المال ، وهو لا يعرف الحقوق والواجبات ، ولا الحلال والحرام في الإنفاق ، ولا قيمة المال في الإسلام ، ولا دوره الخطير في صون العرض والتقرب إلى الرب .

وكيف يتوب المرء من ذنب البغي على الشريك ، وهو لا يعلم متى يكون عقد الشركة صحيحاً ، ومتى يكون فاسداً أو باطلاً ، كذلك لا يعلم أن الله ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه .

وكيف يتوب المرء من ذنوب العلاقات الاجتماعية ، ولا سيما الاخ تلاط ، وهو لا يعرف آداب الإسلام وأخلاق المسلم ، كما بينها النبي صلى الله عليه وسلم .

وكيف يتوب المرء من ذنب عقوق الوالدين ، والجور في معاملة الأبناء ، وهضم حقوق الزوجة ، وحرمان البنات من الميراث ، وهو لا يعلم أوامر الله ، ونواهيه في كل ما يتعلق بالأسرة .

وكيف يتوب المرء من الكذب ، والتدليس ، والغش ، والاحتكار ، ورفع الأسعار ، وهو لا يعلم ما عند الله من عظيم الإكرام ، إذا هو نفع عباده ، وخفف عنهم أعباء الحياة ، ولا يعلم ما عند الله من شديد العقاب إذا هو أكل أموالهم بالباطل ، قال النبي صلى الله عليه وسلم :

((الخلق كلهم عيال الله ، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله)) .

هذا على سبيل الاصطفاء لا الاستقصاء ، فما من مشكلة يعاني منها المجتمع البشري إلا بسبب الخروج عن منهج الله ، الذي ارتضاه لعباده وما من خروج عن هذا المنهج إلا بسبب الجهل ، الذي هو أعدى أعداء الإنسان .

والتوبة علم ، وحال ، وعمل ؛ العلم بالله .. وبأمره .. وبضرر الذنب ، وما يفوِّت على المرء من خير كثير ، وما يجلب له من ضُرٍّ كبير ، إن العلم بخطورة الذنب ، وما يترتب عليه من آثار وبيلة تبدأ في الدنيا ، وتمتد إن لم يتب إلى الآخرة ، إن هذا العلم يُولِّد حالة نفسية مؤلمة وصفها النبي صلى الله عليه وسلم بأنها الندم ، فقال : **((الندم توبة))** .

[رواه الإمام أحمد 376/1 وابن ماجه وغيره وفي سنده خلاف]

وقد قال العلماء في تفسير هذا الحديث : لا يخلو الندم من علم سبَّبه أو عمل أورثه ، وربما وضّحت قصة سيدنا عمر رضي الله عنه مع المرأة المرضع ، حالة الندم هذه ، قال عبد



الرحمن بن عوف رضي الله عنه : " قدمت المدينة قافلة نزلت في المُصلى ، فقال لي عمر : هل لك أن نحرسهم الليلة ؟ فباتا يحرسانهم ويُصليان ما كتب الله لهما ، فسمع عمر بكاء صبي فتوجه نحوه ، وقال لأمه : اتقي الله ، وأحسني إلى صبيك ، ثم عاد إلى مكانه ، فسمع بكاءه ثانية ، فعاد إلى أمه فقال : اتقي الله ، وأحسني إلى صبيك ، ثم عاد إلى مكانه ، فلما كان آخر الليل سمع بكاءه فأتى أمه فقال : ويحك إني أراك أمَّ سوء ، ما لي أرى ابنك لا يقرُّ هذه الليلة ؟ قالت : يا عبد الله ، قد أضجرتني هذه الليلة ، إني أجبره على الفطام فيأبى ، قال : ولِمَ ؟ قالت : لأن عمر لا يفرض العطاء إلا للفطيم قال : وكم له ؟ قالت : كذا وكذا شهراً ، قال : ويحك لا تعجلي عليه ، ثم صاح مخاطباً نفسه ، والألم يعتصر قلبه : ويحك يا ابن الخطاب كم قتلت من أولاد المسلمين ..

فلما صلى الفجر إماماً ، ما استبان الناس قراءته من شدة بكائه ، ثم أمر منادياً فنادى : لا تعجلوا على صبيانكم في الفطام ، فإنا نفرض لكل مولود في الإسلام عطاءه ، وكتب بذلك إلى الآفاق " .

وقد سُمع عمر رضي الله عنه ، وهو يصلي بالليل في المسجد ، يُناجي ربه ويقول : " ربِّ هل قبلت توبتي فأهنِّئ نفسي ، أم رددتها فأعزيها ؟ " ، التوبة علم ، وحال ، وعمل .. حالة الندم هذه التي ولَّدها العلم ، تولد بدورها إرادة ، وقصداً إلى فعل له تعلُّق بالحال ، وبالماضي ، وبالاستقبال ، فالتائب يترك الذنب الذي كان متلبساً به في الحال ، ويقلع عنه إذ تستحيل التوبة مع مباشرة الذنب ، وحينما يعرف المرء من هو الآمر إنه خالق السماوات والأرض ، وهو على كل شيء وكيل ، ومن إليه يُرجع الأمر كله ، وإليه المصير ، وحينما يعرف المرء أن سعادته في الدنيا والآخرة ، متوقفة على فعل أوامره ، وترك نواهيه ، وحينما يعرف المرء أن مخالفة أمره تعني شقاء لا حدود له ، حينما يعرف المرء كل هذا يقلع عن الذنب لتوه .

وأما الفعل التعلق بالاستقبال ، فهو العزم الصادق الأكيد على ألا يعود إلى مقارفة الذنب ، كما يكره الإنسان أن يُلقى في النار ، وقد فسَّر سيدنا عمر رضي الله عنه التوبة النصوح بأن يتوب العبد من الذنب ، ثم لا يعود إليه كما لا يعود اللبن في الضرع ، وقال سعيد بن المسيب ، في التوبة النصوح إنها توبة تنصحون بها أنفسكم .

أما الفعل المتعلق بالماضي .. فهو الاستغفار ، إذا كان الذنب بين العبد وربه ، والإصلاح إذا كان الذنب متعلقاً بحق آدمي ، إذ لابد للتائب أن يخرج من هذا التعلق ؛ إما



بأداء الحق إلى صاحبه ، أو إلى ورثته ، أو بالتصدُّق عنه ، وإما باستحلاله منه ، فقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : **((من كان لأخيه عنده مظلمة من مال أو عرض فليتحلله اليوم ، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إلا الحسنات والسيئات)) .**

[رواه البخاري بلفظ يُقاربه 73/5 ورواه غيره]

فحق الآدمي لا يسقط إلا بأدائه ، أو استحلاله ، إن حقوق العباد مبنية على المشاحجة ، بينما حقوق رب العباد مبنية على المسامحة ، قال تعالى :

إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥﴾

[سورة النور]

وكلمة أصلحوا في الآية تعني كل ذلك .

الخطبة الثانية :

رُوي أن ملك الموت إذا ظهر للعبد أعلمه أنه قد بقي من عمرك ساعة ، وأنك لا تستأخر عنها طرفة عين ، فُيبدي العبد من الأسف والحسرة ما لو كانت له الدنيا بحذافيرها لتخلى عنها ، على أن يُضم إلى تلك الساعة ساعة أخرى ليتدارك تفريطه ، فلا يجد إلى ذلك سبيلاً"

[إحياء علوم الدين للغزالي]

قال تعالى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١١﴾

[سورة المنافقون]

وفي معنى الأجل القريب الذي يطلب العبد أن يقول عند كشف الغطاء : يا ملك الموت أخرني يوماً ، أعتذر فيه إلى ربي ، وأتوب ، وأتزود صالحاً ، فيقول ملك الموت : فنيت



الأيام فلا يوم ، فيقول : أخرني ساعة ، فيقول : فنيت الساعات فلا ساعة ، فيغلق عليه باب التوبة ، فيتغرغر بروحه ، قال تعالى :

وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾

[سورة النساء 18]

إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾

[سورة النساء 17]

وفسر العلماء كلمة قريب في الآية : أي عن قرب عهد بالخطيئة .

إن للحسنة ضياءً في الوجه ، ونوراً في القلب ، وسعةً في الرزق ، وقوة في البدن ، ومحبةً في قلوب الخلق ، وإن للسيئة سواداً في الوجه ، وظلمة في القلب والقبر ، ونقصاً في الرزق ، ووهناً في البدن ، وبغضاً في قلوب الخلق ، والمسيء هان على ربه ، وسقط من أعين الناس .

قم في الدجى يا أيها المتعبـــد	حتى متى فوق الأسرة ترقـــــــد
قم و ادع مولاك الذي خلق الدجـــى	و الصبح وامض فقد دعاك المسجد
و استغفر الله العظيم بذلِّـــــــة	و اطلب رضاه فإنه لا يحقـــــــد
واندم على ما فات واندُب ما مضى	بالأمس ، واذكر ما يجيء به الغدُ
واضرع و قل يا رب عفوك إننـــي	من دون عفوك ليس لي ما يعبـــد
يا ربِّ هب لي توبةً أقضي بهـــا	دينا عليَّ به جلالك يشهـــــــــد

***

وأنتم أيها الثائرون في الأراضي المحتلة ، بوركت سواعدكم ، وسلمت أيديكم ، لقد ضربتم المثل في التضحية والفداء ، فأقلقتم مضاجع الصهاينة الأعداء ، يقول لكم عمر بن الخطاب



رضي الله عنه : " إن تقوى الله أفضل العُدة على العدو ، وأقوى المكيدة في الحرب ، والمعاصي أضر على الجند من أعدائهم ،

إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴿٧﴾

[سورة محمد]

ونصر الله طاعته ، وتمكين دينه .

وقال تعالى :

وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾

[سورة التوبة]

فتوبوا إلى الله :

وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾

[سورة النساء]

02 - الحب الإلـهي

المحبة :

1 ـ الإيمان يحمل الإنسان على محبة الخالق :

من خلال التأمل الدقيق ، والنقل الصحيح يتضح أن الإنسان هو المخلوق المكرم ، بدليل أن الكون كله ، بسماواته وأرضه مسخر له ، تسخير تعريف وتكريم ، فإذا آمن الإنسان



، بأنه خالقاً عظيماً ، ورباً كريماً ، ومسيراً حكيماً ، خلقه في أحسن تقويم ، وكرّمه أحسن تكريم ، وفضله على كثير من العالمين ، أنعم عليه بنعمة الإيجاد وبنعمة الإمداد ، و بنعمة الهدى والرشاد .

إن هذا الإيمان ، وذاك العرفان يحملان الإنسان على محبة خالقه ومربيه ، فالإنسان بعقله يؤمن ، وبقلبه يحب ، وهل الإنسان إلا عقل يدرك ، وقلب يحب .. وقد ورد في الأثر : ((**أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً**)) .

[ورد في الأثر]

2 ـ القلب محرِّك الجسد :

وورد في الخبر ، أنه لا إيمان لمن لا محبة له ، فالإيمان والحب متلازمان ، تلازم الروح وبالجسد ، فما قيمة الجسد من دون روح كذلك ما قيمة الإيمان من دون حب ، وإ ذا صحَّ أن العقل للإنسان كالمقود للمركبة ، يقودها على الطريق الصحيح ونحو الهدف الصحيح فإنه يصحُّ أيضاً أن القلب للإنسان كالمحرك لهذه المركبة ، يحرِّكها على هذه الطريق ونحو ذلك الهدف .. فما قيمة المقود من دون محرك ؟ إنه الجمود والموت ، وما قيمة المحرك من دون مقود ؟ إنه الهلاك والدمار .

3 ـ المحبة قوت القلوب ، وغذاء الأرواح :

المحبة هي قوت القلوب ، وغذاء الأرواح ، وهي الحياة التي من حُرمها فهو في جملة الموات ، وهي النور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات ، وهي الشفاء الذي من عَدِمه حلَّت به الأسقام ، وهي اللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام ، لذلك عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ : أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**)) .

[متفق عليه]

فإذا عرف الإنسان ربه أحبه ، وإذا أحبه خطب وده ، فاستقام على أمره ، وعمل الصالحات ، ابتغاء وجهه ، عندئذ يجد حلاوة الإيمان بعد أن ذاق جحيم الكفر ، إن الإنسان وقد عرف هذه المعرفة ، وذاق هذه الحلاوة ، يصبح شغله الشاغل ، التقرب من المحبوب ،



يقول الله تعالى فيما رواه النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه في حديث صحيح أخرجه الإمام البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّ اللَّهَ قَالَ :

((**مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ** ...)) .

[البخاري]

4 ـ المحبة لابد لها من دليل :

كثيرون هم الذين يدّعون محبة الله ورسوله ، ولا تجد في أعمالهم ما يُثبت ذلك ، إنهم خاضوا بحار الهوى دعوى ، وما ابتلّوا ، ولو يُعطى الناس بدعواهم لادّعى الخلي حرقة الشجي ، لذلك طولب المدَّعون بإقامة الدليل على صحة دعواهم ، فقال تعالى :

قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾

(سورة آل عمران)

تعصي الإله وأنت تُظهر حبَّه   هذا لعمري في المقال بديـــعُ
لو كان حبك صادقاً لأطعته   إن المحب لمن يحب مطيـــعُ

***

ولقد ردَّ الله عز وجل على هؤلاء الذين قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه ، فقال :

قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ

(سورة المائدة : 18)

ومن هنا استنبط الإمام الشافعي – رحمه الله – أن الله لا يعذب أحبابه .



5 ـ محبة النبي عليه الصلاة والسلام فرعٌ عن محبة الله :

محبة الله أصل : ومن فروعها محبة النبي صلى الله عليه وسلم ، فليس أحد بعد الله تعالى أمنَّ علينا في هدايتنا ، وسعادتنا من رسولنا صلى الله عليه وسلم .

لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾

(سورة التوبة)

6 ـ محبة الرسول مقرونة بمحبة الله :

لذلك قُرنت محبة الرسول صلى الله عليه وسلم بمحبة الله تعالى في معظم آيات القرآن ، وفي السنة المطهرة ، قال تعالى :

قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾

(سورة التوبة)

وفي الحديث الصحيح الذي رواه الإمام مسلم عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)) .

[مسلم]

بل إن إرضاء الله ، هو عين إرضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإرضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم هو عين إرضاء الله ، قال تعالى :



وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ

(سورة التوبة : 62)

هكذا بضمير المفرد .. ولم يقل " يرضوهما " بضمير المثنى ، وكذلك طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم هي عين طاعة الله تعالى ، حيث يقول :

مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ

(سورة النساء : 80)

هذا خصم عنيد من خصوم النبي صلى الله عليه وسلم في بداية الدعوة يقول : << ما رأيت أحداً يحبُّ أحداً كحب أصحاب محمدٍ محمداً >> .

نموذجان للمحبة :

وإليكم نموذجين من هذه المحبة :

النموذج الأول :

ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان شديد الحب له ، قليل الصبر عنه ، أتاه ذات ليلة ، وقد تغير لونه ، ونحل جسمه ، وعُرف ذلك في وجهه ، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم :

((**يا ثوبان ما غير لونك " ؟ فقال : يا رسول الله ، ما بي وجع ولا ضرٌّ غير أني إذا لم أرك اشتقت إليك ، واستوحشت وحشة شديـــدة حتى ألقاك ، ولولا أني أجيء فأنظر إليك ، لظننت أن نفسي تخرج** – أي أموت – **ثم ذكرت الآخرة ، وأخاف ألا أراك هناك ، لأني عرفت أنك مع النبيين ، فلم يردَّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً**)) .

[ورد في الأثر]

لكن الله جل في علاه أجابه عن تساؤله في القرآن الكريم فقال تعالى :



وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾

(سورة النساء)

النموذج الثاني :

نموذج آخر : امرأة أنصارية من بني دينار تسمع إشاعة أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد قُتل في أُحد ، فيؤلمها النبأ ، وتخرج لتستجلي الحقيقة ، وتمر على أرض المعركة ، وتجدُ في الشهداء ابنها وزوجها وأخاها ، فلا تقف عندهم ، بل تندفع باحثة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسأل عنه كل من لقيت : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فيقولون : أمامك حتى وصلت إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، واطمأنت على سلامته ، فأخذت بطرف ثوبه ، ثم قالت : كل مصيبة بعدك جلل (هينة) ، ولا أبالي ما سلمت من عطب . أية امرأة أنتِ ؟ لله درك ..

ولو أن النساء كمن رأينـــا لفُضِّلت النساء على الرجال

7 ــ من فروع محبة الله محبةُ أصحاب النبي :

محبة الله أصل ، ومن فروعها محبة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين عزروه ، ونصروه ، واتبعوا النور الذي أنزل معه ، والذين جاهدوا معه حق الجهاد ، وبذلوا من أجل انتشار الحق كل غالٍ ورخيص ، ونفس ونفيس ، والذين رضي الله عنهم جمعياً ، والذين وصفهم المصطفى صلى الله عليه وسلم فقال :

((**علماء حكماء ، كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء**)) .

[تخريج أحاديث الإحياء]

وقد أمرنا صلى الله عليه وسلم وفاءً لحق صحبتهم وتقديراً لمكانتهم ألا نخوض فيما بينهم ، فقال :

((**إذا ذُكر أصحابي فأمسكوا**)) .

[رواه الطبراني في الكبير ، عن ابن مسعود]



عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ ، قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم:
((**لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِى ، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلاَ نَصِيفَهُ**)) .

فهؤلاء الأصحاب ، بإيمانهم ، وثباتهم ، وبطولاتهم ، وولائهم لرسولهم صلى الله عليه وسلم استطاعوا في مثل سرعة الضوء أن يضيئوا الضمير الإنساني بحقيقة التوحيد ، ويكنسوا إلى الأبد وثنية القرون ، فأيُّ بذل هذا الذي بذلوا ، وأي هولٍ هذا الذي احتملوا ، وأيُّ فوزٍ هذا الذي أحرزوا .

8 ـ من فروع محبة الله محبةُ المؤمنين :

محبة الله أصل ، ومن فروعها محبة المؤمنين : تلك المحبة التي تؤلف القلوب ، وتوحد الصفوف ، وتبني المجتمعات ، وتصنع المعجزات ، وقد شبه النبي صلى الله عليه وسلم مجتمع المؤمنين في توادهم ، وتعاطفهم ، وتراحمهم بالجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ، وهم كالبنيان المرصوص ، يشدُّ بعضه بعضاً ، وهم لبعضهم بعضاً ، نصحةٌ متوادُّون ، ولو ابتعدت منازلهم ، بينما المنافقون بعضهم لبعض ، غششةٌ متحاسدون ولو اقتربت منازلهم .

لذلك يجب ألا نعجب إذا جعل النبي صلى الله عليه وسلم حب المؤمنين علامة كافية على صحة الإيمان ، وصدقه ، بل جعل محبة المؤمنين شرطاً وحيداً لوجود الإيمان في الرجل ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
((**لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا ، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا ...**)) .

[أخرجه مسلم في صحيحه]

روى الإمام أحمد في مسنده أَنَّ أَبَا مَالِكٍ الْأَشْعَرِيَّ قَالَ :
((**... إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا قَضَى صَلَاتَهُ أَقْبَلَ إِلَى النَّاسِ بِوَجْهِهِ فَقَالَ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، اسْمَعُوا وَاعْقِلُوا ، وَاعْلَمُوا أَنَّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عِبَادًا لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ ، وَلَا شُهَدَاءَ ، يَغْبِطُهُمْ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ عَلَى مَجَالِسِهِمْ وَقُرْبِهِمْ مِنْ اللَّهِ ، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ الْأَعْرَابِ مِنْ قَاصِيَةِ النَّاسِ ، وَأَلْوَى بِيَدِهِ إِلَى نَبِيِّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، نَاسٌ مِنْ النَّاسِ لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ ، يَغْبِطُهُمْ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ عَلَى مَجَالِسِهِمْ وَقُرْبِهِمْ مِنْ اللَّهِ ، انْعَتْهُمْ لَنَا ، يَعْنِي صِفْهُمْ لَنَا ، فَسُرَّ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِسُؤَالِ الْأَعْرَابِيِّ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : هُمْ نَاسٌ مِنْ أَفْنَاءِ النَّاسِ ،**



وَنَوَازِعِ الْقَبَائِلِ ، لَمْ تَصِلْ بَيْنَهُمْ أَرْحَامٌ مُتَقَارِبَةٌ ، تَحَابُّوا فِي اللَّهِ ، وَتَصَافَوْا ، يَضَعُ اللَّهُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ فَيُجْلِسُهُمْ عَلَيْهَا ، فَيَجْعَلُ وُجُوهَهُمْ نُورًا ، وَثِيَابَهُمْ نُورًا ، يَفْزَعُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَا يَفْزَعُونَ ، وَهُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ الَّذِينَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ))

.

[أحمد]

وفي الحديث عَنْ أَبِي إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيِّ قَالَ : دَخَلْتُ مَسْجِدَ دِمَشْقَ الشَّامِ فَإِذَا أَنَا بِفَتًى بَرَّاقِ الثَّنَايَا ، وَإِذَا النَّاسُ حَوْلَهُ إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَسْنَدُوهُ إِلَيْهِ ، وَصَدَرُوا عَنْ رَأْيِهِ ، فَسَأَلْتُ عَنْهُ فَقِيلَ : هَذَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ هَجَّرْتُ فَوَجَدْتُ قَدْ سَبَقَنِي بِالْهَجِيرِ ، وَوَجَدْتُهُ يُصَلِّي فَانْتَظَرْتُهُ حَتَّى إِذَا قَضَى صَلَاتَهُ جِئْتُهُ مِنْ قِبَلِ وَجْهِهِ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ، فَقُلْتُ لَهُ : وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَقَالَ : أَاللَّهِ ؟ فَقُلْتُ : أَللَّهِ ، فَقَالَ : أَاللَّهِ ؟ فَقُلْتُ : أَللَّهِ ، فَأَخَذَ بِحُبْوَةِ رِدَائِي فَجَبَذَنِي إِلَيْهِ : وَقَالَ : أَبْشِرْ ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ :

((**وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ ، وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ ، وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ ، وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ**)) .

[أخرجه الإمام أحمد في مسنده والطبراني في الكبير]

وفي حديث آخر عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ :

((**الْمُتَحَابُّونَ فِي جَلَالِي لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ ، يَغْبِطُهُمُ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ**)) .

[أخرجه الترمذي]

وروى مسلم في صحيحه عَنْ أَنَسٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُحِبَّ لِجَارِهِ ، أَوْ قَالَ : لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**)) .

[مسلم]

وفي رواية : ((**وحتى يكره له ما يكره لنفسه**)) .

فالمراد بأحدكم في الحديث : كل المسلمين في كل العصور ، وكل الأمصار ، لرواية أخرى تقول : ((**لا يؤمن أحدٌ أو عبدٌ**)) .

وإن كان بهذه الصيغة خاصاً بالمشافهين ، الذين عاصروا النبي ، والمراد بالأخ في الحديث من له أخوة الإسلام مطلقاً .. كما ورد في بعض الروايات : ((**لأخيه المسلم**)) .

فالمسمون على اختلاف شعوبهم ، وقبائلهم، وديارهم ، وألسنتهم ، وألوانهم هم أسرة واحدة ، قال تعالى :



إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾

(سورة الحجرات)

ويستفاد من كلمة إخوة التي تعني أخوة النسب أن أخوة الإيمان أعلى درجات الأخوة ، ويستفاد من كلمة إنما أن الأخوة الحقة قاصرة على المؤمنين ، وكل علاقة أخرى لا تقوم على الإيمان ، علاقة أساسها المنافع تدوم بدوامها ، وتزول بزوالها ، وفي رواية للنسائي: ((**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير**)) .

وهذه الكلمة : ((**من الخير**)) قيد لا بد منه ، لأن من كان يحب لنفسه شيئاً من المشتهيات المحرمة ، ليس من الإيمان أن يحب لأخيه مثلها ، فالمراد ((**بالخير**)) في الحديث ما هو خير شرعاً ، والخير الشرعي يتناول الحظوظ الأخروية كلها ، كالعلم النافع ، والعمل الصالح ، والعبادة الخالصة ، والعاقبة الحُسنى .. ولا يتناول من حظوظ الدنيا إلا ما كان مباحاً غير مذموم ، كسعة الرزق من الحلال ، ونجابة الأولاد ، وطول العمر ، والسلامة من المكاره.

رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان معتكفاً في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتاه رجل فسلم عليه ، ثم جلس فقال له ابن عباس : يا فلان ، أراك مكتئبا حزيناً؟ قال : نعم ، يا ابن عم رسول الله ؛ لفلان عليَّ حق ولاءٍ ، وحرمةِ صاحب هذا القبر ما أقدر عليه .. قال ابن عباس : ألا أكلمه فيك ؟ قال : إن أحببت ، قال : فانتعل ابن عباس ، ثم خرج من المسجد ، فقال له رجل : أنسيت أنك معتكف ؟ قال : لا ولكني سمعت صاحب هذا القبر ، والعهد به قريب ، فدمعت عيناه ، وهو يقول : ((**من مشى في حاجة أخيه ، وبلغ فيها كان خيراً له من اعتكاف عشر سنين ، ومن اعتكف يوماً ابتغاء وجه الله تعالى جعل الله بينه وبين النار ثلاثة خنادق ، كل خندق أبعد ما بين الخافقين**)) .

[ورد في كنز العمال ، ورواه الخطيب ، وقال : غريب ، ورواه الطبراني في الكبير ، ورواه الحاكم]

وفي الحديث :

((**لأن أمشي مع أخٍ لي في حاجة خير لي من صيام شهر ، واعتكافه في مسجدي هذا**)) .

[أورده السيوطي في الجامع الصغير]



التعاون من ثمار المحبة بين المؤمنين :

1 ـ التعاون على البر والتقوى :

ومن ثمار المحبة بين المؤمنين إذاً ، التراحم ، والتعاون ، والتضامن ، والتكافل ، والمؤاثرة ، فقد أمر الله المؤمنين بالتعاون فيما بينهم ، إلا أنه قيد التعاون بأن يكون تعاوناً على البر والتقوى ، لا تعاوناً على الإثم والعدوان .. قال تعالى :

وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾

(سورة المائدة)

قال علماء التفسير : التعاون على البر هو التعاون على صلاح الدنيا ، والتعاون على التقوى هو التعاون على صلاح الآخرة ، وفي الدعاء النبوي الشريف : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي ، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي ، وَاجْعَلْ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ ، وَاجْعَلْ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ)) .

[أخرجه مسلم]

2 ـ التناجي بين المؤمنين في صلاح دنياهم وآخرتهم :

فمن التعاون : التناجي بين المؤمنين في صلاح دنياهم وآخرتهم ، والمشاركة في إبداء الآراء ، وتوضيح الحقائق ، وتشخيص المشكلات ، والبحث عن الحلول ، وتذليل العقبات ، فليس من سمات المؤمن الصادق الفردية والانعزالية والسلبية ، والهروب من حلِّ المشكلات ، قال تعالى:



يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَـٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَـٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَـٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ۝٩

(سورة المجادلة)

3 ــ الشورى بين المؤمنين :

لذلك تُعدُّ الشورى من مظاهر التعاون الفكري ، أمر بها رسوله فقال :

وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ

(سورة آل عمران : 159)

ووصف بها المؤمنين فقال :

وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ

(سورة الشورى : 38)

4 ــ تنفيس الكروب ، وتيسير الخطوب ، وستر العيوب :

ومن التعاون بين المؤمنين تنفيس الكروب ، وتيسير الخطوب ، وستر العيوب ، لقول النبي صلى الله عليه وسلم برواية مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ ...)) .

[مسلم]



فتنفيس الكروب هو تفريجها وإزالتها ، والكروب جمع كُربة ، وهي الحزن والغم ، الذي يأخذ بالنفس فيضغط عليها ضغطاً مؤلماً ، وهنا يأتي دور المؤمن في مساعدة أخيه في تنفيس كربة ، فإذا كانت كربة أخيه من جهة فقره ، وحاجته ساعده حتى يسدَّ حاجته ، ويرفع عنه ضرورته ، سواء أكان ذلك في ماله ، أم في سعيه الحسن ، وإن كانت كربة أخيه بسبب حاجته إلى قرض حسن ليدفع ضرورة مُلحَّة أقرضه ، وإن كانت كربة أخيه بسبب مصيبة حلَّت به واساه ، وساعده حتى تنفرج عنه الكربة ، وإ ن كانت بسبب حاجته إلى شفاعة حسنة شفع له ، وإن كانت بسبب حاجته إلى زواج سعى بتزويجه ، وإن كانت بسبب حاجته إلى عمل ، سعى في تهيئة العمل الملائم له ، وإن كانت بسبب حاجته إلى تداوٍ من علة جسمية أو نفسية ، سعى له في العلاج المناسب حتى يُنفِّس عنه كربته .. وقل مثل ذلك في التيسير والستر والمعونة .

9 ـ من فروع محبة الله إنصاف الناس جميعًا :

محبة الله أصل ، ومن فروعها أن تنصف الناس جميعاً على اختلاف مللهم ونحلهم ، وأن ترحمهم ، وتُعينهم في أمر دينهم ودنياهم ، لأن الخلق كلهم عيال الله ، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله ، والنبي صلى الله عليه وسلم ينفي عن الرجل انتماءه للإسلام إذا غش كائناً من كان فقال :

((**لَيْسَ مِنَّا مَنْ غَشَّنَا**)) .

[رواه الإمام أحمد]

10 ـ من فروع محبة الله الرفق بالمخلوقات جميعا :

محبة الله أصل ، ومن فروعها أن ترفق بالمخلوقات جميعاً ، وأن ترحمهم ، فعَنْ ابْنِ عُمَرَ :

((**لَعَنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ مَثَّلَ بِالْحَيَوَانِ**)) .

[رواه البخاري ومسلم]

ونهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يُقتل شيء من الدواب صبراً ، ونهى عن التحريش بين البهائم ، وأن يتخذ شيء من الروح غرضاً ، أي هدفاً في الرمي ، روى الإمام البخاري عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :



((دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمْهَا ، وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ)) .

[رواه البخاري]

وروى أيضاً عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((أَنَّ رَجُلًا رَأَى كَلْبًا يَأْكُلُ الثَّرَى مِنْ الْعَطَشِ ، فَأَخَذَ الرَّجُلُ خُفَّهُ ، فَجَعَلَ يَغْرِفُ لَهُ بِهِ حَتَّى أَرْوَاهُ ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ ، فَأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ)) .

[رواه البخاري]

الخطبة الثانية : كيف تكون هذه المحبة والألفة ؟

يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾

(سورة الأنفال)

كيف تكون هذه المحبة والألفة ؟ وما شروطها وموجباتها ؟ وما ثمارها ونتائجها ؟

قصة عمير بن وهب الجمحي : دروس في المحبة وعِبر :

يتضح ذلك كله من قصة عمير بن وهب الجمحي الذي نجا من الموت في معركة بدر ، وخلَّف ابنه وهباً أسيراً في أيدي المسلمين .. جلس ذات يوم في فناء الكعبة ، مع صفوان بن أمية ، سيد قريش وزعيم الشرك ، يتذاكران بدراً ، فقال عمير لصفوان : ورب الكعبة ، لولا ديون عليَّ ليس عندي ما أقضيها ، وعيال أخشى عليهم الضياع من بعدي لمضيت إلى محمد، وقتلته ، وحسمتُ أمره ، وأرحتكم منه ، فقال صفوان : يا عمير ، اجعل دينك كله علي ، فأنا أقضيه عنك مهما بلغ ، وأما عيالك فسأضمهم إلى عيالي ما امتدت بي وبهم الحياة ، وإن في مالي من الكثرة ما يسعهم جميعاً ، ويكفل لهم العيش الرغيد ، فامض لما أردت ، عندها أمر عمير بسيفه فشُحِذ ، وسُقيَ سماً ، ودعا براحلته فأعدّت ، وقُدِّمت له ، ويمَّمَ وجهه شطر المدينة ، وملءُ برديه الضغينة والشر ، ولما بلغها مضى نحو المسجد ، يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلمحه سيدنا عمر رضي الله عنه ، وهو على باب المسجد ، فأقبل عليه ، وأخذ بتلابيبه ، وطوَّق عنقه بحمالة سيفه ، ومضى به نحو رسول الله صلى الله عليه



وسلم وقال : يا رسول الله هذا عدو الله عمير بن وهب جاء يريد شراً .. فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم على هذه الحال قال لعمر : أطلقه ، فأطلقه ، ثم قال له : استأخر عنه ، فتأخر عنه، ثم توجه النبي صلى الله عليه وسلم إلى عمير ، وقال له : ادن مني يا عمير ، فدنا فقال له : ما الذي جاء بك يا عمير ؟ قال : جئت أرجو فكاك هذا الأسير ، الذي في أيديكم فقال له: فما بال هذا السيف الذي في عنقك ؟ قال : قبَّحها الله من سيوف ، وهل أغنت عنا شيئاً يوم بدر ؟ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألم تقل لصفوان في فناء الكعبة عند الحجر : لولا دين عليَّ ، وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمداً ، فتحمَّل لك صفوان بن أمية دينك وعيالك على أن تقتلني ، والله حائلٌ بينك وبين ذلك ، فذهل عمير .. وقال : أشهد أنك لرسول الله ، لأن خبري مع صفوان لم يعلم به أحد إلا أنا وهو ، ووالله لقد أيقنت أنه ما أتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذي ساقني إليك ، ليهديني إلى الإسلام فقال صلى الله عليه وسلم : ((**فقهوا أخاكم في دينه ، وأقرئوه ، وعلموه القرآن ، وأطلقوا أسيره .. ففعلوا**)) .

[كنز العمال]

وموطن الشاهد في هذه القصة ، أن سيدنا عمر رضي الله عنه قال بعد أن آمن عمير بن وهب بالله ورسوله ، واصطلح مع الله ورسوله : دخل عمير على رسول الله صلى الله عليه وسلم والخنزير أحبُّ إلي منه ، وخرج من عنده وهو أحبُّ إلي من بعض أبنائي ، ولنذكر قوله تعالى :

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾

(سورة آل عمران : **103**)

حينما نؤمن بالحقيقة نفسها ، ونسعى لهدف واحد ، ونسلك سبيلاً واحداً ، وحينما نتمثل القيم الإنسانية الرفيعة ، ونتخلق بالأخلاق الأصيلة التي تسمو عن الزمان والمكان يكون اللقاء حتمياً ، والحب صادقاً والتعاون مثمراً ، وتحقق خلافة الإنسان في الأرض وتصبح البشرية في أرقى أطوارها .



03 - الإخلاص

الإخلاص :

1 ــ الغاية من خلق الإنسان عبادة الله :

يقول الله جل وعلا :

وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴿٥﴾

(سورة البينة)

تعلق أمر الله لهذا المخلوق الأول والمكرم الإنسان بشيئيــن ، واقتصر عليهما ، الأول : العبادة أي الانقياد التــــام لأمره ، الثاني : الإخلاص له ، وهو تصفية القلب عن الشك والشرك ، العبادة للظاهر ، والإخلاص للباطن ، العبادة للجوارح ، والإخلاص للقلب ، العبادة لما يظهر ، والإخلاص لما يخفى ، أي أن المؤمن الحق منقاد إلى أمر الله بأعضائه ، وجوارحه ، مخلص له في قلبه .. ولا يخفى أن الإخلاص شطر الإيمان ، بل هو الإيمان كله .

2 ــ العمل له بواعث :

إن البواعث التي تسوق المرء إلى العمل ، وتدفعه إلى إجادته ، وتُغريه بتحمّل التعب فيه ، أو بذل الكثير من أجله ، إن هذه البواعث كثيرة متباينة ، من هذه البواعث ما هو قريب، يكاد يُرى مع العمل ، ومنها ما هو بعيد يحتاج في إدراكه إلى كدٍّ ، وبُعد نظر ، منها الواضح الذي لا يختلف فيه اثنان ، ومنها الغامض الكامن في أعماق النفس ، حيث يسهر الخلق ، ويختصمون في تحديده ، وتقييمه .



من البواعث ما هو فطري ، مركب في جبلة الإنسان ، تدفعه إلى الح فاظ على وجوده، وعلى سلامة وجوده ، وعلى كمال وجوده ، وعلى استمرار وجوده .

ومن البواعث ما هو كسبي ينبعث في النفس ، إثر معرفتها بربها ومعرفتها بذاتها ، ومعرفتها بما أُعد لها من نعيم مقيم في جنة عرضها السماوات والأرض .

وكلما ارتقى الإنسان في سلَّم العلم النافع ، الذي أراده الله ، ارتقى معه الباعث الذي يبعث النفس إلى جلائل الأعمال ، ورفيع الخصال .

وكلما ابتعد عن العلم الموصل إلى الله هبط الباعث النفسي عنده إلى مستوى يبعث النفس إلى الدنيء من الأعمال والخسيس من الخصال

والعمل الصالح مظهر للإيمان ، وبرهان عليه ، بل إن الإيمان بلا عمل كالشجر بلا ثمر ، وهو ثمن الجنة بل مفتاح أبوابها ، ونوعه وحجمه يحددان منزلة المؤمن فيها ، قال تعالى :

ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾

(سورة النحل)

وقال أيضاً :

وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾

(سورة الأنعام)

3 ــ النية هي الفارق في الأعمال :

وقيمة العمل ترجع قبل كل شيء إلى طبيعة البواعث التي وراءه ، بل إن الباعث وحده يحدد قيمة العلم ، فلو رأى إنسان في الطريق قطعة نقدية كبيرة ، فانحنى والتقطها ، وفي نيته أن يبحث عن صاحبها ، فقد قام بعمل يُثاب عليه ، ولو رأى إنسان آخر هذه القطعة الكبيرة من النقود فانحنى ، والتقطها ، وفي نيته أن يأخذها ، من دون أن يبحث عن صاحبها فقد قام



بعمل يُعاقب عليه ، إن العملين متشابهان ، بل هما متطابقان ، لكن الذي جعل من الأول صالحاً ، والثاني عملاً سيئاً هو النية ليس غير .

عن أمير المؤمنين عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى الْمِنْبَرِ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**)) .

[رواه البخاري ومسلم]

4 ــ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا : أخلصه وأصْوبه :

وقال تعالى :

ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾

(سورة الملك)

وقال الفضيل بن عياض مفسراً : ﴿ **أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا** ﴾ هو أخلصه وأصوبه ، قيل : يا أبا علي ما أخلصه ، وما أصوبه ؟ فقال : إن العمل إذا كان خالصاً ، ولم يكن صواباً لم يُقبل ، وإذا كان صواباً ، ولم يكن خالصاً لم يقبل ، ولا يقبل حتى يكون خالصاً وصواباً ، والخالص أن يبتغي بعمله وجه الله ، لقوله تعالى :

إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾

(سورة الإنسان)

والصواب ما وافق السنة لقوله تعالى :



﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ثم قرأ الفضيل :

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾

(سورة الكهف : 110)

وقال تعالى :

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

قيل : هي الأعمال التي كانت على غير السنة ، أو التي أُريد بها غير وجه الله ، وفي الحديث القدسي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى :

((**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**)) .

[مسلم]

وفي حديث آخر :

((**الإخلاص سرٌّ من سري ، أستودعه قلب من أحببت من عبادي**)) .

[ورد في الأثر]

5 ـ الإخلاص يقلب العمل الدنيوي إلى عبادة :

إن الإخلاص في طلب مرضاة الله ، يرفع العمل الدنيوي المحض فيجعله عبادة متقبلة ، فعمل الإنسان الذي يرتزق منه إذا كان مشروعاً في الأصل ، وسلك فيه الطرق المشروعة ،



وابتغى به أن يكفَّ نفسه عن سؤال الناس ، وأن ينفق منه على أهله ، ومن يعول، وابتغـــى به خدمة الناس بعامة الذين هم عيال الله ، وخدمة المسلمين بخاصة ، ولم يحمله عمله هذا على معصية الله ، كما لم يشغله عن فرض ، أو واجب ديني ، أو طاعة ، إذا توافرت في العمل الذي يرتزق منه الإنسان ، هذه الشروط انقلب هذا العمل إلى عبادة متقبلة .

وقد ورد عن بعض الصالحين ، أنه رأى رجلاً يصلي في المسجد ، ولا يعمل فسأله : **<< من يطعمك ؟ قال : أخي ، قال : أخوك أعبد منك >>** .

عَنْ مُعَاذٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ :

((**مَنْ بَنَى بُنْيَانًا مِنْ غَيْرِ ظُلْمٍ وَلَا اعْتِدَاءٍ ، أَوْ غَرَسَ غَرْسًا فِي غَيْرِ ظُلْمٍ وَلَا اعْتِدَاءٍ كَانَ لَهُ أَجْرٌ جَارٍ مَا انْتُفِعَ بِهِ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى**)) .

[رواه الإمام أحمد]

وروى الإمام مسلم في صحيحه عَنْ جَابِرٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا إِلَّا كَانَ مَا أُكِلَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةً ، وَمَا سُرِقَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ ، وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ مِنْهُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ ، وَمَا أَكَلَتْ الطَّيْرُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ ، وَلَا يَرْزَؤُهُ أَحَدٌ إِلَّا كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ**)) .

[رواه الإمام مسلم في صحيحه]

فالأعمال الدنيوية المحضة تنقلب بالنيات الطيبة إلى عبادات ، وأعمال صالحة ، وإن واجبات الإنسان تجاه نفسه وأهله وأولاده التي يؤديها الناس كافة إذا رافقتها النيات الحسنة تنقلب إلى أعمال صالحة يُثاب الإنسان عليها ، عَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((**مَا أَطْعَمْتَ نَفْسَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ ، وَمَا أَطْعَمْتَ وَلَدَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ ، وَمَا أَطْعَمْتَ زَوْجَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ ، وَمَا أَطْعَمْتَ خَادِمَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ**)) .

[رواه الإمام أحمد في مسنده]

وعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ أَنَّهُ أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((**إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فَمِ امْرَأَتِكَ**)) .

[رواه الإمام البخاري]

6 ـ الإخلاص في طلب مرضاة الله تعالى وحده يُعدُّ عملاً صالحاً :



وقد يعجب الإنسان أن الإخلاص في طلب مرضاة الله تعالى وحده يُعدُّ عملاً صالحاً حينما تحول الظروف القاهرة بين الإنسان وبين أعماله التي يبتغي بها مرضاة الله ، ففي غزوة العسرة تقدم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجال يريدون أن يقاتلوا الكفار معه ، وأن يجودوا بأنفسهم في سبيل الله ، غير أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يستطع تجنيدهم ، فعادوا وفي حلوقهم غُصة لتخلفهم عن الميدان ، وفيهم نزل قوله تعالى :

وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾

(سورة التوبة)

وقد نوه النبي صلى الله عليه وسلم بإيمان هؤلاء القوم وإخلاصهم فقال للجيش السائر : ((**إِنَّ أَقْوَامًا بِالْمَدِينَةِ خَلْفَنَا مَا سَلَكْنَا شِعْبًا وَلَا وَادِيًا إِلَّا وَهُمْ مَعَنَا فِيهِ حَبَسَهُمْ الْعُذْرُ**)) .

[رواه البخاري]

بل إنه صلى الله عليه وسلم يَعدُّ المرض والسفر إذا رافقه الإخلاص في طلب مرضاة الله يوجب لصاحبه أجر الأعمال الصالحة التي كان يفعلها في صحته وحضره ، حيث قال : ((**إن الله تعالى يكتب للمريض أفضل ما كان يعمل في صحته مادام في وثاقه ، وللمسافر أفضل ما كان يعمل في حضره**)) .

[ذكره الهندي في كنز العمال]

7 ـ الرياء نقيض الأعمال :

أما الرياء الذي هو نقيض الإخلاص ، فإذا داخل الأعمال الصالحة في أتم صورها ، بل إذا داخل العبادات المحضة يقلبها إلى أعمال توجب اللوم والعقوبة ، قال تعالى :

فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ﴿٧﴾

(سورة الماعون)



حتى إن إنفاق المال الذي زُين للناس عامة حيازته إذا داخله الرياء فَقَدَ قيمته وأجره ، قال تعالى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾

(سورة البقرة)

لذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

((**أخلص دينك يكفك العمل القليل**)) .

[أخرجه الحاكم عن معاذ 306/4 وصححه]

أقوال العلماء في الإخلاص :

ومن أقوال بعض العلماء في الإخلاص :

ـــ الإخلاص : استواء أعمال العبد ، في الظاهر والباطن ، والرياء أن يكون ظاهر العبد خيراً من باطنه ، والصدق في الإخلاص أن يكون باطن العبد أعمر من ظاهره .

ـــ إفراد الحق سبحانه بالقصد في الطاعة ، وتصفية هذه الطاعة عن ملاحظة الخلق .

ـــ المخلص لا رياء له ، والصادق لا إعجاب له ، ولا يتم الإخلاص إلا بالصدق ، ولا يتم الصدق إلا بالإخلاص ، ولا يتمان إلا بالصبر .

ـــ الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق ، ومن تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله .

ـــ وقيل : ترك العمل من أجل الناس رياء ، والعمل من أجل الناس شرك ، والإخلاص أن يعافيك الله منهما .



ــ والإخلاص سرٌ بين الله وبين العبد ، لا يعلمه مَلَك فيكتبه ، ولا شيطان فيُفسده ، ولا هوى فيميله .

ــ الإخلاص ألا تطلب على عملك شاهداً غير الله ، ولا مُجازياً سواه

ــ من شهد في إخلاصه الإخلاص ، احتاج إخلاصه إلى إخلاص ، وحينما ينجو المؤمن من إعجابه بإخلاصه ، يصبح مخلِصاً مخلَصاً فأشدُّ شيء على النفس الإخلاص ، لأنه ليس له ا فيه نصيب .

الخطبة الثانية : مَن هو زيد الخير ؟

لقد كان زيد الخير من أشجع الناس ، وأجودهم في الجاهلية ، بلغته أخبار النبي صلى الله عليه وسلم ، ووقف على شيء مما يدعو إليه ، فأعدَّ راحلته ، ودعا السادة الكبراء من قومه إلى زيارة يثرب ، ولما بلغوا المدينة ، توجهوا إلى المسجد النبوي ، وأناخوا ركائبهم ببابه ، وصادف عند دخولهم أنه كان صلوات الله وسلامه عليه يخطب المسلمين فوق المنبر ، فراعهم كلامه ، وأدهشهم تعلُّق المسلمين به ، وإنصاتهم له ، وتأثُّرهم بما يقول ، ولما أبصرهم النبي صلى الله عليه وسلم قال :

((**إني خير لكم من العُزَّى ، ومن كل ما تعبدون إني خير لكم من الجمل الأسود الذي تعبدونه من دون الله** – مكنياً عن أَنْفَس المال في الجزيرة – فلما انتهى الرسول صلى الله عليه وسلم من خطبته وقف زيد بين جموع المسلمين ، وكان من أجمل الرجال ، وأتمهم خلقة ، وأطولهم قامة ، وقف ، وأطلق صوته الجهير ، وقال : **يا محمد أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله** ، فأقبل عليه النبي صلى الله عليه وسلم وقال : **من أنت ؟ قال : أنا زيد الخيل** ، فقال عليه الصلاة والسلام : **بل زيد الخير ، لا زيد الخيل ، والحمد لله الذي جاء بك من سهلك وجبلك ، ورقق قلبك للإسلام ، ثم مضى به الرسول صلـــى الله عليه وسلم إلى منزله تكريماً له ومعه عمر بن الخطاب ، ولفيف من الصحابة**)) .

وفي البيت طرح النبي صلى الله عليه وسلم لزيد مُتَّكأً ، فعظم على زيد وهو حديث عهد بالإسلام أن يتَّكئ في حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، والله لا أتكئُ في حضرتك ، ولما استقر بهم المجلس ، قال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : يا زيد ما وُصف لي رجلٌ قطُّ ثم رأيته إلا كان دون ما وصف إلا أنت يا زيد ، ثم قال له : يا



زيد ، إن فيك لخصلتين يحبُّهما الله ورسوله ، قال : وما هما يا رسول الله ؟ قال : الأناة والحلم ، فقال زيد : الحمد لله الذي جعلني على ما يحبُّ الله ورسوله ، ثم التفت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : يا رسول الله أعطني ثلاثمائة فارس ، وأنا كفيل لك بأن أُغير على بلاد الروم ، وأنال منهم ، فأكبر النبي صلى الله عليه وسلم همته هذه ، وقال له : لله درك يا زيد ، أيُّ رجل أنت ؟ .. ثم أسلم مع زيد جميع من صحبه من قومه ، ولما همَّ بالرجوع إلى ديار قومه في نجد ، ودَّعه النبي صلى الله عليه وسلم وقال : أيُّ رجل هذا ؟ وفي الطريق إلى دياره وافته المنية ، ولم يكن بين إسلامه وموته متَّسع ، ولكن إخلاصه في إسلامه ، ونواياه الكبيرة في نشر هذا الدين أغنته عن كثير من العمل الذي يشوبه الرياء ، قال صلى الله عليه وسلم : ((**يا معاذ أخلص دينك يكفك القليل من العمل**)) .

[الجامع الصغير عن معاذ ، وسنده ضعيف]

04 - القلب

العبادات في الإسلام لها غايات كبرى وحكم عظمة ، فإن لم نبلغها فلا أقل من أن نتعرفها ، حتى نسير نحوها ، وإذا خلت العبادات من هذه الحكم والغايات انقلبت إلى طقوس ومبهمات .

وقد بين القرآن الكريم هذه الحكم ، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر والزكاة تطهر وتزكي ، والصيام شرع من أجل التقوى .

قال تعالى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾

(سورة البقرة : 183) .

والتقوى نور يقذفه الله في القلب ، فيرى به الحق حقاً فيتبعه والباطل باطلاً فيجتنبه ، ولا بد لهذا القلب من أن يكون مهيئاً لتلقي هذا النور ، ومن هنا شرع الصيام ، لتنمية إخلاصه في العبادة، وتقوية إرادته على الطاعة ، وترسيخ معاني عبودية لله عز وجل ، فضلاً على أن الصيام يحقق وقاية الجسد ، وصيانة أجهزته ، من الإجهاد والعطب.



فالعبادات أيها الأخوة :

في مجموعها ، وعلى اختلاف أنواعها وأشكالها ، تهدف إلى تطهير القلب من أمراضه ، وتحليته بالكمالات التي أرسلها الله لها كي يسمو إلى خالقه ويسعد بقربه ، وينعم بجنته .

أيها الأخوة المؤمنون :

القلب له في جسم الإنسان المكان الأول وعليه في جميع الأمور معوال ، ولا عجب فهو القائد ، والجوارح جنود له وخدم ، وهو الآمر الناهي ، والأعضاء أتباع له وحشم وحسبك فيه قول الله تبارك وتعالى :

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ



(سورة ق : 37) .

والقلب أيها الأخوة :

حقيقة الإنسان ، ومن عجيب أمر الله تعالى فيه ، أنه جعل ببقائه قلب الجسد وصحته وانتظام عمله ، حياة الجسد ونشاطه ، وجعل بطهارة قلب النفس وسلامته حياة الروح وازدهارها .

والقلب هو الجانب المدرك من الإنسان ، وهو المخاطب والمطالب ، والمعاتب ، وهو محل العلم، والتقوى ، والإخلاص والذكرى ، والحب ، والبغض ، والوساوس ، والخطرات ، وهو موضع الإيمان ، والكفر ، والإنابة ، والإصرار ، والطمأنينة والاضطراب .

والقلب هو العالم بالله ، والمتقرب إلى الله ، وهو المقبول عند الله ، إذا سلم من غير الله ، وهو المحجوب عن الله ، إذا استغرق لغير الله ، وهو الذي يسعد بالقرب من الله ، ويشقى بالبعد عنه ، قال تعالى في الحديث القدسي : عبدي طهرت منظر الخلق سنين ، أفلا طهرت منظري ساعة ، والقلب هو منظر الرب ، ولا يفلح الإنسان ولا يطيب إلا إذا زكاه ، ويخيب ويشقى إذا دنسه ودساه .

مشاهدي العزيز :

لعلك إن فتشت عن أعجب ما خلق الله في السماء والأرض لم تجد لا أعجب ، ولا أروع ، ولا أدق ، ولا أجمل من قلب الإنسان .

تصلح أوتاره فيفض رحمةً ، وشفقةً ، وحباً ، وحناناً ، ومعانياً لطافاً ، وشعوراً رقيقاً ، حتى يتجاوز في سموه الملائكة المقربين .



وتفسد أوتاره ، فينضح قسوة ولؤماً ، وسوءاً حتى يهوى إلى أسفل سافلين ، حوى على دقته كره العالم ، فما أدقه وأجله ، وما أصغره وأعظمه .

يكبر ولا نرى كبره ، فيتضاءل أمامه كل كبير .

ويصغر ولا نرى صغره ، فيتعاظم عليه كل صغير .

اتحد شكل القلب ، واختلفت معانيه ، فقلب كالجوهرة ، الكريم صفى لونه ، وراق مائه ، وقلب كالصخر قوي متين ، ينفع ولا يلمع وقلب هواء خف وزنه وحال لونه ، يموت القلب ثم يحيى، ويحيى ثم يموت ، ويرتفع إلى الأوج ، ويهبط إلى الحضيض ، وبينما هو يسامي النجوم رفعة إذا هو يلامس الطاعة طاعة ، أليس أعظم بناة العالم قد امتازوا بكبر القلب ، وصدق الشعور ، وقوة الإرادة ، إنما إن وجد كل شيءٍ وفقد قلبه لم يجد شيئاً .

أيها الأخوة الأحباب :

أما قلب الجسد ، فهو من أعجب ما خلق الله ، إنه مضخة مزدوجة ، تضخ الدم الذي يحمل الغذاء والوقود إلى كل خليةٍ ، ونسيج وعضوٍ ، وجهاز ، عن طريق شبكة من الأوعية يزيد طولها عن مائة وخمسين كيلومتر .

إنه يعمل منذ الشهور الأولى من حياة الجنين ، وحتى يحين الحين ، لا يغفل ولا يغفو ، ولا ينسى ولا يسهو ، ولا يقعد ولا يكبو ولا يمل ولا يشكو ، يعمل من دون راحة ، ولا مراجعة ، ولا صيانة ولا توجيه .

الإنسان بجبروته يؤذيه ، وبنار حقده يكويه ، وبالأحزان يبليه وهو أساس حياة الإنسان ، وشمس عالمه ، عليه يعتمد في كل أعماله وأحواله ، ومنه تنبع كل قواه ، وحركاته .. وهو آلة خارقة!.. لا يعرف التعب إليها سبيلا ، تزداد قدرتها أضعاف كثيرة ، لتواجه الجهد الطارئ ، إنه عضلة من أعقد العضلات ، بناءً وعملاً وأداءاً ، ومن أمتنها وأقواها ، تنقبض وتنبسط ، ثمانين مرةً في الدقيقة ، ويصل النبض في الجهد الطارئ إلى مائة وثمانين ، ويضخ القلب ثمانية آلاف لتر في اليوم الواحد ، أي ما يعادل ثمانية أمتار مكعبة من الدم ويضخ القلب من الدم في طول عمر الإنسان ما يكفي لملئ مستودع بحجم إحدى أكبر ناطحات سحاب في العالم.

وينفرد القلب باستقلاله عن الجهاز العصبي ، فتأتمر ضرباته وتنتظم بإشارة كهربائية من مركز توليد ذاتي هي أساس تخطيطه وتتغذى عضلة القلب بطريقة فريدة فذى !! ومن أعجب ما فيه دساماته المحكمة التي تسمح للدم بالمرور باتجاه واحد ، وهو مبدأ ثابت بالمضخات .



حتى إذا سكن القلب في قفصه ، واستراح من غصصه ، خلف وراءه جثةً هامدة كأنها أعجاز نخلة هاوية ، لقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول : *ألا إن في الجسد مضغةً إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب* .

ورحم الله الشاعر إذ يقول :

دقـــــــاتُ قلبِ المرء قائـــــــلةٌ لـــــه   إن الحياةَ دقائـــــقٌ وثوانـــــي

فارفع لنفسِكَ قبل موتكَ ذكرهـــــــــــا   فالذكرُ للإنسان عمرٌ ثانـــــــني

05 - التوكل

موضوع التوكل ، موضوع مهم جداً في حياة المؤمن ، لأنه من لوازم إيمانه بالله تعالى ، بل هو ثمرة من ثمار إيمانه بالله تعالى ولابد قبل الحديث عن التوكل من أن نمهد له بموضوع يعد أساساً له وهو أن الله جل جلاله ، خلق الكون بسماواته وأرضه ، وخلق العوالم وعلى رأسها الإنسان وفق أنظمة بالغة الدقة .

ومن أبرز هذه الأنظمة ، نظام السببية ، وفي تعريف السببية تلازم شيئين حدوثاً وعدماً ، أحدهما قبل الآخر ، فنسمي الأول سبباً ونسمي الثاني نتيجة .

لكن مما يكمل هذا النظام ، أن العقل البشري يقوم في تركيبه على مبدأ السببية ؛ أي أن العقل لا يفهم حدثاً من دون محدث ، ومن رحمة الله بنا ، أن هذا النظام في الكون ، وذاك المبدأ في العقل   يقودنا برفق إلى معرفة الله مسبب الأسباب .

الأقدام تدل على المسير ، والماء يدل على الغدير ، أفسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، ألا تدلان على الحكيم الخبير ؟.

ومن رحمة الله بنا ثانية :

أن تلازم الأسباب مع النتائج يضفي على الكون طابع الثبات ويمهد الطريق لاكتشاف القوانين ، ويعطي الأشياء خصائصها الثابتة ليسهل التعامل معها ، ولو لم تكن النتائج بقدر الأسباب ، لأخذ الكون طابع العبثية ، ولتاه الإنسان في سبيل المعرفة ، ولم ينتفع بعقله .

والآن إلى موضوع التوكل :

سؤال ؟

إذا كان الأمر كذلك ، فما هي حقيقة التوكل ؟ وما هي مجالاته المشروعة ؟



أستاذ عدنان ، التوكل مكانه قلب المؤمن ، وأما الأخذ بالأسباب فمكانه الجوارح والأعضاء ، فإذا تركنا الأخذ بالأسباب ، توكلاً على الله ، وقعنا في مرض خطير ؛ هو سبب تخلف المسلمين ، وقد يطلق على هذه الحالة المرضية الخطيرة التي تصيب المسلمين بالشلل يطلق على هذه الحالة بالتواكل ، وهو نقيض التوكل ، أراد الله أن توكل ، لكن لم يرد بنا أن نتواكل .

فمن أخذ بالأسباب واعتمد عليها فقد حبط عمله ، وسلك طريقاً لا يصل به إلى الله عز وجل .

لذلك يتفضل الله على هذا الإنسان فيؤدبه ، كيف يأدبه بتعطيل فاعلية الأسباب التي اعتمد عليها ، فيفاجأ هذا الإنسان بنتائج غير متوقعة ، لكن في حالة أخرى ، من ترك الأخذ بالأسباب متوكلاً في زعمه على الله ، فقد عصى ، فقد عصى ربه ، لأنه لم يع بأ بهذا النظام، الذي ينتظم الكون ، ولأنه طمع بغير حق ، أن يخرق الله له هذه السنن .

قال عمر رضي الله عنه : المتوكل من ألقى حبةً في الأرض ثم توكل على الله .

سؤال ؟

طيب إذا أخطأنا فهم حقيقة التوكل ، فانزلقنا إلى أن يحبط عملنا أو إلى معصية ، من خلال ترك الأسباب ، فما الذي يحدث ؟

الأستاذ :

الحقيقة هذا يقودنا إلى رأي علماء التوحيد في هذا الموضوع علماء التوحيد يرون ، أن السبب لا يعد كافياً لخلق النتيجة ، فالنار لا تحرق بذاتها ، بل عند مشيئة الله لها أن تحرق ، واستنبط العلماء هذه الحقيقة من أدلة نقلية وعقلية و واقعية ، وعبروا عنها اختصاراً عندها لا بها ؛ أي أن النار لا تحرق بقوة الإحراق الذاتية التي أودعت فيها فيما يبدو ، بل بمشيئة الله تعالى لها أن تحرق فالكي لا نتوهم أن الأسباب وحدها تخلق النتائج ، فنتجه إليها ، ونعتمد عليها ، من دون الله ، لأن علة وجودنا أن نؤمن بالله ، وأن توجه إليه ، وأن نعتمد عليه لنسعد به .

لذلك من تربية الله لنا ، ومن رحمته بنا ، ومن تأديبه لنا أنه يخرق لنا أحياناً هذه القاعدة، وقاية لنا من الشرك ، وترسيخاً للتوحيد عندئذٍ تعطل الأسباب ، كما وقع لسيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام حينما ألقي في النار .



قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾

(سورة الأنبياء : 69) .

وأحياناً يوجد السبب ولا تتحقق النتيجة ، وأحياناً توجد النتيجة من دون سبب ، أو من دون سبب كافٍ .

قال تعالى ، وقد حدثنا عن سيدنا عيس عليه الصلاة والسلام :

وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ

(سورة آل عمران : 49) .

وباختصار التوكل درب ضيق عن يمينه وعن شماله واديان فمن أخذ بالأسباب ، واعتمد عليها ، فقد انزلق إلى إحباط العمل ، ومن لم يأخذ بها فقد انزلق إلى معصية الله ، لكن الموقف الدقيق الذي أراده الله عز وجل ، أن نأخذ بالأسباب من دون أن نعتمد عليها ، وأن توكل على مسبب الأسباب رب العالمين .

هذه حقيقة التوكل التي أرادها الله عز وجل ، وقد ورد التوكل في آيات كثيرة ، فقال تعالى :

وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ

(سورة إبراهيم : 12) .

وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله .

سؤال :

يعني هنا يحضروني بعض الأمثلة ، حتى فيما يمكن أن يقال في قمة الاختراعات والتصنيع ، مثلاً لكل عام نجد في السيارات طرازاً جديداً يختلف عما سبقه ، عندما صممت السيارة درست من قبل مهندسين ، درست من قبل أخصائيين ، من كل النواحي ، وصنعت بعد ذلك السيارة ، في العام التالي نجد تعديلاً فيها ، ترى ألم يأخذوا بالأسباب من قبل ؟ أخذوا بالأسباب ، طيب لماذا جاء هذا التعديل إن كانت الأسباب تودي إلى الصحة المتكاملة باستمرار ؟ لاشك أن الإنسان وعقله ، عاجز عن تأدية الكمال ، هنا دور الإيمان ، أن



الإنسان يؤدي الأسباب كاملة ، وبعد ذلك يلتجئ إلى الله تعالى أن يارب إني قد أديت ما عليّ وبعد ذلك أتوكل عليك .

الأستاذ :

الحقيقة هذا الطرح الذي طرحتموه دقيق جداً ، لأن خبرة الإنسان مكتسبة ، خبرته حديثة، محدثة ، لكن خبرة الله قديمة ، فلم يطرأ أي تعديل على خلقة الله عز وجل ، لأن كماله مطلق ، وخبرته قديمة ، أما الإنسان بحكم ضعفه .

قال تعالى :

وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴿٢٨﴾

(سورة النساء : 28) .

فخبرته يكتسبها شيئاً فشيئاً ، فهذا لا يمنع أن نأخذ بالأسباب دائماً ، وكلما واجهنا مشكلة نبحث عن أسبابها ، ونغطي هذا السبب بعلاج ناجح ، ونافع .

06 - رحمة الله

ورد في كتاب الترغيب والترهيب ، عن عبادة ابن الصامت رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : **أتاكم رمضان ، شهر بركة ، يغشاكم الله فيه ، فينزل الرحمة ، ويحط الخطايا ، ويستجيب فيه الدعاء ، وينظر الله تعالى إلى تنافسكم فيه ويباهي بكم ملائكته ، فأروا الله من أنفسكم خيرا ، فإن الشقي من حرم فيه رحمة الله** عز وجل ، رواه الطبراني وقال رواته ثقات .

أيها الأخوة المشاهدون :

أن نصل إلى رحمة الله ، ونحظى بها ، هو سر وجودنا وغاية عبادتنا ، فرحمة الله مقصد كل مؤمن ، إليها تشتاق الأنفس وبها تطمئن القلوب ، قال تعالى :

وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ

(سورة هود : 118ــ 119) .



بل إن رحمة الله تعالى هي محط الرحال ، ونهاية الآمال وغاية الغايات ، قال تعالى :

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ

(سورة آل عمران : 106) .

ثم يقول الله عز وجل :

وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾

(سورة آل عمران : 107) .

ولكن يا أخوة الإيمان ، ما حقيقة رحمة الله ؟..

إنها كروح في الجسد ، بها يقف ، وبها يتحرك ، وبها يفكر وبها يتكلم ، وبها يستمع ، يسعد بها الإنسان ، ولو فقد كل شيء ويشقى بفقدها ، ولو ملك كل شيء ، رحمة الله ليست ملك أحد فيمسكها أو يرسلها ، ولكنها في متناول كل واحد من البشر ، إذا هو دفع ثمنها .

قال تعالى :

مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾

(سورة فاطر : 2) .

وقال تعالى :

إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾

(سورة الأعراف : 56) .

مشاهدي الأعزاء :

ما من نعمة ــ يمسك الله معها رحمته ــ إلا وتنقلب بذاتها نقمة وما من محنة تحفها رحمة الله ، إلا وتكون هي بذاتها نعمة ، ينام الإنسان على الشوك مع رحمة الله ، فإذا هو مهاد وثير ، وينام على الحرير ، وقد أمسكت عنه رحمة الله ، فإذا هو شوك القتاد .

يعالج المرء أعسر الأمور برحمة الله ، فإذا هي هوادة ويسر ويعالج أيسر الأمور ، وقد تخلت عنه رحمة الله ، فإذا هي مشقة وعسر ويخوض المخاوف والأخطار ، ومعه رحمة



الله، فإذا هي أمنٌ وسلام ويعبر المناهج والسبل ، وقد أمسكت عنه رحمة الله ، فإذا هي مهلكةٌ وبوار .

رحمة الله لا تعز على طالب كائناً من كان ، في أي زمان ومكان ، وفي أي حال ومآل ، وجدها إبراهيم عليه الصلاة والسلام في النار ، ووجدها يوسف عليه الصلاة والسلام ، في الجب كما وجدها في السجن ، ووجدها يونس عليه الصلاة والسلام ، في بطن الحوت في ظلمات ثلاث ، ووجدها موسى عليه الصلاة والسلام ، في اليم ، وهو طفلٌ مجرد من كل قوة وحراسة ، ووجدها أصحاب الكهف في الكهف حينما افتقدوها في الدور والقصور ، فقال بعضهم لبعض :

فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ

(سورة الكهف : 16) .

ووجدها عليه الصلاة والسلام ، وصاحبه في الغار ، والأعداء يتعقبون ويقصون الآثار ، ويجدها كل مؤمنٍ أوى إليه ، يائساً ممن سواها ، قاصداً باب الله وحده ، من دون كل الأبواب .

أيها الأخوة الأحباب :

يبسط الله الرزق مع رحمته ، فإذا هو متاع طيبٌ ، ورخاء وإذا هو رغد في الدنيا ، وزادٌ إلى الآخرة ، ويمسك رحمته ، فإذا هو مثار قلق وخوف ، وإذا ه و مثار حسد وبغض ، وقد يكون معه الحرمان ، ببخل أو مرض ، وقد يكون معه التلف بإفراط واستهتار .

يمنح الله الذرية مع رحمته ، فإذا هي زينة الحياة الدنيا ومصدر فرح واستمتاع ، ومضاعفة للأجر في الآخرة بالخلف الصالح ويمسك رحمته ، فإذا الذرية بلاءٌ ، ونكدٌ ، وعنتٌ ، وشقاءٌ ، وسهرٌ بالليل ، وتعب بالنهار .

يهب الله الصحة والعافية ، مع رحمته ، فإذا هي نعمة وحياة طيبة ، ويمسك رحمته ، فإذا الصحة والعافية ، بلاءٌ يسلط الله على الصحيح المعافى ، فينفق الصحة والعافية ، فيما يحطم الجسم ويفسد الروح ، ويزخر السوء إلى يوم الحساب .

ويعطي الله الجاه والقوة مع رحمته ، فإذا هي أداة إصلاحٍ ومصدر أمنٍ ، ووسيلةٌ لادخار الطيب الصالح من العمل والأثر ويمسك رحمته ، فإذا الجاه والقوة مصدرا قلق على فوته ،



ومصدرا طغيان وبغيٍ ، ومصدرا حقدٍ وكراهية ، لا يقر لصاحبها قرار ، ويدخر بها للآخرة، رصيداً ضخماً إلى النار .

أيها الأخوة المشاهدون :

بعد هذا الوصف الدقيق لآثار رحمة الله ، تطمح كل نفس إلى أن تنال من رحمة الله ما يسعدها في الدنيا والآخرة ، فتسأل النفس كيف السبيل إلى رحمة الله ؟ وهل في القرآن إشارات إلى موجباتها ؟.

نعم أيها الأخوة :

في القرآن إشارات كثيرة إلى موجبات الرحمة ، قال تعالى :

وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾

(سورة الحجرات : 10) .

أي إذا اتقيت أيها الإنسان ؛ أن تعصي الله عز وجل ، فقد حققت أحد موجبات رحمته .

وقال تعالى :

وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾

(سورة آل عمران : 132) .

أي إذا أتبعت المنهج الذي رسمه القرآن للإنسان ؛ وتفاصيله التي بينتها سنة النبي العدنان ، فقد حققت أحد موجبات الرحمة .

وقال تعالى :

وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾

(سورة النور : 56) .

فالصلاة أيها الأخوة :

هي العبادة الشعائرية ، التي إن صحت بالتزام أمر الله والإحسان إلى خلقه ، تتع رض نفس صاحبها من خلالها لرحمة الله وكان عليه الصلاة والسلام ، إذا دخل المسجد ، يدعو ويقول : اللهم أفتح لي أبواب رحمتك .

وقال تعالى :



وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾

(سورة الأعراف : 204) .

فإذا أردت أن تناجي ربك فادعه ، وإذا أردت أن يناجيك ربك فاقرأ القرآن ، ومن خلالها تجد رحمته .

وقال تعالى :

إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾

(سورة الأعراف : 56) .

فإذا أحسنت إلى الخلق كافة ، بكل أنواع الإحسان ، عندئذ تكون الرحمة قريبةً منك ، وفي الحديث القدسي : " إذا أردتم رحمتي فارحموا خلقي " .

اللهم يا من وسعت رحمتك كل شيء ، إنا نسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، اللهم علمنا ما ينفعنا ، وأنفعنا بما علمتنا وزدنا علما.

07 - الطمأنينة والسكينة

رمضان شهر التقوى ، شهر التوبة والغفران ، شهر الطاعة والإحسان ، شهر الذكر والقرب ، شهر التقوى والحب ، لقد فرضه الله علينا الصيام في كل عام ، ليكون موسماً يرقى فيه عباده الطائعون ، وفرحة لعباده الصالحين ، وفرصة يتوب فيه عباده المسيئون ، ويصطلحون فيه مع ربهم .

والتوبة أيها الأخوة :

إنما شرعها الله سبحانه وتعالى ، لتكون صوناً للهداية ، وسبيلاً للنجاة ، فهو جل جلاله ، يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل .

ويا أيها الأخوة الأكارم:

التوبة في حقيقتها مخرج النجاة للإنسان حينما تحيط به خطيئاته وهي صمام الأمان حينما تضغط عليه سيئاته ، وهي تصحيح للمسار حينما تضله أهواؤه ، وهي حبل الله المتين ، حينما تغرقه زلاته وهي الصراط المستقيم حينما تنحرف به شهواته .



قال عليه الصلاة والسلام : رغم أنف عبد ــ أي خاب وخسر أدرك رمضان فلم يغفر له ، إن لم يغفر له فمتى ؟ إن الله سبحانه وتعالى لأفرح بتوبة عبده المؤمن من الضال الواجد ، والعقيم الوالد والظمآن الوارد .

كيف لا والله جل في علاه ؟ وقال في الحديث القدسي : وعزتي وجلالي إن أتاني عبدي ليلاً قبلته ، وإن أتاني نهاراً قبلته وإن تقرب مني شبراً ، تقربت منه ذراعاً ، وإن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً ، وإن مشى إلي ، هرولت إليه ، وإن استغفرني غفرت له ، وإن استقالني أقلته ، وإن تاب إليّ قبلته ، وإن أقبل عليّ تلقيته من بعيد ، وإن أعرض عني ناديته من قريب ، ومن ترك لأجلي أعطيته فوق المزيد ، ومن استعان بحولي وقوتي ألنت له الحديد، ومن أراد مرادي أردته ما يريد ، أهل ذكري أهل مودتي ، أهل شكري أهل زيادتي ، أهل طاعتي أهل كرامتي ، أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي ، إن تابوا فأنا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب لطهرهم من الذنوب والمعايب ، أشكر اليسير من العمل وأغفر الكثير من الذلل ، رحمتي سبقت غضبي ، وحلمي سبق مؤاخذتي ، وعفوي سبق عقوبتي ، وأنا أرحم بعبدي من الأم بولدها .

والآن تعالوا يا أيها الأخوة :

لنرى ثمار التوبة اللامعة ، إنها الطمأنينة والأمن ، فلا خوف ولا حزن ، ولا قلق ، ولا هم ، فالإنسان حينما يلبي نداء فطرته السليمة فيؤمن بخالقه ومربيه وينطلق في طريق طاع ته ، والإحسان إلى خلقه عندئذٍ تتصل هذه النفس التائبة المنيبة بربها ، فإذا كل طمأنينتها وسعادتها بالقرب منه .

قال تعالى :

إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأٓخِرَةِ

(سورة فصلت 30 ــ 31).

أيها الأخوة الأكارم :

أي قلق يبقى ؟ إذا كان الله وليك ، وأي خوف يستحوذ عليك إذا كان الله معك ؟ وإذا كان الله



معك فمن عليك وإذا كان عليك فمن معك ؟ ويارب ماذا فقد من وجدك ؟ وماذا وجد من فقدك ؟
ابن أدم اطلبني تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فتك فاتك كل شيء وأنا أحب إليك من لكل شيء .

أيها الأخوة الأكارم :

التائب ينفذ توجيهات النبي صلى الله عليه وسلم ينفذ توجيهاته السديدة ، في شأن الدنيا ، وهموم المعاش فالنبي عليه الصلاة والسلام أمين وحي السماء ، ومبعوث العناية الإلهية وهو الرحمة المهداة والنعمة المزجاة ...

يقول عليه الصلاة والسلام في ما رواه الترمذي : من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله ، وأتته الدنيا وهي راغمة ، ومن كانت الدنيا أكبر همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله ، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له ، ومن جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله هم دنياه ، ومن تشعبته الهموم ، لم يبال الله في أي أودية الدنيا هلك .

وقد ورد في الأثر : أن خذ من الدنيا ما شئت ، وخذ بقدرها هماً ، ومن أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ من حتفه وهو لا يشعر وإن أسعد الناس في الدنيا أرغبهم عنها ، وأشقاهم فيها ، أرغبهم فيها .

أيها الأخوة الأحباب :

لقد علم النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه الكرام : أن يستعينوا بالله في النجاة من هموم الحياة الضاغطة ومقلقاتها الساحقة .

قال أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : دخل النبي عليه الصلاة والسلام المسجد ذات يوم ، فإذا هو برجل من الأنصار يقال له أبو أمامه ، فقال : يا أبى أمامه ، ما لي أراك جالساً في المسجد في غير وقت الصلاة ؟ قال يا رسول الله : هموم لزمتني وديون ، قال عليه الصلاة والسلام : أفلا أعلمك كلاماً إن قلته أذهب الله همك وقض دينك ؟ قلت بلى يا رسول الله ، قال عليه الصلاة والسلام : قل إذا أصبحت وإذا أمسيت اللهم : إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال ، قال : ففعلت فأذهب الله همي وقضى ديني .

يا أيها الأخوة الأكارم :

طوبى لمن عرف ربه ، عرفه قبل فوات الأوان ، طوبى لمن تاب إليه قبل أن لا تكون توبة، طوبى لمن أطاعه مخلصاً ، طوبى لمن أحسن إلى خلقه مخلصاً ، طوبى لمن طاب كسبه ،



وصلحت سريرته ، وكملت علانيته ، وعزل عن الناس شره طوبى لمن عمل بعلمه، وأنفق الفضل من ماله ، وأمسك الفضل من قوله ، قال تعالى :

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ

(سورة الرعد : 29)



الباب السادس: السيرة النبوية





01 - المولد النبوي

مقدمة :

1 ــ الحاجة ماسّة لهدي النبي :

يا سيدي يا رسول الله ، بعد أيام قليلة تطل علينا ذكرى مولدك الشريف ، ونحن يا سيدي يا رسول الله في أمسِّ الحاجة إلى هديك الرباني ، الذي لا تزيده الأيام إلا رسوخاً وشموخاً ، ونحن في أمسِّ الحاجة إلى سنتك المطهرة التي هي المنهج القويم ، والصراط المستقيم .

ونحن في أمسّ الحاجة يا سيدي يا رسول الله إلى أخلاقك العظمى التي لا يزيدها التأمل والتحليل إلا تألقاً ونضارة .

2 ــ تزكية الله للنبي :

يا سيدي يا رسول الله ، لقد زكى الله عقلك فقال :

مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾

(سورة النجم)

.. وزكى لسانك فقال :

وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾

(سورة النجم)

وزكى شرعك فقال :



إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾

(سورة النجم)

وزكى جليسك فقال :

عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾

(سورة النجم)

وزكى فؤادك فقال :

مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾

(سورة النجم)

وزكى بصرك فقال :

مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾

(سورة النجم)

وزكاك كلك فقال :

وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾

(سورة القلم)

لقد أقسم بعمرك الثمين فقال :

لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾

(سورة الحجر)

الحق أنت ، وأنت إشراق الهدى ولك الكتاب الخالد الصفحات
من يقصد الدنيا بغيرك يلقهـــا تيهاً من الأهوال والظلمـــات



3 ـ هذه هي أخلاق النبي :

يا سيدي يا رسول الله ، يوم كنت طفلاً عزفت عن لهو الأطفال ، وعن ملاعبهم ، وعن أسمارهم ، وكنت تقول لأترابك ، إذا دعوك إلى اللهو : أنا لم أخلق لهذا " .

ويوم جاءتك رسالة الهدى ، وحُمِّلت أمانة التبليغ ، قلت لزوجتك ، وقد دعتك إلى أخذ قسط من الراحة : " انقضى عهد النوم يا خديجة " .

ويوم فتحت مكة التي آذتك ، و أخرجتك ، وكادت لك ، وائتمرت على قتلك ، وقد ملأت راياتك الأفق ظافرةً عزيزة ، قلت لخصومك الذين أصبحت حياتهم معلقةً بكلمة تخرج من فمك : " اذهبوا فأنتم الطلقاء " .

ويوم دانت لك الجزيرة العربية ، وجاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، صعدت المنبر ، واستقبلت الناس باكياً وقلت لهم : " من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليقتَد منه ، ومن كنت أخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه " .

يا سيدي يا رسول الله ؛ كنت تصلي في أصحابك ، وعلى غير عادة منك أنهيت صلاتك على عجل ، وأنت في قمة الغبطة والنشوة مع ربك ، لا لشيء ذي بال ، بل لأنك سمعت بكاء طفل رضيع ، كانت أمه تصلي خلفك في المسجد ، كان ينادي أمه ببكائه ، لقد أنهيت صلاتك على عجل رحمة بهذا الرضيع .

يا سيدي يا رسول ؛ الله لقد كنت ترتجف ، حين تبصر دابة تحمل على ظهرها أكثر مما تطيق .

لقد كنت تجمع لأصحابك الحطب في بعض أسفارهم ، ليستوقدوه ناراً تنضج لهم الطعام .

حقاً يا سيدي يا رسول الله ؛ لقد كنت أحسن الناس خلقاً ، وأجود الناس صدراً ، وأصدقهم لهجة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرةً ، لقد صدق ملك عمان حينما قال بعد أن التقى بك ؛ " والله لقد دلني على هذا النبي الأمي أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به ، ولا ينهى عن شيء إلا كان أول تارك له ، وأنه يغلب فلا يبطر ، ويُغلب فلا يضجر ، ويفي بالعهد ، وينجز الوعد " .



يا سيدي يا رسول الله ؛ لقد رأى أصحابك رأي العين كل فضائلك ومزاياك ، رأوا طهرك وعفافك ، رأوا أمانتك واستقامتك ، رأوا شجاعتك وثباتك ، رأوا سمّوك وحنانك ، رأوا عقلك وبيانك ، رأوا كمالك كالشمس تتألق في رابعة النهار.

مولد النبي :

1 ــ ميلاد النبي ميلاد للنور قبل ميلاد الشخص :

أيها الإخوة المؤمنون ، في شهر ربيع الأول شهر مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم نبي الهدى والرحمة ، وللنبوة والأنبياء في عقيدة المسلم قصة ، فقد خلق الله الإنسان في أحسن تقويم ، وكرمه أعظم تكريم ، حمَّله أمانة التكليف وأعطاه مقوِّمات هذا التكليف ، كونٌ ناطق بوجود الله ووحدانيته وكماله ، وإكرامه ، وعقل يتفق في مبادئه ، مع سنن الكون ، وهو أداة المعرفة ومناط المسؤولية ، وفطرة سليمة تكشف للإنسان خطأه وشهوة دافعة رافعة، وحرية اختيار مقوّمة مثمَّنة ، وقوة محققة للكسب كاشفة للطوية ، ومنهج تفصيلي يقي الزلل ويحقق الهدف .

ومع كل هذا فقد يغفل الإنسان عن مهمته ، وينسى ما كُلّف به وتغلبه شهواته ، وتُرديه رغباته ، ويسير في طريق الهاوية ، وهو يحسب أنه يُحسن صنعاً ولأن الله الذي خلق الإنسان هو أرحم به من نفسه خلقه لجنة عرضها السماوات والأرض ، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فلا بد وهو أرحم الراحمين من أن يخاطب البشر، من حين إلى حين ، مذكراً بمهمتهم ، مبيناً لمنهجهم ، محذراً عواقب غفلتهم ، وإعراضهم ، وبما أنه يستحيل أن يخاطب الله كل البشر ، لأن تحمُّل الخطاب وتلقي الوحي عن الله لا يستطيعه ، ولا يستأهله إلا نخبة من صفوة البشر ، قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ

(سورة آل عمران : 33)

من أجل هذا كان الأنبياء والمرسلون ، وكان من بعدهم الأئمة والداعون والهداة والمهديون .



2 ـ النبي بشر كسائر البشر :

ولأن النبي لا يستطيع تحقيق رسالته إلا إذا كان من بني البشر ليبلغهم بلسانهم ، قال تعالى :

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾

(سورة إبراهيم)

ولا يستطيع نبي تحقيق رسالته إلا إذا جرت عليه كل خصائص البشر حتى يكون انتصاره على بشريته ، قدوةً ومثلاً لكل البشر ، وبهذا يُحقق النبي الكريم مهمة القدوة ، تكميلاً لمهمة التبليغ ، لذلك يُعدُّ من سنة النبي أقواله وأفعاله وإقراره وصفاته ، قال تعالى :

وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾

(سورة القلم)

وقال :

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾

(سورة آل عمران)

3 ـ من سنن الله الجارية : أن يكون للنبي معارِضون :

وحينما يأتي النبي الكريم صلى الله عليه وسلم بعقيدة ، ومنهج يُسفِّه بهما ضلالات البشر ، وانحرافاتهم ، يظهر المعارضون المتضررون من تطبيق منهج الله ، هؤلاء



المعارضون الذين حدَّت رسالة السماء من انحرافهم وطغيانهم ، ما يكون منهم إلا أن يكذِّبوا رسالة النبي صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى :

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًاۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾

(سورة الرعد)

4 ـ لابد للنبي من معجزة تشهد على رسالته :

لذلك لا بد من أن يشهد الله لكل البشر أن هذا الإنسان الذي خصه الله بالنبوة والرسالة هو رسوله ، وهو صادق فيما يقول ، وتكون شهادة الله للبشر بأن يؤيد رسوله بمعجزة ، يعجز عن الإتيان بمثلها كل البشر ، وينبغي أن يكون موضوع المعجزة مما نبغ فيه القوم ليصح التحدي ، ولتقوم الحجة .

لقد كانت معجزات الأنبياء السابقين حسّية ، محدودة بمكان ، وزمان ، تألقت مرة واحدة كعود الثقاب ، ثم أصبحت خبراً يصدقه مصدق ، ويكذبه مكذب ، أما معجزة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وهو خاتم النبيين فهي معجزة مستمرة لكل البشر ؛ لأنها بين يدي البشر في كل عصر ومصر إلى يوم القيامة ، إنها معجزة عقلية بيانية إنها القرآن .. ففي القرآن الكريم إعجاز بياني ، وإعجاز علمي ، وإعجاز تشريعي ، وإعجاز إخباري ، وكلما تقدم البحث العلمي كشف عن جانب من إعجاز القرآن ، قال تعالى :

سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾

(سورة فصلت)

فبالعقل يحكم الإنسان بأنه لا بد لهذا الكون من خالق موجد ، ورب مُمِدّ ، ومسير حكيم ، واحد في ذاته ، وفي أسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، وبالعقل يحكم الإنسان بأن هذا



القرآن هو كلام الله من خلال إعجازه ، وبالعقل يحكم الإنسان بأن الذي جاء بالقرآن المعجز هو رسوله.

وبعدئذ يأتي القرآن ليخبر الإنسان عما لا يستطيع العقل أن يدركه بذاته ، إنها قصة خلق السماوات والأرض ، وحقيقة الحياة الدنيا والآخرة ، وخلق الإنسان ، أين كان ، وإلى أين المصير ، وما سر وجوده على هذه الأرض ، وما المهمة التي كُلف بها ، وما المنهج الذي ينبغي أن يسير عليه ، ليحقق ذاته ، ويدرك السعادة ، في الدنيا والآخرة ؟

فالدين عقل ونقل : عقلٌ لمعرفة الله ، وللتحقق من صحة النقل عنه ، ولفهمه ، ونقل يُبين للعقل ما خفي عنه ، وما عجز عن إدراكه ، وما يضمن سلامته وسعادته .

هذه باختصار شديد قصة النبوة والأنبياء ، ونحن في شهر ربيع الأول شهر مولد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فمن أي الجوانب يكون الحديث عن النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم ، إن أبرز هذه الجوانب هي شمائله الشريفة .

ماذا يعني الحديث عن شمائل النبي صلى الله عليه وسلم ؟

أيها الإخوة الأكارم في كل مكان ، ماذا يعني الحديث عن شمائل النبي صلى الله عليه وسلم ؟ ولا سيما وقد جعله الله أسوةً صالحةً لنا :

1 ـ تلازماً ضرورياً بين التدين الصحيح والخلق القويم :

البناء الأخلاقي هو الهدف الأمثل لدعوة النبي :

إنه يعني أن هناك تلازماً ضرورياً بين التدين الصحيح والخلق القويم ، فالنبي صلى الله عليه وسلم حدد الغاية الأولى من بعثته ، والمنهج الأمثل لدعوته ، فقال فيما رواه الإمام مالك :

((**إنما بُعثتُ معلماً ، إنما بُعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق**)) .



فالهدف الأول لدعوته ، هو إرساء البناء الأخلاقي للفرد ، والمجتمع ، لأنه ثمن سعادة الدنيا والآخرة ، والوسيلة هي التعليم لا التعنيف ، قال صلى الله عليه وسلم :

((**علموا ولا تُعنِّفوا ، فإن المعلم خير من المُعنِّف**)) .

[أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ، وابن عدي في الكامل]

والمتتبع لنصوص القرآن الكريم وللسنة المُطهرة الصحيحة يجد ذلك التلازم الضروري بين التدين الصحيح والخلق القويم ، قال تعالى :

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾

(سورة الماعون)

وقال تعالى :

فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾

(سورة القصص)

وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ :

((**لاَ إِيمَانَ لِمَنْ لاَ أَمَانَةَ لَهُ ، وَلاَ دِينَ لِمَنْ لاَ عَهْدَ لَهُ**)) .

[جزء من حديث طويل أخرجه الطبراني في الكبير والبيهقي في السنن عن أنس]

وقال أيضاً :

((**الإيمان والحياء قُرنا جميعاً ، فإذا رُفع أحدُهما رُفع الآخر**)) .

[أخرجه الحاكم]

إذاً : فالإيمان أساس الفضائل ، ولجام الرذائل ، وقوام الضمائر .

وقد ورد في صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((**أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ ؟ قَالُوا : الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ ، فَقَالَ : إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا ، وَقَذَفَ هَذَا ، وَأَ كَلَ مَالَ هَذَا ، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا ، وَضَرَبَ هَذَا ، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ**



فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّ ارِ)) .

2 ــ أحسن الناسِ إسلاماً أحسنهم خلقاً :

لقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أن أحسن الناس إسلاماً أحسنهم خلقاً ، وأن أكملهم إيماناً أحسنهم خلقاً ، وأن من أحبّ عباد الله إلى الله أحسنهم خلقاً ، وأن من أقرب المؤمنين مجلساً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة أحسنهم خلقاً ، وأن خير ما أُعطي الإنسان خلق حسن ، وأنه ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن ، وأن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم ، بل إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة ، والخلق الحسن يُذيب الخطايا كما يُذ يب الماء الجليد ، والخلق السوء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل .

مقتطفات من شمائل النبي صلى الله عليه وسلم :

هذه مقتطفات من شمائل النبي صلى الله عليه وسلم :

1 ــ عنايته بأصحابه وتواضعه له :

ــ فمن عنايته بأصحابه ، وتواضعه لهم ما رواه الحاكم بإسناد أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل بعض بيوته ، فدخل عليه أصحابه حتى غص المجلس بأهله ، وامتلأ ، فجاء جرير البجلي ، فلم يجد مكاناً فقعد على الباب فنزع رسول الله صلى الله عليه وسلم رداءه فألقاه إليه ، فأخذه جرير ووضعه على وجهه وجعل يقبله ويبكي ، وأعاده إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال يا رسول الله : ما كنت لأجلس على ثوبك أكرمك الله كما أكرمتني فنظر النبي صلى الله عليه وسلم يميناً وشمالاً فقال :

((**إِذَا أَتَاكُمْ كَرِيمُ قَوْمٍ فَأَكْرِمُوهُ**)) .



وعن عدي بن حاتم قال : دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم فألقى إلي وسادة من أدم محشوة ليفاً ، فقال : اجلس عليها ، قلت : بل أنت قال : بل أنت فقال عدي : فجلست عليها وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأرض ، فقلت اشهد أنك لا تبغي علواً في الأرض ولا فساداً ، وأسلم عدي بن حاتم .

وروى البيهقي في الدلائل أنه وَفَد وفدُ النجاشي على النبي صلى الله عليه وسلم فقام النبي صلى الله عليه وسلم فخدمهم بنفسه فقال له أصحابه : يا رسول الله نحن نكفيك القيام بضيافتهم، وإكرامهم ، فقال صلى الله عليه وسلم :

((**إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين ، وأنا أحب أن أكافئهم بنفسي**)) .

[ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق عن أبي قتادة]

2 ـ رحمته بالمخلوقات :

ـ ومن رحمته بالخلق : ما روى الإمام أحمد عَنْ عَبْدِ الله بْنِ جَعْفَرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : ((**أَرْدَفَنِي رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ذَاتَ يَوْمٍ خَلْفَهُ ، فَأَسَرَّ إِلَيَّ حَدِيثًا لا أُحَدِّثُ بِهِ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ ، فَكَانَ أَحَبَّ مَا يَسْتَتِرُ بِهِ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم لِحَاجَتِهِ هَدَفٌ أَوْ حَائِشُ نَخْلٍ يَعْنِي حَائِطَ نَخْلٍ ، فَدَخَلَ حَائِطَ رَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ فَإِذَا فِيهِ جَمَلٌ ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم ، جَزِعَ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ قَالَ : فَأَتَاهُ فَمَسَحَ سُرَّتَهُ إِلَى سَنَامِهِ قِرَاهُ وَذِفْرَاهُ فَسَكَنَ ، فَقَالَ : مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ ؟ فَجَاءَ فَتًى مِنَ الأَنْصَارِ ، وَقَالَ : هُوَ لِي يَا رَسُولَ الله ، فَقَالَ : أَلا تَتَّقِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللَّهُ تَعَالَى إِيَّاهَا ، فَإِنَّهُ يَشْكُو إِلَيَّ أَنَّكَ تُدْئِبُهُ وَ تُجِيعُهُ**)) ، أي تُتعبه .

[الحاكم في المستدرك]

3 ـ عدله :

ـ ومن عدله صلى الله عليه وسلم ما رواه الشيخان واللفظ للبخاري عن عَائِشَةَ :

((**أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ ، فَقَالَ : وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم ؟ فَقَالُوا : وَمَنْ يَجْتَرِى عَلَيْهِ إِلاَّ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ ، حِبُّ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ ، فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ الله ؟ ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ ، ثُمَّ قَالَ : إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ**



الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ ؛ وَايْمُ اللهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ ابْنَةَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ، لَقَطَعْتُ يَدَهَا)) .

4 ــ صبرُه :

ــ ومن صبره صلى الله عليه وسلم : ما رواه الإمام أحمد والترمذي عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
((**لَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّهِ ، وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ ، وَلَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّهِ ، وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَالِثَةٌ وَمَا لِي وَلِبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا مَا وَارَى إِبِطُ بِلَالٍ**)) .

5 ــ صبرُه :

ــ ومن شجاعته صلى الله عليه وسلم ما قال سيدنا علي كرم الله وجهه : كنا أي معشر الصحابة ، إذا حمي البأس ، واحمرت الحِدق اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أحد أقربَ إلى العدو منه .

6 ــ خشيته لله :

ــ ومن خشيته لله : أنه غضب صلى الله عليه وسلم ذات مرة من غلام ، **فعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ** : دَعَا رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيه وسَلَّم وَصِيفَةً لَهُ فَأَبْطَأَتْ ، فَقَالَ :
((**لولا مَخَافَةَ الْقَوْدِ** ــ القصاص ــ **يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَأَوْجَعْتُكِ بِهَذَا السِّوَاكِ**)) .

[الأدب المفرد للبخاري]

7 ــ هيبته :

ــ ومن هيبته صلى الله عليه وسلم : أنه كان صلى الله عليه وسلم فخماً مفخماً ، يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه أحبه ، عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ قَالَ :



((**أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ فَكَلَّمَهُ ، فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ ، فَقَالَ لَهُ : هَوِّنْ عَلَيْكَ ، فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ**)) .

[ابن ماجه]

8 ــ حياؤه :

ــ ومن حيائه أنه كان أعظم الناس حياءً ، لأنه أعظمهم إيماناً ، عَن ابْنِ عُمَرَ :
((**أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِرَجُلٍ وَهُوَ يَعِظُ أَخَاهُ فِي الْحَيَاءِ فَقَالَ : دَعْهُ ، فَإِنَّ الْحَيَاءَ مِنَ الْإِيْمَان**)) .

[البخاري]

فكان أشد حياءً من العذراء في خدرها ، وقد بلغ من حيائه أنه لا يواجه أحداً بما يكره .

ورحم الله من قال في مدح خير الأنام :

يا من له الأخلاق ما تهوى العُلا منها وما يتعشق الكبــــــراء
فإذا سخوت بلغت بالجود المــدى وفعلت ما لا تفعل الأنـــــواء
وإذا عفوت فقادراً ومقـــــــدراً لا يستهين بعفوك الجُهــــــلاء
وإذا رحمت فأنـــــت أم أو أب هذان في الدنيا هـــما الرحمــاء
وإذا غضبت فإنما هي غضبـــــة في الحق لا ضغــن ولا بغضاء
وإذا خطبت فللمنابر هــــــــزةٌ تعرو النــدي و للقلوب بكـــاء
يا أيها الأميُّ حسبك رتبـــــــةً في العلم أن دانت لــك العلمــاء

***

أيها الإخوة المؤمنون ، هذه بعض شمائل النبي صلى الله عليه وسلم ، فعلينا أن نقتدي بها ، لأنه أسوةٌ لنا وقدوة .



الخطبة الثانية : تتمة ذكرِ شمائله عليه الصلاة والسلام :

9 ــ عفوه :

ــ ومن عفوه : عفوه عن سفانة بنت حاتم طيِّئ ، فنقد عُرض الأسرى على النبي صلى الله عليه وسلم عقب بعض الغزوات ، فوقفت امرأة أسيرة فقالت : يا رسول الله ، هلك الوالد ، وغاب الوافد ، فامنن علي من الله عليك ، وخلِّ عني ، ولا تُشمت بي أحياء العرب ، فإن أبي كان سيد قومه يفُكُّ العاني ، ويعفو عن الجاني ، ويحفظ الجار ، ويحمي الذمار ، ويفرجُّ عن المكروب ، ويطعم الطعام ، ويُفشي السلام ، ويحمل الكلَّ ، ويعين على نوائب الدهر ، وما أتاه أحد في حاجة فردَّه خائباً ، أنا بنت حاتم طيِّئ .. فقال النبي صلى الله عليه وسلم :
((**يا جارية هذه صفات المؤمنين حقاً** ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : **خلوا عنها ؛ فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق** ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : **ارحموا عزيز قوم ذلَّ وغنياً افتقر ، وعالماً ضاع بين الجُهَّال**)) .

فاستأذنته بالدعاء ، وقالت : أصاب الله ببرك مواقعه ، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة ، ولا سلب نعمة عن كريم قوم إلا جعلك سبباً في ردِّها ، ورجعت إلى أهلها ، وقالت لأخيها عدي : ائت هذا الرجل ، فإني قد رأيت هدياً ، وسمتاً ، ورأياً ؛ يغلب أهل الغلبة ، ورأيت فيه خصالاً تعجبني رأيته يحب الفقير ، ويفك الأسير ، ويرحم الصغير ، ويعرف قدر الكبير ، وما رأيت أجود ، ولا أكرم منه ، فإن يكن نبياً فللسابق فضله ، وإن يكن ملكاً فلا تزال في عز ملكه .

قيل وأسلمت .. واستجاب لها أخوها ، وقَدِمَ إلى المدينة وهو يظن انه سيلقى ملكاً فقال : دخلت على محمد وهو في المسجد ، فسلمت عليه فقال : من الرجل ؟ فقلت عدي بن حاتم ، فقام ، وانطلق بي إلى بيته ، فوالله إنه لعامد بي إليه إذ لقيته امرأة ، ضعيفة كبيرة ، في الطريق فاستوقفته ، فوقف طويلاً تكلمه في حاجتها ، فقلت في نفسي : والله ما هذا بملك ، ثم مضى بي حتى دخل بيته ، فتناول وسادة من أدم محشوة ليفاً فقذفها إليَّ فقال : اجلس على هذه ، قلت : بل أنت فاجلس عليها فقال : بل أنت فجلست عليها ، وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأرض ، ثم قال لي : لعلك يا عدي إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من فقرهم .. فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ..ولعله إنما



يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى ن كثرة عدوهم ، وقلّة عددهم ، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها فتزور هذا البيت لا تخاف .. ولعله إنما يمنعك من دخول في هذا الدين أنك ترى المُلك والسلطان في غيرهم ، وايمُ الله لـيوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فُتحت عليهم ، وأن كنوز كسرى قد صارت لهم قال : فأسلمت ، ولقد عُمِّر عدي حتى رأى بنفسه كيف تحققت كلُّ بشارات النبي صلى الله عليه وسلم " .

[السيرة النبوية لابن كثير ، ودلائل النبوة للبيهقي ، سير أعلام النبلاء للذهبي ، والإصابة ، وأسد الغابة]

02 - الهجرة

الهجرة :

1 ــ الهجرة علَم على الإسلام وبداية للتأريخ الإسلامي :

حقّ للهجرة أن تكون بداية التاريخ الإسلامي ، وحقّ لها أن تكون علماً على الدين الحنيف ، لأنها المظهر العملي للإيمان .. قال تعالى :

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ

(سورة الأنفال 72)

فالإسلام ليس قناعة فحسب ، بل هو قيام والتزام ، وليس ثقافة فقط ، بل هو إذعان واستسلام لرب الأكوان ، والهجرة مظهر لهذا الالتزام ، وذلك الإذعان .

2 ــ الهجرة قمة التضحية بالدنيا من أجل الآخرة :

إن الهجرة قمة التضحية بالدنيا من أجل الآخرة ، وذروة إيثار الحق على الباطل ، والهجرة ليست انتقال رجل من بلد قريب إلى بلد بعيد ، وليست ارتحال مفتقر من أرض مجدبة إلى أرض مخصبة ، إنها إكراه رجل آمنٍ في سربه ، ممتدِ الجذور في مكانه ، على



إهدار مصالحه ، والتضحية بأمواله ، وتصفية مركزه ، والنجاة بشخصه من أن يُفتن في دينه .

هذه الصعاب لا يطيقها إلا مؤمن يخاف على سلامة إيمانه ، ويسعى إلى مرضاة ربه ، أما الهيَّاب الخوَّار القلق فما يستطيع شيئاً من ذلك ، قال تعالى :

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ

(سورة النساء 66)

دلائل ودروس من الهجرة :

1 ـ بين الحق والباطل صراع مستمر ، وتناقض كبير :

من الدلائل والعبر التي تؤخذ وتستفاد من الهجرة ، أن بين مبادئ الحق وأوهام الباطل ، وبين عناصر الخير ، وقوى الشر ، وبين رسل الهداية ، وشياطين الغواية ، تناقض كبير ، وصراع مستمر ، وحرب ضروس ، قال تعالى :

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾

(سورة الأنفال 30)

فماذا فعل النبي صلى الله عليه وسلم حتى مكر به هؤلاء ؟ إنهم يعرفونه قبل غيرهم ، ويعرفون صدقه ، وأمانته ، وعفافه ونسبه ، وأنه ما زاد على أن دعاهم إلى الله ليوحدوه ويعبدوه ، وأنه أمرهم بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، وأنه نهاهم عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، إنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، إنه رحمة مهداة ونعمة مزجاة ..



أمِثلُ هذا المخلوق الأول يُمكر به ؟ أمثل هذا الإنسان الكامل يكاد له ؟ إنها معركة الحق والباطل ، ولكن ما دامت كلمة الله هي العليا ، وما دامت إرادته هي النافذة فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ومادام أنه ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، فلِمَ أراد الله أن يكون هذا الصراع بين الحق والباطل ؟ إنه الابتلاء ليكون النجاح فيه ثمن العطاء .

2 ـ الدنيا دار تكليف وابتلاء وانقطاع :

فالدنيا في حقيقتها دار تكليف وابتلاء وانقطاع ، والآخرة دار تشريف وجزاء وخلود ، وإن الابتلاء يكشف حقيقة المؤمن لنفسه أولاً ، ولمن حوله ثانياً ، و ثباته على مبدئه ، وإصراره على مرضاة ربه وحبه لله تعالى ، وكيف أنه يضحي من أجله بالغالي والرخيص ، والنفس والنفيس ؟ إنه يكشف صبره على الشدائد حفاظاً على دينه ، والشدائد تدفعه إلى التوكل ، وبالتوكل يصرف عنه السوء ، وتساق إليه الخيرات ، ونتائج التوكل تزيده معرفة بربه ، وحباً له ، إن هذه المعاني مستنبطة من قوله تعالى :

وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍۗ

(سورة محمد : الآية 4)

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾

(سورة محمد)

ولقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففيما رواه عبد الله بن عمر عن علي رضي الله عنهما : ((**إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء ، ومنزل ترح لا منزل فرح ، فمن عرفها لم يفرح لرخاء ، ولم يحزن لشقاء ، قد جعلها الله دار بلوى ، وجعل الآخرة**



دار عقبى ، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً ، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً ، فيأخذ ليعطي ، ويبتلي ليجزي)) .

[كنز العمال عن ابن عمر]

3 ـ بعد الابتلاء الفرَج والنصر :

ولكن ماذا بعد الابتلاء ؟ إنه الجزاء في الدنيا والآخرة ، والحفظ والنصر للمؤم نين ، والإحباط والخذلان لأعدائهم ، فالعاقبة للمتقين ، ورحمة الله قريب من المحسنين ، قال تعالى :

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾

(سورة الصافات 171)

هذا مصير من كذّبه :

فلتستمع إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يخاطب الذين مكروا به في الأمس ليثبتوه ، أو يقتلوه ، أو يخرجوه ، وها هم أولاء الآن قتلى وصرعى في ساحة المعركة ، وقد أمر بهم أن يُدفنوا في القليب ، إنه يخاطبهم : عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ :

((أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَرَكَ قَتْلَى بَدْرٍ ثَلَاثًا ، ثُمَّ أَتَاهُمْ ، فَقَامَ عَلَيْهِمْ ، فَنَادَاهُمْ ، فَقَالَ : يَا أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ ، يَا أُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ ، يَا عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ ، يَا شَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ ، أَلَيْسَ قَدْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ؟ فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا ، فَسَمِعَ عُمَرُ قَوْلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، كَيْفَ يَسْمَعُوا ؟ وَأَنَّى يُجِيبُوا وَقَدْ جَيَّفُوا ؟! قَالَ : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يُجِيبُوا ، ثُمَّ أَمَ رَ بِهِمْ فَسُحِبُوا ، فَأُلْقُوا فِي قَلِيبِ بَدْرٍ)) .

[رواه البخاري ، ومسلم ، واللفظ له]

فإذا كان الله معك فمن عليك ....وإذا كان الله عليك فمن معك ؟ .



يا رب ماذا وجد من فقدك ، وماذا فَقَدَ مَن وجدك ؟

هذا جزاء مَن نصر نبيَّه :

أما هؤلاء الأنصار الذين هاجر إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد قدَّموا مثلاً رائعاً من أمثلة التضحية والإيثار ، وأنموذجاً فذاً للتعاون بين المؤمنين ، كل هذا كان تعبيراً عن عمق إيمانهم ، وسموِّ مشاعرهم ، ولقد زكى الله صنيعهم فقال بحقهم :

وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾

(سورة الحشر : 9)

ولنستمع إلى سيدنا سعد بن معاذ ، سيد الأنصار رضي الله عنه يخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم عشية معركة بدر ، حيث يجسد موقف الأنصار : ((**يا رسول الله ، لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك ، فامض بنا يا رسول الله لما أردت ، فنحن معك ، فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصبر في الحرب ، صدق عند اللقاء ، فصلْ حبال من شئت ، واقطع حبال من شئت ، وعادِ من شئت وسالم من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، وأعطنا ما شئت وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت ، فلعل الله يريك منا ما تقرُّ به عينك**)) .

[صحيح ابن حبان]

هؤلاء الذين آووا ونصروا ، من جاءهم مهاجراً في سبيل الله ، أعد الله لهم مغفرة ورزقاً كريماً ، وفازوا بمرضاة الله ، وهي أثمن ما يناله مخلوق على وجه الأرض .. قال تعالى :



وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٧٤﴾

(سورة الأنفال : 74)

فشتان بين من يعارض الحق و من يؤيده .. ومن يصدق النبي ومن يكذبه .. ومن يخرجه و من يؤويه .. ومن يقاتله ومن ينصره .. وشتان بين المؤمن وغير المؤمن ، قال تعالى :

أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ ﴿١٨﴾

(سورة السجدة : 18)

وقال أيضاً :

أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٢١﴾

(سورة الجاثية : 21)

4 ـ حقيقة التوكل : أخذٌ بالأسباب وتسليم الأمر لله :

ومن العبر التي تؤخذ من الهجرة ، أن حقيقة التوكل ، أخذ بكل الأسباب ، ثم توكل على رب الأرباب ..

فقد وضع النبي صلى الله عليه وسلم خطة محكمة الهجرة ، حيث كتم تحركه ، وقصده ، واستأجر دليلاً ذا كفاءةٍ عالية للطريق ، واختار غار ثور الذي يقع جنوب مكة تضليلاً للمطاردين باتجاه الشمال ، وحدد لكل شخص مهمة أناطها به ، فجعل واحداً لتقصي الأخبار ، وآخر لمحو الآثار ، وثالثاً لإيصال الزاد ، وكلَّف سيدنا علياً رضي الله عنه أن يرتدي برده ، ويتسجى على سريره تمويهاً على المحاصرين ، الذين أزمعوا قتله .



إن هذه التدابير التي اتخذها النبي صلى الله عليه وسلم على كثرتها ودقتها ليست صادرة عن خوف شخصي ، ولم يكن اعتماده عليها ، بدليل أنه كان في غاية الطمأنينة ، فحينما وصل المطاردون إلى الغار ، وتحلقوا حوله ، حيث لو نظر أحدهم إلى موطئ قدمه لرآه وصاحبه ، فما زاد على أن قال لصاحبه :

((**مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا ؟**)) .

[متفق عليه]

ويروي أحدهم أن أبا بكر رضي الله عنه قال : يا رسول الله ، لقد رأونا ، فقال صلى الله عليه وسلم يا أبا بكر ألم تقرأ قوله تعالى :

وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾

(الأعراف : 198)

فلقد أخذ صلى الله عليه وسلم كل التدابير والاحتياطات ، ثم توكل على رب الأرض والسماوات، وهذه حقيقة التوكل .

نحن لا نعرف بشراً أحق بنصر الله ، وأجدر بتأييده ، من رسوله صلى الله عليه وسلم ، الذي لاقى في جنب الله ما لاقى ، ومع ذلك فإن استحقاق التأييد الإلهي ، لا يعني التفريط قيد أنملة في استجماع أسبابه ، وتوفير وسائله ، وهذا درس بليغ من دروس الهجرة ، يجب أن يضعه كل مسلم وكل مؤمن أمام عينيه ، عليه أن يتخذ الأسباب كلها ، وأن يُعد لكل أمرٍ عدته ، وألا يدع مكاناً للحظوظ ، بل عليه أن يتخذ الأسباب وكأنها كل شيء في النجاح ، ثم يتوكل على الله وكأنها ليست بشيء .

وحينما فهم المسلمون الأوائل التوكل هذا الفهم الصحيح ، رفرفت راياتهم في مشارق الأرض ومغاربها ، واحتلوا مركزاً قيادياً بين الأمم والشعوب .

واليوم إذا أراد المسلمون أن ينتصروا على أعدائهم ، ويستعيدوا دورهم القيادي بين الأمم ، لينشروا رسالتهم الخالدة ، رسالة الحق والخير ، عليهم أن يستوعبوا هذا الدرس البليغ ، الذي علمنا إياه رسول الله صلى الله عليه وسلم من خلال هجرته ، وهو أن المؤمن الحق ، هو الذي يأخذ بكل الأسباب ، ثم يتوكل على رب الأرباب .



النبي مشرِّع :

قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : << ما علمت أن أحداً من المهاجرين هاجر إلا متخفياً ، إلا عمر بن الخطاب ، فإنه لما هم بالهجرة تقلد سيفه ، وتنكب قوسه ، ومضى قِبَلَ الكعبة المشرفة ، والملأ من قريش بفنائها ، وقال لهم : من أراد أن تثكل أمه ، أو ييتم ولده ، أو ترمل زوجته ، فليلقني وراء هذا الوادي >> .

وهنا قد يسأل سائل : لماذا هاجر سيدنا عمر رضي الله عنه علانية تحدياً المشركين ، من دون خوف أو وجل ؟ بينما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم مستخفياً محتاطاً لنفسه ؟ أيكون سيدنا عمر رضي الله عنه أشد جرأة ؟ معاذ الله أن يكون شيء من ذلك ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم أشجع الناس .. فيوم حنين ما رُئي أحدٌ أثبت ولا أقرب إلى العدو منه ، وسيدنا علي كرم الله وجهه يقول : << كنا إذا حمي البأس ، واحمرت الحدق اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما يكون منا أحدٌ أقرب إلى العدو منه >> .

[أخرجه الإمام أحمد بمسنده وأخرجه الحاكم والنسائي وصححه ابن حبان وغيرهم]

ولكن سيدنا عمر رضي الله عنه أو أي مسلم آخر ، غير رسول الله صلى الله عليه وسلم يُعد تصرفه تصرفاً شخصياً .. ليس حُجةً تشريعية ، فله أن يتخذ من الطريق والأساليب والوسائل ما يحلو له ، ويتفق مع رغبته الشخصية ، أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو مشرع ، فجميع تصرفاته المتعلقة بالدين تُعدُّ تشريعاً ، فلو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هاجر كما هاجر سيدنا عمر ، لكانت طريقة اقتحام الأخطار تشريعاً ، ولكان الأخذ بها واجباً وسنة ، ولظن الناس أنه لا يجوز أخذ الحيطة ، والحذر ، ولألقى الناس بأيديهم إلى التهلكة اقتداءً بنبيهم ، مع أن الله جل وعلا جعل نواميس السماوات والأرض مبنية على الأسباب والمسببات ، وجعل شرعه الحنيف متوافقاً معها ، فما عند الله لا يُنال إلا بالأسباب التي جعلها الله ثمناً لها .

5 ـ المهاجر مَن هجر ما نهى الله عنه :

فالهجرة في حقيقتها موقف نفسي ، قبل أن تكون رحلة جسدية ، إنها هجران للباطل ، وانتماء للحق ، إنها ابتعاد عن المنكرات ، وفعل الخيرات ، إنها ترك للم عاصي ، وانهماك في



الطاعات ، والمهاجر الحق هو الذي هجر ما نهى الله ورسوله عنه .. قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه الإمام البخاري عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((**الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ**)) .

[رواه البخاري ، ومسلم]

فإذا كان باب الهجرة من مكة إلى المدينة قد أُغلق بعد الفتح لحديث ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((**لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ** ...)) .

[متفق عليه]

فإن باب الهجرة من المعصية إلى الطاعة مفتوح على مصراعيه ، إلى يوم القيامة .. بل إن عبادة الله في زمن كثُرت فيه الفتن ، واستعرت فيه الشهوات ، وعمَّ فيه الفساد ، إن عبادة الله في هذه الأجواء والظروف تُعدُّ هجرة خالصة إلى الله ورسوله ، فعن مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ عنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((**الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ**)) .

[أخرجه مسلم]

6 ـ لابد أن تكون الهجرة لله لا للدنيا :

وحينما تكون الهجرة ابتغاء دنيا يصيبها الرجل ، أو ابتغاء مال وخير يحصله ..

وحينما تكون الهجرة بذلاً للخبرات ، والطاقات ، والإمكانات لغير بلاد المسلمين .. أو هروباً من تحمل المسؤولية ، وفراراً من البذل والتضحية .. أو إضعافاً للمسلمين ، وتقوية لأعدائهم .. أو تمكيناً للعدو من احتلال الأرض ، واستثمار خيراتها .. أو من بلد تقام فيه شعائر الدين إلى بلد فرغت منه كل القيم .. أو تضييعاً للدين والعرض ، وكسباً للدرهم والدينار .

حينما تكون الهجرة كذلك فهي هجرة في سبيل الشيطان ..

ومن هنا حُقّ لنا أن نحيي إخوتنا في الأراضي المحتلة ، الذين تشبثوا بأرضهم ، ودافعوا عنها ، ولقنوا العدو المغتصب درساً لا ينسى في البذل والتضحية حتى انحنت لهم الرؤوس ، إجلالاً لإصرارهم على نيل حقوقهم المشروعة في التحرير وتقرير المصير .



وصفُ أمّ مَعبد للنبي صلى الله عليه وسلم :

في أثناء الطريق طريق الهجرة مرَّ صلى الله عليه وسلم وصاحبه بمنازل خزاعة ، ودخل خيمة أم معبد ، فاستراح بها قليلاً ، وشرب من لبن شاتها ، ولمَّا خرج من عندها قيل لها : صفيه لنا ، يا أم معبد ، فقالت : " **رَأَيْتُ رَجُلا ظَاهِرَ الْوَضَاءَةِ ، أَبْلَجَ الْوَجْهِ ، لَمْ تَعِبْهُ نُحْلَةٌ ، وَلَمْ تُزْرِ بِهِ صُقْلَةٌ ، وَسِيمٌ قَسِيمٌ ، فِي عَيْنِهِ دَ عَجٌ ، وَفِي أَشْفَارِهِ وَطَفٌ ، وَفِي صَوْتِهِ صَهَلٌ ، وَفِي عُنُقِهِ سَطَعٌ ، وَفِي لِحْيَتِهِ كَثَاثَةٌ ، أَزَجُّ أَقْرَنُ ، إِنْ صَمَتَ فَعَلَيْهِ الْوَقَارُ ، وَإِنْ تَكَلَّمَ سَمَا وَعَلاهُ الْبَهَاءُ ، أَجْمَلُ النَّاسِ وَأَبْهَاهُ مِنْ بَعِيدٍ وَ أَجْلاهُ وَأَحْسَنُهُ مِنْ قَرِيبٍ ، حُلْوُ الْمَنْطِقِ ، فَصْلٌ لا نَزْرٌ وَلا هَذَرٌ ، كَأَنَّ مَنْطِقَهُ خَرَزَاتُ نَظْمٍ يَتَحَدَّرْنَ ، رَبْعَةٌ لا يَأْسَ مِنْ طُولٍ ، وَلا تَقْتَحِمُهُ عَيْنٌ مِنْ قِصَرٍ ، غُصْنٌ بَيْنَ غُصْنَيْنِ ، فَهُوَ أَنْضَرُ ال ثَّلاثَةِ مَنْظَرًا ، وَأَحْسَنُهُمْ قَدْرًا ، لَهُ رُفَقَاءُ يَحُفُّونَ بِهِ ، إِنْ قَالَ : أَنْصَتُوا لِقَوْلِهِ ، وَإِنْ أَمَرَ تَبَادَرُوا لأَمْرِهِ ، مَحْشُودٌ مَحْفُودٌ ، لا عَابِسٌ وَلا مُفَنَّدٌ قَالَ أَبُو مَعْبَدٍ : هُوَ وَاللَّهِ صَاحِبُ قُرَيْشٍ الَّذِي ذُكِرَ لَنَا مِنْ أَمْرِهِ مَا ذُكِرَ بِمَكَّةَ ، وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَصْحَبَهُ ، وَلأَفْعَلَنَّ إِنْ وَجَدْتُ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلا** " .

[البغوي في شرح السنة]

03 - غزوة بدر

غزوة بدر : تاريخ ودروس وعبر :

1 ــ النبي يخاطب قتلى المشركين بعد الغزوة :

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ :

((**أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَرَكَ قَتْلَى بَدْرٍ ثَلَاثًا ، ثُمَّ أَتَاهُمْ ، فَقَامَ عَلَيْهِمْ ، فَنَادَاهُمْ ، فَقَالَ : يَا أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ ، يَا أُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ ، يَا عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ ، يَا شَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ ، أَلَيْسَ قَدْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ؟ فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا ، فَسَمِعَ عُمَرُ قَوْلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، كَيْفَ يَسْمَعُوا ؟ وَأَنَّى يُجِيبُوا ؟**



وَقَدْ جَيَّفُوا ! – أي أصبحوا كالجيفة – **قَالَ : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يُجِيبُوا ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِمْ فَسُحِبُوا ، فَأُلْقُوا فِي قَلِيبِ بَدْرٍ))** .

[راجع البخاري ، ومسلم]

يا لها من كلمات بليغات ، تلك التي خاطب بها رسول الله صلى الله عليه وسلم القتلى من كفار قريش ، بعد أن أمر بطرحهم في قليب (أي بئر) لدفنهم ، وذلك إثر انتصار المسلمين في أول مواجهة لهم مع أعدائهم ، انتصروا وهم قلة قليلة مُستضعفة ، على كثرة كثيرة من صناديد قريش ، وهم أشداء مستكبرون .

وكان هذا النصر المؤزَّر الحاسم في السابع عشر من رمضان لسنتين خلتا من الهجرة ، وكانت الموقعة ، موقعة بدر الكبرى ، قال تعالى :

وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ

(سورة آل عمران)

2 ــ دعاء النبي وتضرعه لربه عشية المعركة :

لقد كان صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام حريصين حرصاً بالغاً على هذا النصر الذي قرر مصير هذا الدين الجديد ، فإن هلكوا فلن يُعبد الله بعدها في الأرض .

ولقد كان من مناجاة الرسول الكريم لربه العظيم قُبيل التحام الفريقين ، فقد قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ :

((لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ ، وَهُمْ أَلْفٌ ، وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا ، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقِبْلَةَ ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ ، فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ : اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي ، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي ، اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ ، فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ ، فَأَخَذَ رِدَاءَهُ ، فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ ، ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ ، وَقَالَ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ)) .

[مسلم]



3 ـ لماذا كان النبي أكثر تضرعا ؟

وهنا قد يسأل سائل ، أو يُعقل أن يكون ثقة الصدّيق بالنصر أشدَّ من ثقة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم به ؟

قد يُجيب مجيب : أن لهفة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم وضراعته بسبب خشيته من وجود تقصير في الإعداد للمعركة ، وعندها لا يستحقُّ المؤمن النصر ، ولا يناله ، لأن أمر الله بالإعداد ثابت وواضح ، حيث قال الله عز وجل :

وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ

(سورة الأنفال)

لقد كان جيش المسلمين في بدر ضئيل العدد ، قليل العُدد ، فأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين خرجوا معه لا يزيدون عن ثلاثمائة بل ينقصون ، ولكن الواحد منهم كألف ، والألف من أعدائهم كألف ، فهم يحبون الموت كما يحب أعداؤهم الحياة .

4 ـ النبي يستعرض جيش المسلمين قبل المعركة :

لقد استعرض الرسول جيشه كما يفعل القادة قُبيل المعركة ، لاستجلاء معنوياته فقال :

((**أشيروا عليِّ أيها الناس .. ويعني بذلك الأنصار** –لأنهم كانوا أكثر عدداً – فقال له سعد بن معاذ : **لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال : أجل ، فقال : قد آمنا بك وصدَّقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك ، فامض يا رسول الله لما أردت ، فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلَّف منا رجل واحد .. وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، وإنا لصبُر في الحق ، صدُق عند اللقاء ، فصِل حبال من شئت ، واقطع حبال من شت ، وعاد من شئت ، وسالم من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، وأعطنا ما شئت ، وما أخذت منا كان أحبَّ إلينا مما تركت ، فلعل الله يُريك منا ما تقرُّ به عينك ، فسِر على بركة الله**)) .

[ابن حبان عن أنس]



هذا نموذج من مقاتلي جيش المسلمين عشية موقعة بدر ، إنهم على أهبة الاستعداد للتضحية بالغالي والرخيص ، والنفس والنفيس ، دعماً للحق ، ولدين الحق ، ولرسول الحق .

وأما عن نوعية القيادة التي قادت جيش المسلمين عشية موقعة بدر إلى النصر فإليكم بعض ما روته كتب السيرة : لقد كان جيش المسلمين ، فضلاً عن ضآلة العدد ، قليل العُدد ، فليس مع الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وصحبه سوى سبعين بعيراً ، والمسافة بين المدينة وبدر تربو على مائة وستين كيلو متراً ، فأعطى النبي الكريم صلى الله عليه وسلم توجيهاً ، بأن يختص كل ثلاثة براحلة ، وقال صلى الله عليه وسلم :

((**وأنا وعلي وأبو لبابة على راحلة**)) .

[أحمد]

5 ـ النبي القائد القدوة :

وقد روى الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن مسعود رضي ا لله عنه بأنه قال : كنا يوم بدر كل ثلاثة على بعير ، أي يتعاقبونه ، ويتناوبونه ، وكان أبو لبابة وعلي بن أبي طالب زميلي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانت عقبة رسول الله صلى الله عليه وسلم – أي دوره في السير – فقالا له : نحن نمشي عنك ـ ليظل راكباً ـ فقال : ((**لا .. ما أنتما بأقوى مني على السير ، ولا أنا بأغنى منكما عن الأجر**)) ، فمشى النبي صلى الله عليه وسلم وصاحباه راكبان ، هذا الذي يمشي وصاحباه يركبان هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وقائد الجيش .

فهل تدهشنا بعد هذا شجاعة أصحابه ، وتضحياتهم ، وإقبالهم على الموت ، بعد أن سوَّى نفسه بهم ، في كل شيء ، وهل يدهشنا تعلُّقهم به وذوبانهم في محبته ، وقد كان لهم أباً رحيماً وأماً رؤوماً وأخاً ودوداً ونبياً رسولاً ، لقد صدق الله العظيم إذ يقول :

وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾

(سورة القلم)



6 ـ النصر من عند الله :

فهذا النصر المؤزر العزيز الذي فرح به ، ويفرح له المؤمنون في كل عصر ومصر ما سرُّه ؟ ومن يصنعه ؟ وما العامل الحاسم فيه ؟

إنه الله عز وجل ، استناداً لقوله تعالى :

وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ

(سورة الأنفال : 10)

وقوله تعالى :

إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ

(سورة آل عمران : 160)

إذا كان الله معك فمن عليك ، وإذا كان الله عليك فمن معك ؟

أليس لهذا النصر الذي هو من عند الله قواعد ؟ أليست له شروط ؟ أليس له ثمن ؟

7 ـ شروط النصر : الإيمان والإعداد :

إن هذه القواعد ، وتلك الشروط ، وهذا الثمن يتلخص كله بكلمتين :

الإيمان والإعداد .. قال تعالى :

وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾

(سورة الروم)



وقال تعالى :

وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ

(سورة الأنفال : 60)

فالإيمان وحده شرط لازم غير كاف ، والإعداد وحده شرط لازم غير كاف ، بل إن علاقة الإيمان بالنصر علاقة رياضية ، أي ثابتة ، توضحها الآية :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ

(سورة الأنفال)

يتضح من خلال هذه الآية الكريمة أن معادلة النصر في حالة قوة الإيمان واحد إلى عشرة ، وفي حالة ضعف الإيمان واحد إلى اثنين ، وفي حالة انعدام الإيمان النصر للأقوى عدداً وعدَّةً ، وما يتبع ذلك ، ذلك أن الإيمان يبدل طبيعة النفس ، ويغير قيمها ، ومطامحها ، ويُصعَّد ميولها ورغباتها ، ويخفف من متاعبها وهمومها ، ويُقوي رجاءها وأملها ، ويقلب أحزانها أفراحاً ، ومغارمها مغانم .

فهذه الخنساء مات أخوها صخر في جاهليتها ، فبكت وأبكت حتى عميت ، وحينما أسلمت استشهد أولادها الأربعة في بعض الغزوات فقالت : " الحمد لله الذي شرفني بقتلهم ، وأرجو أن يجمعني بهم في مستقر رحمته " .



8 ـ أهمية عامل الإيمان في النصر :

تؤكد هذه الحقيقة وصية سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه : << أما بعد ؛ فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله عز وجل ، وعلى كل حال ، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو ، وأقوى المكيدة في الحرب ، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي ، فإنها أحذر عليكم من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، فإنما يُنصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عددنا ليس كعددهم ولا عُدتنا كعدتهم ، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا بالقوة " .

فالإيمان يعني أن يعتقد الإنسان ، اعتقاداً جازماً أن له أجلاً لا يتقدم ولا يتأخر ، وهذا الإيمان وحده يغرس في النفس الشجاعة والإقدام وروح التضحية والإيثار ، فهذا سيدنا خالد بن الوليد يقول : وهو على فراش الموت : << لقد خُضت سبعين معركة ، أو زُهاءها ، وما في جسمي موضع شبر إلا وفيه ضربة سيف ، أو طعنة رمح ، وها أنذا أموت على فراشي حتف أنفي ، فلا نامت أعينُ الجبناء >> .

ومما يؤكد علاقة الإيمان بالنصر أن الظروف الصعبة التي يضعف أمامها الإنسان غير المؤمن وتذلّه ، وتحدد مصيره لا يمكن لها أن تؤثر في المؤمن الحق ، ولا أن تقعده عن متابعة سيره ، ولا أن تحدد مصيره الذي رسمه له أعداؤه ، قال تعالى :

وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦

(سورة آل عمران)

وهذا جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ، وثب عن فرس شقراء كانت له في معركة مؤتة ، وحمل الراية ، وأوغل في صفوف الروم بسيفه حتى أصابته ضربة قطعت يمينه فأخذ الراية بشماله ، فما لبث أن أصابته أخرى قطعت شماله ، فأخذ الراية بصدره وعضديه ، حتى سقط شهيداً ، لقد صدق الله العظيم إذ يقول :



۞ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾

(سورة المعارج)

9 ــ غزوة بدر التطبيق العملي لعلاقة النصر بالإيمان :

وهذا التطبيق العملي لعلاقة النصر بالإيمان ، ففي معركة بدر كان المؤمنون قلة مستضعفين ، وكان المشركون كثرة مستكبرين ، وكان المؤمنون مفتقرين مقبلين ، وكان المشركون مستغنين معرضين ، فاستحق المؤمنون النصر بسبب إيمانهم ، وافتقارهم ، ودعائهم وإعدادهم جهد استطاعتهم .

وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٢٣﴾

(سورة آل عمران)

أي نَصرَهُم وهم ضعافٌ مستضعفون .. لكنهم يوم حُنين استجمعوا كل أسباب النصر المادية ، من وفرة العدد ، وكثرة العُدد واستجمعوا أسباب النصر المعنوية ، حيث دانت لهم الجزيرة العربية ، ولكن زلت بهم القدم إلى الاعتماد على هذه الأسباب ، الأمر الذي أضعف افتقارهم إلى الله ، واعتمادهم عليه ، فجاء التأديب الإلهي بقوله تعالى :



لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾

(سورة التوبة)

وأما الإعداد فهو وحده شرط لازم غير كاف أيضاً ، وهو أمر إلهي قطعي الثبوت لقوله عز وجل :

وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾

(سورة الأنفال)

10 ـ لابد من القوة المتاحة بجميع أنواعها :

فالمؤمنون بمجموعهم ، مأمورون بإعداد العدة ، ليواجهوا بها قوى البغي والكفر ، فكلمة ما استطعتم تعني استنفاد الجهد ، لا بذل بعض الجهد ، والقوة التي ينبغي أن يعدها المؤمنون جاءت مُنكَّرة تنكير شمول ، ليكون الإعداد شاملاً لكل القوى التي يحتاجها المؤمنون في مواجهة أعدائهم ؛ من قوة في العَدد ، وقوة في العُدد ، و التدريب والتخطيط ، و الإمداد ، و التموين ، و الاتصالات ، والمعلومات ، و تحديد الأهداف ، و دقة الرمي ، و الإعلام ، وبل إن كلمة " من " التي سبقت القوة جاءت لاستغراق أنواع القوة واحدة إثر واحدة ، فلقد أفادت استقصاء أنواع القوى ، لا اصطفاء بعضها ، وكلمة " ومن رباط الخيل " جاءت



عطفاً للخاص المألوف وقت نزول القرآن ، على العام ، الذي يستغرق كل الأزمان والبيئات ، والتطورات والتحديات ، وهذا الإعداد يحقق أهم أهدافه ، ولو لم تقع المواجهة مع العدو ، إنها رهبة القوي التي تقذف في قلوب أعدائه ، لقوله تعالى :

تُرۡهِبُونَ
بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ

(سورة الأنفال : 60)

بل إن النبي صلى الله عليه وسلم أشار إلى أن القوة كل القوة في إحكام الرمي ، وإصابة الهدف ، وهو مقياس خالد للقوة ، وهو عنصر أساسي في كسب المعارك ، مهما اختلفت أنواع الأسلحة ، وتطورت مستوياتها الفنية ، فَعَنْ عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ :
((**﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ أَلاَ إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ ، أَلاَ إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ ، أَلاَ إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ**)) .

[رواه مسلم]

هذه الحقائق المستنبطة من القرآن الكريم منهج الإنسان المؤمن ، وتلك التوجيهات التفصيلية والتوضيحية ، التي جاءت في سنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذه المواقف الأخلاقية الرائعة والحكيمة التي وقفها المصطفى صلى الله عليه وسلم أسوتنا وقدوتنا ، وتلك البطولات الفذة التي ظهرت من أصحابه الكرام ، أمناء دعوته ، وقادة ألويته هذه كلها نضعها بين أيدي أبناء أمتنا العربية الإسلامية ، وهي تخوض المعارك تلو المعارك مع أعدائها أعداء الحق والخير .

ومجمل القول : إن القرآن العظيم ضمَّن الجهاد معنى إنسانياً نبيلاً وفريداً ، وحدد له مقاصده العليا منزهة عن الهوى ، والأغراض المادية العاجلة ، والمطامح الشخصية والعنصرية ، وبيَّن مقوماته وشروطه وتطبيقاته .



الخطبة الثانية : الأحنف بن قيس يبحث عن نفسه في آيات القرآن :

1 ــ فيه ذكركم :

نحن في رمضان شهر القرآن شهر تلاوته ، شهر تدبره ، شهر فهمه ، فقد ذكر الحافظ محمد بن نصر المروزي في جزء قيام الليل عن الأحنف بن قيس أنه كان يوماً جالساً فقرأ هذه الآية ، قال تعالى :

لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾

(سورة الأنبياء)

فانتبه الأحنف ، فقال عليَّ بالصحف لألتمس ذكري اليوم حتى أعلم من أنا ومن أشبه ، فإنه لما علم أن القرآن الكريم قد ذكر جميع صفات البشر ، وبيّن طبقاتهم ومراتبهم ، أراد أن يبحث عن نفسه في أي الطبقات ، وفي أي المراتب هو ، فنشر المصحف وقرأ ، فمر بقوم :

كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾

(سورة الذاريات)

ومر بقوم :

تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾

(سورة السجدة)

ومر بقوم يبيتون لربهم سجداً وقياماً :



وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾

(سورة الفرقان)

ومر بقوم ينفقون في السراء والضراء :

ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾

(سورة آل عمران)

ومر بقوم يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .

2 ـ اللهم لست أعرف نفسي هاهنا :

فوقف الأحنف ثم قال : اللهم لست أعرف نفسي هاهنا ، أي لم يجد هذه الصفات في نفسه حتى يعد نفسه من هؤلاء ، ولعله قال هذا تواضعاً وهذا شأن المؤمن .

ثم أخذ الأحنف سبيلاً آخر ، فمر في المصحف بقوم يقال :

مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ

فوقف الأحنف ثم قال : اللهم إني أبرأ إليك من هؤلاء ، وما زال الأحنف يقلب ورق المصحف ويلتمس في أي الطبقات هو حتى وقع على هذه الآية :



وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾

(سورة التوبة)

3 ــ أنا من هؤلاء ، فلينظر كلٌّ أين هو :

فقال أنا من هؤلاء .

يا أيها الإخوة الأكارم ، إذا قرأ أحدنا القرآن فلينظر موضع نفسه من كتاب الله ، وهذا من التدبر .

04 - الجهاد

الإسلام هو النظام الأمثل للإنسان ، منفرداً أو مجتمعاً ، مهتماً بجسده أو متطلعاً إلى روحه، ناظراً إلى دنياه ، أو مستشرفاً لآخرته مسالماً أو محارباً ، مطالباً بحق نفسه ، أو معطياً حق غيره ، فلا يكون المسلم مسلماً ، إذا ترك دنياه لآخرته ، ولا إذا ترك آخرته لدنياه إلا أ ن يأخذ منهما معاً ، فإن الأولى مطية للثانية .

والإسلام رسالة الإنسان ، ومنهجه في كل مجالات الحياة ، وفي جميع ميادين النشاط البشري ، فلا يدع جانباً ، من جوانب الحياة الإنسانية إلا كان له فيها موقف ، قد يتمثل في الإقرار والتأييد ، أو في التصحيح والتعديل ، أو في الإتمام والتكميل ، أو في التغيير والتبديل، وقد يتدخل في الإرشاد والتوجيه ، أو بالتشريع والتقنين ، وقد يسلك سبيل الموعظة الحسنة ، وقد يتخذ أسلوب العقوبة الرادعة ، كلٌّ في موضعه .

والغاية الأخيرة ، والهدف البعيد ، هو الحصول على مرضاة الله ثمناً لحسن الصل ة به ، والسعادة الأبدية في قربه .. قال تعالى :

"يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه ".

[سورة الإنشقاق الآية 6]

وفي الإسلام غايات ، وأهداف أخرى ، إنسانية ، واجتماعية، ولكنها بعد التأمل فيها ، لا تخرج عن خدمة الهدف الأكبر ، وهو مرضاة الله تعالى ، وحسن مثوبته ، فهو هدف



الأهداف، وغاية الغايات.

*ففي الإسلام تشريع ، ومعاملات ، ولكن المقصود منها تنظيم حياة الناس ، حتى يستريحوا ، ويبرؤوا من الصراع على المتاع الأدنى ، ويفرغوا لمعرفة الله ، وعبادته ، والسعي لمرضاته.

*وفي الإسلام حث على المشي في مناكب الأ رض ، والأكل في طيباتها ، ليكون العمل أساساً للابتلاء ، والنعمة وسيلة لمعرفة المنعم وأداء حقه وشكره ، قال تعالى :

"كلو من رزق ربكم واشكروا له. "

[سورة سبأ الآية 15]

*وفي الإسلام جهاد وقتال للأعداء ، قال تعالى :

"وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله. "

[سورة البقرة 193]

فكل ما في الإسلام من تشريع ، وتوجيه ، وإرشاد ، إنما يقصد إلى إعداد الإنسان ، ليكون عبداً خالصاً لله ، يعرفه ويطيعه ويوحده ويعبده قال تعالى :

"وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله ألا أنا فاعبدون " .

[سورة الأنبياء الآية 25]

وبعدئذ يستحق رحمته ..

"ألا من رحك ربك ولذلك خلقهم " .

[سورة هود الآية 119]

لقد ضمن القرآن الكريم الجهاد معنى إنسانياً نبيلاً وفريداً ، وحدد له مقاصده العليا ، منزهة عن الهوى والأغراض المادية العاجلة ، والمطامح الشخصية ، أو العنصرية ، من شهوة العلو في الأرض ، أو التوسع فيها لتكون أمة هي أربى من أمة ، وجرَّده وسيله رئيسة لترسيخ القيم والمثل العليا ، في الوجود البشري بعامة ، والحفاظ عليها .

وإن الإسلام لم يجعل الجهاد مفروضاً في أعلى مراتب الفرضية ، وأعظمها مثوبة من أجل الدفاع عن الوجود ، أو الحفاظ على مقوماته فحسب ، بل يوليه عناية فائقة إذ جعله سنداً مكيناً لدعوته ، التي تسعى إلى نشر رسالة السماء إلى الأرض ، لتتحقق خلافة الإنسان فيها .. عن طريق التمسك بمبادئ الحق ، والخير السامية ، وقيم العدل والإحسان الرفيعة ، فجعله خالصاً ومخلصاً لوجه الله تعالى ، وابتغاء مرضاته ، ومرضاته لا تتم إلا إذا سادت تعاليمه ، وعلت في الأرض مُثُله ، وحتى لا تكون فتنةٌ ويكون الدين لله ، ولا أدل على صحة هذه المبادئ ، وتلك المفهومات من هذه السعادة ، التي تملأ جوانح الإنسان حينما يكتشف سرَّ وجوده ،



وجوهر رسالته ، وينطلق في طريق الهدف الكبير ، الذي خُلق من أجله .

* * *

وإليكم هذا المشهد :

لما فرغ الناس لقتالهم في أُحد قال النبي صلى الله عليه وسلم :

"من رجلٌ ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع : أفي الأحياء هو أم في الأموات ؟ " فذهب رجل من الأنصار ، فوجده جريحاً في القتلى وبه رمق ، فقال له : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات ؟ قال : أنا في الأموات ، أبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم عني السلام ، وقل له : إن سعد بن الربيع يقول لك : جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته ، وأبلغ قومك عني السلام ، وقل لهم : إن سعد بن الربيع يقول لكم : إنه لا عذر لكم عند الله ، إن خُلِصَ إلى نبيكم وفيكم عين تَطرِف .. قال : فلم أبرح حتى مات .. فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته خبري فبكى ، حتى أخضل لحيته

(راجع السيرة النبوية لابن هشام (75/3) و" أسد الغابة " لابن الأثير (348/2))

وقد ظهرت من ثمرات هذه المبادئ ، وتلك القيم ، بطولات فذة ، يندر أن نرى مثلها في المجتمعات التي أدارت ظهرها لمنهج الله ، وانغمست في وحول الشهوات ، قال تعالى :

"فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً "

[سورة مريم الآية 59]

05 - المسجد الأقصى

في المسجد يتعرف الناس إلى ربهم ، ويتعلمون أحكام دينهم، وفيه يقفون على المنهج الأمثل لتطبيق هذه الأحكام ، وفيه تقام الصلوات وأنواع العبادات ، ومن دون المسجد تؤول وحدة المسلمين إلى شتات وتفرقهم الأهواء والشهوات ، لذلك سارع النبي صلى الله عليه وسلم منذ أن وطئت قدماه أرض المدينة، وهي أول دار للإسلام ، سارع إلى بناء المسجد ليكون الركيزة الأولى في بناء المجتمع الإسلامي .

روي أن تميماً الداري ، أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حمل من الشام إلى المدينة ، قناديل ، وزيتاً وحبالاً ، فلما انتهى إلى المدينة ، وافق ذلك ليلة الجمعة، فأمر غلاماً له فربط الحبال ، وعلق القناديل ، وصب فيها الزيت ، وج عل فيها الفتيل، فلما غربت



الشمس أمر غلامه فأسرجها ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد ، فإذا هي تزهر فقال : " من فعل هذا " ؟ قالوا : تميم الداري يا رسول الله .. فقال : " نوّرت الإسلام ، نور الله عليك في الدنيا والآخرة ، أما لو كانت لي ابنة لزوجتكها " فقال نوفل بن الحارث : لي ابنة يا رسول الله ، تسمى المغيرة ، فافعل بها ما أردت فزوجه إياها .

(نوفل بن انلحارث رضي الله عنه هو صحابي أبن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان أسن من العباس ، حضر بدراً مع المشركين ، فأسر ففداه عمه العباس ثم أسلم ، وهاجر عام الخندق أعان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حُنين بثلاثة آلاف رمح ، مات سنة 20هـ وقيل15 هـ (سير الأعلام1/199)

ويتعرض المسجد الأقصى موطن سيدنا إبراهيم ، ومتعبد الأنبياء السابقين ومسرى خاتم النبيين ، المسجد الذي نوه الله به في الآيات المفصلة ، وتليت فيه الكتب المنزلة ، أولى القبلتين ، وثاني المسجدين وثالث الحرمين الشريفين ، لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه كما ورد عن المصطفى صلى الله عليه وسلم .

المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله ببركات الدين والدنيا ، والذي أضحى بالإسراء إليه ، والمعراج منه رمزاً للشخصية المعنوية للمسلمين ، وهذا المسجد يتعرض اليوم لاعتداءات متكررة على بنائه حيث تجري أعمال الحفريات في حرمه وما حو له ، بزعم التنقيب عن هيكل سيدنا سليمان ، إنها حجة واهية تخفي وراءها نوايا عدوانية تستهدف تخريبه وإزالته من الوجود ، وطمس هذا المعلم الإسلامي البارز من المعالم والمقدسات الإسلامية ، وتدنيس فاضح لحرمة هذا المكان الطاهر .

فإنها مؤامرة تُحاك ضد هذا المسجد ، حي ث يحلم الصهاينة ببناء معبد يهودي على أنقاضه ، لذلك هم ينشطون لإبراز مسجد الصخرة على أنه المسجد الأقصى ، تمهيداً لإزالته ، وبناء المعبد المزعوم مكانه .

إن مسجد الصخرة الذي يبرزه الإعلام الصهيوني على أنه المسجد الأقصى بصورته المعهودة ، عند عامة الناس ، ليس ه و المسجد الأقصى الذي ورد ذكره في القرآن الكريم، بل هو مسجد الصخرة ، التي تم منها عروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى سدرة المنتهى ، حيث دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحي إلى عبده ما أوحى ، وفي وصف القرآن الكريم المسجد الأقصى بالبركة إيماءٌ قوي للعرب حملة رسالة الإسلام ، وإلى المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، أنه مفروض عليهم ــ وقد بارك الله حوله ــ أن يحفظوا له هذه



البركة ، ومتى اعتدي عليها ، فعليهم أن يصطلحوا مع ربهم أولاً ، ويعدُّوا لعدوهم ما يستطيعون من قوة ثانياً .. كي يحرروه ، ويحرروا ما حوله من أيدي الغزاة ، ويحيوا بتحريره سيرة فاتحيه الأبطال ؛ عمر بن الخطاب ، وصلاح الدين الأيوبي..

(صلاح الدين الأيوبي رحمه الله هو المجاهد البطل ، محرر القدس من الصليبيين ، وبطل معركة حطين ، ينتمي إلى عائلة كردية من قبيلة الروادية ، ولد بقلعة تكريت قرب بغداد سنة 532هـ كان تقياً خاشع القلب غزير الدمعة ، حسن الظن بربه ، عادلاً رحيماً ، صابراً شجاعاً حليماً زاهداً ، يتذكر الموت دائماً (كتاب صلاح الدين لعبد الله علوان).)

ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .. قال تعالى :

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾

[سورة البقرة]

فإن الخزي والعار في الدنيا ، والعذاب العظيم في الآخرة ، جزاء من يمنع مساجد الله ، أن يُذكر فيها اسمه ، ويسعى في خرابها ، أما الذي يعمر مساجد الله بالبنيان ، وينورها بالإيمان ، فعمله هذا علامة مميزة ، على صحة الإسلام ، وصدق الإيمان ، قال تعالى :

إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

[سورة التوبة]

ولو انتقلنا إلى مدينة القدس ، حيث المسجد الأقصى متعبد الأنبياء ومسرى خاتم النبيين ، وعدنا القهقرى عبر البعد الزماني إلى يوم الجمعة الواقع في السابع والعشرين من شهر رجب عام خمسمائة وثلاثة وثمانين للهجرة ، الموافق في الثاني من تشرين الأول عام ألف ومائة وسبع ثمانين للميلاد .. لودناه يوماً عظيماً تم فيه فتح مدينة القدس من قبل المسلمين وبقيادة



البطل صلاح الدين ، وتم تحريرها من أيدي الغزاة الطامعين ، وها نحن أولاء نرى القلوب قد امتلأت بالفرح ، والوجوه قد عمها البشر ، ونسمع الألسنة وقد لهجت بالشكر وقد علت الرايات وعلقت القناديل ورُفع الأذان وتُلي القرآن، وصفت العبادات وأُقيمت الصلوات وأديمت الدعوات ، وتجلت البركات وانجلت الكربات وزال العبوس وطابت النفوس وفرح المؤمنون بنصر الله .

وها نحن أولاء ندخل المسجد الأقصى ، فإذا المسلمون وفيهم صلاح الدين وجنده يجلسون على الأرض ، لا تتفاوت مقاعدهم ، ولا يمتاز أميرهم عن أحد منهم ، قد خشعت جوارحهم ، وسكنت حركاتهم هؤلاء الذين كانوا فرساناً في أرض المعركة ، استحالوا رهباناً خُشعاً كأن على رؤوسهم الطير ، في حرم المسجد ، وها هو ذا خطيب المسجد محي الدين القرشي قاضي دمشق يصعد المنبر ويلقي خطبته ، ولو ألقيت على رمال البيد ، لتحركت وانقلبت فرساناً ولو سمعتها الصخور الصم لانبثقت فيها الحياة .. لقد افتتحها بقوله تعالى :

فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾

[سورة الأنعام]

وها نحن أولاء نستمع إلى فقرات من خطبته :

"أيها الناس ابشروا برضوان من الله الذي هو الغاية القصوى والدرجة العليا ، لما يسّره الله على أيديكم ، من استرداد هذه الضالة من الأمة الضالة ، وردّها إلى مقرها من الإسلام ، بعد ابتذالها في أيدي المعتدين الغاصبين قريباً من مائة عام ، وتطهير هذا البيت الذي أذن الله أن يُرفع ويُذكر فيه اسمه ، من رجس الشرك والعدوان .

ثم قال محذراً : إياكم ، عباد الله ، أن يستذلكم الشيطان ، فيُخيل إليكم أن هذا النصر كان بسيوفكم الحداد ، وخيولكم الجياد .. لا والله وما النصر إلا من عند الله .. فاحذروا ، عباد الله ، بعد أن شرّفكم الله بهذا الفتح الجليل ، أن تقترفوا كبيرة من مناهيه ، انصروا الله ينصركم .. خذوا في حسم الداء وقطع شأفة الأعداء " .

وهانحن أولاء نخرج من المسجد الأقصى ، ونلتقي بأحد الفرنجة الذين شهدوا فتح القدس وهاهو ذا يحدثنا فيقول : إن المسلمين لم يؤذوا أحداً ، ولم ينهبوا مالاً ، ولم يقتلوا مُسالماً ، ولا مُعاهداً ، وإن من شاء منا خرج وحمل معه ما شاء ، وإننا بعناهم ما فضُل من أمتعتنا ، فاشتروها منا بأثمانها ، وإننا نغدو ونروح آمنين مطمئنين لم نرَ منهم إلا الخير والمروءة ،



فهم أهل حضارة وتمدُّن ، وصدق من قال : " ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم منهم " .

06 - يا سيدي يا رسول الله

يا من جئت الحياة ، فأعطيت ولم تأخذ ، يا من قدَّست الوجود كله ، ورعيت قضية الإنسان ، يا من زكيت سيادة العقل ، ونهنهت غريزة القطيع ، يا من هيّأت تفوُّقك لتكون واحداً فوق الجميع ، فعشت واحداً بين الجميع ، يا من أعطيت القدوة ، وضربت المثل ، وعبّدت الطريق .. يا من كانت الرحمة مُهجتك ، والعَدل شريعتك ، والحُب فطرتك ، والسمو حرفتك ، ومشكلات الناس عبادتك . ولسان حالك يقول : " المعرفة رأس مالي ، والعقل أصل ديني ، والحب أساسي ، والشوق مَركبي ، وذِكر الله أنيسي ، والثقة كنزي ، والحزن رفيقي ، والعلم سلاحي ، والصبر ردائي ، والرضا غنيمتي ، والزُهد حرفتي ، واليقين قوّتي ، والصدق شفيعي ، والطاعة حسبي ، والجهاد خُلقي ، وجُعلت قُرَّة عيني في الصلاة .. " .

أشهد أن الذين بهرتْهم عظمتك لمعذورون ، وأن الذين افْتَدَوْكَ بأرواحهم لهم الرابحون ، أي إيمان ، وأي عزم ، وأي مضاء ، وأي صدق ، وأي طُهر ، وأي نقاء ، وأي تواضع ، وأي حُب ، وأي وفاء؟..

فيوم كنت طفلاً عَزَفْتَ عن لَهْو الأطفال ! .. وعن ملاعبهم ، وأسمارهم ، وكنت تقول لأترابك إذا دَعَوكَ إلى اللهو : " أنا لم أُخْلَق لهذا.!!"

ويوم جاءتك رسالة الهدى ، وحُمِّلتَ أمانة التَبليغ ، قلت لزوجتك، وقد دعتك إلى أخذ قسطٍ من الراحة : " انقضى عهدُ النومِ يا خديجة .. "

ويوم فتحت مكة التي آذتك وأخرجتك ، وكادت لك ، وائتمرت على قتلك .. وقد ملأت راياتك الأفق ظافرة عزيزة ، قلت لخصومك" : **اذهبوا فأنت الطلقاء !!**" .

ويوم دانت لك الجزيرة العربية ، وجاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً صعدت المنبر ، واستقبلت باكياً ، وقلت لهم : " **من كنتُ جلدت له ظهراً فهذا ظهري فَلْيَقْتَد منه ، ومن كنت أخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه** .. " .



ويوم دخلت على ثَوْبان ــ ذلك الغلام الفقير ــ فرأيته يبكي فسألتَه : **ما يُبكيك يا ثَوبان؟** .. قال : يا رسول الله إنك غبتَ إني اشتقتُ إليك ، فتبكي عيناي ، فإذا تذكرت الآخرة وأنني لن أكون معك في الجنة حيث أنت في أعلى درجاتها ، ازداد بكائي .. عندئذٍ هبط الأمين جبريل يقول الله عز وجل :

وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾

(سورة النساء : من آية " 69 ")

ويوم أقبل عليك رجلٌ فَظٌّ ، لم يكن قد رآك من قبل غير أنه سمع أن محمداً يسبُّ آلهة قريش ، فحمل سيفه وأقسم ليسوِّينَّ حسابه مع محمد ، ودخل عليك وبدأ حديثه عاصفاً مزمجراً، وأنت تبتسم وتنطلق مع بسماتك أطياف نور آسر ، وما هي إلا لحظات ، حتى انقلب الغيظ المتجهم حباً ..!! يكاد من فرط الوجد والحياء أن يذوب ، وانكفأ على يديك ودمعه ينهمر من عينيه ، ولما أفاق قال لك : يا محمد ، والله لقد سعيت إليك وما على وجه الأرض أبغضُ إليَّ منك ، وإني لذاهب عنك ، وما على وجه الأرض أحب إليَّ منك !! .. لقد أشرقت على هذا الرجل أنوار الحق ، ومحبة الخلق الكامنة في قلبه الشريف ، ففعلت في قلب الرجل فعل السحر ..!!

إنها النبوة ! إنها النبوة. !

ويوم غضبت صلى الله عليه وسلم من غلامٍ لك ــ وكان بيدك سواك ــ فقلت له " : **والله لولا خشية القصاص لأوجعتك بهذا السواك**"...

نحن بأمسَّ الحاجة إلى هديك الرَّباني ، الذي لا تزيده الأيام إلا رسوخاً وشموخاً ، ونحن بأمسَّ الحاجة إلى سُنَّتك المطهرة ، التي هي المنهج القويم والصراط المستقيم ، ونحن في أمسِّ الحاجة إلى أخلاقك العُظمى ، التي لا يزيدها التأمُّل ، والتحليل ، إلاَّ تألُّقاً ونضارة ، لقد كنت بحقٍّ بين الرجال بطلاً .. وبين الأبطال مثلاً ..



حيث قلت لابنتك فاطمة الزهراء رضي الله عنها " : **يا فاطمة بنت محمد ، أنقذي نفسك من النار ، أنا لا أغني عنك من الله شيئاً ، من يبطئ به عمله لم يسرع به نسبه ، لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم !** " .

ما من كلمة تُقال في شمائلك أبلغ من كلمة سيدنا جعفر بن أبي طالب ابن عمك رضي الله عنه ، يوم كان في الحبشة مهاجراً وسأله ملكها النجاشي عنك فقال : " أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولاً منّا ، نعرف نسبه ، وصدقه ، وأمانته ، وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحّده ، ونعبده ، ونخلع ما كنّا نعبد نحن وآباؤنا من دون الله من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم، وحسن الجوار ، والكفُّ عن المحارم والدماء ... ونهانا عن الفواحش ، وشهادة الزور، وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات "(1) .

خاطبك ربك فقال:

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾

(سورة الأحزاب)

لقد دعوت إلى الله ، وتلوت على قومك آيات الله ، وعلّمتهم الكتاب الحِكمة ، وزكّيت الذين آمنوا بك ، وساروا على نهجك ، حتى صاروا أبطالاً .. رهباناً في الليل فرساناً في النهار .. يقومون الليل إلا قليلاً ، ينفقون أموالهم سرّاً وعلانية ويدرؤون بالحسنة السيئة ، في صلاتهم خاشعون ، عن اللغو مُعرِضون ، للزكاة فاعلون ، لفروجهم حافظون ، ولأماناتهم وعهدهم راعون ، يمشون على الأرض هوناً ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً يبيتون لربهم سجَّداً وقياماً ، هم تائبون .. عابدون .. حامدون .. سائحون .. راكعون ، ساجدون .. آمرون بالمعروف وناه ون عن المنكر .. حافظون لحدود الله .. يجاهدون في سبيل الله ، ولا يخافون لومة لائم ، إذا قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لهم فاخشوهم ، زادهم إيماناً ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، هم رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر ،



وما بدّلوا تبديلاً ، يُبلغون رسالات الله ويخشونه ، ولا يشخون أحداً إلا الله، يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، إذا ذُكر الله وجلَت قلوبهم ، وإذا تُلِيت عليهم آياته زادتهم إيماناً ، وعلى ربهم يتوكَّلون ، ما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله ، وما ضعفوا وما ا ستكانوا والله يحب الصابرين ، كانوا قوَّامين بالله شُهداء بالقِسط ، أذلة على المؤمنين أعزَّة على الكافرين .. أحبوا الله وأحبهم .. رضي الله عنهم ورضوا عنه ..

لقد عرفت قيمة الوقت ، فجعلته ظرفاً لبطولات تعجز عن صنعها الأمم والشعوب ، حتى أقسم الله بعمرك الثمين فقال تعالى:

لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾

(سورة الحجر)

ما أحوج المسلمين اليوم إلى أن يصطلحوا مع ربّهم ، ويخلصوا له دينهم ، ويهتدوا بهديك ، ويتبعوا سُنَّتك ، ثم يدعوا بدعائك ، فلعل اللّه يُخرجهم من الظُلمة ، وكيف عنهم الغمّة، وينصرهم على عدوهم.

يا ذا القلب الذكي ، يا من لا تَفْلَت منك شاردة ، من آمال الناس وآلامهم ، إلا لبَّيتها ورعيتها ، وأعطيتها من ذات نفسك كلَّ اهتمامٍ وتأييد .. يا أيها العابد الأوَّاب ، يا من تقف في صلاتك تتلو سوراً طويلة من القرآن ، في انتشاء وغبطة ، لا تقايض عليها ملء الأرض ذهباً ، ثم لا تلبث أن تسمع بكاء طفلٍ رضيع كانت أمه تصلي خلفك في المسجد فتُضحِّي بغضبتك الكبرى وحبورك الجيّاش ، وتُنهي صلاتك على عجل رحمةً بالرضيع !!..

يا من سوَّيت نفسك مع أصحابك ، في بعض الغزوات ، فتناوبت واثنين منهم على راحلة ، فلما طُلِب منك أن تبقى راكباً قلت لهما : " **ما أنتما بأقوى مني على السير ، وما أنا بأغنى منكما على الأجر !؟** " .

يا من كنت ترتجف ، حينما ترى دابة ، تحمل على ظهرها فوق ما تطيق..

يا من أرسلك الله رحمةً للعالمين . فقال:



وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾

(سورة الأنبياء)

وزكّى عقلك فقال :

مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾

(سورة النجم)

وزكّى لسانك فقال:

وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ﴿٣﴾

(سورة النجم)

وزكّى شرعك فقال:

إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ﴿٤﴾

(سورة النجم)

وزكّى جليسك فقال:

عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ﴿٥﴾

(سورة النجم)

وزكّى فؤادك فقال:

مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾

(سورة النجم)

وزكّى بصرك فقال:

مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾

(سورة النجم)



وزكّى خلقك فقال:

وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾

(سورة القلم)

وأقسم بعمرك الثمين فقال:

لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾

(سورة الحجر)

نشهد أنك أدّيت الأمانة ، وبلَّغت الرسالة ، ونصحت الأمَّة .. وكشفت الغُمَّة ، ومحوت الظُلْمة ... وجاهدت في الله حق الجهاد ، وهديت العباد إلى سبيل الرشاد ...

اللهم صلِّ وسلَّم وبارك على سيد البشر وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين ، الذين ربّاهم تربية حملت أحدهم على أن يقول : "والله لو كُشِفَ الغطاء ما ازدت يقيناً ، ولو علمت أن غداً أجلي ، ما قدرت أن أزيد في عملي " .

ونحن نقول مع مَن قال:

يا سيدي يا رسول الله ، ما أعقلك ، وما أرحمك ، وما أوصلك ، وما أحكمك .. جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمّته ، لقد كنت رحمةً مهداة ونعمة مزجاة ..



الباب السابع: الدعوة





01 – قواعد الدعوة

مقدمة لموضوع قواعد الدعوة :

1 ــ النبي عليه الصلاة والسلام أفضل الدعاة إلى الله :

سيدي يا رسول الله ، ما من كلمة تُقال في يوم مولدك أبلغ من كلمة سيدنا جعفر بن أبي طالب ، ابن عمك يا رسول الله ، يوم كان في الحبشة مهاجراً ، وسأله ملكها عنك فقال :

((**أَيُّهَا الْمَلِكُ ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا ، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ ، وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ ، وَنَعْبُدَهُ ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَ دِيثِ ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ ، وَالْكَفِّ عَنْ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ ، وَنَهَانَا عَنْ الْفَوَاحِشِ ، وَقَوْلِ الزُّورِ ، وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْ دَهُ ، لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ**)) .

[أحمد عن أم سلمة]

سيدي يا رسول الله ، خاطبك الله جل جلاله ، فقال :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿٤٨﴾

(سورة الأحزاب)



2 ـ دعوة النبي خرّجت رجالا هذه أوصافهم :

لقد دعوت إلى الله ، وتلوت على قومك آيات الله ، وعلمتهم الكتاب والحكمة ، وزكيت الذين آمنوا بك ، وساروا على نهجك حتى صاروا أبطلاً ، رهباناً في الليل فرساناً في النهار ، يقومون الليل إلا قليلاً .

هم :

يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً

[البقرة : 274]

وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ

[الرعد : 22]

هم :

ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ

[المؤمنون]

وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾

[المؤمنون]



هم :

ٱلَّـذِينَ يَمۡشُـونَ عَلَـى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَـٰهِلُونَ قَـالُواْ سَـلَـٰمٗا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّـذِينَ يَبِيتُـونَ لِـرَبِّهِمۡ سُـجَّدٗا وَقِيَـٰمٗـا ﴿٦٤﴾

[المؤمنون]

هم :

ٱلتَّـٰٓئِبُـونَ ٱلۡعَـٰبِـدُونَ ٱلۡحَـٰـمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُـونَ ٱلسَّـٰـجِدُونَ ٱلۡأٓمِـرُونَ بِـٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَـنِ ٱلۡمُنكَـرِ وَٱلۡحَـٰـفِظُونَ لِحُـدُودِ ٱللَّـهِۗ

[التوبة : 112]

هم :

يُجَـٰـهِدُونَ فِـى سَـبِيلِ ٱللَّـهِ

وَلَا يَخَـافُونَ لَوۡمَـةَ لَآئِـمٖۚ

[المائدة : 54]

هم :

ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَـٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾

[آل عمران]

هم :

رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾



[الأحزاب]

هم :

ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ

[الأحزاب : 39]

وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ

[الحشر : 9]

هم :

ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ

ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢

[الأنفال]

هم الذين أوذوا :

فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ

أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ

[آل عمران : 146]

وكانوا :

قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ

[المائدة : 8]

أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ



أحبوا الله ، وأحبهم ، ورضي عنهم ، ورضوا عنه .

3 ــ الدعاة إلى الله مصابيح الدجى :

أيها الإخوة الأكارم في دنيا العروبة والإسلام ، نحن إذ نحتفل بمولد النبي صلى الله عليه وسلم نقف عند الجانب التربوي في دعوته ، ونستنبط بعض القواعد من أقواله ، ومن أفعاله ومن إقراره ، هذه القواعد التي يمكن أن تكون منارات للدعاة إلى الله من بعده يهتدون بها .

المسلمون من دون دعاة إلى الله جُهَّال تتخطفهم شياطين الإنس والجن ، من كل حدب وصوب ، وتعصف بهم الضلالات من كل جانب ، لذلك كان الدعاة إلى الله مصابيح الدجى ، وأئمة الهدى ، وحجة الله في أرضه ، بهم تُمحق الضلالات وتنقشع الغشاوات ، هم ركيزة الإيمان ، وغيظ الشيطان ، وهم قوام الأمة ، وعماد الدين ، هم أمناء على دين الله يدعون الناس إلى الله بلسان صادق ، وجنان ثابت ، وخلق كريم فأعمالهم تؤكد أقوالهم ، لذا فهم أسوة ونبراس يصلحون ما فسد ويقوِّمون ما اعوجَّ ، لا يستخفون من الناس ، ولا يخشون أحداً إلا الله ، ولا يقولون إلا حسناً .

4 ــ نجاح الدعوة في اتباع النبي :

ولن يفلح الدعاة إلى الله في دعوتهم إلا إذا اتبعوا النبي صلى الله عليه وسلم الذي عصمه الله عن الخطأ في الأقوال ، والأفعال والأحوال ، وأوحى إليه وحياً متلواً وغير متلو ، وألزمنا أن نأخذ منه كل ما أمرنا به ، وأن ندع كل ما نهانا عنه ، وأن نتأسى بمواقفه وسيرته ، لأنه القدوة ، والأسوة الحسنة ، والمثل الأعلى .

القواعد المستنبطة من دعوة النبي :

فمن القواعد المستنبطة من دعوته صلى الله عليه وسلم :

القاعدة الأولى : القدوة قبل الدعوة :

كان صلى الله عليه وسلم عابداً متحنثاً ، وقائداً فذاً ، شيَّد أمَّةً من الفُتات المتناثر ، ورجل حرب يضع الخطط ، ويقود الجيوش ، وأباً عطوفاً ، وزوجاً ، تحققت فيه المودة ،



والرحمة ، والسكن ، وصديقاً حميماً ، وقريباً كريم اً ، وجاراً تشغله هموم جيرانه ، وحاكماً ، تملأ نفسه مشاعر محكوميه ، يمنحهم من مودته وعطفه ما يجعلهم يفتدونه بأنفسهم ، ومع هذا كله فهو قائم على أعظم دعوة شهدتها الأرض ، الدعوة التي حققت للإنسان وجوده الكامل ، وتغلغلت في كيانه كله ، ورأى الناس الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم تتمثل فيه هذه الصفات الكريمة كلها ، فصدقوا تلك المبادئ التي جاء بها كلها ، ورأوها متمثلة فيه ، ولم يقرؤوها في كتاب جامد ، بل رأوها في بشر متحرك ، فتحركت لها نفوسهم ، وهفت لها مشاعرهم ، وحاولوا أن يقتبسوا قبسات من الرسول الكريم ، كلٍّ بقدر ما يُطيق فكان أكبر قدوة للبشرية في تاريخها الطويل ، وكان هادياً ومربياً بسلوكه الشخصي ، قبل أن يكون بالكلم الطيب الذي ينطق به .

ولأن القدوة هي أعظم وسائل التربية ذلك ، لأن دعوة المترف إلى التقشف دعوة ساقطة ، ودعوة الكذوب إلى الصدق دعوة مضحكة ، ودعوة المنحرف إلى الاستقامة دعوة مخجلة ، لذلك كانت مواقف النبي صلى الله عليه وسلم وشمائله ، وفضائله ، ومكارمه قدوةً صالحة ، وأسوة حسنة ، ومثلاً يُحتذى ، وهي ليست للإعجاب السلبي ، ولا للتأمل التجريدي ، ولكنها وُجدت فيه لنحققها في ذوات أنفسنا ، كل بقدر ما يستطيع .

وقد ورد في وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم لسيدنا معاذ أن :

((**يا معاذ أوصيك بتقوى الله ، وصدق الحديث ، والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة ، وترك الخيانة ، وحفظ الجار ، ورحمة اليتيم ، ولين الكلام ، وبذل السلام ، وحسن العمل ، وقصر الأمل ، ولزوم الإيمان ، والتفقه في القرآن ، وحب الآخرة والجزع من الحساب ، وخفض الجناح ، وأنهاك أن تَسُبَّ حكيماً ، أو تكذب صادقاً ، أو تُطيع آثماً ، أو تعصي إماماً عادلاً ، أو تُفسد أرضاً ، وأوصيك باتقاء الله عند كل حجر ، وشجر ، ومدر ، وأن تُحدث لكل ذنب توبة ، السر بالسر ، والعلانية بالعلانية**)) .

[أخرجه البيهقي في كتاب الزهد]

يستطيع الإنسان أن يكون عالماً جهبذاً في الطب ، أو العلوم ، أو الهندسة من دون أن تتطلب هذه العلوم ممن يتعلمها قيداً سلوكياً ، ولا يُفسد حقائقها أن يتبع النابغ فيها هوى نفسه ، في حياته الخاصة ، إلا علم الدين ، فإنك إن كنت من المتدينين المخلصين ، أو من علمائه أو الداعين إليه ، فلا بد أن تكون قدوة حسنة لمن تدعوهم إليه ، وإلا ما استمع إليك أحد ، ولو كنت أكثر الناس اطلاعاً وعلماً في دين الله ، ولن ينظر إليك أحد نظرة احترام جديرة بك ، إلا إذا كان سلوكك وفقاً لقواعد الدين .



قال ملك عمان ، وقد التقى النبي صلى الله عليه وسلم : " والله ما دلني على هذا النبي الأمي إلا أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به ، ولا ينهى عن شيء إلا كان أول تارك له ، وأنه يغلب فلا يبطر ، ويُغلب فلا يضجر ، ويفي بالعهد وينجز الوعد " .

قال أحد كُتاب السيرة الغربيين الذين أسلموا : " كان محمد ملكاً ، وسياسياً ، ومحارباً ، وقائداً ، ومشرِّعاً ، وقاضياً ، وفاتحاً ، ومهاجراً " ، فقد مارس بالفعل جميع المبادئ التي كان يلقنها للناس ، ولن تجد في القرآن حُكماً أو أمراً لم يعمل به النبي صلى الله عليه وسلم ، إذا كان يمارس بالفعل كل ما كان يدعو إليه بالقول ، فالمرء مثلاً لن يكون عفواً ، إلا أن يكون له عدو يلقى منه أشد الإساءة ، ثم تدور الدائرة على هذا العدو فيقع في قبضته ، ويصبح تحت رحمته ، ثم يملك القدرة على الانتقام منه ، ثم يعفو عنه .. ثم يقول الكاتب : " تأمل دخول النبي صلى الله عليه وسلم مكة دخول الظافر المنتصر ، وقد خرَّت جزيرة العرب صريعة تحت قدميه ، وأصبحت مكة قلعة العدو تحت رحمته ، فلو شاء لقطع رؤوس القوم ، الذين كانوا بالأمس ألد أعدائه ، الذين اتخذوه هزواً ، وأمعنوا في اضطهاده والاستخفاف به ، ولو أنه عاقبهم بذنبهم لكان مُحقاً ، ولم يكن ملوماً ، ولم تظهر فضيلة العفو قط بصورتها الكاملة في تاريخ أي دين من الأديان حتى جاء النبي صلى الله عليه وسلم ، ولولاه لظلت هذه الفضيلة معطلة إلى الأبد " .

2 ـ القاعدة الثانية : الإحسان قبل البيان :

لقد علَّمنا النبي صلى الله عليه وسلم أن نكون رحماء قبل أن نكون أوصياء ، فمن لا يرحم لا يُرحم ..

وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾

(سورة الأنبياء)

فالنفوس جُبلت على حُب من أحسن إليها ، وبغض من أساء إليها ، فهو صلى الله عليه وسلم فتح أقفال القلوب برحمته ورفقه ، حتى لانت له القلوب القاسية ، واستقامت الجوارح العاصية ، قال صلى الله عليه وسلم :

((**إنما بُعثت بمدارات الناس**)) .

[البيهقي في شعب الإيمان عن جابر]



وحرف الجر (الباء) في كلمة المداراة يفيد معنى الاستعانة ، أي أن النبي الكريم يستعين على هداية الناس بمداراتهم ، والمداراة شيء ، والمداهنة شيء آخر ، المداراة بذل الدنيا من أجل الدين ، والمداهنة بذل الدين من أجل الدنيا .

بعث النبي الكريم خيلاً قِبَل نجد ، فجاءت برجل من بني حنيفة يُقال له " ثمامة بن آثال " ، وكان ثمامة قد أوقع أشدَّ الأذى بالنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ :

بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْلًا قِبَلَ نَجْدٍ فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ يُقَالُ : لَهُ ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ ، فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ ؟ فَقَالَ : عِنْدِي خَيْرٌ يَا مُحَمَّدُ ، إِنْ تَقْتُلْنِي تَقْتُلْ ذَا دَمٍ ، وَإِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ مِنْهُ مَا شِئْتَ ، فَتُرِكَ حَتَّى كَانَ الْغَدُ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ ؟ قَالَ : مَا قُلْتُ لَكَ : إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ ، فَتَرَكَهُ حَتَّى كَانَ بَعْدَ الْغَدِ ، فَقَالَ : مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ ؟ فَقَالَ : عِنْدِي مَا قُلْتُ لَكَ ، فَقَالَ : أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ ، فَانْطَلَقَ إِلَى نَجْلٍ قَرِيبٍ مِنْ الْمَسْجِدِ فَاغْتَسَلَ ، ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ ، فَقَالَ : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، يَا مُحَمَّدُ ، وَاللَّهِ مَا كَانَ عَلَى الْأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ إِلَيَّ ، وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيَّ ، وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلَادِ إِلَيَّ ، وَإِنَّ خَيْلَكَ أَخَذَتْنِي ، وَأَنَا أُرِيدُ الْعُمْرَةَ ، فَمَاذَا تَرَى ، فَبَشَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ ، فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ قَالَ لَهُ قَائِلٌ : صَبَوْتَ ، قَالَ : لَا ، وَلَكِنْ أَسْلَمْتُ مَعَ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَا وَاللَّهِ لَا يَأْتِيكُمْ مِنْ الْيَمَامَةِ حَبَّةُ حِنْطَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)) .

[البخاري]

وهذا نوع من الحصار الاقتصادي .

القاعدة الثالثة : الترغيب قبل الترهيب :

لقد علَّمنا النبي صلى الله عليه وسلم أن نقدِّم للمدعو الترغيب قبل الترهيب ، والتبشير قبل الإنذار ، وأن نرغِّبه في الإخلاص ، قبل أن نرهبه من الرياء ، وأن نرغبه في طلب العلم ونشره ، قبل أن نرهبه م ن الإعراض عنه وكتمانه ، وأن نرغبه في الصلاة في وقتها ،



قبل أن نرهبه من تركها أو تأخيرها ، لأن تقديم أسلوب الترغيب يكون أنفع وأجدى من تقديم أسلوب الترهيب ، يتَّضح هذا من موقف النبي صلى الله عليه وسلم وحديثه لعدي بن حاتم حينما أسلم .

يروي عديُ بن حاتم الطائي عن نفسه فيقول : ما من رجل من العرب كان أشد كراهية لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين يُذكر مني ، وكنت ملكاً في قومي فالتقيت به فقال لي : لعلك يا عدي إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم ــ أي فقر المؤمنين ــ فو الله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم ، وقلة عددهم ، تقول : إنما اتَّبعه ضعفة الناس ، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها تزور هذا البيت لا تخاف أحداً إلا الله ، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن المُلك والسلطان في غيرهم ، وايم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض في أرض بابل قد فُتحت عليهم ، قال عدي : فلما سمعت بذلك أسلمتُ " .

القاعدة الرابعة : التيسير لا التعسير :

لقد علمنا النبي صلى الله عليه وسلم أن نُيسر ولا نُعسر ، وأن نُبشر ولا نُنفِّر ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :
((**يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا ، وَبَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا**)) .

[رواه البخاري ومسلم]

قال الإمام النووي رحمه الله : لو اقتصر النبي صلى الله عليه وسلم في قوله على : ((**يَسِّرُوا**)) لصدق على أن يسَّر مرة ، وعسَّر كثيراً فلما قال : ((**وَلَا تُعَسِّرُوا**)) ، فلكي نجتنب التعسير في كل الأحوال ، قال ابن مسعود رضي الله عنه : "<< كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخولنا بالموعظة في الأيام ، كراهة السآمة علينا >> .

أي كان يعظنا من حين لآخر ، دون تتابع لئلا نسأم الموعظة ، وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن تكليف الناس ما لا يطيقون ليستمر سيرهم في طريق الإيمان ، فالداعية المتبع لسنة النبي صلى الله عليه وسلم يأخذ نفسه بالعزائم ، ويسمح للمدعوين بالرخص ، تخفيفاً عليهم وتيسيراً لهم .

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ :



((أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى رَجُلًا يُهَادَى بَيْنَ ابْنَيْهِ فَسَأَلَ عَنْهُ ، فقَالُوا : نَذَرَ أَنْ يَمْشِيَ ، فَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنْ تَعْذِيبِ هَذَا نَفْسَهُ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَرْكَبَ)) .

[أبو داود ، الترمذي ، أحمد]

عَنْ طَاوُوسٍ :

((أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم مَرَّ بِأَبِي إِسْرَائِيلَ وَهُوَ قَائِمٌ فِي الشَّمْسِ فَقَالَ : مَا لَهُ ؟ ، فَقَالُوا : نَذَرَ أَنْ لاَ يَسْتَظِلَّ ، وَلاَ يَقْعُدَ ، وَلاَ يُكَلِّمَ أَحَدًا ، وَيَصُومَ ، فَأَمَرَهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم أَنْ يَسْتَظِلَّ ، وَأَنْ يَقْعُدَ ، وَأَنْ يُكَلِّمَ النَّاسَ ، وَيُتِمَّ صوْمَهُ ، وَلَمْ يَأْمُرْهُ بِكَفَّارَةٍ)) .

[البيهقي في السنن الكبرى]

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ :

((كَانَتْ عِنْدِي امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي أَسَدٍ ، فَدَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : مَنْ هَذِهِ ؟ قُلْتُ : فُلَانَةُ ، لَا تَنَامُ بِاللَّيْلِ ، فَذُكِرَ مِنْ صَلَاتِهَا ، فَقَالَ : مَهْ ، عَلَيْكُمْ مَا تُطِيقُونَ مِنْ الْأَعْمَالِ ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا)) .

[البخاري]

وقد قال الإمام علي كرم الله وجهه : << إن للقلوب إقبالاً وإدباراً ، فإذا أقبلت فاحملوها على النوافل ، وإن أدبرت فاقتصروا بها على الفرائض >> .

[راجع المائة المختارة للجاحظ ، وغرر الحكم للآمدي ص113]

القاعدة الخامسة : التربية لا التعرية :

لقد علَّمنا النبي صلى الله عليه وسلم من خلال أقواله وأفعاله ومواقفه من أصحابه في شتى مستوياتهم ، وأحوالهم أن الدعوة مهمة تربوية أساسها النفسي الحب الصادق ، والرحمة الواعية ، والشفقة الحانية على المدعو ، وأساسها العقلي : المعرفة الدقيقة والعميقة والشاملة لطبيعة النفس الإنسانية ، في قوتها وضعفها ، في تألقها وفتورها ، في إقبالها وإدبارها .

لما تجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم لفتح مكة كتب حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة يخبرهم بذلك ، فعن عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ :

((بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَا وَالزُّبَيْرَ وَالْمِقْدَادَ ، فَقَالَ : انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ ، فَإِنَّ بِهَا ظَعِينَةً مَعَهَا كِتَابٌ ، فَخُذُوا مِنْهَا ، قَالَ : فَانْطَلَقْنَا تَعَادَى بِنَا خَيْلُنَا حَتَّى أَتَيْنَا الرَّوْضَةَ ، فَإِذَا نَحْنُ بِالظَّعِينَةِ ، قُلْنَا لَهَا : أَخْرِجِي الْكِتَابَ ، قَالَتْ : مَا مَعِي كِتَابٌ ، فَقُلْنَا : لَتُخْرِجِنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَنُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ ، قَالَ : فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا ــ أي من ضفائر



شعرها ـــ **فَأَتَيْنَا بِهِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَإِذَا فِيهِ مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى نَاسٍ بِمَكَّةَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَا حَاطِبُ ، مَا هَذَا ؟ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ ، إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ ، يَقُولُ : كُنْتُ حَلِيفًا ، وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا ، وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ مَنْ لَهُمْ قَرَابَاتٌ يَحْمُونَ أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنْ النَّسَبِ فِيهِمْ أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ قَرَابَتِي ، وَلَمْ أَفْعَلْهُ ارْتِدَادًا عَنْ دِينِي ، وَلَا رِضًا بِالْكُفْرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكُمْ ، فَقَالَ عُمَرُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ ، فَقَالَ : إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ عَلَى مَنْ شَهِدَ بَدْرًا فَقَالَ : اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ))** .

[البخاري ومسلم]

إنه القلب الكبير ، والصدر الواسع ، والتفهُّم العميق للحظة ضعف طارئة ألمّت بهذا الصحابي ، وأراد النبي صلى الله عليه وسلم من هذا الموقف الرحيم أن يعينه ، وينهضه من عثرته فلا يطارده بها ، ولا يدع أحداً يطارده ... وسر التفاوت بين موقف النبي صلى الله عليه وسلم وموقف عمر رضي الله عنه أن عمر نظر إلى الذنب نفسه ، فإذا هو خيانة عظمى لله ولرسوله ولدينه ، بينما نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى لحظة الضعف الطارئة التي ألمت بصاحب الذنب فتفهمه ورحمه .

القاعدة السادسة : مخاطبة العقل والقلب معاً :

علَّمنا النبي صلى الله عليه وسلم من خلال سنته وسيرته ، أن الإنسان عقل يدرك وقلب يحب ، وأن العقل غذاؤه العلم ، وأن القلب غذاؤه الحب ، وأن العقل أمير القلب ، لذلك ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أن :

((**أرجحكم عقلاً أشدُّكم لله حباً**)) .

[روي في الأثر]

وإذا كان العقل للنفس كالعين تبصر به فإن الهدي الرباني نور لهذه العين ، فأنى للعقل أن يرى الحقائق من دون نور يكشفها له ؟ وإذا كان القلب وما ينطوي عليه من حب محركاً للإنسان ينتقل ويرقى به فإن العقل مقودٌ يوجه الحركة نحو الهدف ، ويجنبها الانحراف والهلاك .



لذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يخاطب العقل في الإنسان ، فعَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ :

((إِنَّ فَتًى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا ، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ ، قَالُوا : مَهْ مَهْ ، فَقَالَ : ادْنُهْ ، فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا ، قَالَ : فَجَلَسَ ، قَالَ : أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ ؟ قَالَ : لَا وَاللَّهِ ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ ، قَالَ : وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ قَالَ : أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ ؟ قَالَ : لَا وَاللَّهِ ، يَا رَسُولَ اللَّهِ ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ ، قَالَ : وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ ، قَالَ : أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ ؟ قَالَ : لَا وَاللَّهِ ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ ، قَالَ : وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ ، قَالَ : أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ ؟ قَالَ : لَا وَاللَّهِ ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ ، قَالَ : وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ ، قَالَ : أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ ؟ قَالَ : لَا وَاللَّهِ ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ ، قَالَ : وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ ، قَالَ : فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ ، وَقَالَ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ ، فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ)) .

[مسند أحمد]

وإذا كانت مخاطبة العقل تُحدث قناعة فإن مخاطبة القلب تُحدث موقفاً ، فلقد خاطب الأنصار الذين وجدوا عيه في أنفسهم ، عقب غزوة حنين ، وتوزيع الغنائم فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَاصِمٍ قَالَ :

((لَمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ حُنَيْنٍ قَسَمَ فِي النَّاسِ فِي الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ، وَلَمْ يُعْطِ الْأَنْصَارَ شَيْئًا ، فَكَأَنَّهُمْ وَجَدُوا إِذْ لَمْ يُصِبْهُمْ مَا أَصَابَ النَّاسَ ، فَخَطَبَهُمْ فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ، أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ بِي ، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمْ اللَّهُ بِي ، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ بِي ، كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا قَالُوا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ ، قَالَ : مَا يَمْنَعُكُمْ أَنْ تُجِيبُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ قَالَ : كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا قَالُوا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ ، قَالَ : لَوْ شِئْتُمْ قُلْتُمْ : جِئْتَنَا كَذَا وَكَذَا ، أَتَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ وَتَذْهَبُونَ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى رِحَالِكُمْ ؟ لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنْ الْأَنْصَارِ ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِيًا وَشِعْبًا لَسَلَكْتُ وَادِيَ الْأَنْصَارِ وَشِعْبَهَا ، الْأَنْصَارُ شِعَارٌ ، وَالنَّاسُ دِثَارٌ ، إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أُثْرَةً فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ)) .

[البخاري ومسلم]

القاعدة السابعة : الدليل والتعليل :

علّمنا النبي صلى الله عليه وسلم من خلال ما أُوحي إليه أن القرآن الكريم كلام خالق السماوات والأرض .. قال تعالى :



قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٦

(سورة الفرقان)

إذاً : لا بد من تطابق دقيق وتام بين مضامين القرآن الكريم ، وقوانين الكون بسماواته وأرضه ومخلوقاته ، ولا سيما الإنسان ، كما أن العقل بمبادئه ؛ مبدأ السببية والغائية وعدم التناقض ، يتفق مع سنن الكون الثابتة ، ودعوة القرآن الكريم إلى إعمال العقل في خلق السماوات والأرض ، كأداة لمعرفة الله ، وكمناط لمسؤولية الإنسان ، يؤكد هذا التوافق ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن الفطرة الإنسانية تتفق اتفاقاً تاماً مع الإيمان بالله واليوم الآخر وطاعة الله ، واللجوء إليه والسعادة بقربه ، قال تعالى :

فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٠

(سورة الروم)

لهذا نستنتج أن كل دعوة إلى الله لا يتقاطع في دائرتها النقل الصحيح ، مع العقل الصريح مع الفطرة السليمة ، مع الواقع الموضوعي هي دعوة غير مقبولة ، ولا يمكن أن تحقق نجاحاً لذلك قال صلى الله عليه وسلم :

((**إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ**)) .

[رواه البخاري ، وسلم عن علي]



الخطبة الثانية : تتمة قواعد الدعوة :

القاعدة الثامنة : الآمر قبل الأمر :

علّمنا النبي صلى الله عليه وسلم من خلال ما أوحي إليه أن العلم وحده هو الوسيلة والطريق إلى الله ، قال تعالى :

وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾

(سورة فاطر)

وإن المرء ما لم يتعرف إلى الله من خلال آياته الكونية ، وآياته التكوينية ، وآياته القرآنية ، فإنه لا يملك الخشية الكافية التي تحمله على طاعته ، واتباع سنة نبيه ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يدعــو ويقول :

((**اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ**)) .

[الترمذي عن ابن عمر]

لذلك كان التفكُّر في خلق السماوات والأرض طريقاً إلى خشية الله التي هي طريق إلى طاعته ، وطاعته طريق إلى سعادة الدارين ، قال تعالى :

وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾

(سورة الفتح)

وأي دعوة إلى الله تقتصر على التعريف بأمره ونهيه ، ولا تُقدم على التعريف بأمره التعريف به هي دعوة لا يُكتب لها النجاح ، قال تعالى :



سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾

(سورة فصلت)

حليب الأم آيةٌ معجزة :

لبن المرأة الذي يُعدُّ مدهشاً ومبهراً ، تعجز عن تركيبه بخصائصه قوى البشر ولو اجتمعت ، وأضخم المعالم ولو تضافرت ، فتركيبه في تبدل مستمر ، بحسب حاجات الرضيع ، ومتطلباته ، وبحسب احتمال أجهزته وأعضائه ، وهو أكثر ملائمة ، وأكثر احتمالاً ، وهو آمن طرق التغذية ، من حيثُ الطهارة والتعقيم ، إذا يؤخذ من الحُلمة مباشرة دون التعرض للتلوث الجرثومي ، وحرارته ثابتة خلال الرضعة الواحدة ومتناسبة مع حرارة الرضيع ، ويصعُب توافر هذه الشروط في الإرضاع الصناعي ، وفوق ذلك فهو لطيف الحرارة صيفاً دافئ في الشتاء ، وهو سهل الهضم فلا تتجاوز فترة هضمه ، الساعة والنصف ، بينما تزيد فتره هضم حليب القوارير عن ثلاث ساعات .

والطفل الذي يرضع من ثدي أمه ، يكتسب مناعة ضد كل الأمراض لن في حليب الأم كل مناعاتها ، وفيه مواد مضادة للالتهابات المعوية والتنفسية ، ومواد تمنع التصاق الجراثيم بجُدُر الأمعاء ، ومواد حامضية لقتل الجراثيم ، والإرضاع يقي الأم أورام الثدي الخبيثة ، ويقي الرضيع الآفات القلبية والوعائية ، وأمراض التغذية والاستقلاب .

بل إن الفطام السريع يُحدث عند الطفل رضًّا نفسياً ، وانحرافات سلوكية ، وهو أي حليب الأم، سهل التحضير ليلاً ونهاراً ، في السفر وفي الحضر ، لأنه جاهز دائماً بالحرارة المطلوبة ، والتعقيم المثالي والسهلة في الهضم والمناعة الشاملة ، قال تعالى :



لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾

(سورة البلد)

قال عكرمة وابن المسيب : النجدان هما الثديان .

تداركتنا باللطف في ظلمة الحشا ... وخير كفيل في الحشا قد كفلتنا
وأسكنت قلب الأمهات تعطفـــــاً ... علينا وفي الثديين أجريت قوتنا
وأنشأتنا طفلا وأطلقت ألســـــناً ... تترجم بالإقرار أنك ربنــــــا
وعرفتنا إياك فالحمد دائمـــــــاً ... لوجهك إذ ألهمتنا منك رشدنــا

02 – شروط الداعية الناجح

نشرت في مجلة نهج الإسلام عدد (30)

الدعوة إلى الله ــ خطاباً أو تدريساً ــ نوع من أنواع القيادة الفكرية ومن أولى مقومات القيادة ، امتلاك القدرة على التأثير ، في الآخرين وحملهم على تغيير تصوراتهم وقناعاتهم من جهة ، ثم حملهم على تغيير سلوكهم وأنماط حياتهم من جهة أخرى ، مع التأكيد على أن يكون هذا التغيير طوعاً لا كرهاً .. قال تعالى :

لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ

[سورة البقرة الآية 256]

والدعوة إلى الله نوع من أنواع التربية ، وهي في حقيقتها توجيه الأفراد توجيهاً صحيحاً، في مختلف المجالات ، في العقائد، والعبادات والمعاملات ، وبحسب المصطلحات الحديثة ، توجيه الأفراد توجيهاً علمياً ، ونفسياً ، واجتماعياً ، كل هذا .. من أجل أن يُحقق الإنسان الهدف الذي خلقه الله من أجله ، فيسعد هو ومجتمعه في الدنيا والآخرة قال تعالى :



وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾

[سورة الذاريات الآية 56]

والعبادة في بعض تعاريفها : طاعة طوعية ، تسبقها معرفة يقينية تُفضي إلى سعادة أبدية ، لذلك كان لزاماً على الداعية إلى الله أن يملك القدرة على التأثير في الآخرين ، ليتمكن من تأدية رسالته المقدسة التي وقف نفسه عليها ، تأدية كاملة ، أو قريبة من الكمال ، ويمكن للداعية أن يمتلك الكثير من مقومات " فن التأثير في الآخرين " لأن هذا الفن ليس مو هبة فطرية كلياً، بل فيه نوعٌ من الكسب ، فمن مقومات التأثير في الآخرين :

ــ جلب انتباههم ، والحركة بمعناها الواسع ، تجلب الانتباه ، فتحرك المتكلم تحركاً معتدلاً ، وذا معنى ، وتحريك يديه ورأسه حركة ذكية مُعبرة ، وتحريك عينيه لتقعا على كل مُستمع ، وتحريك الصوت بتلوينه ارتفاعاً وانخفاضاً ، رقَّة وجزالة ، بحسب المعنى والهدف وتحريك الأسلوب بين الخبر والإنشاء ، وبين الأمر والنهي ، والوعد والوعيد وبين الوصف والتحليل ، وبين السرد والنقد ، وبين القصة والمثل ، وبين التقرير والتصوير ، وبين الترغيب والترهيب ، وبين الحوار والحدث فإن في الحركة جلباً لانتباه الآخرين ، وجلبُ انتباههم شرطٌ لإحداث التأثير فيهم .

ــ وتُعد القصة من أهم الأطر التعبيرية ، ومن أوسعها انتشاراً ، ومن أقربها إلى النفس الإنسانية ، وذلك لقدرتها على التغلغل في أعماقها ونظراً لما تنطوي عليه من حقائق إنسانية ، ولما تتمتع به من إثارة وتشويق ، ولما تتركه في نفس المستمع أو القارئ من أثر فكري وأخلاقي ، لذا تُعد القصة من أشهر الوسائل التعبيرية ، والتوجيهية فاعلية ، ففي القصة تتحرك الشخصيات ، عن طريق الحدث والحوار ، حركةً لا يمكن التنبؤ بنتائجها ، وهذا هو سرٌّ التشويق في القصة ففي الإنسان قدرٌ من حسب الاطلاع ، يدفعه إلى متابعة كل متحرك، لا يعرف كيف يستقر ، ويظل مشدوداً إلى هذا المتحرك ، إلى أن يعرفَ مصيره على الأقل ، وهذا ما يُفسر عدم تركنا قصة شائقة ومثيرة ومن هنا كانت القصة إحدى أهم الوسائل الفعالة في التوجيه ، بسبب ما تملكه من إمتاع مستمر يجعل المرء مشدوداً إليها ، فإذا كان مغزاها يتصل بحقيقة دينية أساسية ، تركت أثراً كبيراً في إحداث تصورات ومواقف جديدة لدى المستمع ، قال تعالى :



لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ

[سورة يوسف الآية 111]

ــ ومن أساليب التأثير في الآخرين الاستعانة بالرغبات ، والحاجات فمن الضروري إذا أريد التأثير في شخص ما ، أن يُجعل من رعباته المشروعة ، وحاجاته وسيلةً للتأثير فيه ، فمجرد إلقاء المعلومات لا يأتي بالثمرة المطلوبة ، ما لم تكن هذه المعلومات مرتبطة بالاهتمامات الحقيقية للشخص المستمع ، فالإنسان نادراً ما يتأثر عن طر يق العقل المجرد ، أو الحقائق الجافة ، التي ليس لها صلة بحياته ، فالوعظ والتعنيف واللوم مضيعةٌ للوقت ، مجلبةٌ للسأم ، والحديث عن الحياة الطيبة ، التي وعد الله بها المؤمنين أقرب إلى قلب المستمع من موضوع المواريث أو عتق العبيد .

ــ وعامل آخر من عوامل التأثير فـي الآخرين ؛ وهو الجدَّةُ والإبداع . إن مقداراً معيناً من الجدة والإبداع ضروري لجلب انتباه الآخرين والتأثير فيهم ، على ألا تكون تلك الجدة بعيدةً جداً عن المألوف ، لأن الناس يخشون قليلاً الأشياء الغريبة المخالفة ، وهم من جهة أخرى لا يُصغون إلى الحكاية القديمة المألوفة ، لهذا نحن بحاجة إلى مزيج عادل من القديم والجديد . قال تعالى :

وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

[سورة النحل الآية 8]

ففي الآية إشارةٌ إلى وسائل النقل الحديثة ، مع وسائل النقل التي كانت سائدة .

ــ هذا وإن معرفة خطوط دفاع الآخرين ، والتغلغل وراءها ضروري لإحداث الأثر المطلوب ؛ فالإنسان ــ عادة ــ مستمسك بما هو عليه من تصورات ، ومواقف ، وتصرفات ، وعادات ، وتقاليد ، وهو يدافع عنها ويرفض كل تجديد ، لأنه يدافع عن شخصيته ، ويؤكد ذاته ، والتأثير في مثل هذا النوع من الناس صعبٌ ، إلا إذا تمكن الداعية من تحطيم خطوط دفاعه ، أو التسلل وراءه ا ليصل إلى حاجاته الأساسية ، أو سماته العميقة ويستعين بها لإحداث قناعات جديدة ، ومواقف صحيحة مخاطباً العقل تارةً والعاطفة تارةً أخرى .

ــ ولا يستطيع الداعة أن يؤثر في الآخرين إلا إذا شاركهم في معاناتهم فإذا اقترب الداعية من واقع الناس ، وعاش مشكلاتهم ، كا ن أقرب إلى قلوبهم ، وأقدر على حل مشكلاتهم ،



وأملك لقوة التأثير فيهم إن الداعية لحقيقي يختلط مع الناس ، ليفهم مشكلاتهم، ويرشدهم إلى حلها ، فالأنبياء العظام اختلطوا مع الناس ، ومشوا في الأسواق وشاركوا الناس كل ما في الحياة ، إلا الصغائر والآثام ، إنهم قاسم وهم كل شيء إلا ضعفهم الفكري، والخلقي ، إنهم مع الناس ليفهموهم ويرحموهم ، ويرشدوهم ، وليكونوا لهم القدوة والنبراس .

ولا يكون كلام الداعية مؤثراً إلا إذا توافرت فيه شروط منها :

ــ الإعداد العلمي الجيد : فينبغي أن يعرف المتكلم ماذا يريد أن يقول وما الهدف من المحاضرة ، ما موضوعها الأساسي ، ما الأفكار الرئيسية ، ما المعاني التفصيلية التي تُعمق الأفكار الأساسية ، ما الأدلة النقلية ، ما الأدلة العقلية ، التي تدعم ما يذهب إليه ، ما الأمثلة الواقعية وما القصص المؤثرة التي توضح وترسخ ما يريد أن ينقله إلى الناس ، ثم كيف يرتب وينظم هذه الأفكار والشواهد ، والأدلة والقصص ، وما الذي ينبغي أن يُقال أولاً ، أنشرح الفكرة ثم نأتي بالدليل ، أم نأتي بالدليل ثم نشرحه ؟ فلابد من تنظيم الأفكار، وتشقيقها وتفريعها ، وفق خطة واضحة ، محكمة معلومة ، لدى المستمع ولابد من محور تاريخي أ و موضوعي أو شخصي تسير عليه الأفكار ، في حركتها وانتقالها ، ولابد من التنويه عند الانتقال من فكرة إلى أخرى ولابد من تلخيص الموضوعات الكبرى في المحاضرة ، فمن الثابت أن الإنسان لا يصغي عادة إلى الحديث المضطرب غير المنظم .

ــ وعلى الداعية الناجد أن يفكر بسامعي ه ، فعليه أن يجعل لهم صورة في ذهنه ، ماذا يحبون ؟ .. وبماذا يهتمون ؟ .. وما الموضوعات التي تعنيهم ؟ .. وما الموضوعات التي سئموها ؟ .. فالموضوعات التي لا تتصل بحياة الناس ، ولا تتعلق بمشكلاتهم ، ولا تُجيب عن تساؤلاتهم ولا تنهي حيرتهم ؟ مثل هذه الموضوعات لا يلقون إليها آذاناً صاغية ، ولا يجدون رغبة في متابعة الاستماع إليها .

ففي الجامعة يُلزم الطالب بمتابعة المحاضرات ، وربما توقف نجاحه على هذه المتابعة، بينما لا يملك الداعية أو المدرس الديني أن يُلزم أحداً على حضور دروسه ، لكن قوة المضمون ، وروعة العرض وجمال الأسلوب ، ودقة الأمثلة ، وحضور القلب ، والإخلاص في هداية الآخرين ، كل هذه الشروط تجعل الآخرين ملتزمين بحضور هذا الدرس.

ولا يستطيع الداعية الناجح ، أن يشد الناس إليه ، إلا أن يعتقد الذكاء والنباهة في المستمعين ، فلا يفرض أنهم لا يعرفون شيئاً ، ولا يستطيعون أن يفكروا في شيء ، فهو يلقي إليهم أبسط الحقائق وأتفه التفصيلات ، ويجري أمامهم المحاكمات الشاذة عندئذ يخسرُ فئة الأذكياء من



مستمعيه ، أو يخسر انتباههم ، ثم يخسر تقديرهم ، ثم يخسر وجودهم . بل يجب عليه أن يجعل المستمعين يفكرون معه ويملئون بعض الفارغات الفكر ية ، ويحملهم على أن يستنبطوا بعض الحقائق بأنفسهم ، والقرآن الكريم يعلمنا أن نلحظ ذكاء المستمع ، قال تعالى :

أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ

[سورة يوسف الآية 45-46]

فهناك تفصيلات كثيرة لم يذكرها القرآن ، مفترضاً الذكاء والنباهة في القارئ ، ولو ذُكرت لكانت عبئاً على القصة وليس في خدم تها وهذا هو سر أن البلاغة في الإيجاز ، وقد قيل : " البلاغة بين الإيجاز المخل والإطناب الممل " .

ــ والداعية الناجح لا يُشعر المستمعين بالنقص ، فهم لا يعرفون شيئاً وهو يعرف كل شيء ، فلا ينبغي أن يُحدثهم بلغة لا يفهمونها ، ولا ينبغي أن يعرض عليهم أفكاره بط ريقة لا يألفونها ، لان ينبغي أن يجعل بينه وبينهم هوة كبيرة ، بل عليه أن يبسط لهم الحقائق المعقدة وييسر لهم سُبل الفهم باستخدام العبارة الواضحة المألوفة ، عليه أن يضرب لهم الأمثلة ، أن يقصَّ عليهم القصص الموضحة ، إن هذا الأسلوب هو ما يوصف بالسهل الممتنع ، فهو سهل على المستمع ممتنع على المقلد ، وإن الذين تركوا آثاراً واضحة في مستمعيهم تميزت أساليبهم بالسهولة والامتناع .

ــ والداعية الناجح هو الذي يستعمل الفكاهة الذكية الرصينة ، التي لا تجرح ولا تؤذي أحداً ، بل ربما كانت نابعة من موضوع الحديث نفسه ، وقد تكون موضحة لبعض الحقائق فيه ، فهي تجدد نشاط المستمع ، وتقوي فيه الانتباه ، وتعزز عنده الفهم ، وهي تقيم نوعاً من الصلة المحببة بين المتكلم والمستمع .

ــ ويُفضل أن يمرَّ الداعية بنظره على كل من يستمع إليه ، فكأن هذه النظرة التي يُلقيها المتكلم على المستمع تقيم اتصالاً روحياً بينهما فضلاً عن أنها تشدُّ المستمع إلى المتكلم ، وتُعينه على متابعة الموضوع ، والتفاعل معه ، بينما انقطاع النظر بين المتكلم والمستمع ، يضعف المتابعة ، ويسبب السأم ، ويقطع الصلة الروحية بينهما، لهذا كانت المساجد التي تتيح للخطيب أو المدرس أن يرى كل المستمعين أكثر فعالية في أداء رسالة المسجد .

ــ ومن أهم عوامل التأثير أن يعرف الداعية ، أن لكل شيء حداً يقف عنده ، وإذا تجاوزه



أدى ذلك إلى تأثير سلبي معاكس لهدف المتكلم . فهناك حدٌ لما ينبغي أن يعمل في وقت معين ، هناك حدٌ لانتباه المستمع ، هناك حدٌ لمقدار التأثير الذي يمكن إحداثه في فرصة معينة ، إننا نُخفق حينما نحاول أن نعمل أكثر مما ينبغي في مرة وحدة ، لذلك على المتكلم أن يعرف متى ينبغي أن يقف ، قف متى انتهيت ، قف متى انتهى الذي أعددته ، قف إذا شعرت أن الملل والسأم قد بدا على وجوه المستمعين قف وهم يتمنون لو تتابع الحديث ، لا أن يتمنوا أن تقف وأنت تتابع الحديث .

وهنا محل الإشارة أن من عوامل نجاح المتكلم ، بل من عوامل جلب انتباه المستمعين طوال فترة المحاضرة ، أن يعلموا جميعاً متى تنتهي المحاضرة ، فهذا الدرس ــ مثلاً ــ ينتهي مع أذان العشاء ، إذن الجميع منصرفون إليه لأنهم يعرفون توقيته ومدته ، وقد يبنون على مدته المحددة مواعيدهم الأخرى ، ويستريحون من القلق الذي يساورهم إذا كانت مدة المحاضرة مفتوحة .

أما الشروط التي تجعل الخطاب ثقيلاً فهي كثيرة منها : الجمود بكل معانيه المادية والمعنوية ، والبعد عن حاجات ا لمستمع ومشكلاته وعدم مزج القديم بالجديد ، والاتجار من دون إعداد وتنظيم ، والإطناب الممل ، والإيجاز المخل ، وعدم الوضوح ، وعدم وجود الإثارة والوتيرة الواحدة ، والتكرار ، وعدم وجود الصور الحية ، وأن يكون المتكلم في واد ، والمستمع في واد آخر .. واستخدام أسلوب اللف والدوران في معالجة الموضوع ، والإكثار من التعميم، والسرعة في إصدار الأحكام والمبالغة والتهويل ، والحشو والتفصيل .

03 - أثر القدوة

أيها الإخوة المؤمنون في كل مكان ، يقول الله عز وجل في سورة الحجر :

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَـَٔاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾

(سورة الحجر)



وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ

1 ــ الكونُ الكتاب المنظور :

فالسماوات والأرض تعبير قرآني يطابق مفهوم الكون ، والذي يبدو لعلماء الفلك من خلال المراصد العملاقة أن هذا الكون لا تحدُّه نهاية ، ولا تحيط به دراية ، ففي كل يوم تُكتشف مجرَّة جديدة ونجوم بعيدة ، فهناك مئات ألوف الملايين من المجرات ، وفي المج رة الواحدة مئات ألوف الملايين من النجوم والكواكب ، ويكفي أن نذكر أنه تم اكتشاف مجرة بعدها عن أرضنا يزيد على ستة عشر ألف مليون سنة ضوئية ، علماً بأن الضوء يقطع ما يقارب ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية الواحدة ، قال تعالى :

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾

(سورة الواقعة)

فلا يعرف ما تعنيه مواقع النجوم إلا العلماء ، ومن عرف ما تعنيه مواقع النجوم خشع قلبه ، وخشعت جوارحه ، وخر لله ساجداً ، قال الله تعالى :

إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ

(سورة فاطر)

يقول الإمام الشافعي رضي الله عنه : " إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم ، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم ، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم " .

نعود إلى الآية الكريمة :

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ



2 ــ ماذا تعني كلمة " الحق " ؟

فالحق لابَسَ خلق السماوات والأرض ، فماذا تعني كلمة " الحق " ؟ يا لروعة القرآن ، إنه يفسر بعضه بعضاً ، قال الله تعالى :

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾

(سورة ص)

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴿١٦﴾

(سورة الأنبياء)

فالحق إذاً مناقض للّعب ، والحق إذاً ليس باطلاً ، وليس لعباً .. وإذا كان الباطل هو الشيء الزائل والزاهق ، فالحق هو الثابت المستقر الأبدي ، وإذا كان اللعب هو الشيء العابث ، غير الهادف ، فالحق هو الذي ينطوي على هدف كبير .. وهو الاستقرار الهادف ، أو الحكمة الثابتة ..

3 ــ ما الهدف والحكمة من خلق السماوات والأرض ؟

فما الهدف والحكمة من خلق السماوات والأرض ؟

قال بعض العلماء في تفسير الآية الكريمة : " .. خلق الله السماوات والأرض مَظهراً لأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى ، وخلقنا كي نتعرف إليه ، من خلال خلق السماوات والأرض ، فإذا عرفناه عبدناه ، وإذا عبدناه حق العبادة ، سعدنا بعبادته في الدنيا والآخرة ، فمن تعرَّف إلى الله وعبده حق العبادة ، وسعد بقربه فقد حقق الهدف من خلق السماوات والأرض ، وحقق الهدف من خلقه ، وقد ورد في الأثر القدسي :



((ابن آدم ، اطلبني تجدني ، فإذا وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فتُّك فاتك كل شيء ، وأنا أحبُّ إليك من كل شيء ...)) .

[ورد في الأثر]

يا رب ماذا وجد من فقدك ؟ وماذا فَقَدَ من وجدك ؟

فمعرفة الله أمر مصيري في حياة الإنسان ، فمن لم يـــعرف ربه ، ومن لم يهتد بهداه ، ضل عقله ، وشقيت نفسه ، وحزن على ما فاته ، وخاف مما هو آت ، وكان هلوعاً جزوعاً منوعاً .

قال تعالى :

فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾

(سورة طه)

فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾

(سورة البقرة : 38)

۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾

(المعارج)

القدوة الحسنة أنفعُ للناس من عشرات الخطب والكتب :

فهذا الهدي الرباني كيف نقنع الناس به ؟ وكيف نحملهم على اتباعه ؟ ولماذا دخل الناس في دين الله أفواجاً في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ؟ وفي عهد صحابته الراشدين ؟ ولماذا خرج ناسٌ كثيرون من دين الله أفواجاً في عهود لاحقة ؟ ولماذا كان الواحد من



أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كألف ؟ ولماذا صار الألف من بعض المسلمين كأفٍّ ؟ ولماذا نجح الأنبياء في تزكية نفوس أتباعهم والسمو بها ، ولم ينجح غيرهم من دعاة الإصلاح وأدعياء الدين ؟

يقول أحد المفكرين : إن مثلاً واحداً أنفع للناس من عشرة مجلدات .. لأن الأحياء لا تصدق إلا المثل الحي ، لهذا كان النبي الواحد بمثله الخلقي الحي ، وجهاده أهدى للبشرية من آلاف الكتَّاب ، الذين ملؤوا بالفضائل والحكم بطون المجلدات ، وإن أكثر الناس يستطيعون الكلام عن المثل العليا ، ولكنهم لا يعيشونها .. لهذا كانت حياة الأنبياء إعجازاً ، وكانت نتائج دعوتهم إعجازاً ، بينما لا تلقى دعوة الداعين غير المخلصين من أتباعهم إلا الاستخفاف والسخرية ، فالإسلام لا يحييه إلا المثل الأعلى ، والقدوة الحسنة ، والسلوك المستقيم ، والانضباط الذاتي ، والعفة عن المطامع و المحارم ، والعمل الصالح ، والتضحية والإيثار ، لأنه ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل .

و : ((**ركعتان من ورِع خيرٌ من ألف ركعة من مخلط**)) .

[الجامع الصغير عن أنس ، وسنده لا يصح]

والمخلط هو الذي خلط عملاً صالحاً ، وآخر سيئاً ، وقال عليه الصلاة والسلام : ((**من لم يكن له ورع يصده عن محارم الله إذا خلا لم يعبأ الله بشيء من عمله**)) .

[الديلمي عن أنس]

روي أن سيدنا عمر رأى راعياً يرعى شياهاً ، فقال له : << بعني هذه الشاة ، وخذ ثمنها ، فقال الراعي : ليست لي ، قال عمر : قل لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب ، وهو بهذا يمتحنه ، فقال الراعي : ليست لي ، قال عمر : خذ ثمنها .. عندها قال الراعي : والله إنني بأشد الحاجة إلى ثمنها ، ولو قلت لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب لصدقني ، فإني عنده صادق أمين ، ولكن أين الله ؟ >> .

لقد وضع هذا الراعي يده على جوهر الدين ، ولو أن حظه من الثقافة الدينية محدود ، فكفى بالمرء علماً أن يخشى الله ، وكفى به جهلاً أن يعصيه .

فإذا حدثت أحدَنا نفسُه أن يأخذ ما ليس له بحق ، وليس عليه رقيب أو شهيد ، فقال في نفسه كما قال هذا الراعي : ولكن أين الله ؟ فقد عرف الله ، وصحت عباداته ، أما إذا أخذ ما ليس له بحق أن يأخذه فلن تنفعه ثقافته الدينية مهما اتسعت ، فقد لا يقبل الله منه عباداته ، وأعماله ، مهما كثرت .



قال سهل التستري : " واللهِ لتركُ درهم من حرام خير من ثمانين حجة بعد حجة الإسلام " .

وقيل : " ليس الولي من يفعل خوارق العادات ، ولكنه من تجده عند الأمر والنهي في الملمات " .

وقال سيدنا عمر رضي الله عنه لأويس القرني رضي الله عنه : << عظني يا أويس ، فقال أويس : ابتغ رحمة الله عند طاعته ، واحذر نقمته عند معصيته ، ولا تقطع رجاءك فيما بينهما >> .

من صفات الداعية إلى الله :

وفي القرآن الكريم إشارات دقيقة إلى الصفات الرفيعة التي يجب أن يتحلى بها كل من دعا إلى الله وتصدى لهذه المهمة المقدسة .

1 ــ الترفُّع عن الدنيا :

لا بد من الترفع عن الدنيا وما فيها ، ولا ينبغي أن يُتخذ الدين مطية للدنيا ، قال الله تعالى :

وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾

(سورة يس)



2 ــ العمل الصالح :

ولا بد من العمل الصالح ، فهو دليل صدق الداعية ، وسبب نجاح الدعوة ، قال تعالى :

أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ



(سورة فصلت)

3 ــ الصبر :

ولا بد من الصبر على الطاعة وعن المعصية ، وعلى من تدعوه فهو علامة الصدق في طلب الجنة ، والإصرار على الفوز برضوان الله ، قال الله تعالى :

وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا



(سورة السجدة)

4 ــ الانقياد التام لأوامر الله :

ولا بد من الانقياد التام لأوامر الله كلها في المنشط والمكره ، وما عُرفت حكمته وما لم تُعرف ، فالرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين ، قال الله تعالى :

۞وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾

(سورة البقرة)



5 ــ خشيةُ الله وحده :

ولا بد أن تكون الخشية لله وحده ، قال الله تعالى :

ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾

(سورة الأحزاب)

النبي هو القدوة الحسنة :

أيها الإخوة الكرام ، كان النبي صلى الله عليه وسلم مثلاً أعلى لأصحابه الأطهار ، وأسوةً حسنةً للمؤمنين الأخيار ، وقدوة صالحة لأتباعه الأبرار ، فقد اتسمت دعوته باتساع رقعتها ، وامتداد أمدها ، وعمق تأثيرها ، لأنه طبق بسلوكه ما قاله بلسانه ، فقد كان صلى الله عليه وسلم على خلق عظيم ، وكان خلقه القرآن ، وأحبه أصحابه إلى درجة فاقت حد التصور ، وأطاعوه طاعةً جاوزت حدود الخيال ، قال أبو سفيان يوم كان مشركاً : "ما رأيت أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً " .

فالسر في قوة تأثير النبي صلى الله عليه وسلم في أصحابه أنه كان لهم أسوة حسنة، وقدوة صالحة ، ومثلاً يُحتذى .

قال ملك عمان ، وقد التقى النبيَّ العدنان : والله لقد دلني على هذا النبي الأمي أنه كان لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به ، ولا ينهى عن شيء إلا كان أول تارك له ، و أنه يغلب فلا يبطر ، ويُغلب فلا يضجر ، ويفي بالعهد ، وينجز الوعد .

لقد كان صلى الله عليه وسلم ، جم التواضع ، وافر الأدب ، يبدأ الناس بالسلام ، وينصرف بكله إلى محدثه صغيراً كان أو كبيراً ، ويكون آخر من يسحب يده إذا صافح ، وإذا تصدق وضع الصدقة بيده في يدِ المسكين ، وإذا جلسَ جلس حيث ينتهي به المجلس ، لم يُر مادًّاً رجليه قط ، ولم يكن يأنف من عمل لقضاء حاجته أو حاجة صاحب أو جار ، وكان يذهب إلى السوق ، ويحمل بضاعته ، ويقول : أنا أولى بحملها ، وكان يجيب دعوة الحر والعبد ، والمسكين ، ويقبل عذر المعتذر .



وكان يرفو ثوبه ، ويخصف نعله ، ويخدم نفسه ، ويعقل بعيره ، ويكنس داره ، وكان في مهنة أهله ، وكان يأكل مع الخادم ، ويقضي حاجة الضعيف والبائس ، و يمشي هوناً خافض الطرف ، متواصل الأحزان دائم الفكرة ، لا ينطق من غير حاجة ، طويل السكوت ، إذا تكلمَ تكلم بجوامع الكلم .

وكان دمثاً ، ليس بالجاحف ولا المهين ، يعظم النعم وإن دقت ، ولا يذم منها شيئاً ، ولا يذم مذاقاً ، ولا يمدحه ، ولا تغضبه الدنيا ، ولا ما كان لها ، ولا يغضب لنفسه ، ولا ينتصر لها .

إذا غضب أعرض ، وأشاح ، وإذا فرح غض طرفه ، وكان يؤلف ، ولا يفرق ، ويقرب ، ولا ينفر ، ويكرم كريم كل قوم ، ويوليه عليهم ، ويتفقد أصحابه ، ويسأل الناس عما في الناس ، ويُحَسِّن الحسن ويصوبه ، ويقبح القبيح ويوهنه ، و لا يقصر عن حق ، ولا يجاوزه ، ولا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه ، من سأله حاجة لم يرده إلا بها ، أو ما يسره من القول .

كان دائم البشر ، سهل الخلق ، لين الجانب ، ليس بفظ ، ولا غليظ ، ولا صخَّاب ، ولا فحَّاش ، ولا عيَّاب ، ولا مزَّاح ، يتغافل عما لا يشتهي .

ولا يخيب فيه مؤمله ، وكان لا يذم أحداً ولا يعيِّره ، ولا يطلب عورته ، ولا يتكلم إلا فيما يُرجى ثوابه ، يضحك مما يضحك منه أصحابه ، ويتعجب مما يتعجبون ، ويصبر على الغريب وعلى جفوته في مسألته ومنطقه ، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجوزه .

الحديث عن شمائله صلى الله عليه وسلم لا تتسع له المجلدات ، ولا خطب في سنوات، ولكن الله جل في علاه ، لخصها بكلمات فقال :



(سورة القلم)

الصحابة قدوة صالحة :

والمثل الأعلى الذي ضربه النبي صلى الله عليه وسلم بسيرته ، وخلقه حمل أصحابه الكرام على أن يهتدوا بهديه ، ويتبعوا سنته ، ويقتفوا أثره .



فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقتدي برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيجعل من سلوكه ومواقفه مثلاً أعلى يُحتذى ، فكان إذا أراد إنفاذ أمرٍ جمع أهله وخاصته ، وقال لهم : << إني أمرت الناس بكذا ، ونهيتهم عن كذا ، والناس كالطير ؛ إن رأوكم وقعتم وقعوا ، وايمُ الله ، لا أوتين بواحد وقع فيما نهيت الناس عنه إلا ضاعفت له العقوبة لمكانته مني >> .. فصارت القرابة من عمر رضي الله عنه مصيبة .

وقد جسد هذا الخليفة الراشد رضي الله عنه بسلوكه قيم الحق والخير في أبهى صورها ، جسدها بمواقفه ، وأحكامه فكان بحق بطل مبدأ ، مضى نحو تحقيقه ، من دون أن ينظر إلى الثمن .

ففي خلافة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه جاءه إلى المدينة جبلة بن الأيهم آخر ملوك الغساسنة ، معلناً إسلامه ، وقد رحب به عمر ، لكن بدوياً من فزارة يدوس على طرف ردائه ، فغضب الملك ، ويلتفت إلى هذا البدوي ، ويضربه ، ويهشم أنفه ، فيشكوه الفزاري إلى عمر بن الخطاب ، ويستدعي عمر الملك الغساني إلى مجلسه ، ويدور بينهما حوار صيغ على الشكل التالي :

قال عمر : يا ابن أيهم ، جاءني هذا الصباح مشهد يبعث في النفس المرارة ، بدوي من فزارة بدماءٍ تتظلم ، بجراح تتكلم ، مقلةٌ غارت ، وأنف قد تهشم ، وسألناه ، فألقى فادح الوزر عليك بيديك .

أصحيح ما ادعى هذا الفزاري الجريح ؟

قال جبلة : لست ممن ينكر ، أو يكتم شيا ، أنا أدبت الفتى أدركت حقي بيدي .

قال عمر : أي حقٍّ يا ابن أيهم ، عند غيري يقهر المستضعف العافي ويظلم ، عند غيري جبهةٌ بالإثم بالباطل تلطم ، نزوات الجاهلية ورياح العنجهية قد دفناها ، وأقمنا فوقها صرحاً جديداً ، وتساوى الناس أحراراً لدينا وعبيداً .

أرضِ الفتى ، لابد من إرضائه ، ما زال ظفرك عالقاً بدمائه ، أو يهشمن الآن أنفك ، وتنال ما فعلته كفك .

فقال جبلة : كيف ذاك يا أمير المؤمنين ، هو سوقة ، وأنا صاحب تاج ، كيف ترضى أن يخرَّ النجم أرضاً ، كان وهماً ما جرى في خلدي أنني عندك أقوى وأعزّ ، أنا مرتدٌ إذا أكرهتني .



فقال عمر : عالَم نبنيه كل صدع فيه بشبا السيف يداوى ، وأعز الناس بالعبد بالصعلوك تساوى .

أيها الإخوة الكرام ، كلكم يعلم ماذا فعل جبلة بعد موقف عمر هذا رضي الله عنه .

إدراك السلف الصالح لأهمية القدوة في الدعوة :

لقد أدرك أعلام العلماء من السلف الصالح أثر القدوة الحسنة في تهذيب النفوس والسمو بها ، وحملها على عظائم الأعمال ، فوعظوا أنفسهم قبل أن يعظوا غيرهم ، لذلك كان تأثيرهم في معاصريهم شديداً ، وهيبتهم عند أولي الأمر ع ظيمة ، قال الإمام الغزالي : " الوعظ زكاة الاتعاظ ، ومن لا نصاب له كيف يخرج الزكاة " ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : ((**تركت فيكم واعظين ، ناطقاً وصامتاً ، فالناطق هو القرآن ، والصامت هو الموت، وفيهما كفاية لكل متعظ**)) .

[ورد في الأثر]

فقلت لنفسي ــ هذا قول الإمام الغزالي ــ أما أنتِ فمصدقةٌ بأن القرآن هو الواعظ الناطق ، فإن الله تعالى يقول فيه :

مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

(سورة هود)

فقد وعدك ــ يخاطب نفسه ــ الله تعالى بالنار على إرادة الدنيا وحبها ، وكل ما لا يصحبك بعد الموت فهو من الدنيا ، ولو أن طبيباً وعدك بالمرض على تناول ألذِّ الأكلات لتحاشيتها ، واتقيتها ، أيكون الطبيب عندك أصدق من الله تعالى ؟ فإن كان كذلك فما أكفرك ! وإن كان المرض أشد عندك من النار فما أجهلك ! ثم وعظنا بالواعظ الصامت وهو الموت ، فقلت : قد أخبر الواعظ الناطق عن الواعظ الصامت ، حيث قال الله تعالى :



أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾

(سورة الشعراء)

وهكذا نجد كيف أن القدوة تفعل فعل السحر في النفوس ، لأن الناس لا يتعلمون بآذانهم ، بل يتعلمون بعيونهم ، ولغة العمل أبلغ من لغة القول ، لذلك لا تستطيع أن تقنع الناس بشيء إلا إذا كنت قانعاً به ، ولا تستطيع أن تحملهم على اتباعه إلا إذا سبقتهم إليه ، عندئذ تكون أنت أيها الداعية قدوة حسنة .

والقدوة الحسنة هي حقيقة مع البرهان عليها ، فمتى يستقيم الظل والعود أعوج ، فأنت أيها المسلم على ثغرة من ثغر الإسلام ، فلا يؤتين من قبلك ، ولا يصلح آخر هذ ه الأمة إلا بما صلح به أولها .

ورد في الأثر القدسي :

((**إن هذا الدين قد ارتضيته لنفسي ، ولا يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق ، فأكرموه بهما ما صحبتموه**)) .

[كنز العمال عن جابر]

أيها الإنسان ، صانك الله فلا تبتذل ، وأعزك فلا تَذل ، وأعلاك فلا تسفل ، ونقَّاك فلا تتلطخ ، هو يسر لك فلا تتعسر ، و قربك فلا تتباعد ، وأحبك فلا تتبغض ، جد بك فلا تكسل ، و استخلفك فلا تتكل ، وأعتقك فلا تتعبد لغيره ، وأقالك فلا تتعثر ، ونسبك فلا تتجحد ، وجبرك فلا تتكسر ، وأنبتك فلا تذوِ ، وحسَّنك فلا تقبح ، وحلاك فلا تسمج ، وعلمك فلا تجهل ، ونوّه بك فلا تخمل ، وقواك فلا تضعف ، و لطفك فلا تكثف ، و أسرك فلا تتكشف ، وانتظرك فلا تتوقف ، وأمنك فلا تتخوف ، وقومك فلا تتقصف ، وندَّاك فلا تنشف.

أيها الإخوة المؤمنون ، حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم ، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا ، وسيتخطى غيرنا إلينا ، فلنتخذ حذرنا ، الكيس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأماني .

كل مخلوق يموت ، ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت ، والليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال فلا بد من نزول القبر ، إذا رجع العبد العاصي إلى الله



سطع نور بين السماء والأرض ، ونادى منادٍ مِن قِبَلِ الله جل وعلا : أيتها الخلائق هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله .

الخطبة الثانية : أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ

1 ـ الجَمَل آية من آيات الله :

أيها الإخوة الكرام ، قلت في الخطبة الأولى : إن جوهر الدين أن يعرف الإنسان ربه ، وإن الكون كله مظهر لأسماء الله الحسنى ، وإن التفكر في مخلوقات الله باب واسع من أبواب معرفة الله ، وإن الإنســـان إذا تفكر في خلق الله عرفه ، وإذا عرفه عبده ، وإذا عبده سعد في الدنيا والآخرة ، وقد وصف الله تعالى المؤمنين بأنهم يتفكرون في خلق السماوات والأرض ، وقد حضنا الله على التفكّر في بعض آياته ، ومنها الإبل فقال :

أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾

(سورة الغاشية)

فلو أمعن المرء النظر إلى الجمل ، لرآه من أبدع المخلوقات ، إنه أعجوبة في الهندسة التشريحية .

2 ـ الجَمَل سفينة الصحراء :

فالجمل يُعدُّ وسيلة لا تُقدر بثمن في المناطق الصحراوية ، والتي تغطي سدس مساحة اليابسة ، والتي تستعصي حتى على أقوى المركبات .. وفي العالم ما يزيد على خمسة عشر مليوناً من الجمال تزداد باستمرار .

إنّ كلّ ما في الجمل متقن التصميم للتكيف مع بيئته القاسية ، فعينه لها أهداب كثيفة ، ومزدوجة ، تحجب عنها الرمال المتطايرة ، وتتميز العين بقدرتها على التكبير والتقريب ، فهي تريه البعيد قريباً والصغير كبيراً ، وهذا سر انقياده لطفل صغير أو لدابة قمئة ، قال تعالى :



وَذَلَّلۡنَٰهَا لَهُمۡ فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ ﴿٧٢﴾

(سورة يس)

وفي إمكان الجمل إغلاق أذنيه ومنخريه حفظاً من الغبار ، أما أخفافه الضخمة فهي تُسهِّل له الحركة على الرمال ، من دون أن يغرز فيها ، وشفتا الجمل مطاطيتان قاسيتان ، تلتهمان الأشواك الحادة ، وهما فعَّالتان في تجميع الطعام والأشواك ، حيث لا يفقد الجمل أية رطوبة بمد لسانه إلى الخارج .

أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴿١٧﴾

3 ــ مِن مزايا الجمل قلة حاجته إلى الماء :

ومن أبرز مزايا الجمل قلة حاجته إلى الماء ، ومع أنه يمكنه أن يشرب ما يملأ حوض استحمام ، لكنه يستطيع أن يستغني عن الماء كلياً عشرات الأيام ، بل بضعة أشهر ، حيث يستطيع في الحالات الطارئة أن يأخذ ما يحتاج إليه من ماء من أنسجة جسمه ، فيخسر ربع وزنه من غير أن يضعف عن الحركة ..

وفي السنام يخزن الجمل من الشحم ما يعادل خمس وزنه ، ومنه يسحب الجمل ما يحتاج إليه من غذاء ، إن لم يجد طعامًا ..

ومتوسط عمر الجمل يزيد على أربعين عاماً .

ولا يسلس قياد الجمل إلا إذا عومل باحترام ومودة وعطف .. وفي هذا عبرة لبني البشر ..

أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴿١٧﴾

عرفتك يا رب في بحث وفي فطرة فجئتك صباً طاهر القلب خاليا

***



لك في الآفاق آيات لعل أقلّـــــــها	نوراً بدا إليه هـــــــــــــداك
فإن رأيت النبت في الصحـــــــراء	يربو وحده فاسأله من أربـــاك
وإن رأيت البدر يسري ناشراً أنواره	فاسأله من ذا الذي أســــــراك
وإن رأيت النهر بالعذب قد جـــــرى	فاسأله من ذا الذي أجــــــراك
وإن رأيت البحر في الملح قد طغـــى	فاسأله من ذا الذي أطـــــغاك
وإن رأيت الليل يغشاك داجـــــــياً	فاسأله من يا ليل حاك دجـــاك
وإن رأيت الصبح يسفر ضاحــــــياً	فاسأله من يا صبح حاك ضحاك

04 - النص الأدبي والنص العلمي

ليس الأدب علماً وليس الأدب فلسفةً بل هو فن جميل قوامه الألفاظ وإذا تعلق العلم بما هو كائن وإذا تعلقت الفلسفة بما يجب أن يكون تعلق الفن بما هو ممتع ونازع .

ويعد الأدب من أهم هذه الفنون ومن أوسعها انتشاراً ومن أكثرها لصوقاً بالإنسان والحياة ، ومن أقدرها على التعبير الدقيق عن الإنسان في ارتفاعه وانحطاطه في قوته وضعفه وعن المجتمع في تقدمه وتأخره في تفتته وتماسكه .

إذاً فالأدب فن جميل قوامه الألفاظ ، والأدب هو التعبير المثير عن حقائق الحياة ، ولكن ما نوع هذا التأثير ؟ إذا طالعت أثراً فنياً وشعرت بعدئذ أنه حرك مشاعرك العليا وتفكيرك المرتفع فأنت أمام فن رفيع ، فإذا لم يحرك إلا المبتذل من مشاعرك والتافه من تفكيرك فأنت أمام فن رخيص .

الفن الرفيع هو الذي يحرك مشاعرك العليا وتفكيرك المرتفع والفن الرخيص هو الذي يحرك مشاعرك المبتذلة والتفكير السخيف .

ونطالع أيها الإخوة المشاهدون :

نطالع الأدب عادةً لما نجد فيه من تحريك لمشاعرنا ، وغذاء لعقولنا وإغناء لتجاربنا ، وحفز لخيالنا ، وقفز لأذواقنا الفنية ، وتنمية لقدراتنا التعبيرية ، هذه بعض الأهداف التي نطالع الأدب من أجلها عن وعي أو عن غير وعي .

والمعني في هذا اللقاء هو توضيح طبيعة النص الأدبي وخصائصه وسوف أستخدم منهج الموازنة لبلوغ هذا الهدف ، الموازنة بين النص العل مي وبين النص الأدبي لتوضح خصائص كل منهما ، وقديماً قيل وبضدها تتميز الأشياء ، إليكم بادئ ذي بدء نصاً علمياً جمعت فقراته



من كتاب الكون العجيب لقدري حافظ طوقان ، وينطوي هذا النص على بعض الحقائق المتعلقة بالشمس .

يقول مؤلف الكتاب الشمس نجم متوسط الحجم إذا قيس ت بالشموس الأخرى ومع أنها تكبر الأرض بمليون وثلاثمائة ألف مرة وتبعد عنها مائة وخمسين مليون كيلو متر فهناك نجوم يزيد حجمها عن حجم الشمس والأرض مع المسافة بينهما ، وأما عن حرارتها فهي تصل إلى عشرين مليون درجة مئوية في مركزها فإن ألقيت الأرض بكاملها في جوف ال شمس لتبخرت في زمن قصير ، وتنتج الشمس من الطاقة في كل ثانية ما يعادل إحراق ألفي مليار طن من الفحم الحجري ، وتفقد الشمس كل يوم من كتلتها ما يعادل ثلاثمائة وستين ألف مليون طن ، ولو انطفأت الشمس فجأةً لغرقت الأرض في ظلام دامس ولهبطت درجة حرارتها إلى ثلاثمائة وخمسين درجة تحت الصفر وانعدام الدفء والنور كافيان لقتل كل مظهر من مظاهر الحياة على سطح الأرض وعندئذ تتحول الأرض إلى قبر جليدي هائل .

هذه فقرات مجمعة من كتاب الكون العجيب تتحدث عن بعض الحقائق المتعلقة بالشمس هذا هو النص العلمي وأما النص الأدبي فهو لأحمد شوقي الشاعر ، يقول أحمد شوقي :

سل الشمس من رفعها ناراً ونصبها مناراً وضربها ديـــناراً

ومن علقها في الجو ساعةً يدب عقرباها إلى قيام الساعـــة

ومن الذي آتاها معراجها وهداها أدراجها وأحلها أبراجها

ونقل في سماء الدنيا سراجها

الزمان هو شبه الفصول ومتشعب فروعه وأصوله وكتابه بأجزائه وفصوله ولد على ظهرها ولعب في حجرها وشاب في طاعتها وبرها لولاها ما اتسقت أيامهم ولا انتظمت شهوره وأعوامه ولا اختلف نوره وظلامه

ذهب الأصيل من مناجمها والشفق يسيل من محاجمها.

تحطمت القرون على قرنها ولم يعلُ تطاول السنين بسنها ولم ينفذ تقادم لمحة حسنها .

هذا النص الأدبي للشاعر أحمد شوقي في الموضوع نفسه الذي تعلق به النص العلمي ثبتنا الموضوع لنحرك الأسلوب .

إخوتي المشاهدين :

النص كما أسلفت قبل قليل الأول علمي والنص الثاني أدبي وهأنذا أُقيم موازنة في طبي عة النصين وفي خصائصهما وأسلوبهما :



أولاً : النص العلمي يغذي عقولنا والنص الأدبي يحرك مشاعرنا .

وتوضيح ذلك النص العلمي يقدم لنا حقائق علميةً نجهلها فقد عرفنا من خلال النص العلمي الآنف الذكر بعد الشمس عن الأرض وحجم الشمس بالنسبة إلى الأرض ودرجة حرارة مركزها والطاقة الحرارية التي تشعها والآثار المترتبة عن انطفائها والكتلة التي تفقدها ، بهذه المناسبة هذه ألسنة اللهب التي تخرج من الشمس يزيد طولها عن نصف مليون كيلو متر هذا عن النص العلمي يعطينا حقائق علمية نجهلها يعطينا حقائق تضاف إلى معلوماتنا ، بينما النص الأدبي يحرك مشاعرنا من دون أن يضيف إلى الحقائق التي نعرفها حقائق جديدة فقول أحمد شوقي مثلاً:

سل الشمس من رفعها ناراً ونصبها مناراً وضربها ديناراً

ومن علقها في الجو ساعةً يدب عقرباها إلى قيام الساعة

القصد من هذا النص تحريك المشاعر وتحريك الوجدان يقول أحد النقاد :

الشعر مصباح كمصباح علاء الدين يكشف لك عن كنوزك أنت المخبوءة في أعماق نفسك ولكنه ليس بالكيس المملوء الذي يفرغ في خزائنك الخاوية وهكذا الأدب .

ننتقل أيها الإخوة المشاهدون إلى الحقيقة الثانية وهي :

أن النص العلمي يحدث فينا قناعةً والنص الأدبي يحدث فينا موقفاً ، وتوضيح ذلك : النص العلمي يقدم لنا الحقائق المدعمة بالأدلة والبراهين تَجَارِب لا تَجَارُب لأن تَجَارُب معناه العدوى بالجرب صوابها تَجَارِب .

النص العلمي يقدم لنا الحقائق المدعمة بالأدلة والبراهين تَجَارِب والإحصاءات بحيث تتوافق مع مبادئ العقل ا لمتمثلة في السببية وفي الغائية وفي الهوية أي عدم التناقض ، فلكل ظاهرة سبب ولكل ظاهرة غاية ولكل ظاهرة هوية هكذا يفهم العقل الظواهر المحيطة به إذاً فمن الطبيعي أن يحدث النص العلمي فينا قناعة حيال موضوع ما من دون أن يتدخل في مشاعرنا ، فعن طريق التجارِب مثلاً عرف العلماء أن المعادن تتمدد بالحرارة وبينوا أسباب هذه الظاهرة وبينوا نتائجها وهذا هو الطريق العلمي في معرفة الواقع بينما النص الأدبي يحدث فينا موقفاً تجاه موضوع ما والموقف أن يقف الإنسان في اتجاه هدف معين ثم يتحرك نحوه وذلك بسبب أنه يعتمد على تحريك المشاع ر ، مشاعر المحبة أو الكراهية، مشاعر الإيذاء أو الإزدراء ، ولا يخفى ما للمشاعر من أثر كبير في سلوك الإنسان وربما كان عامل الشعور أبلغ في توجيه السلوك من عامل القناعة ، لذلك يعد الأسلوب العلمي هو القالب المناسب



للأفكار ويعد الأسلوب الأدبي هو القالب المناسب للمشاعر فإذا أردت أن تقنعنا فتكلم أو فاكتب بأسلوب علمي وإذا أردت أن تثير مشاعرنا لتحملنا على موقف معين وسلوك معين فتكلم أو اكتب بأسلوب أدبي فلكل مقام مقال ولكل هدف وسيلة ولكل غرض أسلوب وأرجو يا إخوتي المشاهدين ألا يفهم من هذا أن النص الأدبي عاطفة فحسب وإنما هو عاطفة مرتكزة على أفكار ، كذلك أرجو ثانيةً ألا يفهم أن النصوص العلمية لا تحرك المشاعر ، إن عرض الحقيقة العلمية عرضاً بأسلوب مباشر ولما تنطوي عليه من حقائق مذهلة قد يحرك مشاعر الإعجاب أو مشاعر الفزع للحقيقة العلمية ، وهج يبعث الدفء في النفس هذان تعقيبان من أجل أن أوضح أن تقسيم النصوص إلى نص علمي ونص أدبي من أجل التسديد والدراسة .

ثالثاً : في النص العلمي تحديد ودقة واستقصاء ، وفي النص الأدبي تفخيم وتعميم ووقوف عند الجماليات . توضيح ذلك في النص العلمي تحديد والتحديد يعني أن يسمى الشيء باسمه الحقيقي الذي وضع له في أصل اللغة وأن تكون الكلمة على قدر المعنى فلا يفهم القارئ الكلمة أكثر مما تعني ولا أقل مما تعني فلا مجال في النص العلمي للمجاز والاستعارة والكناية فالنجم شيء والكوكب شيء آخر ، النجم جرم ملتهب والكوكب جرم منطفئ ، الشمس نجم والأرض كوكب ، وفي النص العلم ي دقة وهي اهتمام بالجزئيات والتفاصيل فبعد الأرض عن الشمس ثماني دقائق وثماني عشرة ثانيةً ضوئيةً بالضبط ، علماً بأن الضوء يقطع في الثانية الواحدة ثلاثمائة ألف كيلو متر ، في النص العلمي استقصاء فقد تناول كاتب النص العلمي بعد الأرض عن الشمس وحجم الشمس وحرارتها وطاقتها وآثار انطفائها .

وأما في النص الأدبي ففيه تفخيم أو مبالغة ، فالشمس نار ملتهبة في السماء ومنارة منصوبة في العلياء ودينار متألق في جو الفضاء هذا التفخيم ، والتعميم يبدو في جعل الشمس سبباً وحيداً للزمن وتعلمون أن الزمن هو البعد الرابع للأشياء فالخطوط لها بعد واحد والسطوح لها بعدان والحجوم لها ثلاثة أبعاد وكل شيء متحرك له بعد رابع وهو الزمن فكل متحرك في الكون له زمن وليس الشمس وحدها مصدر الزمن هذه الحقيقة ثابتة ولكن نظرة الشاعر إلى الكون تختلف عن نظرة العالم. وفي النص الأدبي أيضاً وقوف عند الجماليات ، إن الأديب تعنيه المواطن الجمالية في الشيء أكثر مما تعنيه الخصائص الأساسية له :

ذهب الأصيل من مناجمها والشفق يسيل من محاجمها .

هذا الذي يعني الأديب أكثر مما تعنيه الحقائق الأساسية عن الشمس .

ننتقل إلى البند الرابع في الموازنة بين النص العلمي والنص الأدبي وه و أن في النص



العلمي مصطلحات علمية وعلاقات رياضيةً وتحديداً كمياً عددياً وفي النص الأدبي صور وصفية وبيانية ومجاز ومحسنات بديعية وتأنق في الصياغة اللفظية توضيح ذلك :

ففي النص العلمي مصطلحات النجم مصطلح والكوكب مصطلح والدرجة المئوية مصطلح علمي والفحم الحجري اسم لعنصر في الأرض.

وفيه علاقات رياضية فالعلم يبحث عن القانون والقانون هو علاقة رياضية ثابتة بين ظاهرتين هناك قانون التجاذب جداء الكتلتين مقسوم على مربع المسافة ، وقانون السقوط وقانون التمدد والهدف من بحث العلم عن القانون هو وصوله إلى القدرة على التنبؤ ، فإ ذا عرفت قانون الحركة وما يؤثر في الجسم المتحرك من قوى الجاذبية والاحتكاك تعرف أين تسقط القذيفة بل إنك عندئذ تصحح مسارها لتعديل زاوية إطلاقها وليس العلم تقتصر تطبيقاته على ما فيه رخاء الإنسانية وسعادتها .

فالنص العلمي عدد كمي رياضي ما تطلقه الشمس من حرارة ف ي ثانية واحدة يعد إحراق ألفي مليار طن من الفحم الحجري .

وفي النص الأدبي بالمقابل صور وصفية وبيانية ومحسنات بديعية فالأدب نوع من أنواع التصوير الذي يعتمد على الكلمة أداةً ويتوخى الإمتاع هدفه فمن صور النص الأدبي مثلاً الشمس كالدينار وكالمنار وكالساعة وكالسرا ج والزمان طفل ولد على ظهرها ولعب في حجرها وشاب في طاعتها وبرها وأشعتها ، ذهب استخرج من مناجمها وشفقها دموع سالت من محاجمها . في النص الأدبي صور وفي النص الأدبي محسنات أدبية :

سل الشمس من رفعها ناراً ونصبها مناراً وضربها ديناراً

ومن علقها في الجو ساعةً يدب عقرباها إلى قيام الساعة

في هذا النص سجع وهو توافق الفواصل ، وفي النص جناس وهو تشابه كلمتين في اللفظ واختلافهما المعنى من علقها في الجو ساعة يدب عقرابها إلى قيام الساعة ، ساعة وساعة هو الجناس .

ننتقل إلى الحقيقة الخامسة في موازنة بين النصين العلمي والأدبي :

كلمات النص العلمي وتراكيبه سهلة واضحة محددة دقيقةٌ على قدر المعنى كما أسلفنا من قبل ، وكلمات النص الأدبي جزلة ذات جرس موسيقي متسق . فمن كلمات النص الأدبي النار والمنار والدينار والمعراج والأدراج والأبراج والسراج والمناجم والمحاجم والقرون والسنون والتراكيب متينة موحية يتأنق الأديب في تأليفها حتى تبدو كأنها تحفة فنية من علقها في الجو



ساعة يدب عقرباها إلى قيام الساعة .

أيها الإخوة المشاهدون :

ليس في النص العلمي تكرار فالفكرة والواحدة تؤدى مرةً واحدة بأسلوب واحد هو الأسلوب المباشر ، بينما في النص الأد بي تؤدى الفكرة الواحدة بعشرات الأساليب والأشكال الفنية ، فالشمس نار ومنار ودينار وكل هذه الصور تنطلق من فكرة واحدة وهي أن الشمس نجم ملتهب .

وفي النص العلمي لا يجوز أن تقول في المسألة قولان لأن العلم مطلق وشامل وموضوعي بينما في النص الأدبي لك أن تقول في الم سألة ألف قول وقول ولا غبار عليك، لأن الأدب فن والفن نسبي وخاص وذاتي وللناس فيما يعشقون مذاهب .

ومجمل القول أيها الإخوة المشاهدون :

إن خصائص النص العلمي هي مظهر من مظاهر العقل المدقق وإن خصائص النص الأدبي هي مظهر من مظاهر الانفعال العميق وهل العقل والعاطفة إلا جانبان متكاملان من جوانب الإنسان ذلك المخلوق الأول الذي يسمو ويسمو ويكبر ويكبر فيتضاءل أمامه كل كبير ويسفل ويسفل ويصغر ويصغر فيعظم أمامه كل صغير ، وهل العلم إلا نضارة ذات عدسات بيضاء تريك الأشياء كما هي ، وهل الأدب إلا نضارة ذات عدسات ملونة تريك الدنيا باللون التي تحب وتختار .

أرجو أيها الإخوة المشاهدون أن أكون قد قدمت إليكم شيئاً ذا قيمة من المعرفة الأساسية في موضوع العقل والعاطفة وموضوع العلم والأدب من خلال النص العلمي والنص الأدبي

05 - حوار مع فضيلة الشيخ محمد متولي شعراوي

حوار مع فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي(1)

أجراه : محمد راتب النابلسي

*السؤال ... ** والجواب ...



*الدين في الأصل نقل ... والعقل لفهم النقل ، ولا بد من أن يتفق صريح المعقول مع صحيح المنقول ؛ لأن القرآن كلام الله ، والكون خلقه ، والأحداث أفعاله ، والعقل ميزان خصَّ الإنسان به ، فإذا ورَد النقل بما يخالف العقل واستحال التأويل فماذا نصنع ؟..

** نعتمد النقل ... لأن عقلنا لم يفهم حقائق الأشياء ؛ بدليل أننا كلَّ يوم نكتشف أشياء كنّا لا نعرفها قبل ذلك ... وما دمنا نكتشف أشياء جديدة في كون اللّه ، لم نكن نعرفها قبل ذلك ... إذاً العقل بذاته قاصر عن أن يدرك كل شيء ، فالعقل له الدور الأول في الإيمان ، لأنك لا تدخل على من تنقل عنه إلا بالعقل ، فالعقل يبحث في الكون فيرى من خلاله المكوِّن ، ويرى أتفه الأشياء ، وأعظمها ، قد استويا في إتقان الصُنع ودقته ، فينبغي أن أبحث بعقلي أولاً في هذا الكون ، الذي يعمل كل شيء فيه بنظام معجز ، ولا يَفْسُد إلا إذا تدخَّلت فيه يَدُ الإنسان من دون منهج المكوِّن ، فأيُّ شيء لا تتدخل فيه يد الإنسان ، يؤدي مهمته كما ينبغي ... فالفساد ينشأ من تدخل الإنسان بغير قانون خالق الإنسان ... فالإنسان وُجِدَ في كَوْن أُعِدَّ إعداداً كاملاً ، وسُخِّرَ تسخيراً كليّاً ، ولم يَدَّعِ خلقَ هذا الكون أَحَد ، ثم يأتي رسولٌ من عند خالق هذا الكون يقول لي قضايا الكون التي شغلت عقلي هي كيت وكيت... فالإنسان يجب أن يهتزَّ شكراً وامتناناً لهذا الرسول الكريم ، الذي حلَّ للإنسان لُغْز الوجود وأصلَه ومصيرَه ، هذا اللُغز الذي شُغلت به عقول البشر عَبْر القرون والحِقَب . فلو كنتُ في سيارة أعبر بها الصحراء ، وتعطَّلت هذه السيارة ، حتى نَفَذ الزاد والشراب وأيقنت بالهلاك ، ثم أخَذَتْنِي سِنَةٌ من النوم بعدها استيقظتُ لأجد مائدة فيها أطايب الطعام والشراب ... ألا ينبغي قبل أن آكل أن أسأل مَن الذي أعدَّها وهيَّأها ؟!.

إن هذا الكون لم يَدَّعِ خَلْقَه أحد ، مع أن الناس تدَّعي ما ليس لها، حتى الملاحدة الذين يُنكرون وجود اللّه لم يدَّعوا هذا ... فالحق هو ما جاء به رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، ونحن ينبغي أن نشكر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم على أن بيَّن لنا حقيقة الكون ، والحياة ، والإنسان ، تلك الحقيقة التي طالما شُغِلت بها العقول .

إذاً عقلي هو الأصل في معرفة اللّه ، وبعد أن أهتدي إلى اللّه بعقلي ، آخذ ممن اهتديت إليه عن طريق النقل ، ويصبح همّ المؤمن الأول ، التحقُّق من صحة النقل ، وهل هذا الأمر صدر عن اللّه أو لم يصدر ، وهذا مما توجبه عبودية الإنسان لخالقه ...

أما الصدام الذي قد يُتَوَهّم بين حقائق الدين ، وبين العلم الكوني...

فالدين لم يتدخل في العلم الكوني ، لأننا لم نختلف فيه ، بل إننا سنلتقي فيه حتماً ، فليس هناك كهرباء روسي وكهرباء أميركاني ، ولا كيمياء ألماني وكيمياء إنكليزي ، بل إننا لا نخجل أن



نسرق سوابق بعضنا في العلم ، ولكن في الهوى والنظريات نحجبها عن بعضنا بعضاً . فربنا تَدخَّل في المجال الذي نختلف فيه ... الأهواء . ووضع نظاماً يمنع الأهواء من أن تُفسد الحياة . لذلك عالم الدين حينما يتدخل في علم المادة التجريبي نقول له : إنك أدخلت نفسك في لم يدخلك اللّه فيه ... والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : " أنتم أعلم بأمور دنياكم "(2) .

هذا العلم علم تجريبي ومعملي ، والمعمل لا يجامل ، والمادة لا تجامل ، وهذا ليس من عمل الدين ... الدين يدعوك إلى النظر في ملكوت السماوات والأرض ؛ لإنك إن فعلت هذا سيعطيك هذا التأمل حقائق ...

وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون.

(سورة يوسف : آية " 105)

هذه الحقائق تحملك على الإيمان باللّه ، فالدين لا يتدخل إلا فيما تختلف فيه الأهواء ، ولكن ما تلتقي فيه الأهواء .. أنت حرّ .. ويا عالم الدين لا تتدخل فيما تلتقي فيه الأهواء ، ويا عالم الدنيا لا تتدخل فيما تختلف فيه الأهواء .

إذاً الذين يُريح عقلي من صراع الأهواء بعضها ببعض ، ويجعلني ألتقي مع الآخرين في المسائل المتفق عليها ، ولذلك نرقى ولا نختلف .

ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون

(سورة المؤمنون : آية " 71 ")

فالحق جل وعلا الذي أبحث عنه بعقلي ، بمجرد ما انتهيت إليه بعقلي أُسلِّم له لأني لمّا آمنت بأنه إله ، وأنّه مأمون على ما شرع لي ، ينبغي أن أُسلِّم . فأنا أبحث عن الطبيب المناسب بعقلي، وحينما أهتدي إليه بعقلي أسلِّمه نفسي ولا أتدخَّل فيما يكتبه لي من أدوية وعلاجات ، لذلك العارفون باللّه أعطوا العقل مهمته فقالوا : العقل مطيَّة توصلك إلى حضرة السلطان ، ولكن لا يدخل معك عليه ...

المشكلة أننا نبحث عن العلل التعبديَّة !! هذه لماذا ؟ وتلك لِمَ ؟ لا يناقش في حكمة الأشياء إلا المادي .

* سيدي هل في الإسلام شريعة وحقيقة ، ظاهر وباطن ، أم أنهما وجهان لشيء واحد ؟.

** هي شيء واحد ... ليس هناك اثنينيه ... لكن الشريعة تبحث في الحُكْم ، والحقيقة تجعلك تطبِّق الحُكْم ، فهناك فرق بين معرفة الحكم، وبين توظيف الحكم في التطبيق ، ومعنى حقيقة أنك



أخذت الحكم لتطبِّقه، لا لتتباهى بمعرفته ، أحضرت الدواء ووضعته في خزانتي ! هذه الشريعة ، ثم لما تناولت هذا الدواء .. هذه هي الحقيقة .

فأهل الحقيقة هم الذين يأخذون معطيات الحكم وينفذونه ؛ لأن الحكم ليس علماً نتعلمه لذاته ، لأن ربنا يريد أن يهدينا إليه لا أن يعلمنا لمجرد العلم ، والذي يهتدي إلى اللّه ليس من الضروري أن يعرف الحكمة ، فالقاعدة أن استفادتك من الشيء ليت فرعاً من العلم به ، بل هي فرع من علم من أعطى هذا الشيء .

* سيدي ... هل الصوفي الحق عالم عمل بعلمه ؟...

** طبعاً ... الصوفي الحق وصل بعلم الشريعة ، وعالم الشريعة حينما قصَّر في تطبيق علمه تخلَّف عنه وكأن لسان حاله يقول :

اعمل بعلمي ولا تركن إلى عملي   واجْنِ الثمارَ وخلِّ العودَ للنار

... لكن في هذا الموضوع قضية ثانية ، وهي أنه ...

" من عمل بما علم أورثه اللّه علم ما لم يعلم "(3) ، فهذا الذي عمل بما علم ، مأمون على ما تعلم ، لذلك استحق من اللّه إشراقه ونوراً مكافأة له غلى تطبيق ما تعلَّم من الشريعة مخلصاً ، وليس له أن يتاجر بها بين الناس ... إنما هي إكرام خاص لأنه مشى على الطريق المستقيم. إنه الفرقان لقوله تعالى :

يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم .

(سورة الأنفال : آية " 29 ")

فالفرقان – وهو النور الذي تفرق به بين الحق والباطل – تابع للتقوى وهي طاعة اللّه ، والتقوى تابعة لمعرفة علم الشريعة .

* سيدي ... هل يمكن أن نقول : إن سيدنا موسى عرف الأمر التشريعي ، وسيدنا الخضر عرف الأمر التكويني ؟...

** الخضر : عرف الأمر التشريعي ، وبه أعطاه اللّه ما عنده ، عن غير طريق موسى ، إنه عَبَدَ اللّه على الطريقة التي جاء بها موسى (علم الشريعة) ثم أعطاه اللّه العلم اللدني ... عَبَدَ اللّه بالأمر التشريعي، الذي جاء به موسى ، ثم أعطاه اللّه بعض أسرار الأمر التكويني ، ولو عرف سيدنا موسى سر الأمر التكويني لفعل ما فعله الخضر عليه السلام(4) .



* سيدي ... النصوص الدينية – كما تعلمون – من قرآن وسنَّة، منها ما هو قطعي الدلالة ، ومنها ما ظنّي الدلالة ، والنصوص الظنية في دلالتها هي سبب اختلاف العلماء ، وتعدُّد المذاهب، فما الحكمة التي ترونها من ورود النص ظني الدلالة ؟..

** يا سيدي ... كل نصوص القرآن قطعية الثبوت ، لكن أصول الأشياء التي يريد اللّه من الناس ألا يختلفوا فيها جعلها قطعية الدلالة ... والنص الظني الذي يحتمل مدلولات عدة ، إنما أراد الشارع أن يُفهم على كل مدلولاته ، وجميع احتمالاته ، ولو أراد اللّه للنص أن نفهمه على لون واحد ، ودلالة واحدة ، لجعله قطعي الدلالة . فآية الوضوء مثلاً :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ

(سورة المائدة : آية " 6 ")

ما قال في الوجه شيئاً لأنه لا ختلاف في مدلول الوجه ، أما حينما ذكر اليد فقد قيَّدها بقوله إلى المرافق ، لأن اليد مختلف في مدلولها، فاليد تُطلق على الكف ، وعلى الساعد وعلى المرفق، وهو يريدها على وجه خاص ، فجاء النص قطعي الدلالة ، وحينما ذكر الرأس قال :

وامسحوا برؤوسكم

(سورة المائدة : آية " 6 ")

والباء صالحة لكل هذا ... إذاً يعدُّ اجتهاد أي مجتهد في معنا الباء صالحاً ومقبولاً ، إن للتبعيض أو للإلصاق أو زائدة . ولو أراد الله من المسح أحد المعاني قصراً لقال : امسحوا ربع رؤوسكم ... وهكذا .

* إذاً اللّه يقبل منا اجتهاد المجيهدين في عبادته ..



** نعم ... لكن عمل النَّبي صلى اللّه عليه وسلم الذي يجسد فهمه للنص أولى من اجتهاد المجتهدين ... مثل آخر وهو أمر النَّبي صلى اللّه عليه وسلم : " من كان يؤمن باللّه واليوم الآخر ، فلا يُصلينَّ العصر إلاّ في بني قُريظة "(5) .

ذهب الصحابة إلى بني قُريظة ... الشمس قاربت المغيب ... انقسم الصحابة قسمين .. قسم قال : الوقت ضاق ويجب أن نُصلَّي ، وقسم قال : الصلاة في بني قريظة ... واحتكموا إلى النَّبي صلى اللّه عليه وسلم فأقرَّ هذا وأقرَّ هذا ... فالذي أراد أن يصلي لحظ زمان الصلاة ، والذي رأى ألا يصلي لحظة مكان الصلاة ، لأن كل حدث له ركنان أساسيان : الزمان والمكان .. النَّبي صلى اللّه عليه وسلم أقرَّ الفريقين على اجتهادهما.

* سيدي ... أيهما أشدُّ نفعاً وأطول أمداً أن ينكَبَّ الداعية على تأليف الكتب ، أم على توجيه الناس ؟ .

** يا سيدي ... العملية تخضع لوجود المجال ، أن الفاعل شيء، والقابل شيء آخر ، والناس لا تُفرِّق بين الفاعل وبين القابل ، فأنا حينما أؤلِّف كتباً ، هذه الكتب لن يقرأها إلا المتعلم، وغيرُ المتعلم إن لم يتوافر له من يعلمه بلغة الخطاب سيضيع ، لذلك أعتم د لغة الخطاب الأولى لغة التفاهم .. لغة اللسان .. لكن عيب لغة اللسان هو أنني حينما أريد أن أستذكر ما قيل لا ينفعني في هذا إلا الكتاب .

وللكتاب ميزة أخرى .. وهي أنني حرٌّ في أن أقرأه في الوقت الذي أريد ، بينما المتكلم يقيدني بالوقت الذي يريده هو ، فالحرية له وليست لي ، والحقيقة أننا بحاجة إلى المتكلم وإلى الكتاب معاً ، وكلاهما لا زِمان ومتكاملان ، لكن هناك مرحلة لا بد فيها من لغة الخطاب ، وهي مرحلة الطفولة ، وهي أخطر مراحل الإنسان ، فالطفل حينما تتكوَّن لديه حاسة الإدراك ، وبمجرَّد ما تأخذ وظيفتها تبدأ عنده مرحلة التعلم ، فالمعلم يعطيه عن طريق لغة الخطاب شيئاً فشيئاً ، وليس من المعقول أن ننتظر حتى يقرأ ..، عندها تتكون للطفل ذاتية مشوَّهة يصعب لَيُّها وتغييرها ، فلابد من استخدام لغة الخطاب الأولى مع الأطفال، وغير المتعلِّمين .

* سيدي ... هل هناك نصائح يمكن أن تقدموها للدعاة إلى اللّه في هذه الصحوة الدينية بالذات ؟.

** على الداعي أن يحذر أن يرى منه المدعو ما هو مخالف لشيء يقوله ، لأن الأعين كلها تحدِّق فيه ، والأضواء كلها مسلَّطة عليه، ليحذر الداعي أن يصادف منه تلامذتُه كلمةً تخالف عمله .



والداعية – اليوم – مهمته صعبة جداً ... لأنه يدعوا إلى اللّه في عالم ، تعددت ألوان ثقافته ، وألوان تأثيراته في العقول ... فلابد من أن يُلّم بكل ألوان الثقافة ، وأن يمتلك مقومات التأثير في من يدعوهم ، فلو لم يكن له اتصال بثقافه عصره صَغُر في أعين من يدعوهم ...

ويجب أن يُحكم صلته باللّه عن طريق الالتزام التام بأمر اللّه وسنَّة نبيه ؛ لأن (البطارية) التي تريد منها أن تُمدك بالنور ينبغي أن تشحنها بشكل دوري ...

* * *

(1) فضيلة الشيخ مجمد متولي الشعراوي : داعية مصر الأول وهو غني عن التعريف ، ولد في المنصورة عام 1911 ، وبعد أن نجح في المعهد الديني الإبتدائي بالزقازيق التحق بالمعهد الثانوي في أول الثلاثينات ليحصل على الشهادة الثانويّة الأزهرية عام 1936 ، وبعدها حصل على الإجازة العالية من كلّية اللغة العربيّة بالجامعة الأزهريّة عام 1941، ثم نال الإجازة العالميّة عام 1944 ، ثم عُيِّنَ مدرِّساً للغة العربية في المعاهد الثانويّة الأزهريّة في الزقازيق وطنطا والإسكندريّة ، ثم سافر إلى المملكة العربيّة السعوديّة ليعمل مدرِّساً في معاهدها الشرعيّة ، ثم أستاذاً للشريعة بجامعة الملك عبد العزيز بمكّة المكرَّمة عدة سنوات ، وعاد إلى مصر ليعمل مديراً للدعوة في وزارة الأوقاف ، ثم مديراً لمكتب الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر ، ثم سافر إلى الجزائر ليعمل رئيساً لبعثة الأزهر فيها ، ثم عُيِّن وكيلاً للأزهر ، وتسلَّم منصب وزير الأوقاف وشؤون الأزهر بين عامي 1976 – 1978 ، وله ثلاث أولاد من الذكور وبنتان ، أكبرهم فضيلة الشيخ سامي متولي الشعراوي مدير منطقة الجيزة الأزهريّة ، وهو الذي زوَّدنا بهذه النبذة عن حياة والده .

(2) رواه مسلم " 2363 "

(3) قال الشوكاني في " الفوائد المجموعة " ص 306 رواه أبو نعيم وهو ضعيف ، ط : دار الكتاب العربي .

(4) يقول العارف باللّه الشيخ عبد الغني النابلسي : " الدعاة إلى اللّه ثلاثة : عالم بالشريعة فقط ، وهو يدعوا الناس إلى تعلُّم ما يُفترض عليهم من أحكام ربهم ، وعالم بالطريقة ولا يكون إلا عالماً بالشريعة ، وهو يدعو الناس إلى العلم بالأحكام ويعلمهم كيفية العمل ب ها ، وكيفية إيقاعها على الوجه المقصود الخالي من البدعة ، وعالم بالحقيقة ولا يكون أبداً إلاَّ عالماً بالشريعة وعالماً بالطريقة ، وهو يدعو الناس إلى العلم والعمل به ، ويبيِّن لهم كيفيِّة ذلك ويسلكهم



في طريق المقامات والأحوال الإلهيّة بالحال والقال والهمّة " . من كتاب " الفتح الربّاني والفيض الرحماني " /7 .

(5) الحديث : " لا يُصلينَّ العصر إلا في بني قريظة " أخرجه البخاري " 7 / 313 " ومسلم " 1770 "



الباب الثامن : موضوعات علمية





01 - الطب والصحة في الإسلام

مقدمة :

1 ــ الإسلام دين الفطرة :

الإسلام دين الفطرة ، يحرص في تعاليمه على صحة الجسد ، وطهر النفس ، ويوازن بين المادة والروح ، والحاجات والقيم ، ويهدف إلى إصلاح الدنيا ، وإصلاح الآخرة ، لأن الأولى مَطِية الثانية .

والإسلام يجعل من المسلم إنساناً متميزاً ، يرى مالا يراه الآخرون ، ويشعر بما لا يشعرون ، يتمتع بوعي عميق ، وإدراك دقيق ، له قلب كبير ، وعزم متين ، وإرادة صلبة ، وهدفه أكبر من حاجاته ، ورسالته أسمى من رغباته ، يملك نفسه ، ولا تملكه ، ويقود هواه ، ولا ينقاد له ، وتحكمه القيم ، ويحتكم إليها ، من دون أن يسخِّرها ، أو يسخَر منها ، سما حتى اشرأبت إليه الأعناق ، وصفا حتى مالت إليه النفوس .

2 ــ الخروج عن الإسلام خروجٌ عن الفطرة :

أما حينما ينقطع الإنسان عن ربه ، وينقاد إلى هوى نفسه ، أو حينما ينقاد الإنسان إلى هوى نفسه فينقطع عن ربه ؛ فعندئذ تفسد علاقته بعقله ، فيعطله ، أو يرفض نموَّه وتطوره ، أو يسيء إعماله ، فيسخره لأغراض رخيصة دنيئة ، عندها يكون الجهل والتجهيل ، والكذب والتزوير ؛ وتفسد علاقته بنفسه ، فتَسفُل أهدافه ، وتنحط ميوله ، ويبيح لنفسه أكثر الوسائل قذارة لأشد الأهداف انحطاطاً ، عندها تكون أزمة الأخلاق المدمرة ، التي تسبب الشقاء الإنساني ، وتفسد علاقة الإنسان بأخيه فتكون الغلبة لصاحب القوة لا لصاحب الحق ، وعندها تعيش الأمة أزمة حضارية ، تعيق تقدمها ، وتقوِّض دعائمها .

هل يُعقل أن تكون شخصية المؤمن الفذة التي تجمع بين رجاحة العقل وسمو النفس ؟
هل يُعقل أن تكون هذه الشخصية مركبة في جسدٍ عليل سقيم ؟ كلا !!



الصحة :

1 ــ صحة الجسد سلامة للنفس وسموٌّ بها :

إن صحة الجسد مرتكز لسلامة النفس وسموِّها ، ومنطلق لصحة العقل وتفوقه ، فالله سبحانه وتعالى جعل صحة الجسد وقوته ورجاحة العقل ، واستنارته علة الاصطفاء ، فقال تعالى :

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾

(سورة البقرة)

2 ــ الصحة قوة :

وقد بين لنا المولى جل وعلا أن القوة والأمانة ، وبلغة العصر الكفاءة والإخلاص هما المقياسان الصحيحان اللذان نقيس بهما الأشخاص حينما نقلّدهم بعض الأعمال ، قال تعالى :

قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ

(سورة القصص : الآية 26)

والنبي صلوات الله وسلامه عليه ذكر أن :

((... **المُؤمِنُ القَوِيُ خَيرٌ مِنَ المُؤْمِنِ الضَعِيفِ ...**)) .

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]



ولم يقل : الإنسان القوي ، لأن القوة من غير إيمان مدمرة لصاحبها وللمجتمع ، ولكن القوة إذا أضيفت إلى الإيمان فإنها تصنع المعجزات الخيرات ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ : رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ ، وَلَا تَعْجَزْ ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلا تَقُلْ : لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا ، وَلَكِنْ قُلْ : قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**)) .

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

بل إن النبي عليه السلام جعل صحة الجسد ثلث الدنيا ، فعَنْ سَلَمَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الْخَطْمِيِّ عَنْ أَبِيهِ ، وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((**مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا**)) .

[أخرجه الترمذي ، وابن ماجة]

والإمام علي كرَّم الله وجهه جعل من المرض مصيبة أشد من الفقر ، وأهون من الكفر ، وجعل من الصحة نعمة أفضل من الغنى ، وأقلَّ من الإيمان ، فقال : << ألا وإن من البلاء الفاقة ، وأشد من الفاقة مرض البدن ، وأشد من مرض البدن مرض القلب ، ألا وإن من النعم سعة المال ، وأفضل من سعة المال صحة البدن ، وأفضل من صحة البدن تقوى القلب >> .

أنواعُ الطب :

الطب في الإسلام طب طبيعي ، وطب نفسي ، وطب وقائي ، وطب علاجي ..

1 ــ الطب الطبيعي :

1 ــ بذل الجهد صحة وسلامة :

فمن **الطب الطبيعي** أن شخصية المسلم مرتكزة على العطاء لا على الأخذ ، ومرتكزة على بذل الجهد لا على استهلاك جهد الآخرين ، ومرتكزة على العمل لا على الأمل ، وعلى الإيثار لا على الأثرة ، وعلى التضحية لا على الحرص ، و على إنكار الذات لا على تأكيدها ، وإن بذل الجهد في حد ذاته صحة ، وأية صحة .



ففي بعض المؤتمرات الطبية التي عُقدت للبحث في أمراض القلب اتفق المؤتمرون على أن صحة القلب في بذل الجهد وراحة النفس ، وأن طبيعة العصر الحديث تقتضي الكسل العضلي ، والتوتر النفسي ، وهما وراء تفاقم أمراض القلب في معظم البلدان المتقدمة تقدماً مادياً .

إن بذل الجهد في حد ذاته صحة للقلب والأوعية ، وصحة للعضلات والأجهزة ، وقد كان النبي صلوات الله عليه قدوة لنا في هذا المضمار فقد وجد في بعض الغزوات أن عدد الرواحل لا يكفي أصحابه ، فأمر أن يتناوب كل ثلاثة على راحلة ، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : كُنَّا فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ كُلُّ ثَلَاثَةٍ مِنَّا عَلَى بَعِيرٍ ، كَانَ عَلِيٌّ وَأَبُو لُبَابَةَ زَمِيلَيْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى ا للَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَإِذَا كَانَ عُقْبَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَا : ارْكَبْ يَا رَسُولَ اللَّهِ حَتَّى نَمْشِيَ عَنْكَ ، فَيَقُولُ :

((**مَا أَنْتُمَا بِأَقْوَى عَلَى الْمَشْيِ مِنِّي ، وَمَا أَنَا بِأَغْنَى عَنْ الْأَجْرِ مِنْكُمَا**)) .

[أحمد في المسند عن ابن مسعود]

مسوياً نفسه مع أصحابه ، في بذل الجهد ، ولما جاء دوره في المشي عَظُم على صاحبيه أن يركبا ويمشي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قمة المجتمع الإسلامي ، فقالا : ((**ارْكَبْ يَا رَسُولَ اللَّهِ حَتَّى نَمْشِيَ عَنْكَ**)) ، فقال قولته الشهيرة : ((**مَا أَنْتُمَا بِأَقْوَى عَلَى الْمَشْيِ مِنِّي ، وَمَا أَنَا بِأَغْنَى عَنْ الْأَجْرِ مِنْكُمَا**)) .

وحينما كان النبي الكريم عليه أتم الصلاة والتسليم مع بعض أصحابه وأراد أن يذبحوا شاة ليأكلوها ، فقال أحدهم : ((**عليَّ ذبحها ، وقال آخر : وعلي سلخها ، وقال ثالث : وعلي طبخها** ، فقال عليه الصلاة والسلام : **وعلي جمع الحطب** ، فقال أصحابه : **يا رسول الله نحن نكفيك هذا** ، **فقال : قد علمت أنكم تكفونني إياه ، ولكني أكره أن أتميز عليكم ، ويكره الله أن يرى عبده متميزاً على أصحابه**)) .

[ورد في الأثر]

إن بذل الجهد صحة للقلب والأوعية ، وصحة للعضلات والأجهزة وصحة للحياة الاجتماعية ، وتمتين لأواصرها ، وإن بذل الجهد فهم صحيح لحقيقة الحياة الدنيا ، التي هي دار تكليف ، بينما الآخرة دار تشريف .

هذا بعض ما في الطب الطبيعي .



2 ـ الطب النفسي :

1 ـ الأمراض العضوية سببها الأزمات النفسية :

أما عن **الطب النفسي** ، فيا أيها الإخوة المؤمنون ، إن أمراضاً كثيرة جداً بعضها عضال ، وبعضها مميت كأمراض القلب والشرايين ، وأمراض جهاز الهضم ، والكليتين ، والأمراض النفسية والعصبية إنما ترجع أسبابها الرئيسية إلى أزمات نفسية يعاني منها إنسان الشرك في العصر الحديث ، فمن أشرك بالله قذف الله في قلبه الرعب ، قال تعالى :

سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾

(سورة آل عمران)

فتوقع المصيبة مصيبة أكبر منها ، وأنت من خوف الفقر في فقر ، وأنت من خوف المرض في مرض ، قال تعالى :

إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾

(سورة المعارج)

ويرى بعض الأطباء أن ضغط الدم ما هو في حقيقته إلا ضغط الهم ، وأن الإنسان إذا غفل عن حقائق التوحيد ، وسقط في هوة الشرك ، فقد فتحت عليه أبواب من العذاب النفسي ، قال تعالى :



فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾

(سورة الشعراء)

2 ـ لابد من الإيمان الذي يملأ النفس بالأمن :

فالإيمان بالله خالقاً ، ومربياً ، ومسيراً .

وأنه :

وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَـٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَـٰهٌ ۚ

(سورة الزخرف : من الآية 84)

وأنه :

وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ

(سورة هود : من الآية 123)

وأنه :

ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾

(سورة الزمر)

وهو :

لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ

(سورة الرعد : من الآية 41)

وأنه :



وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١١٠﴾

(سورة الكهف)

وأنه :

يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ

(سورة غافر : من الآية 20)

مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ

(سورة هود : من الآية 56)

مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ

(سورة فاطر : من الآية 2)

وأنه :

لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ

مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ

(سورة النحل : من الآية 97)

وأنه :



أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٢١﴾

(سورة الجاثية)

وأنه :

لن يكون مَن :

وَعَدۡنَـٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا فَهُوَ لَـٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعۡنَـٰهُ مَتَـٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ﴿٦١﴾

(سورة القصص)

وأن :

ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾

و من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته فوق ما أعطي السائلين .

و إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان الله عليك فمن معك ؟

هذا الإيمان يملأ النفس شعوراً بالأمن الذي هو أثمن وأسعد ما في الحياة النفسية ، ويدفع عنها القلق الذي يدمرها ، والذي يجعل الحياة النفسية جحيماً لا يطاق ، قال تعالى :



وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾

(سورة الأنعام)

فإذا كانت السلامة تعني عدم وقوع المصيبة ، فإن الأمن يعني عدم توقع المصيبة ، قال تعالى :

قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾

(سورة التوبة)

إن الله يعطي الصحة ، والمال ، والذكاء ، والجمال للكثيرين من خلقه ، ولكنه يعطي السكينة بقدر لأصفيائه المؤمنين .

هذا الإيمان يملأ النفس طمأنينة إلى عدالة الله سبحانه وتعالى ، فبيده مقاليد الأمور كلها . وأنه :

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا

) سورة يونس : من الآية 44(

والله سبحانه وتعالى يدافع عن الذين آمنوا ، وينجيهم من كل كرب ، وينصرهم على عدوهم .

هذا الإيمان يملأ النفس شعوراً بالنجاح ، والفلاح ، والتفوق ، والفوز برضاء الله الذي يعد أثمن نجاح يحققه الإنسان على وجه الأرض .

" ابن آدم اطلبني تجدني ، فإذا وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فتك فاتك كل شيء " .



هذا الإيمان يملأ النفس راحة ، وتسليماً وتفويضاً ، وتوكلاً ورضاً بقضاء الله الذي لا يقضي لعبده المؤمن إلا بالحق والخير ، قال عليه الصلاة والسلام :

((**الإيمان بالقَدَر يذهب الهم والحزن**)) .

[ورد في الأثر]

وقال تعالى في الحديث القدسي :

((**ما من مخلوق يعتصم بي من دون خلقي ، أعرف ذلك من نيته فتكيده أهل السماوات والأرض ، إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً ، وما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته ، إلا جعلت الأرض هوياً تحت قدميه ، وقطعت أسباب السماء بين يديه**)) .

[ورد في الأثر]

3 ــ الصحة النفسية أساس صحة الجسد :

هذه المشاعر تحقق سعادة نفسية ، وسعادة لا يعرفها إلا من ذاقها فالصحة النفسية أساس صحة الجسد ، قال بعض الأطباء : " إن الرحمة النفسية كافية لإعادة ضربات القلب السريعة إلى اعتدالها ، وضغط الدم المرتفع إلى مستواه الطبيعي " .

فالإيمان بالله صحة نفسية ، وهي أساس صحة الجسد .

3 ــ الطب الوقائي :

1 ــ الطب الوقائي سيد الطب البشري :

الطب الوقائي في الإسلام ينطلق من أن إزالة أسباب المرض أجدى وأهون من إزالة أعراضه ، وأن المرض ، وإن زالت أعراضه بالدواء فإن لها آثاراً جانبية في وقت لاحق ، تظهر على شكل أمراض قلبية ووعائية وكلوية من دون سبب مباشر .

ويعد الطب الوقائي سيد الطب البشري كلِّه ، لأن قوة الأمة تتجلى في قوة أفرادها ، وإن دخلها يقاس بدخلهم ، وإن الأمة التي تنزل بساحتها الأمراض ، أو تستوطنها الأوبئة تتعرض لخسران كبير .



2 ــ الطب الوقائي حفاظ على الصحة والوقت والمال والجهد :

سواءٌ في هذه القوى البشرية المريضة المعطلة التي كان من الممكن أن تسهم جهودها في زيادة الدخل القومي ، أو في هذه الأموال الطائلة التي تنفق في معالجة هذه الأمراض ، والتي كان من الممكن أن تنفق في بناء الوطن فتسهم في منعته ، ورفعته .

ويضاف إلى هذا أن ثمن معظم الدواء يستهلك نقداً أجنبياً صعباً نحن في أشد الحاجة إليه ، لتنفيذ المشروعات الإنتاجية التي تعود بالنفع العام على الأمة .

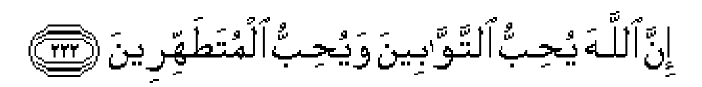
وإن معالجة مريض السِّل تستمر وسطياً سنة ونصف سنة ، وتكلف المريض والدولة أموالاً وإمكانات كبيرة إضافة إلى ما يعانيه المريض من العذاب والقلق ، بينما لا تحتاج الوقاية من هذا المرض إلا إلى لقاح يكلف بضعة قروش .

3 ــ النظافة من أهم وسائل الطب الوقائي :

والنظافة من الطب الوقائي ، فالإسلام يأمر بالنظافة ، فهي تقي من انتقال كثير من الأمراض المعدية التي تنتقل بتلوث الأيدي كالكوليرا والزحار ، والالتهاب المعوي .

والنظافة تنشط الدورة الدموية بتنبيه الأعصاب ، وتدليك الأعضاء ، وتحفظ وظائف الجلد أن تتعطل ، فضلاً عن أثر النظافة في بناء الشخصية ، وفي العلاقات الاجتماعية .

الله سبحانه وتعالى حثنا عليها ، وجعلها سبباً لمحبته ، فقال تعالى :



(سورة البقرة)



الطهارة أربع مستويات :

وقد فهم الإمام الغزالي هذه الآية على أربع مستويات :

الأول : تطهير الظاهر عن الأحداث والأخباث .

الثاني : تطهير الجوارح عن المعاصي والآثام .

الثالث : تطهير النفس عن الأخلاق الذميمة والرذائل الممقوتة .

الرابع : تطهير النفس عما سوى الله .

وقد أمرنا النبي صلى الله عليه وسلم بغسل اليدين قبل الطعام ، فعَنْ سَلْمَانَ قَالَ : قَرَأْتُ فِي التَّوْرَاةِ أَنَّ بَرَكَةَ الطَّعَامِ الْوُضُوءُ بَعْدَهُ ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا قَرَأْتُ فِي التَّوْرَاةِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((بَرَكَةُ الطَّعَامِ الْوُضُوءُ قَبْلَهُ وَالْوُضُوءُ بَعْدَهُ)) .

[أخرجه الترمذي ، وأخرجه الإمام أحمد والحاكم عن سلمان ، وفي سنده ضعف]

4 ـ الإسلام يأمر بالنظافة :

ولا يخفى أن وضوء الطعام هو غسل اليدين والفم .

وقد جعل النبي عليه الصلاة والسلام غسل الجمعة واجباً دينياً ، ولو كان مُد الماء بدينار ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((**حَقٌّ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَغْتَسِلَ فِي كُلِّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ يَغْسِلُ رَأْسَهُ وَجَسَدَهُ**)) .

[البخاري]

ولا أدلُّ على أهمية النظافة في الإسلام من أنه جعلها شرطاً لأول عبادة فيه ، وهي الصلاة ، فقال تعالى :



يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ

مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾

(سورة المائدة)

وقد تفضل الله علينا بالماء الطهور ، أي الطاهر المطهر لنتطهر به ، فقال تعالى :

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾

(سورة الفرقان)

وقال أيضاً :

إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَـٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾

(سورة الأنفال)



اللهم أرنا نعمك بدوامها لا بزوالها .

5 ــ الصلاة وعلاقتها بالطب الوقائي :

والصلاة بحركاتها من قيام وركوع وسجود واعتدال نوع من الطب الوقائي ، فقد أكد علماء التربية الرياضية أن أحسن أنواع الرياضة ما كان يومياً ، ومتكرراً ، وموزعاً على كل أوقات اليوم ، وغير مجهد ، ويستطيع أن يؤديها كل إنسان من كل جنس ، وفي كل عمر ، وفي كل ظرف وبيئة ، وهذا كله متوافر في الصلاة .

هذا وإن انخفاض الرأس في الركوع والسجود يسبب احتقان أوعية المخ بالدم ، وعند رفع الرأس فجأة ينخفض الضغط في الأوعية ، وتتكرر هذه العملية ست مرات في الركعة الواحدة ، وما يزيد على مائتي مرة في اليوم ، وستة آلاف مرة في الشهر ، ومن انقباض الأوعية وانبساطها تزداد مرونتها ، وتقوى جُدُرُها وعضلاتها ، وهذا يبعد عنها خطر تصلبها أو انفجارها ، ولاسيما حين ارتفاع الضغط .

والصلاة تحرك جميع عضلات الجسم القابضة والباسطة ، وتحرك جميع المفاصل حتى الفقرية منها ، وتنشط القلب والدورة الدموية ، وتقوي جدر شرايين المخ ، فتقاوم التصلب والتمزق ، وإن أخطر جهاز في الإنسان دماغه ، وإن حسن تأديته وظائفه منوط بحسن ترويته بالدم ، وإن السجود يوفر له تروية مُثلى ، هذا فضلاً عن الطمأنينة والسعادة التي يشعر بها المصلي .

هناك امرأة أنهكتها آلام الشقيقة .. فذهبت إلى بلد أوربي بغية المعالجة ، فقال لها الطبيب هناك : هل أنت مسلمة ؟ قالت : نعم ، قال لها : أتصلين ؟ قالت : لا ، قال لها : صلِّ يذهب ما بك ، فامتلأت غيظاً ، وسخرت من هذه الوصفة ، وقالت : هل تجشمت مشاق السفر ، وبذلت عشرات الآلاف ليكون الدواء هو الصلاة ؟! عندئذ قال لها : إن أحد أسباب الشقيقة نقص في تروية المخ ، بسبب عصبي ، وإن الصلاة تحقق راحة نفسية تسهم في توسيع شرايين المخ .

6 ــ الاعتدال في الطعام والشراب وسائر المباحات من الطب الوقائي :



والاعتدال في الطعام والشراب وسائر المباحات من الطب الوقائي ، قال تعالى :

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾

(سورة الأعراف)

فنص الآية يأمر بالاعتدال في الطعام والشراب ، لكن النهي عن الإسراف لم يقيد بالطعام والشراب ، بل أطلق ليشمل كل شيء ، والمطلق في القرآن على إطلاقه.

وقد بين النبي عليه الصلاة والسلام حدود هذا الاعتدال ، فعَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِ يكَرِبَ يَقُولُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((**مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ**)) .

[أخرجه الترمذي ، وابن ماجة]

قال أحدهم : " إن عُشر ما نأكله يكفي لبقائنا أحياء ، وإن تسعة أعشار ما نأكله يكفي لبقاء الأطباء أحياءً " .

وقد بين المصطفى صلوات الله عليه أن لذة الطعام لا تُحصَّل باختيار أنفس الأطعمة وأطيبها ، ولكنها تُحصَّل بحالة تلابس الآكل ، ألا وهي الجوع فقال عليه الصلاة والسلام :

((**نِعم الإدام الجوع**)) .

[ورد في الأثر]

وقد كُتب على مدخل إحدى المستشفيات في بلدٍ أوربي متقدم بمقياس العصر :

نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع .

هذا أصل في الطب الوقائي ، لأن الفائدة من الطعام لا تتحقق إلا بتمثله تمثلاً صحيحاً ، ولا يكون الهضم والتمثل صحيحين إلا إذا انهمرت العصارات الهاضمة على الطعام انهماراً ، وهذه لا تنهمر إلا في الجوع .

اجلس إلى طعام ، وأنت تشتهيه ، وارفع يدك عنه ، وأنت تشتهيه ، وقد بين النبي صلوات الله عليه أن في الطعام لذةً نتذوقها ، وطاقة نستهلكها ، وفضلات نطرحها فقال : ((**الحمد لله الذي أذاقني لذته ، وأبقى فيَّ قوته ، وأذهب عني أذاه**)) .

[الجامع الصغير عن ابن عمر ، وفي سنده ضعف]



فالاعتدال في الطعام والشراب وسائر المباحات أصل الطب والوقائي.

4 ـ الطب العلاجي :

1 ـ الطب العلاجي موافق :

وفي الإسلام **طب علاجي** ... والطب العلاجي يعني تعاطي الدواء ، والأخذ بأسباب الشفاء ، والطب العلاجي موافق للعقل والشرع ؛ فموافق للعقل ، لأن في استعمال الدواء جلباً للمنافع ، ودفعاً للمضار ، وموافق للشرع لقول الله عز وجل :

وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾

(سورة الشعراء)

وقد بين النبي الكريم ما تنطوي عليه هذه الآية فقال :

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((**مَا أَنْزَلَ اللَّهُ دَاءً إِلَّا قَدْ أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً ، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ ، وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ**)) .

[رواه الترمذي ، والنسائي وأحمد ، وأصله في صحيح البخاري]

2 ـ الشفاء مرهون بصحة تشخيص الداء ، وصحة اختيار الدواء :

وقد بيـــن النبي صلى الله عليه وسلم أن الشفاء من المرض يحتاج إلى شرطين اثنين ، الأول : صحة تشخيص الداء ، وصحة اختيار الدواء لهذا الداء ، وهذا شرط لازم غير كاف ، والثاني : إذنٌ من الله لهذا الدواء ، أن يفعل فعله ، فيزيل أسباب المرض وأعراضه ، لهذا قال عليه الصلاة والسلام :

((**لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ ، فَإِذَا أُصِيبَ دَوَاءُ الدَّاءِ بَرَأَ بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ**)) .

[رواه مسلم عن جابر]

إن الطبيب له علم يدل بـــــه   إن كان للناس في الآجال تأخيرُ
حتى إذا ما انقضت أيام رحلته   حـــار الطبيب وخانته العقاقيـــرُ



3 ـ التداوي لا يتناقض مع الإيمان بالقدر :

والتداوي لا يتناقض مع الإيمان بالقدر ، ولا يتناقض مع التوكل ، فقد روى البخاري عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ ((أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَرَجَ إِلَى الشَّأْمِ ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِسَرْغَ لَقِيَهُ أُمَرَاءُ الْأَجْنَادِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ وَأَصْحَابُهُ فَأَخْبَرُوهُ أَنَّ الْوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِأَرْضِ الشَّأْمِ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : فَقَالَ عُمَرُ : ادْعُ لِي الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ ، فَدَعَاهُمْ فَاسْتَشَارَهُمْ ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ الْوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِالشَّأْمِ ، فَاخْتَلَفُوا ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : قَدْ خَرَجْتَ لِأَمْرٍ ، وَلَا نَرَى أَنْ تَرْجِعَ عَنْهُ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : مَعَكَ بَقِيَّةُ النَّاسِ ، وَأَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَا نَرَى أَنْ تُقْدِمَهُمْ عَلَى هَذَا الْوَبَاءِ ، فَقَالَ : ارْتَفِعُوا عَنِّي ، ثُمَّ قَالَ : ادْعُوا لِي الْأَنْصَارَ ، فَدَعَوْتُهُمْ ، فَاسْتَشَارَهُمْ ، فَسَلَكُوا سَبِيلَ الْمُهَاجِرِينَ ، وَاخْتَلَفُوا كَاخْتِلَافِهِمْ ، فَقَالَ : ارْتَفِعُوا عَنِّي ، ثُمَّ قَالَ : ادْعُ لِي مَنْ كَانَ هَا هُنَا مِنْ مَشْيَخَةِ قُرَيْشٍ مِنْ مُهَاجِرَةِ الْفَتْحِ ، فَدَعَوْتُهُمْ ، فَلَمْ يَخْتَلِفْ مِنْهُمْ عَلَيْهِ رَجُلَانِ ، فَقَالُوا : نَرَى أَنْ تَرْجِعَ بِالنَّاسِ ، وَلَا تُقْدِمَهُمْ عَلَى هَذَا الْوَبَاءِ ، فَنَادَى عُمَرُ فِي النَّاسِ : إِنِّي مُصَبِّحٌ عَلَى ظَهْرٍ ، فَأَصْبِحُوا عَلَيْهِ ، قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ : أَفِرَارًا مِنْ قَدَرِ اللَّهِ ، فَقَالَ عُمَرُ : لَوْ غَيْرُكَ قَالَهَا يَا أَبَا عُبَيْدَةَ ، نَعَمْ نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ إِلَى قَدَرِ اللَّهِ ، أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ إِبِلٌ هَبَطَتْ وَادِيًا لَهُ عُدْوَتَانِ إِحْدَاهُمَا خَصِيبَةٌ وَالْأُخْرَى جَدْبَةٌ أَلَيْسَ إِنْ رَعَيْتَ الْخَصْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللَّهِ ، وَإِ نْ رَعَيْتَ الْجَدْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللَّهِ ؟ قَالَ : فَجَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ ، وَكَانَ مُتَغَيِّبًا فِي بَعْضِ حَاجَتِهِ ، فَقَالَ : إِنَّ عِنْدِي فِي هَذَا عِلْمًا ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : ((**إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ**)) ، قَالَ : فَحَمِدَ اللَّهَ عُمَرُ ، ثُمَّ انْصَرَفَ)) .

[البخاري]

ففرح عمر رضي الله عنه بذلك ، وحمد الله تعالى إذ وفق إلى الصواب .

وقد قال الفقهاء : " إن استعمال الدواء المقطوع بفائدته بإخبار الأطباء لعلاج مرض يقعد المريض عن القيام بواجباته تجاه الله وتجاه الناس ، أو مرض يودي بحياته أو بعضوٍ من أعضائه ، واجب ديني يرقى إلى مستوى الفرض .

وهنا محل الإشارة ، إلى أن الطب في الإسلام اختصاص ، وفي الحديث عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((**مَنْ تَطَبَّبَ وَلَمْ يُعْلَمْ مِنْهُ طِبٌّ** – أي معرفة بالطب – **قَبْلَ ذَلِكَ فَهُوَ ضَامِنٌ**)) .

أي مسؤول .



[رواه النسائي ، وأبو داود ، وابن ماجه]

أيها الإخوة المؤمنون : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم ، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا ، وسيتخطى غيرنا إلينا فلنتخذ حذرنا .

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمولُ
فإذا حملت إلى القبور جنــازة فاعلم بأنك بعدها محمـــــولُ

الكيس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني .

قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ



حملة صحية لتلقيح الأطفال :

أيها الإخوة في هذا القطر العربي السوري ، تجسيداً لهذه الحقائق ، وتنفيذاً لتلك المبادئ التي جاء بها الإسلام ، وانطلاقاً من أن العناية بالصحة واجب ديني في الدرجة الأولى ، وأن من العناية بالصحة التحصين ضد الأمراض السارية التي تفتك بالأطفال فلذات الأكباد ، ولا سيما من كان منهم دون الخامسة ؛ فقد قامت وزارة الصحة م شكورة بتوجيه من السيد رئيس الجمهورية بحملة تلقيح وطنية شاملة ، لجميع أطفال القطر ، ممن هم دون الخامسة ضد الحصبة ، والشلل ، والسِّل ، والدفتريا ، والسعال الديكي ، والكزاز ، بغية الوصل إلى نوع من الحصانة الجماعية ، وكذلك أعدت وزارة الأوقاف بالتعاون مع وزارة الصحة حملة توجيهية دينية ، فحواها أن الوعي الصحي جزء من الوعي الديني ، وأن في الإسلام توجيهات صحية لو طبقها المسلم لعاش حياة طيبة ، ولا ستراح وأراح ، وقد خصصت وزارة الأوقاف بعض مراكز العبادة والمدارس الشرعية لتكون مراكز للتلقيح .



حقائق مهمة لبيان أهمية تلقيح الأطفال :

ولكي يعرف المواطنون حجم المشكلة الصحية الناتجة عن تقاعسهم عن تلقيح أبنائهم ، ولكي يسارعوا ويستجيبوا لنداءات التلقيح الوطنية أضع بين أيديهم الحقائق التالية :

إن قطراً من الأقطار النامية يزيد عدد سكانه على عشرة ملايين يموت من أطفاله سنوياً خمسة آلاف طفل ؛ بسبب عدم تحصينهم ضد الأمراض السارية الفتاكة ، وأما الأطفال الذين يصابون بهذه الأمراض ، ولا يموتون فيعانون من علل مدمرة تنغص مستقبل حياتهم ، وتجعلهم عالة على المجتمع يستهلكون ، ولا ينتجون .

والشيء المؤسف أن سبعين في المائة من الأطفال الرضع لا يُحَصَّنون ض د هذه الأمراض السارية .

أيها الإخوة الأحبة ، ستبدأ الجولة الأولى من حملة التلقيح الوطنية هذه غداً يوم السبت الثالث عشر من أيلول ، وسيخصص مركز صحي لكل ألف منزل أو خمسة آلاف مواطن على مستوى القطر ، وما على المواطنين إلا أن ينطلقوا صبيحة الغد لتلقيح أطفالهم ممن هم دون الخامسة عملاً بقوله تعالى :

وَأَنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾

(سورة البقرة)

وقوله تعالى :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا

(سورة النساء آية 29)



02 - سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم

يطيب الحديث في رمضان عن القرآن لأنه أنزل فيه ، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم ، كان يكثر فيه من تلاوته وتدبره ، فالقرآن هو المنهج الأقوم ، والطريق الأمثل ، لسعادة الإنسان في كل زمان ومكان ، فيه دعوة إلى الإيمان بالله من خلال التفكر في خلق السماوات والأرض ، حيث تتابع الأمر بالتفكر في سور القرآن ، وعُد الأساس الأول لبناء العقيدة والإيمان .

قال تعالى :

قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠١﴾

(سورة يونس : 101).

وقال تعالى :

فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ﴿٦﴾ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾

(سورة الطارق : 5 ـ 6 ـ 7).

فالتفكر في خلق السماوات والأرض ، عبادة من أرقى العبادات وقربة من أعظم القربات، من أرقى العبادات ، وقربة من أعظم القربات ، وهي باب لمعرفة الله ، من أوسع الأبواب .

كيف لا ؟ وأصل الدين معرفة الله .

إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾

(سورة فاطر : 28).

بل إن أول آية نزلت في القرآن ترسم المنهج لمعرفته ، وهي في قوله تعالى :

ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴿٢﴾

(سورة العلق : 1 ـ 2).



أيها الأخوة الأحباب :

في صحيح بن حبان ، عن عطاء ، أن عائشة رضي الله عنها قالت : أتاني رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليلتي وقال : يا عائشة ، ذريني أتعبد لربي عز وجل ، فقام إلى القربة فتوضأ منها ، ثم قام يصلي ، فبكى حتى بل لحيته ، ثم سجد حتى بل الأرض ، ثم أضطجع على جنبه ، حتى أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح ، فقال : يا رسول الله ما يبكيك ، وقد غفر الله لك ، ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟! فقال عليه الصلاة والسلام : ويحك يابلال ! وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل الله عليّ في هذه الليلة :

إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾

(سورة آل عمران : 190)

ثم قال عليه الصلاة والسلام : ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها وقال عليه الصلاة والسلام : أمرت أن يكون صمتي فكراً ، ونطقي ذكراً ، ونظري عبرةً .

وقال الحسن البصري رحمه الله تعالى : من لم يكن كلامه حكمةً فهو لغوُ ، ومن لم يكن سكوته تفكراً فهو سهو ، ومن لم يكن نظره عبرة فهو لهو .

أيها الأخوة المشاهدون : الحق جل وعلا ، الذي خلق السماوات والأرض بالحق يقول :

سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ

(سورة فصلت : 53)

والحق هو القرار والثبات ، والسمو والعلو ، ونقيضه الباطل وهو الزوال والزهوق ، والتردي والعبث .. سنريهم آياتنا في الآفاق فأين هي آيات الله في الآفاق ؟..

ورد في بعض الأحاديث الشريف : أن عدد النجوم في السماء بعدد ما في الأرض من مدر وحجر ، أي بعدد ذرات التراب والحجارة فعلماء الفلك أيها الأخوة في الماضي ، كانوا يعدون النجوم بالألوف وبعد أن ارتقت كفاءة مراصدهم ، صاروا يعدونها بالملايين ، ثم وصلوا إلى



المليارات ؛ أي ألوف الملايين ، أما اليوم فإنهم يقدرون عدد النجوم في مجرتنا ، درب التبانة ، من خلال المراصد العملاقة بثلاثين ملياراً ، علماً أن مجرتنا مجرة متوسطة في حجمها ، وهي واحدة من عشرات ألوف الملايين من المجرات ، التي لا يعلم عددها إلا الله ، لقد صدق الله العظيم إذ يقول :

أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا

(سورة ق : 6).

هذا عن عدد النجوم ، فماذا عن حجومها ؟ !.. إذا علمنا أيها الأخوة أن حجم الأرض مليون مليون كيلومتر مكعب ، وأن الشمس تكبر الأرض بمليون وثلاثمائة ألف مرة ، وأن المسافة بينهما مائة وخمسون مليون كيلومتر ، وأن نجماً من النجوم في برج العقرب يتسع للأرض والشمس مع المسافة بينهما ، وأن نجماً أسمه منكب الجوزاء يزيد حجمه عن حجم الشمس بمائة مليون مرة ... لقد صدق الله العظيم إذا يقول :

وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾

(سورة الذاريات : 47).

هذا عن أعدادها وأحجامها ، فماذا عن المسافات بينها ؟ .. إن ما بينها من مسافات تقدر بالسنين الضوئية ، فالضوء يقطع بالثانية الواحدة ثلاثمائة ألف كيلومتر ، إذاً فهو يقطع في السنة عشرة آلاف مليار من الكيلومترات ، فإذا علمنا أن القمر يبعد عنا ثانية ضوئية واحدة، و أن الشمس تبعد عنا ثمانية دقائق ضوئية ، وأن المجموعة الشمسية ، لا يزيد قطرها عن ثلاث عشرة ساعة ضوئية ، وأن أقرب نجم ملتهب إلى الأرض ، يبعد عنا أربع سنوات ضوئية ، ولكي نعلما ماذا تعني أربع سنوات ضوئية نقول :

لو اتجهنا إلى هذا النجم بمركبة تساوي سرعتها سرعة مركبة القمر ، لاستغرقت الرحلة اكثر من مائة ألف عام ، ولو ساوت سرعة هذه المركبة سرعة السيارة ، لاستغرقت الرحلة هذه قريباً من خمسين مليون عام !!. هذا ما تعنيه أربع سنوات ضوئية !!.

فما القول في سديم المرأة المسلسلة ، التي تبعد عنا مليون سنة ضوئية ، بل ما القول في مجرة اكتشفت حديثاً ، تبعد عنا ست عشرة ألف مليون من السنوات الضوئية ، لقد صدق الله إذ يقول :



﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾

(سورة الواقعة : 75 ـ 76)

هذا ولم نتحدث عن حركات النجوم ، وسرعتها العالية ، ولا عن مداراتها الواسعة ، ولا عن شدتها ، ولا قوة إضاءتها ، ولا عن قوى التجاذب التي تربطها ، ولا عن توازنها الحركي ، وما تفعل دقائق عشر في مثل هذا الموضوع وعلى كل فالعجز عن الإدراك إدراك قال تعالى :

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٧﴾

(سورة الزمر : 67)

أيها السادة الأعزاء :

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾

فماذا عن الآيات التي في أنفسنا ، أن من هذه الآيات ، لبن المرأة الذي يعد مبهراً ومدهشاً، تعجز عن تركيبه بخصائصه ، قوى البشر ولو اجتمعت ، وأضخم المعامل ولو تظافرت ، فتركيبه في تبدل مستمر ، بحسب حاجات الرضيع ، ومتطلباته ، وبحسب احتمال أجهزته وأعضائه ، وهو أكثر ملائمة ، وأكثر احتمالا ، وهو آمن طرق التغذية من حيث الطهارة والتعقيم ؛ إذا يأخذ من الحلمة مباشرة ، دون التعرض إلى التلوث الجرثومي ، وحرارته ثابتة خلال الرضعة الواحدة متناسبة مع حرارة الرضيع ، ويصعب توافر ه ذا الشروط ، في الإرضاع الصناعي ، وفوق ذلك فهو لطيف الحرارة في الصيف ، دافئ في الشتاء ، وهو سهل الهضم ، ولا تتجاوز فترة هضمه الساعة والنصف ، بينما تزيد فترة هضم حليب القوارير عن ثلاث ساعات .

والطفل الذي يرضع من ثدي أمه ، يكتسب مناعة ضد كل الأمراض ؛ لأن في ح ليب الأم كل مناعاتها ، وفيه مواد مضادة للالتهابات المعوية والتنفسية ، ومواد تمنع التصاق الجراثيم بجدر الأمعاء ، ومواد حامضية لقتل الجراثيم ، والإرضاع يقي في المرضعة أورام الثدي الخبيثة ، ويقي في الرضيع الآفات القلبية والوعائية وأمراض التغذية والاستقلاب .



بل إن الفطام السريع يحدث عند الطفل ، رضاً نفسياً وانحرافات سلوكية ، وهو ــ أي حليب الأم ــ سهل التحضير ليلاً ونهاراً ، في السفر والحضر ، لأنه جاهز دائماً بالحرارة المطلوبة ، وبالتعقيم المثالي والسهولة في الهضم ، والمناعة الشاملة .

قال تعالى :

لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾

(سورة البلد : 4 ــ 10) .

قال عكرمة وابن المسيب النجدان هما الثديان .

يا رب تداركتنا باللطف في ظلمة الحشا	وخير كفيل بالحشا قد كفلتنـــا
وأسكنت قلب الأمهات تعطفاً علينـــــا	وفي القلبين أجريت قوتنـــــــــا
وأنشأتنا طفلاً وأطلقت ألســــــــــناً	تترجم بالقراري أنك ربنــــــــــا
وعرفتنا إيــــــاك فالحمد دائماً لوجهك	إذا ألهمتنا منـــــك رشدنـــــــــا

03 - الشمس والأرض

روى الإمام مالك في موطئه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلَّم قال : " **ألا أخبركم بخير أعمالِكم ، وأزكاها عند مليككم ، وأرفعِها في درجاتكم ، وخير لكم من إنفاق الذهب والفضة ، وخير لكم من أن تَلْقَوا العدوّ فتضربوا أعناقهم ، ويضربوا أعناقكم ؟!** .. " قالوا : بلى يا رسول اللّه ، قال : " **ذكر الله** " .

يبدو من خلال هذا الحديث الشريف ، أن الذكر له شأن كبير في حياة المؤمن ، كيف لا وقد ورَدَ الذكر في القرآن الكريم في أكثر من ثلاثمئة آية .. تؤكد هذه الآيات في مجموعها ، أن الذكر ينبغي أن يدور مع الإنسان ، في كلّ شؤونه وأحواله وأطواره ؛ لأنّه عبادة القلب ، والفكر، واللسان .. فمن الذكر .. أن تذكر الله في آياته الكونية .. وفي آياته القرآنية ، وفي آياته التكوينية ، وأن تذكره من خلال نعمه الظاهرة والباطنة ، وأن تذكره في أمره ونهيه ، وأن تذكره لعباده



معرفاً به .. وأن تذكره في قلبك ، وعلى لسانك مُسبِّحاً وحامداً وموحِّداً ومُكبِّراً ، وأن تذكر ربوبيته لك فتدعوه وحدَه ، في أحوالك كلّها ، وأطوارك جميعها ، وأن تذكره ذكراً كثيراً ؛ ليطمئن قلبك ، ولينجلي همّك ، ولينشرح صدرك ، وليتّسع رزقك ، ولتنصرَ على عدوّك .

فمن الذكر التفكُّر في آيات الله في الآفاق وفي الأنفس ، وهذا التفكُّر من أجل أن نعرف اللّه جل وعلا ، وأن نُقَدِّره حقَّ قدره .. قال تعالى :

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾

(سورة آل عمران)

فمن هذه الآيات التي بثّها الله في الآفاق ، التجاذب الحركي فيما بين الكواكب والنجوم .. قال تعالى :

اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا

(سورة الرعد : من آية " 2 ")

فكلمة **(ترونها)** تفيد ــ فيما تفيد ــ أن الله جل وعلا ، رفع السماوات بعمد لا نراها ، إنها قوى التجاذب التي تنظم الكون كلّه ، بدءاً من الذرَّة وانتهاء بالمجرَّة ..

فالشمس مثلاً تجذِب إليها الأرض بقوة هائلة ، بحيث تجري الأرض في مَسَار مُغلق حول الشمس ، ولو انعدم جذب الشمس للأرض، لخرجت الأرض عن مسارها حول الشمس ، ولاندفعت في متاهات الفضاء الكوني ، حيث الظلمة والتجمد ، وبزوالها عن مسارها ــ أي بانحرافها عنه ــ تزول الحياة فيها ، إذ تصل درجة حرارتها إلى مئتين وسبعين درجة تحت الصفر .. وهي درجة الصفر المُطلق التي تنعدم فيه حركة الذرات . قال تعالى :



﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ﴾

(سورة فاطر : من آية " 41 ")

ولكي ندرك قوة جذب الشمس للأرض ، نفترض أن هذه القوة ، انعدمت لسبب أو لآخر ، ومن أجل أن تبقى الأرض مرتبطة بالشمس ، تجري في مسارٍ حولها ، لابدَّ من أن نربطها إلى الشمس بأعمدة مرئية من الفولاذ ، والفولاذ من أمتن المعادن ، ومن أعظمها تحمّلاً لِقوى الشد، فالسلك الفولاذي الذي قطره ميلمتر واحد ، يتحمل من قوى الشد ما يعادل مئة كيلو غرام ، إننا بحاجة إلى مليون مليون حبل فولاذي ، طول كل حبل مئة وستة وخمسون مليون كيلو متر ، وقطر الحبل الواحد خمسة أمتار ، والحبل الواحد من هذه الحبال يتحمل من قوى الشدّ ، ما يزيد عن مليوني طن ، فكم هي قوة جذب الشمس للأرض ؟.. إنها مليونا طن مضروبة بمليون مليون، ثم إذا زرعنا هذه الحبال على سطح الأرض المقابل للشمس ، لفوجئنا أننا أمام غابة من الحبال الفولاذية ، بحيث تقلُّ المسافة بين الحبلين عن قطر حبل ثالث ، هذه الغابة تحجب عنا أشعة الشمس ، وتعيق كل حركة وبناء ونشاط .. كل هذه القوى الهائلة من أجل أن تحرف الأرض في مسارها حول الشمس ثلاثة ميلمترات كل ثانية .. لقد صدق الله العظيم إذ يقول :

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾

(سورة الرعد : من آية " 2 ")

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ﴾

(سورة فاطر : من آية " 41 ")

هذه آية من آيات الآفاق ، فماذا عن آيات النفس ؟؟ قال تعالى :

﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾

(سورة الذاريات)



لو أن رجلاً كان يتنزَّه في بستان ، ولَمَح فجأة كائناً مؤذياً قاتلاً ، فما الذي يحدث في جسمه ؟!
ينطبع خيال هذا الكائن على شبكية العين ، إحساساً ، وينتقل هذا الإحساس الضوئي إلى المُخّ،
فيصبح إدراكاً للخطر ، وعندها يأمر المُخ ــ وهو ملك الجهاز العصبي ــ الغدة النخامية ــ
وهي ملكة الجهاز الهرموني ــ بأن تواجه هذا الخطر !! هذه الملكة ، تصدر أمراً لغدة الكظر
لكي تعطي الجسم الجاهزية القصوى ، لمواجهة الخطر ، والكَظَر بدوره يعطي أمراً هرمونياً إلى
القلب ، ليُسرِّع نبضاته ، (فالخائف تزداد ضربات قلبه) والكظر يعطي أمراً هرمونياً ثانياً ،
للرئتين ، لتوافق وجيبها مع ازدياد نبضات القلب ، (فالخائف يزداد وجيب رئتيه فيلهث) ،
والكظر يعطي أمراً ثالثاً للأوعية الدموية فتضيق لمعتها ، ليتحول الدم إلى العضلات (فالخائف
يصفرُّ لونه) ، والكظر يعطي أمراً هرمونياً رابعاً للكبد ، ليطرح في الدم كمية من السكر
إضافية، والسكر مادة الوقود في العضلات ، والكظر يعطي أمراً هرمونياً خامساً، للكبد ليزيد من
هرمون التجلط منعاً من نزيف الدم . كلّ هذا في ثوان معدودة ؟!! ..

هَـٰذَا خَـلْقُ ٱللَّـهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَـلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ

(سورة لقمان : من آية " 11 ")

وقال صلى الله عليه وسلَّم فيما رواه البخاري ومسلم :
" **مثل الذي يذكر ربّه ، والذي لا يذكر ربّه ، مثل الحي والميت** " .

04 - البرزخ والحجر بين البحرين

أيها المؤمنون في كل مكان ... إنطلاقاً من قوله تعالى :

سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّۗ

(سورة فصلت : من آية " 53 ")

انطلاقاً من هذه الآية ، لقد اكتشف العلماء ، الغربيّون مؤخراً ، أنَّ بين كلّ بحرين مالحين ،
حاجزاً ، تم تصويره من سفن الفضاء ، هذا الحاجز ، يمنع مياه كل بحرٍ ، من أن تختلط بمياه



البحر الآخر ، فلا يبغي بحرٌ على بحر ، بل يحافظ كلُّ بحرٍ ، على كثافة مياهه ، و درجة ملوحته ، ومكوناته ، وهذا الحاجز بين البحرين ، ليس ثابتاً ، بل هو متحركٌ بفعل الرياح ، وحركة المد والجزر .

وحينما اطلع بعض هؤلاء العلماء ، وهم في نشوة اكتشافهم هذا ، أنَّ في القرآن الكريم إشارةً، إلى هذا الكشف العلمي ، وهي قوله تعالى:

مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾

(سورة الرحمن)

أخذتهم الدهشة .. وقد اكتشفوا أيضاً ، أنَّ بين البحرين الملح الأجاجِ، والعذب الفراتِ ، شيئين.. حاجزاً يمنع مياه كلَّ بحرٍ من أن تطغى على الآخر ، كما هو بين البحرين المالحين ، وحاجزاً يمنع أسماك المياه العذبة ، من أن تنتقل إلى المياه المالحة ، ويمنع أسماك المياه المالحة، من أن تنتقل إلى المياه العذبة ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الكشف العلمي الثاني ، وسمى الحاجز الأول برزخاً ، وسمى الحاجز الثاني: حجراً ، فقال تعالى :

۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾

(سورة الفرقان)

أما طبيعة هذين الحاجزين ، فلا تزال موضع دراسة .



05 - الجمل

أيها الإخوة المؤمنون ... لو أمعن المرء النظر إلى الجمل ، لرآه من أبدع المخلوقات ، إنه أعجوبةٌ في الهندسة التشريحية ، فالجمل ، يعدُّ، وسيلةٌ لا تقدر بثمن ، في المناطق القاحلة ، المنبسطة ، التي تغطي سدس مساحة اليابسة ، والتي تستعصي حتى على أقوى المركبات ، وفي العالم يا أيها الإخوة ... ما يزيد عن خمسة عشر مليوناً من الجمال ، تزداد باستمرار ، فكل ما في الجمل ، متقن التصميم ، للتكيُّف مع بيئته القاسية ، فعينه ، لها رموشٌ كثيفةٌ ، مزدوجة ، تحجب عنها رمال الصحراء المتطايرة .

وتتميز بقدرتها على التكبير ، والتقريب ، فهي تريه البعيد قريباً ، والصغير كبيراً ، وهذا سرٌّ انقياده لطفلٍ صغير ، أو لدابةٍ قميئة .. قال تعالى :

وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾

(سورة يس)

وفي إمكان الجمل ، إغلاق أذنيه ، ومنخريه ، للغاية نفسها .. أما أخفافه الضخمة ، فهي تسهِّل له الحركة على الرمال ، من دون أن يغرز فيه ، وشفتا الجمل ، مطاطيتان ، قاسيتان ، تلتهمان الأشواك الحادة ، وهما فعالتان في تجميع الطعام ، والأشواك ، بحيث لا يفقد الجمل أي رطوبةٍ ، بمد لسانه إلى الخارج :

أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾

(سورة الغاشية)

ومن أبرز مزايا الجمل ، قلة حاجته إلى الماء ، ومع أنه يمكنه أن يشرب ما ي ملأ حوض استحمام ، لكنه يستطيع أن يستغني عن الماء كلياً ، عشرات الأيام ، بل بضعة أشهر ، حيث يستطيع ، في حالاتٍ طارئة ، أن يأخذ ما يحتاج إليه ، من الماء ، من أنسجة جسمه ، فيخسر ربع وزنه ، من غير أن يضعف عن الحركة ، وفي السنام ، يخزن الجمل ، من الشحم، ما يعادل خمس وزنه ، ومنه يسحب الجمل ، ما يحتاج إليه من غذاء ، إن لم يجد طعاماً .



﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧﴾

ومتوسط عمر الجمل ، يزيد عن أربعين عاماً ، ولا يسلس قياد الجمل ، إلا إذا عومل باحترامٍ، ومودةٍ ، وعطفٍ ، وفي هذا عبرةٌ لبني البشر ، قال تعالى :

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧﴾

عرفتك ، يا رب ببحثٍ ، وفطرةٍ ، فجئتك صباً ، طاهر القلب خاليا، لك في الآفاق آياتٌ ، لعل أقلها هو ما إليه هداك ، فإذ رأيت النبت ، في الصحراء يربو وحده ، فاسأله : من أرباك ؟ وإذا رأيت البدر، يسري ناشراً أنواره ، من أسراك ؟ وإذا رأيت النهر بالعذب الفرات جرى ، فاسأله : من الذي أجراك ؟ وإذا رأيت البحر ، في الملح الأجاج طغى فاسأله : من الذي أطغاك ؟ وإذا رأيت الليل يغشى داجياً ، فاسأله : من ياليل حاك دجاك ؟ وإذا رأيت الصبح يُسفر ضاحياً ، فاسأله : من يا صبح حاك ضحاك ؟

06 - الحليب

أن يتفكر الإنسان في خلق السماوات والأرض ، وما بث فيهما من دابة ، وأن ينظر الإنسان ممَّ خلق ، وأن ينظر إلى طعامه ، وأن ينظر فيما حوله من مخلوقات وكائنات ، وأشجار ونباتات ، وأن ينظر إلى ما فوقه من أطيار وأنواء ، وإلى ما تحته من بحار وأسماك ، وأن يفكر وينظر في ملكوت السماوات والأرض ، لهو باب من واسع من أبواب معرفة الله سبحانه وتعالى ، ومعرفة الله أصل الدين ، وأصل التكليف وأصل السعادة ، وثمن الجنة .

أيها الناس :

كأس الحليب الذي تشربونه ، أو طبق اللبن الذي تحتسونه ، وما اشتق منهما من خيرات حسان آيات بينات دالة على عظمة الخالق وجلاله ، وتربيته ورعايته وفضله وإنعامه .. قال الله تعالى :



وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾

[سورة النحل]

فهذا الحليب يحتوي على نسب دقيقة وجليلة ، من الماء والدسم والسكريات والمواد المرممة وأملاح المعادن والفيتامينات ، وعدد كبير من الغازات المنحلة .. من حدّد هذه المكونات ؟ ومن ضبط هذه النسب فيما بينها ؟ .. ومن جعلها كذلك ؟ لتكون غذاءً كاملاً لبني البشر .. ءإله مع الله ؟ .. بل أكثرهم لا يعلمون ..

ثم إن هذه البقرة ، التي نأخذ منها الحليب ، من خلقها ؟ .. ومن خلق أجهزتها ؟ .. ومن ذللها للإنسان ؟ .. ومن جعل نتاجها من الحليب غذاءً مناسباً لنا ، لأنه يفوق بكميته حاجة وليدها ومن جعله اقتصادياً ؟ لأنه يزيد بثمنه عن مصاريف العناية بها وإطعامها .

يذكر العلماء أن الغدة الثديية ، للبقرة ، هي المعمل الحيوي الذي يقوم بتكوين الحليب وإفرازه ، ويُعد السنخ الوحدة الوظيفية ، لتصنيع الحليب ، وهو مجموعة من الخلايا على شكل كرة مجوفة ، محاطة بشبكة من الشعريات الدموية تأخذ المواد الأولية اللازمة لتصنيع الحليب من الدم الذي يمر في شبكة الشعريات ثم تصنعها حليباً ثم تطرحها في جوف السنخ، ليجتمع في قنوات تصب في ضرع البقرة .

هل تستطيع الخلايا غير العاقلة وحدها أن تختار المواد الأولية للحليب من دم البقرة ، لتكون غذاءً كاملاً للإنسان ؟ .. وهل تستطيع هذه الخلايا غير العاقلة وحدها ، أن تصنّع بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ، يحبه الصغار والكبار ؟

يقول العلماء : إن طريقة عمل هذه الخلايا ، وسر تصنيع الحليب غير معروف تماماً حتى الآن .. علماً بأن اللتر الواحد من حليب البقرة المصنع في الغدد الثديية ، يحتاج إلى أربعمائة لتر من الدم تجول في الأوعية الدموية المحيطة بالغدد الثديية .

سبحان من سخر لنا هذه البقرة ، لتكون معملاً عظيماً ، لتصنيع الغذاء الأول للإنسان ، خلقها وسخرها وذللها لنا ، نأكل من لحمها ونشرب من لبنها ونتفع بخدماتها .



قال الله تعالى:

أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَـٰرِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾

[سورة يس]

فيا خجلتي منه غداً إذ يقول لـي	أيا عبدنا هلاّ قرأت كتابنـا
أما تستحي منا ويكفيك ما جـرى	أما تختشى من عتبنا يوم جمعنا
أما آن أن تمضي عن الذنب راجعاً	وتدري ما الذي فيه وعدنا
فلو شاهدت عيناك من حسننا الذي	رأوه لما وليت عنا لغيرنـا
ولو سمعت أذناك حسن خطابنـا	خلعت ثياب العجب عنك وجئتنا
ولو لاح من أنوارنا لك لائـح	تركت جميع الكائنات لأجلنـا
ولو نسمت من قربنا لك نسمـة	لمت غريباً واشتياقاً لقربنـا
ولو ذقت من طعم المحبـة ذرة	عذرت الذي أضحى قتيلاً بحبنـا
فما حبنا سهل وكل من ادعـى	سهولته قلنـا لـه جهلتنـا

07 - القلب

قَلْب الجَسَد من أعجب ما خلق اللّه ، إنه مضخّه مزدوجة تضخٌّ الدم الذي يحمل الغذاء والوقود إلى كل خلية ، ونسيج ، وعضو ، وجهاز عن طريق شبكة من الأوعية يزيد طولها عن مئة وخمسين كيلومتر .

إنه يعمل منذ الشهر الثاني من حياة الجنين ، وحتى يحين الحين ، لا يغفل ولا يغفو ، لا ينسى ولا يسهو ، ولا يقعد ولا يكبو ، ولا يمل ولا يشكو ، يعمل من دون راحة ، ولا مراجعة ، ولا صيانة ، ولا توجيه ..



والإنسان بجبروته يؤذيه ، وبنار الحِقْد يَكويه ، وبالأحزان يُبْليه ، وهو أساس حياة الإنسان ، وشمس عالمه ، عليه يعتمد في كل أعماله ، وأحواله ، ومنه تنبع كل قواه ، وحركاته .. وهو آلة خارقة ! .. لا يعرف التعب إليها سبيلاً ، تزداد قدرتها أضعافاً كثيرة ، لتواجه الجهد الطارئ، إنها عضلة من أعقد العضلات ، بناء وعملاً وأداء ، ومن أمتنها وأقواها ، تنقبض وتنبسط ثمانين مرة في الدقيقة ، ويصل النبض في الجهد الطارئ إلى مئة وثمانين ، ويضخ القلب ثمانية آلاف لتر في اليوم الواحد ، أي ما يعادل ثمانية أمتار مكعبة من الدم ، ويضخ القلب من الدم في طول عُمُر الإنسان ما يكفي لملء مستودع بحجم إحدى أكبر ناطحات السحاب في العالم ..

وينفرد القلب في استقلاله عن الجهاز العصبي ، فتأتمر ضرباته وتنتظم بإشارة كهربائية من مركز توليد ذاتي هي أساس تخطيطه ، وتتغذى عضلة القلب بطريقة فريدة !! ومن أعجب ما فيه دسَّاماته المحكمة التي تسمح للدم بالمرور باتجاه واحد ، وهو مبدأ ثابت في المضخات .

حتى إذا سَكَن القلب في قفصه ، واستراح من غُصصه ، خلَّف وراءه جثة هامدة ، كأنها أعجاز نخل خاوية .. فلقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلَّم إذ قال :
" **ألا وإن في الجسد مضغةً إذا صلحت صلح الجسد كلّه ، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه ، ألا وهي القلب** " (1).

ورحم الشاعر إذ يقول(2) :
دقـــاتُ قلبِ الـــمرء قائلةٌ له إن الـــحياةَ دقـــائقٌ وثواني .
فارفعْ لنفسكَ قبل موتَك ذِكرَها فـــالذكرُ للإنسان عمرٌ ثاني

(1) جزء من حديث صحيح رواه البخاري (1/ 52) ومسلم (1599) أوله : " الحلال بيِّن والحرام بيِّن .. " الحديث .
(2) الشاعر أحمد شوقي رحمه الله .



08 - حليب المرأة

سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ

(سورة فصلت : من آية " 53 ")

لبن المرأة الذي يُعدُّ مدهشاً ومُبهراً ، تعجز عن تركيبه بخصائصه قوى البشر ، ولو اجتمعت، وأضخم المعامل ولو تضافرت ، فتركيبه في تبّدل مستمر ، بحسب حاجات الرضيع ، ومتَطلباته، وبحسب احتمال أجهزته وأعضائه ، وهو أكثر ملائمة ، وأكثر احتمالاً ، وهو آمن طرق التغذية ، من حيثُ الطهارة ، والتعقيم ؛ إذ يؤخذ من الحُلْمة مباشرة ، دون التعرُّض للتلوث الجرثومي ، وحرارته ثابتة خلال الرضعة الواحدة، ومتناسبة مع حرارة الرضيع ، ويصعُب توافر هذه الشروط ، في الإرضاع الصناعي ، وفوق ذلك فهو لطيف الحرارة صيفاً ، دافئ في الشتاء ، وهو سهل الهضم فلا تتجاوز فترة هضمه ، الساعة والنصف ، بينما تزيد فترة هضم حليب القوارير ، عن ثلاث ساعات .

والطفل الذي يرضع من ثدي أمه ، يكتسب مناعة ضدّ كل الأمراض ؛ لأن في حليب الأم كلّ مناعتها ، وفيه مواد مضادة للالتهابات المعوية ، والتنفسية ، وموادّ تمنع التصاق الجراثيم بجُدُر الأمعاء ، ومواد حامضية لقتل الجراثيم ، والإرضاع يقي الأم أورام الثدي الخبيثة ، ويقي الرضيع الآفات القلبية والوعائية ، وأمراض التغذية والاستقلاب .

بل إن الفطام السريع يُحدِث عند الطفل ، رضاً نفسياً وانحرافات سلوكية ، وهو ــ أي حليب الأم ــ سهل التحضير ليلاً ونهاراً ، في السفر وفي الحضر ، لأنه جاهز دائماً بالحرارة المطلوبة ، والتعقيم المثالي ، والسهولة في الهضم ، والمناعة الشاملة ..



قال تعالى :

لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾

(سورة البلد)

قال عكرمة وابن المسيب : النجدان هما الثديان .

* * *

تداركتنا باللطف في ظلمة الحشا

وخير كفيل في الحشا قـد كفلتنا

وأســـــكنت قـلب الأمهات تعطـفاً

علينا وفي الثديين أجريت قوتنـــا

وأنشـــــأتنا طفــلاً وأطلقت ألســناً

ونــتــرجــم بــالاقــرار أنــك ربــنا

وعــرفــتنا إياك فــالحــمــد دائمــاً

لــوجهك إذ ألهمتنا منك رشــدك



الباب التاسع : أدعية وابتهالات

أدعية وابتهالات

* روى الإمام أحمد في مسنده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

"ليس شيء أكرم على الله من الدعاء. "

وقال:

"الدعاء مخ العبادة. "

وقال:

"إن الله يحب الملحين بالدعاء. "

وقال:

"إن الله حييٌ كريم يستحي من عبده أن يبسط إليه يده ثم يردهما خائبتين " .

* * *

ولكن ما لنا ندعوه فلا يستجاب لنا ؟.. !

يجيب عن هذا السؤال العارف بالله إبراهيم بن الأدهم ــ رحمه الله ــ فقد مرّ بسوق البصرى ــ فقيل له : يا أبا إسحاق ، إن الله تعالى يقول : " **ادعوني استجب لكم** " . ونحن ندعوه فلا يستجاب لنا ! .. فقال لهم : لأن قلوبكم ماتت بعشرة أشياء :

* عرفتم الله فلم تؤدوا حقه.
* قرأتم القرآن فلم تعملوا به.
* ادعيتم حب رسوله فلم تعملوا بسنته.
* قلتم إن الشيطان لكم عدو فاتخذتموه وليا.
* قلتم إنكم مشتاقون إلى الجنة فلم تعملوا لها.
* قلتم إنكم تخافون من النار فلم تتقوها.
* قلتم إن الموت حق فلم تستعدوا له.
* اشتغلتم بعيوب الناس وتركتم عيوبكم.
* تقلبتم في نعم الله فلم تشكروه عليها.
* دفنتم موتاكم فلم تعتبروا.



فكيف يستجاب لكم ؟!

* * *

أدعية وابتهالات

* الحمد لله رب العالمين .

* الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور.

* الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا.

* الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

* الحمد لله الذي أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم ، ومن وحول الشهوات إلى جنات القربات .

* الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً ، وشرع الإسلام وجعل له منهجاً ، وأعزَّ أركانه على من غالبه ، فجعله أمناً لمن عَقَله ، وسِلماً لمن دخله ، وبرهاناً لمن تكلَّم به ، وشاهداً لمن خاصم عنه ، ونوراً لمن استضاء به ، وفهماً لمن عقله ، ولُبّاً لمن تدبَّره، وآية لمن توسَّم ، وتبصرة لمن عزم ، وعبرة لمن اتعظ ، ونجاة لمن صدق ، وثقة لمن توكَّل ، وراحة لمن فوَّض ، وجنة لمن صبر. [1]

* الحمد لله الذي إليه مصائر الخلق ، وعواقب الأمر ، ونحمده على عظيم امتنانه ، ونَيِّر برهانه ، ونوامي فضله وإحسانه ، حمداً يكون لحقِّه قضاء ، ولشكره أداء ، وإلى ثوابه مُقرِّباً ولحسن مزيده موجباً ، ونستعين به استعانة راجٍ لفضله مؤملٍ لنفعه ، معترف له بالطَوْل ، مذعن له بالعمل والقول .

* الحمد لله الذي مُعزِّ الإسلام بنصره ، و مُذلِّ الشرك بقهره ، ومُصرّف الأمور بأمره ، ومُديم النعم بشكره ، ومستدرج الكافرين بمكره، الذي قدر الأيام دولاً بعدله ، وجعل العاقبة للمتقين بفضله ، والآمر بما يشاء فلا يُراجع ، والحاكم بما يريد فلا يُدافع .

* الحمد لله الذي جعل كلمة التوحيد لعباده حِ رزاً وحِصناً ، وجعل البيت العتيق مثابة للناس



وأمناً ، وأكرمه بالنسبة إلى ذاته تشريفاً له وإكراماً وصوناً ..

* الحمد لله الذي جعل البيت الحرام قياماً للناس ، والشهر الحرام ، والهَدى والقلائد ، ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ، وأن الله بكل شيء عليم .

* الحمد لله .. الذي امتنَّ على عباده بنبيّه المُرسل ، وكتابه المُنزَل، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خَلفه ، تنزيلٌ من حكيم حميد ، فهو الضياء والنور والشفاء لما في الصدور ..

* الحمد لله .. الذي جعل القرآن نوراً لا يُطفأ مصباحه ، وسراجاً لا يخبو توقّده ، ومنهجاً لا يضلُّ سالكه ، وفرقاناً لا يخمد برهانه ، وتبياناً لا تُهدم أركانه ، وشفاء لا تُخشى أسقامه ، وعِزّاً لا يُهزم أنصاره، وحقّاً لا يُخذل أعوانه .

* الحمد لله رب العالمين .. غافر الذنب ، وقابل التوب ، شديد العقاب ذي الطّوْل .. يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، وينادي : هل من تائب فأتوب عليه ؟ وهل من مستغفرٍ فأغفر له ؟ ويقول : عبدي ، لا تعجز ، منك الدعاء وعليَّ الإجابة . منك الاستغفار وعليَّ المغفرة ، منك التوبة وعليَّ القَبول ، من أحبَّنا أحببناه ، ومن عصانا أمهلناه ، ومن رجع إلينا قبلناه ..

* نشهد أن لا إله إلا الله أنت وحدك لا شريك لك ، خلقت فسوّيت، وقدَّرت وقضيت ، وأمتَّ وأحييت ، وأمرضت وشفيت ، وعافيت وابتليت، وأغنيت وأقنيت ، وأضحكت وأبكيت ، والمرجع والمآل إليك ، نحن بك وإليك .

* نشهد أن كل عزيز غيرك ذليل ، وكل قوي غيرك ضعيف ، وكل مالك غيرك مملوك..

* نشهد أن لا إله إلا أنت ، لك العبادة وإليك التوجُّه ، ومنك الخشية وعليك الاعتماد ، لا احتكام إلا إليك ، ولا سلطان إلا لشريعتك ، ولا اهتداء إلا بهداك..

* نشهد أن لا إله إلا الذي كلُّ شيء قائم به ، وخاشع له ، وغنى كل فقير ، وعز كل ذليل ، وقوة كل ضعيف ، ومفزع كل ملهوف .. من تكلم سمع نطقه ، ومن سكت علم سره ، ومن عاش تكفَّل رزقه ، ومن مات فإليه منقلبه..



* يا رب من لم يتعزَّ بطاعتك لم يزل ذليلاً ، ومن لم يستشف بكتابك بات وأصبح عليلاً ، ومن لم يستغن بالافتقار إليك فهو الدهر فقيراً ، ومن لم يتحقَّق بالعبودية لك كان في العبودية لمن دونك أسيراً ، ومن لم يتترَّس بترس التوكُّل عليك أصابه كل رام ، ومن لم يحتمِ بِحماك لم يحمه منك حامٍ .

* يارب .. كفانا فخراً أن تكون لنا ربّاً ، وكفانا عِزّاً أن نكون لك عبيداً ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا ذا الكمال والإنعام ، يا ذا العفو والغفران .. سبحانك.

إذا كان عفوك يستغرق الذنب .. فكيف يكن رضوانك ؟

وإذا كان رضوانك تزكو به النفوس .. فكيف يكون حبُّك ؟

وإذا كان حبُّك يُنير القلوب .. فكيف يكن ودُّك.

وإذا كان ودُّك يُنسي كل ما سواك .. فكيف يكون لطفك ؟

* يا رب يا مجيب دعاء المضطرين ، يا وليَّ عبادك المؤمنين ، يا غاية آمال العارفين ، يا منتهي أمل الراجين ، يا حبيب قلوب الصادقين ، يا خ ير من سُئل ، يا أرحم من استُرحِم ، يا من لا يخفى عليه إغماض الجفون ، ولا لحظ العيون ولا ما استقر في المكنون ، كيف نستدلُّ عليك؟ ونحن في وجودنا مفتقرون إليك .

* يا رب .. كيف نفتقرُ في غِناك ، كيف نضلُّ في هداك ، وكيف نذلُّ في عِزّكَ ، وكيف نُضام في سلطانك ، وكيف نخشى غيرك والأمر كله لك ..

* يا رب .. لقد خاب من رضي من دونك بديلاً ، ولقد خسر من ابتغى عنك متحولاً..

* يا رب .. لا يطيب الليل إلاَّ بمناجاتك ، ولا يطيب النهار إلا بخدمة عبادك ، ولا تطيب الدنيا إلا بذكرك ، ولا تطيب الآخرة إلا بِبرِّكَ..

* يا رب .. يا ذا العزّة والجبروت ، يا مالك المُلك والمَلكوت .. يا مَن أمَّنت يونس في بطن الحوت ، ونجَّيتَ موسى في التابوت ، وحفظت الحبيب محمداً بنسج العنكبوت ، سبحانك أنت الحيُّ الذي لا يموت..



* يا رب .. إنَّا نعوذ بك أن نقول قولاً فيه رضاك نلتمس به أحداً سواك ، ونعوذ بك أن يكون أحداً أسعد بما علَّمتنا منَّا ، ونعوذ بك أن نتزيَّن للناس بشيء يُشيننا عندك ، ونعوذ بك أن نكون عبرة لأحدٍ من خلقك .

* يا رب .. عجباً ممَّن يستحي من الخلق كيف لا يستحي من الحق، عجباً لمن يسعى لإرضاء المخلوقين كيف لا يسعى لإرضاء رب العالمين ، عجباً لمن يعرف جلال الله كيف يُعرِض عنه ، عجباً لمن يأكل رزق ربه كيف يشكر غيره ؟!! ..

* يا رب .. هذا ذُلُّنا ظاهر بين يديك ، وهذا ضعفنا لا يخفى عليك، فعاملنا يا لإحسان إذ الفضل منك وإليك ، نطلب منك الوصول إليك، ونس تدلُّ بك عليك ، اهدنا بنور وجهك ، وأقمنا بصدق العبودية بين يديك ..

* يا رب .. إن لم نكن أهلاً لبلوغ رحمتك ، فإن رحمتك أهل لأن تسعنا ، فإنك قلت وقولك الحق) : **رحمتي وسعت كل شيء)** .. ونحن شيء يا رب ..

* يا رب .. علمنا من علمك المخزون ، واحفظنا بـسرِّ اسمك المَصون ، حقّقنا بحقائق أهل القربُ ، واسلك بنا مسالك أهل الحب ، أغننا بتدبيرك عن تدبيرنا ، وباختيارك عن اختيارنا ، وأخرجنا من ذُلِّ معصيتك ، إلى عِزِّ طاعتك ، طهِّرنا من الشكِّ والشِركْ ، بك نستنصر فانصرنا ، عليك نتوكَّل فلا تكلنا ، إيّاك نسأل فلا تخيِّبْنا ، من فضلك نرغب فلا تحرمنا ، لجنابك ننتسب فلا تبعدنا ، ببابك نقف فلا تطردنا .

* يا رب .. قد عجز الطبيب فداونا ، يا رب قد عمَّ الفساد فنجِّنا ، يا رب قَلَّت حيلة فتولَّنا ، ارفع مقتك وغضبك عنَّا ، ولا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ولا تعامل نا بما فعل السفهاء منَّ ، وتوفَّنا غير فاتنين ولا مفتونين .

* يا رب اغفر لنا ذنوبنا ، واستر عيوبنا ، واقبل توبتنا ، وأصلح قلوبنا ، وارحم ضعفنا ، وتولَّ أمرنا ، وفكّ أسرنا ، وأحسن خلاصنا ، واستر عوراتنا ، وآمن روعاتنا ، وآمِنَّا في أوطاننا ، وبلّغنا مما يرضيك آمالنا ، واختم بالصالحات أعمالنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وأكرمنا ولا تهنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، أرضنا وارضَ عنا ، كن لنا ولا تكن علينا .



* يا رب هب لنا إيماناً صادقاً ، وعلماً نافعاً ، وقلباً خاشعاً ، وعملاً متقبّلاً.

* اللهم أنت أحقُّ مَن ذُكِر ، وأحقُّ مَن عُبِد ، وأنصر مَن نَصر ، وأرأف مَن مَلك ، وأجود مَن سُئل ، وأوسع مَن أعطى ، أنت المَلِك لا شريك لك ، والفَرد لا نِدَّ لك ، كل شيء هالك إلا وجهكّ ، القلوب لك مفيضة ، والسرُّ عندك علانية ، الحلال ما أحللت والحرام ما حرَّمت ، والد ين ما شرَّعت والأمر ما قضيت ، الخَلق خَلقك والعبيد عبيدك ، وأنت الله الرؤوف الرحيم

* اللهم .. يا كاشف الأسرار ، يا مُسبِل الأستار ، يا واهب الأعمار ، يا منشئ الأخبار ، يا مولج الليل في النهار ، يا معافي الأخيار ، يا مُداري الأشرار ، يا مُنقذ الأبرا ر من النار ، والعار ؟ جدْ علينا بصفحك عن زلاَّتنا ، كن لنا وإن لم نكن لأنفسنا لأنك أولى بنا .. متّعنا بالنظر إلى نور وجهك ، لا تهجرنا بعد وصلك ، ولا تُبعدنا بعد قُربك ، ولا تكربنا بعد روحك، قد عادينا أعدائك فيك ، فلا تشمتهم بنا لتقصيرنا في حقِّك ، ووالينا أصفياءك لك فلا توحشنا منهم لسهونا عن واجبك ، إنه لا عز إلا في الذلِّ إليك ، ولا غِنى إلا في الفقر إليك ، ولا أمن إلا في الخوف منك .

* اللهم .. اجعل حبَّك أحبَّ الأشياء إلينا ، واجعل خشيتك أخوف الأشياء عندنا ، واقطع عنَّا حاجات الدنيا والشوق إلى لقائ ك ، وإذا أقررت أعين أهل الدنيا مِن دنياهم فأقرر أعيننا مِن رضوانك .

* اللهم .. اجعلنا نخشاك حتى كأنَّا نراك ، وأسعدنا بتقواك ، ولا تُشقنا بمعصيتك ، وخِرْ لنا بقضائك ، وبارك لنا في قدرك حتى لا نحب تعجيل ما أخَّرت ولا تأخير ما عجَّلت..

* اللهمَّ .. علِّمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علَّمتنا ، وزدنا علماً ، أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ، واجعلنا ممَّن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين..

* اللهم .. ارزقنا حبَّك وحبَّ من ينفعنا حبُّه عندك ، وحبَّ عمل صالح يُبلِّغنا حبَّك .

* اللهم .. ما رزقتنا ممَّا نحبُّ ، فاجعله قوة لنا فيما تحب ، وما زويت عنا ما نحب ، فاجعله فراغاً لنا فيما تحب ، واجعل حبك أحب إلينا من أنفسنا ، وأهلنا ، وأموالنا ، ومن الناس أجمعين.



* اللهم .. ارزقنا فعل الخيرات ، وترك المُنكرات ، وحبَّ المساكين، وإذا أردت بعبادك فتنة فتوفَّنا إليك غير فاتنين ولا مفتونين .

* اللهم ألزمنا سبيل الاستقامة ، لا نحيد عنها أبداً ، واهدنا لأحسن الأخلاق ، لا يهدي لأحسنها إلا أنت.

* اللهم كما حسَّنت خَلْقنا فحسِّن خُلُقنا ، اللهم إنَّا نعوذ بك من مُنكرات الاخلاق ، ومنكرات الأعمال والأهواء .

* اللهم أنزل علينا مِن خيرات السماء ، وأنبت لنا مِن بركات الأرض ، واسقِ عبادك العطشى .. يا رب العالمين..

* اللهم .. استقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين ، ولا تُهلكنا بالسنين، ولا تؤاخذنا بفعل المسيئين ، يا رحمن يا رحيم .

* اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها مردُنا ، واجعل الحياة زاداً لنا من كل خير ، واجعل الموت راحةً لنا من كل شر .

* اللهم أغننا بالعلم وزيِّنا بالحلم ، و أكرمنا بالتقوى وجمّلنا بالعافية ، وطهِّر قلوبنا من النفاق وأعمالنا من الرياء ، وألسنتنا من الكذب ، وأعيننا من الخيانة.

* اللهم أغننا بالافتقار إليك ، ولا تفقرنا بالاستغناء عنك.

* اللهم إنَّا نعوذ بك من الفقر إلا إليك ، ومن الذل إلا لك ، ومن الخوف إلا منك ، نعوذ بك من عُضال الداء ، ومن شماتة الأعداء ، ومن السلب بعد العطاء .

* اللهم .. صُن وجوهنا باليسار ، ولا تبذلها بالإقتار ، فنسترزق من دونك ، ونسأل شر خلقك ، ونُبتلى بحمد مَن أعطى وذمِّ مَن مَنع ، وأنت من فوقهم وليُّ الإعطاء . وبيدك وحدك خزائن الأرض والسماء..



* اللهم .. إنَّا نبرأ من الثقة إلا بك ، ومن الأمل إلا فيك ، ومن التسليم إلا لك ، ومن التفويض إلا إليك ، ومن التوكّل إلا عليك ، ومن الطلب إلا منك ، ومن الرضا إلا عنك ، ومن الصبر إلا على بلائك .

* اللهم إنَّا نسألك خفايا لطفك ، وفواتح توفيقك ، ومألوف برِّك ، وعوائق إحسانك ، وجميل سترك ، وروح قربك ، وجفوة عدوك.

* اللهم .. احرسنا عند الغنى من البطر ، وعند الفقر من الضجر ، وعند الكفاية من الغَفلة ، وعند الحاجة من الحَسرة ، وعند الطلب من الخَيبة ، وعند المنازلة من الطغيان .

* اللهم .. إنَّا نسألك صحة في إيمان ، وإيماناً في حُسن الخلق ، ونجاحاً يتبعه فلاح ، ورحمة منك وعافية ، ومغفرة منك ورضواناً.

* اللهم .. عافنا في قدرتك ، و أدخلنا في رحمتك ، واقض أجلنا في طاعتك..

* اللهم .. انصرنا نصراً عزيزاً مؤزَّراً ، وارزقنا فتحاً مُبيناً قريباً، وارزقنا يقيناً بأنه لا فعَّال ولا ناصر في الأرض إلا أنت .

* اللهم .. انصرنا على أنفسنا ، حتى ننتصر لك فنستحق ، أن تنصرنا على أعدائنا ، لأنك قلت وقولك الحق:

وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾

(سورة الحج)

* اللهم .. اغفر لنا ذنوبنا ، وإسرافنا في أمرنا ، وأفرغ علينا صبراً، وثبّت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين .

* اللهم أعِنَّا على هول الدنيا ، وبوائق الداهر ، ومصائب الليالي والأيام ، اللهم اصحبنا في سفرنا ، واخلفنا في أهلنا ، وبارك لنا فيما رزقتنا ، ولك فذلِّلنا ، وعلى صالح الخلق فقوِّنا ، وإليك ربنا فحبِّبنا ، وإلى الناس فلا تكلنا ، رب المستضعفين وأنت ربنا ، نعوذ بوجهك الكريم الذي



أشرقت له السماوات والأرض ، وكُشِفت به الظلمات ، وصلح عليه أمر الأولين والآخرين ، أن تُحِلَّ علينا غضبك ، وتنزل بنا سَخَطك ، ونعوذ بك من زوال نعمتك ، وفجأة نقمتك ، وتحوٌّل عافيتك ، وجميع سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك

* اللهم .. اهدنا فيمن هديت ، وعافنا فيما عافيت ، وتولنا فيمن تولّيت ، وبارك لنا فيما أعطيت ، وقنا واصرف عنَّا شر ما قضيت ، فإنك تقضي ولا يُقضي عليك ، سبحانك إنه لا يذلٌّ من واليت ولا يعزٌّ من عاديت .. تباركت ربنا وتعاليت ، ولك الحمد على ما قضيت .

* اللهم .. نسألك العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة.

* اللهم إنك عفوٌ كريم تحب العفو فاعفُ عنَّا يا كريم ، اللهم إنا نسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والعزيمة على الرشد ، والغنيمة من كل برٍّ ، والسلامة من كل إثم ، وا لفوز بالجنة ، والنجاة من النار ..

* اللهم اغفر للمسلمين والمسلمات ، وألّف بين قلوبهم ، وأصلح ذات بينهم ، واهدهم سبُل السلام ، وجنِّبهم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ..

* اللهم .. أصلح شباب المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين ، وأصلح نساء المسلمات ، واجعلهن تقيَّات عفيفات طاهرات مُطيعات.

* اللهم .. إنك تنزل آخر كل ليلة فتقول:
"هل من سائل فأعطيه سؤله ، هل من مستغفر فأغفر له ، هل من تائب فأتوب عليه " .

* اللهم .. يا حيٌّ يا قيُّوم اجعل القرآن ربيع قلوبنا ، ونور أبصارنا، وجلاء حزننا ، وذهاب همَّنا وغمَّنا .. اللهم ارحمنا بالقرآن ، واجعله لنا إماماً ونوراً وهدى ورحمة .. اللهم ذكِّرنا منه ما نُسِّينا ، وعلّمنا منه ما جهلنا ، وارزقنا تلاوته آناء الليل وأطراف النهار ، واجعله حُجَّة لنا لا علينا ، اللهم زيِّنا بزينة القرآن ، وأكرمنا بكرامة القرآن ، وشرِّفنا بشرف القرآن .

* اللهم .. اجعل القرآن لنا في الدنيا قريناً ، وفي القبر مؤنساً ، وفي القيامة شفيعاً ، وعلى الصراط نوراً ، وفي الجنة رفيقاً ، ومن النار ستراً، اللهم ارزقنا أن نتلوه حق تلاوته ، كما تحب



وترضى ، وأن نعمل به كما ينبغي وتريد ، وأن نتعلَّمه ونعلّمه كما أمرنا نبيك الحبيب .. اللهم اغفر وارحم لكل من يُعلِّم تلاوته ، وتفسيره ، وحكمه ، وأحكامه ، ونَظْمه ، وبيانه ، وإعجازه ، وإحكامه ، وزدنا من فضلك العظيم فإنك ذو الفضل والإكرام ..

